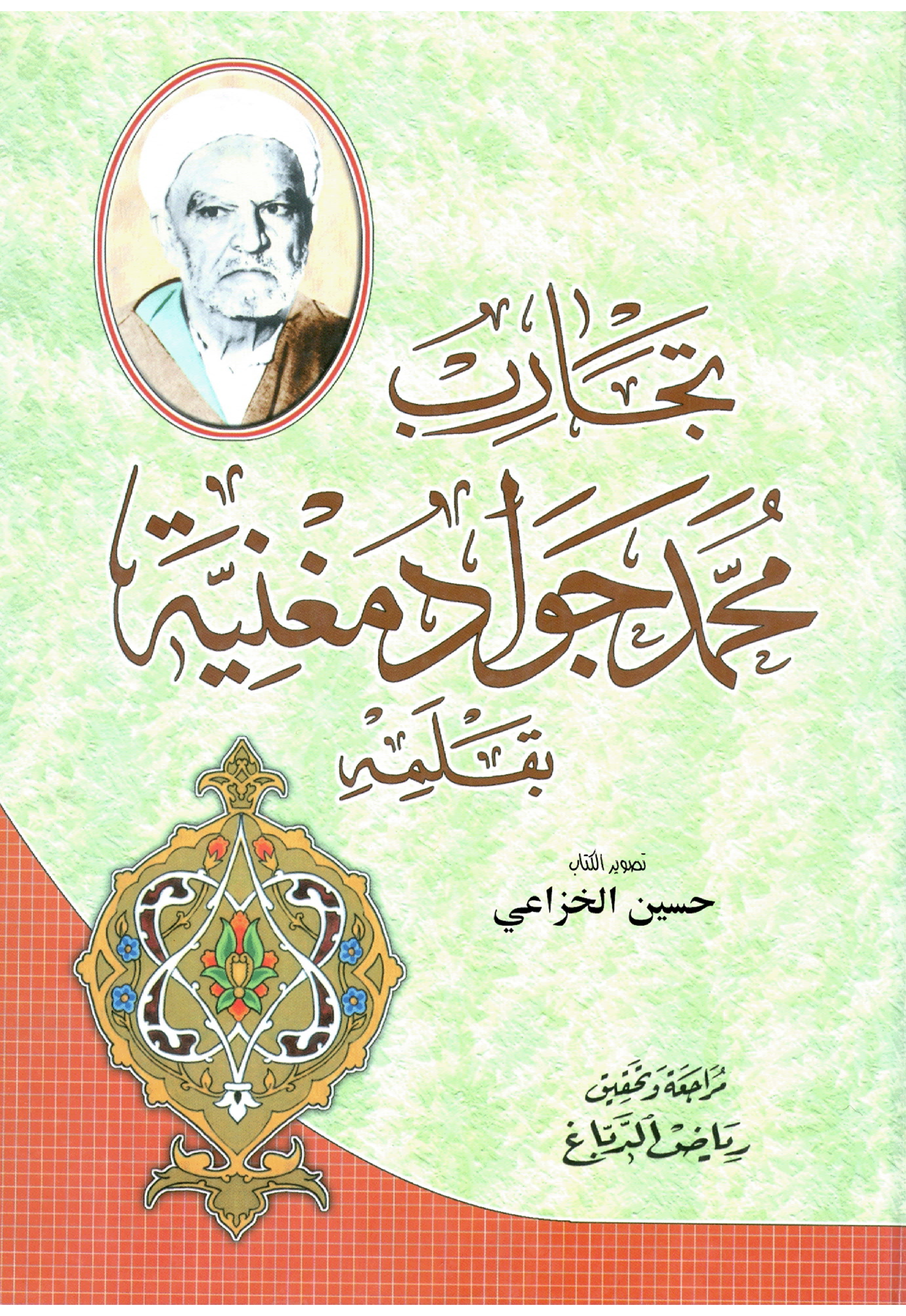


تجارب
محمد جواد مغنية
بقلمه
تصوير الكتاب
حسين الخزاعي
مراجعة وتحقيق
رياض الدباغ



تلفون : ٧٧٤٢٣٤٦

فاكس : ٧٧٣٧٨٧٠

قم ـ باساژ قدس ـ رقم ٥٧

اسم الكتاب	تجارب محمد جواد مغنيّة
المؤلف	الشيخ محمد جواد مغنيّة
الناشر	أنوار الهدىٰ
العدد	٢٠٠٠
الطبعة	الأولىٰ ـ ١٤٢٥ هـ
المطبعة	مهر
القطع وعدد الصفحات	وزيري / ٦٠٨
شابك	٢ ـ ٩٨ ـ ٦٢٢٣ ـ ٩٦٤

تجارب
محمد جواد مغنيّة

بقلمه ... وأقلام الآخرين

إعداد عبد الحسين مغنية

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد ..

لقد برز على مستوى الساحة الإسلامية وبالخصوص المذهب الشيعي علماء ومفكرون كبار أفاضوا على المذهب من علومهم وأفكارهم ما ينير الدرب للمتتبعين والباحثين عن الحقيقة الواقعية، سواء على المستوى العقيدي أم الأصولي أم الفقهي، وقد جسّدوها فكراً وعملاً، وبيّنوها لنا من خلال أقلامهم السيالة، التي تفيض بالخير والعطاء، النابعة من المنهل العذب لبحر علوم آل البيت عليهم السلام، فذاع صيتهم في الأوطان، وبقي ذكرهم في الأذهان، وارتسمت علومهم في البصائر، فمنهم من ارتحل من هذه الدنيا إلى رب كريم، ومنهم من بقي سائراً على هذا الخط المبارك ألا وهو خط آل البيت عليهم السلام.

ومن أولئك الذين بقيت ذكرياتهم مرتسمة في الأذهان ـ نتيجة لما قدموه للمذهب من خدمات جليلة ـ المرحوم الشيخ محمد جواد مغنيّة رحمه الله، حيث عبّر بما في مكنون قلبه وما علق في ذهنه من الماضي النيّر الذي عاشه خلال سيرته العلمية والعملية، ابتداء من النسب الكريم وحتى ملاقاة الرب الكريم، بلسان

صدق لا تشوبه نزغات الشيطان الرجيم، وهذا ما يعيشه القارىء الكريم من خلال قراءة هذه السيرة المترجمة لحياته الشريفة.

ولأجل المساهمة في تعظيم وتبجيل مثل هذه الشخصيات التي أنارت لنا الدرب من خلال الجهود التي بذلوها وأفنوا أعمارهم وبذلوها خدمة للدين الإسلامي الحنيف وبالخصوص المذهب الجعفري، ارتأينا إعادة طبع كتاب «تجارب الشيخ محمد جواد مغنية» لما فيه من الفوائد القيمة من خلال الاطلاع علىٰ سيرة هذا المفكّر الرسالي، والاستفادة من تجاربه الحياتية.

منهج التحقيق:

كان عملنا خلال التحقيق يجري وفق النقاط التالية:

١ ـ الاعتماد علىٰ الطبعة الأولىٰ للكتاب، وهي طبعة دار الجواد، في سنة (١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م)، علماً أن هذه الطبعة احتوت علىٰ النقص والتوقفات التي يلاحظها القارىء من خلال قراءته للكتاب، إضافة إلىٰ الأخطاء المطبعية، فكان العمل مضنياً من أجل الوقوف علىٰ الربط الصحيح للعبارة من خلال الرجوع إلىٰ باقي العبارات السابقة واللاحقة مع بعض التقديم والتأخير، وهذا ما حصل بالنسبة للصفحات من ٣١١ ـ ٣٢٤ من الطبعة القديمة، حيث تمكنا من ترتيبها وفق المواضيع المرتبطة بها.

٢ ـ ذكر المصادر للروايات الواردة فيه ليسموا الكتاب إلىٰ المرتبة الكمالية، ليتسنىٰ للقارىء الكريم الإطلاع علىٰ المصدر الذي ترجع إليه مثل هذه الروايات، إضافة إلىٰ ذكر تخريجات الآيات وكذلك تصحيح التخريجات السابقة للآيات القرآنية من خلال الرجوع إلىٰ القرآن الكريم.

٣ـ تم وضع الهوامش بين معقوفتين ليتميز عملنا عما هو موجود في الطبعة الأولىٰ.

مصادر التحقيق:

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الأحاديث الطوال، للطبراني، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م.
٣ ـ الاحتجاج، للطبرسي، دار الأسوة ـ قم ـ إيران ـ ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤ م.
٤ ـ الأخبار الطوال، لابن قتيبة الدينوري.
٥ ـ الاختصاص، للشيخ المفيد، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم ـ إيران.
٦ ـ الإرشاد، للشيخ المفيد، تحقيق مؤسسة آل البيت ـ قم ـ إيران ـ ١٤١٣ هـ.
٧ ـ أصول الكافي، للشيخ الكليني، دار التعارف ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م.
٨ ـ الأمالي، للشيخ الصدوق، مؤسسة البعثة ـ قم ـ إيران ـ ١٤١٧ هـ.
٩ ـ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.
١٠ ـ تحف العقول، لابن شعبة الحراني، انتشارات ذوي القربىٰ ـ قم ـ إيران ـ ١٤٢٤ هـ.
١١ ـ تفسير القرطبي، للقرطبي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.
١٢ ـ تفسير ابن كثير، لابن كثير، دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

١٣ ـ تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي، دار التعارف ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م.

١٤ ـ جواهر الكلام، للشيخ محمد حسن النجفي.

١٥ ـ الخلاف، للشيخ الطوسي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم ـ إيران ـ ١٤٠٧ هـ.

١٦ ـ رسائل الشهيد الثاني، للشهيد الثاني، مكتبة بصيرتي ـ قم ـ إيران.

١٧ ـ سبل الهدىٰ والرشاد، للصالحي الشامي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م.

١٨ ـ سيرة النبي صلى الله عليه وآله، لابن هشام الحميري، نشر مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصر ـ ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م.

١٩ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م.

٢٠ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ، للقاضي عياض، دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م.

٢١ ـ صحيح البخاري، للبخاري، دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

٢٢ ـ صحيح مسلم، لمسلم النيسابوري، دار الفكر ـ بيروت، لبنان .

٢٣ ـ عوالي اللئالي العزيزية، لابن أبي جمهور الإحسائي، مطبعة سيد الشهداء ـ قم ـ إيران.

٢٤ ـ عون المعبود، للعظيم آبادي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

٢٥ ـ الغدير، للعلامة الأميني، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٢٦ ـ فروع الكافي، للشيخ الكليني، دار التعارف ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٧ ـ فضائل الأشهر الثلاثة، للشيخ الصدوق، دار المحجة البيضاء ودار الرسول الأكرم ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م.
٢٨ ـ فقه السنة، لسيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.
٢٩ ـ كشف الخفاء، للعجلوني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.
٣٠ ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.
٣١ ـ المبسوط، للسرخسي.
٣٢ ـ مسالك الأفهام، للشهيد الثاني، مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم ـ إيران.
٣٣ ـ مسند زيد بن علي، لزيد بن علي، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان.
٣٤ ـ المعجم الكبير، للطبراني.
٣٥ ـ المغني لابن قدامة، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.
٣٦ ـ مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الاصفهاني، المكتبة الحيدرية في النجف الأشرف ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.
٣٧ ـ مناقب آل أبي طالب، لابن شهرآشوب، نشر المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف ـ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م.
٣٨ ـ من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق، دار التعارف ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م.
٣٩ ـ مواهب الجليل، للحطاب الرعيني، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .
٤٠ ـ وسائل الشيعة، للحر العاملي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.
٤١ ـ ينابيع المودة لذوي القربى، للقندوزي الحنفي، دار الأسوة ـ قم ـ إيران ـ ١٤١٦ هـ.

نسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يوفقنا لإحياء تراث علمائنا الأعلام الذين بذلوا جهوداً مضنية في سبيل رفع راية الإسلام عالياً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ورب قائل: إن هذه الصفات لا يتحلى بها إلا نبي. والجواب:
أجل، أو وصي نبي، وقد جاء بالنص الصحيح أن عليا هو
الوصي لمحمد (ص)، دون سواه. ولا يتحدث النبي (ص) بنور
الفطرة والاجتهادات العقلية، بل يتحدث بلسان الله عن جبريل،
والوصي ايضا يتحدث بلسان الله سبحانه، ولكن عن النبي عن
جبريل، والله يعلم حيث يجعل رسالته، وأيضا النبي يعلم أين
يضع وصيته بامر من الله تعالى وارشاده.

واستمر اعجاب الناس بعلي منذ وجوده الى اليوم
والى آخر يوم أيضا. وكلما تقدم العلم وزال الجهل والتعصب وضح
علي بن ابي طالب في مكانه الذي اهتدى اليه جبران خليل
جبران آنيا وهو يبحث وينقب عن عظماء الرجال، وذلك
حيث قال: عظماء الدنيا ثلاثة: المسيح ومحمد وعلي.

هذه صورة آخر صفحة كتبها المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية بخط يده في عصر يوم ٨ / ١٢ / ١٩٧٩ م محرم ١٤٠٠ هـ، قبل ساعات معدودات من وفاته، ويلاحظ القارىء أن آخر كلمة كتبها كانت علي عليه السلام، وفي مقام الإمام علي دفن جثمانه الطاهر، وبانطواء هذه الصفحة انطوىٰ جسده من هذه الدنيا الفانية أما فكره فخالد لن يموت، أما روحه فعبرت من هذه الدار البشرية إلىٰ الدار الإلهية السرمدية، فهنيئاً له طيب المثوىٰ ونعيم الرضوان.

المقدمة

التجربة :

التجربة: من جرّب الشيء أي اختبره وامتحنه وعلم بأمره، ومعنىٰ هذا أنّ التجربة تعلِّم الإنسان ما لم يعلم، ولكنّ مصدر العلم والمعرفة لا ينحصر بالتجربة، ولا مصدر التجربة ينحصر بالتحليل في المعمل والمختبر، ولا هو أقوىٰ من غيره وأفضل، فربّ حادثة بسيطة أو لمحة عابرة تمر بحياتنا اليومية، نبصر الحقيقة من خلالها برؤية أدق وأوضح من كل رؤية حتىٰ ولو كان مصدرها الالكترونات والمكبرات.

وصاحب التجربة يوفّر علىٰ غيره جهد البحث والدرس إذا هو نص عليها بوضوح وخرجت من قلمه بصدق وأمانة، حتىٰ إذا التقاها القارىء كان تماماً كالذي جرّب واختبر ... أبداً لا فرق بين المعرفة التي تأتي عن طريق التجربة مباشرة وبين المعرفة تأتي نقلاً أميناً عن الخبير المجرب ... فعلماء الطبيعة كلهم يؤمنون بنظرية الجاذبية ـ مثلاً ـ والذي جرّب واكتشف واحد، وكذلك نظرية النسبية وغيرها ... وكل فلكي يؤمن بما رصده واحد منهم، وهكذا علماء الجغرافية وغيرهم، فهل يصح القول إنَّهم أجمعين مقلدون، ولا عالم إلّا من اخترع وأبدع؟ إنَّ العبرة والأساس أن يكون لكلام العالم معنىً في عالم الحقيقة والواقع.

لكل شيء قصة:

وقصة هذه التجارب من أولها أنّي كنت قد كتبت خلاصة سريعة لترجمة حياتي في حوالي ٣٠ صفحة وختمت بها كتاب «الإسلام مع الحياة» وظننت أنها ستذهب بدداً ... وما مر بخاطري أن يكون لها أدنىٰ وقع وأثر ... ثم تبينت من القراء أنها نفذت إلىٰ القلوب، وأن حياة البائسين ونضالهم خير عبرة وعظة، تُعلّم الشريد كيف يثق ويأمل، والمستضعف كيف ينهض ويتحرر، والمكلوم كيف يصبر ويعمل لخلاصه وشفائه.

لذلك عدت إلىٰ قصتي مع الحياة، وسجلت قناعاتي ومواقفي من أحداث ووقائع مختلفة، منها ما شاهدتها في الحرب العامة الأولىٰ والثانية[١]، وذكرت مأساة فلسطين وفاجعة الفلسطينيين وسياسة أمريكا الآثمة العاتية، وكتبت عن مأساة لبنان وجنوبه المنكوب، ورسمت صوراً لبعض الشيوخ المتبحرين في السخف والجهل، غرتهم الحياة الدنيا فسلكوا إليها كل سبيل.

الصبر والعمل:

في كتاب «من هنا وهناك» كلمات عن بعض رحلاتي، وعن شخصيات عرفتها ومحاورات بيني وبين بعض الأجانب ... وأيضاً ذكرت الكثير من مشاعري وتجاربي في مقدمات ما ألفت «كالتفسير الكاشف»، وفي «ظلال نهج البلاغة»، و «فقه الإمام جعفر الصادق عليه السلام»، و «هذه هي الوهابية»، و «فلسفة التوحيد

---

١ - [يقصد الشيخ المؤلف الحرب العالمية الأولىٰ والثانية].

والولاية»، و «معالم الفلسفة الإسلامية» وغير ذلك، ولقد اقتطفت مقاطع من هذه الكتب، وأدرجتها في هذه الصفحات، لأنها تمتُّ بصلة قوية إلىٰ التجارب التي خضتها والمواقف التي اتخذتها، والحقيقة أنني لم أستطع حصر وتحديد كل ما فعلت وقلت وكان له علاقة بموضوع هذا الكتاب.

علىٰ أن القارىء لا يجد شيئاً في حياتي فوق المعتاد والمألوف فما أكثر الذين ساروا وحدهم علىٰ الطريق ولم يتوكؤا علىٰ أحد، والجامع المشترك بين هؤلاء جميعاً هو الصبر والعمل المتواصل بلا كلل وملل «وكل من سار علىٰ الدرب وصل».

محمد جواد مغنية

تمهيد

أقول الحق وأفعله :

تصلني بالبريد بين حين وآخر، منذ عشرات السنين رسائل تهديد ووعيد، يتنكر كاتبوها أو مرسلوها بتوقيع مجهول جبناً وخوراً .. وقد بدأ تاريخ هذا التهديد الرعديد بدفاعي ونشري عن مذهب أهل البيت وأئمته وشيعته، وكشفي عن أسواء المناوىء ودخيلته .. وكنت أقرأ التهديد مغتبطاً بقلمي، وأحمد الله الذي نصر به الحق وأهله، وأغاظ به الباطل وأنصاره، وكتب واحد من هؤلاء بعد ردي على صاحب الخطوط العريضة[١]، كتب إليَّ يقول فيما يقول: «سنريح منك الأمة الإسلامية». وكتب آخر باسم مستعار أهلكه الجزع والهلع من عواقب غدره وخيانته «سوف نأكل من لحمك إن نشرت وأعلنت» أي أعلن عن غدره وخيانته! فبت ليلي في منتهى الراحة والطمأنينة، لأن الشجاع يقدم دون أن يعلن، ويمطر دون أن يرعد .. والمذعور هو الذي يملأ الدنيا صراخاً وتوجعاً يشهد على ضعفه وحيرته، ولقد صدق ظني في هذا الخائن إذ كتبت عنه ولم يحرك ساكناً.

وأضيف أن التهديد من مخلوق مثلي لا يثني شيئاً من عزمي بل يشده ويزيده قوة ورسوخاً أولاً لأن جبن الخصم بطبعه يزيد من شجاعة الطرف الآخر، وثانياً لأني أفعل وأترك بوحي من ديني وضميري، وليقل الناس ما طاب لهم من

---

١ ـ هو محب الدين الخطيب، ملأ كتابه بتكفير الشيعة والافتراء عليهم وكنت أول من ألقمه حجراً يستحقه.

مدح أو قدح .. أبداً لا ألهث وراء هذا، ولا أكترث بذاك .. أما النقد فلا أخشاه ما دمت قادراً على الإعتراف بالحق والواقع، ودحض الإفتراء والباطل.

إن نزاهتي كقاضي تشهد عليها سجلات المحاكم الشرعية، ومواقفي تدل على شدة نقمتي على المظالم بشتى أنواعها، وعن صراحتي وجرأتي في قول الحق وعدم خشيتي لائماً ولا حاكماً مهما تكن العواقب. وربما كان ينبغي أن أكون أكثر مرونة في معاملة الناس ومداراتهم، وأن لا أخاطب كل واحد على المكشوف إلى حدٍ يشبه البله خاصة بعدما عانيت في حياتي ما عانيت بسبب هذه الجرأة والصراحة، ولكني أشهد بالله أنه يحدث هذا مني عفو الطبيعة ودون اختيار، ويصعب عليّ أو يتعذر أن أتكلف ما لا أعتقد إلاّ بعد تخطيط وتصميم سابق.

وكنت طالباً في النجف الأشرف، أسجل لنفسي في دفتر صغير بعض ما أسمع أو أقرأ، وما زلت أحتفظ به .. وجريت على عادتي هذه حتى اليوم، وقد مضى على الدفتر النجفي أكثر من ٥٠ عاماً. وابتدأته بكلمة من الله سبحانه تنذر وتحذر من يقول فيكذب، ويعاهد فينكث، وهي هذه الآية الكريمة: **﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾**[١].

هذا هو شعاري منذ معرفتي بالله وجلاله، وإلى يومي الأخير، وهو سبحانه أعلم بما تخفي الصدور ... وإذا استحال على مثلي أن يتخلّق بصفات أهل العصمة فلا أقل أن يلتزم بواحدة منها، وأدناها أن يتجنب الفرية وقول الزور، وهل من شيء أهون من الصمت والامساك عن الباطل؟ وأية قيمة لمن يقول أو يفعل خلاف ما يؤمن ويعتقد؟

وبعد ... إني أقدم نفسي للقارىء الكريم ولكل من يريد أن يتعرّف عليَّ ..

---

١ ـ سورة ق الآية ١٨.

أنا أؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ولكني أفسِّر ما يتفرّع على هذه الأصول الثلاثة بما ينفع الناس ويسير بالحياة إلى الأفضل. وأيضاً أؤمن بأن أسباب المعرفة ثلاثة هي: التجربة، العقل، الوحي كما في الآية ٨ من الحج: **﴿ومن الناس من يُجادلُ في الله بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب مُنير﴾**.

الأول التجربة الحسية، وهي المعنية بكلمة علم، الثاني العقل، وهو المراد بكلمة هدى، الثالث الوحي، وهو المقصود بكتاب منير[1].

أنا أدين بأن الإنسان مخيّر لا مسير، وأن الأئمة الاثني عشر معصومون.

أنا أحب الخير لكل الناس، خاصة المخلصين والأوفياء لوطنهم وأصدقائهم، وإن كان على غير ديني ومذهبي، وأكره كل خائن ومارىء، وحقود وحسود، ولو كان على ديني ومذهبي، ولا مكان عندي إلاّ للإنسان الإنسان.

وفوق هذا إني أزهد خلق الله بالهتاف والتظاهر والمظاهر، ولثم اليد والمفاخر، والسر علمي ويقيني بأن الرفعة والضعة بعد العرض على الله لا على الناس.

وأخيراً أنا من أفنى في المطالعة والكتابة عمره، لقد قرأت آلاف الكتب والمجلات والصحف وكتبت ستين مؤلفاً ـ بعضٌ منها عدة مجلدات ـ ونشر منها اثنين وخمسون كتاباً حتى الآن، والله سبحانه المسؤول أن يوفقنا لمرضاته وعلى الهادي البشير وآله أفضل الصلوات.

محمد جواد مغنية

---

١ ـ من التفسير الكاشف (إحدى مؤلفاتي).

الفصل الأول :

تحقق الذات

بداية القصة

مُغْنَيَّة :

بضم الميم وتجوز أيضاً بفتحها، وسكون الغين، وفتح الياء المشدودة، ولا أدري أصل الكلمة سوىٰ أنها مدينة في الجزائر .. فهل ـ يا ترىٰ ـ هاجر منها جدنا الأسبق إلىٰ جبل عامل في لبنان في القرن السادس هجري[1]، الثاني عشر ميلادي؟ أو أن جدتنا السابقة كانت ذات أملاك وأموال طائلة، فاشتهرت بالمُغنية، أي أغنت ورثتها بما تركت لهم من مال وثراء، كما هو معروف بين أبناء الأسرة أباً عن جد؟ الله أعلم!

ومغنية أيضاً اسم لنهر ينبع من السفح الشرقي لجبل الشيخ ويجري باتجاه دمشق.

ومهما يكن فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ... **﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[2]. وفي ذات يوم التقيت برئيس القضاة في لبنان، فقال: مرحباً بالاستاذ مُغنِّية، قلت له: لو كنت مُغَنِّية لتعذر عليك لقائي إلاّ ببطاقة تدفع ثمنها سلفاً ... وقيل لإفلاطون إلىٰ من تنتسب قال: إليّ يُنسَب الرجال ... وقيل للبغل: من أبوك قال: خالي الحصان.

---

١ ـ معجم قرىٰ جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر، وأعيان الشيعة للسيد محسن الأمين.

٢ ـ [سورة الحجرات، الآية ١٣].

جدّي:

كان لوالد أبي الشيخ محمد مغنيّة[1] زعامة ووجاهة تجمع بين النفوذ في الأوساط الدينية والسياسية، فهو سياسي ونافذ كبير مع رجال الحكم والدولة وشيخ له شأنه عند العلماء .. وكان يملك الكثير من الأرض، وعنده العديد من فلاحي المقاسمة. وأرسل والدي إلى النجف لطلب العلم جرياً على عادة الأسرة منذ ثمانمائة سنة أو تزيد.

والدي:

ولد ١٢٨٩ هـ توفي ١٣٣٤ هـ، تخرّج أبي الشيخ محمود مغنيَّة من النجف عالماً بحلال الله وحرامه عن نظر واجتهاد، وأيضاً كان في طليعة الشعراء وترجم له أكثر من واحد، وجاء في كتاب تتمة أمل الآمل: «الشيخ محمود مغنية من أهل الغور والتحقيق في المطالب العلمية والحقائق الواقعية قلّ في معاصريه من العرب من وصل إلى مقامه في نيل المطالب» .

وكتب عن والدي المجتهد الأكبر السيد محسن الأمين في كتابه «أعيان الشيعة» المجلد ٤٨ يقول: «كان الشيخ محمود مغنية عالماً فاضلاً أديباً كريم الأخلاق حسن السجايا».

---

١ ـ كتب السيد محسن الأمين عن نسب الشيخ محمد مغنية في المجلد السابع والأربعين من كتاب أعيان الشيعة التالي: الشيخ محمد بن الشيخ مهدي بن محمد بن علي بن حسن بن حسين بن محمود بن محمد بن علي آل مغنية العاملي، ولد سنة ١٢٥٣ هـ، وتوفي في قرية طيردبا.

وفي كتاب شعراء الغريّ للخاقاني «أن الشيخ محمود مغنيَّة يسمعنا بشعره صوتاً من عالم أسمىٰ ويعيد برائع بلاغته وعذوبة تبيانه عصر أبي تمام والبحتري وأن شعره يتسامىٰ إلىٰ درجة لا تتسلق إلىٰ وصفها الأفكار».

لقد ذهب شعر والدي كله لأنه لم يدونه وبقي منه ما ذكره السيد محسن الأمين في معجمه «أعيان الشيعة» وهذه أبيات من أشعاره:

في مدح أهل البيت:

الله والمصطفىٰ خير الخليقة لي
وصنوه المرتضىٰ مولىٰ الأنام علي

من استغاث بهم في كل نائبة
يمسك بحبل ولاء غير منفصل

يا ليت شعري هل تخفىٰ مآثرهم
وهن أشهر من نار علىٰ جبل

هم الصراط هم سفن النجاة هم الـ
ـولاة والانجم الهادون للسبل

وفي وصفهن:

حيّ برامة آراما وغزلانا
سوانحا يرتعين الرند والبانا

النـــافرات مـــن العـــمران عـــن انـــف
والآخـــذات روابـــي البـــر أوطـــانا

قـــد رحـــن يـجنين مـن نـبت الأنـيعم مـا
عـــن فـــائح العـــنبر الداري أغـــنانا

فـــما لهـــا وجـــني الزهـــر تـــقطفه
وهـــن أعـــطر أنـــفاساً وأردانـــا

نـــظرتها بـــين تـــربيها وقـــد بـــرزت
إلى الفـــلا تـــتخطى الرمـــل كـــثبانا

حـــتى إذا أمـــنت عـــين الرقـــيب نـــضت
مـــن الشـــنوف ومـــرط الريـــط مـــالانا

مـــذ أصـــبحت تـــتجلى فـــي مـــحاسنها
نـــاديت ســـبحانك اللـــهم ســـبحانا

ومن وجدانياته :

ذهب الزمـــــان بـــعدتي وعـــديدي
فـــلويت عـــن نـــيل المســـرة جـــيدي

وتـــعطلت أقـــداح أفـــراحـــي وان
دارت فـــــفي هـــمّ وفـــي تـــنكيد

حـــقاً لقـــلبي أن يـــذوب تـــحسرا
ولو أنـــه قـــد شـــق مـــن جـــلمود

إن اللـــــيالي لا تـــواصـــل ســـاعة
إلاّ وتـــــعقبها بـــــعام صـــــدود

وأقفلت هي .. الباب في وجهه، فقال متأثراً :

ســـــددت مـــنافذ الهـــواء عـــني
مـــخافة أن أمـــر مـــع النســيم ...

هذه أبيات قليلة من نظم والدي ننقلها للقارىء لكي يرىٰ في صحة ما كتب عن هذا الشعر في التراجم.

التراجم القديمة والجديدة :

تُطلق كتب التراجم العربية علىٰ الفقيه لقب عـلامة ومـحقق ومـدقق فـي المطالب الواقعية . وتقول عن شاعر التشابيه: «تسامىٰ إلىٰ عالم أسمىٰ». ولا يهم أبداً تقليد البحتري وأبي تمام، ولا تحديد المفردات وما توحي به صيغة الكلام، وإنما المهم زخرفة اللفظ ونشوة القارىء والسامع بها، فهي تماماً «كالأعين النجل تذيب المغوار علىٰ أنه يذيب الحديدا».

وقد يكون لأصحاب التراجم والسير بعض العذر في ذلك، لأنهم يعكسون حياة المترجم له كما هي، فإذا لم يجدوا فيها من أثر لنضال وإقدام، أو شعور بأية مشكلة اجتماعية أو علاقة بالإنسان ومصالحه فماذا يعكسون ويترجمون؟

وأيضاً نفس الشيء يقال عن المؤلفين والمترجـمين وإلاّ لوقـفوا ـ وهـم يترجمون ـ وقفة التأمـل والتسـاؤل عـن العـوامـل المـوجبة لهـذا الجـدب فـي

الإحساس، وعدم شعور المترجم بمن حوله وما حوله.

ومهما يكن من أمر العوامل والأسباب فإن حياة الفرد صورة عن مجتمعه الذي يعيش فيه ... وإلىٰ عهد قريب كان مجتمعنا يجهل الحقوق والواجبات .. حتىٰ البائس المظلوم كان يرىٰ حقه عند الله وحده، ولا يرىٰ له أي حق علىٰ أخيه الإنسان في شيء .. أبداً كل واحد بحاله، فلا الحاكم مسؤول عن تعاسة المحكومين، ولا بأس علىٰ العالم والشاعر إذا هو سكت عن ظلم الظالم وتجاهل! اللهم إلاّ في مفهوم القلة والصفوة..

أما اليوم فقد تغير كل شيء بسرعة مذهلة، وعلىٰ أرفع المستويات، وعم الوعي بواسطة الطباعة والإذاعة، وعرف الناس أنّ علىٰ الأديب أن يطلعنا علىٰ معنىٰ الحياة، وعلىٰ العالم أن يشارك في قضايا الإنسان، ويواجه المبطل بكلمة الحق، والظالم بقول العدل. وإذا عذرنا الساكت في الزمان الدابر ـ لسبب أو لآخر ـ فلا عذر الآن لساكت أو متعلل، بل هو شيطان أخرس أو مشعوذ.

عاد أبي إلىٰ جبل عامل بطلب من أهل قرية جنوبية، وعلىٰ المألوف من عادات القرىٰ العاملية أجمع أهل هذه القرية علىٰ أن يبنوا له داراً، فباشروا بالعمل متحمسين وما أن بلغوا السقف حتىٰ نكصوا علىٰ أعقابهم معرضين، فاضطر والدي أن يرهن البناء والأرض بثمن السقف والأبواب من رجل مرابي، وبعد جهد تمت الدار، وانتقل إليها، وقبل أن تنتهي السنة علىٰ إقامته فيها اختاره الله إليه، وكان ذلك سنة ١٩١٦ م عن عمر يناهز الـ ٤٤ عاماً، فاستولىٰ المرتهن علىٰ الدار بثمن السقف والأبواب، وكان أهل القرية قد بنوا للمرابي لا للعالم.

والدتي:

أمي من أسرة هاشمية من آل شرف الدين، ماتت وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري ولا أتذكر شيئاً من ملامحها وصفاتها، ولا من علاقتي بها واهتمامها بي سوىٰ صور غامضة مبهمة ... وإذن فنظرية فرويد ـ لو صحت ـ لا تنطبق عليّ، وهي أن الإنسان مخلوق جنسي منذ طفولته، وأمه هي المعشوقة الأولىٰ لغريزته الجنسية، ويغار عليها من أبيه، ويتمنىٰ موته ليخلفه عليها من بعده، وحاول فرويد أن يفسر تصرفات الإنسان أو معظمها بالجنس، ولكن أبطل الكثيرون من أهل الإختصاص في علم النفس هذه النظرية بأن الطفل لا يعرف الجنس، وأن الإنسان مسيّر بالعديد من الغرائز لا بغريزة الجنس فقط.

وألّف «جاسترو» البولندي كتاباً في جزأين رداً علىٰ فرويد، وأسمىٰ الكتاب «الأحلام والجنس»، ونقل عن فرويد أنه يعترف بوجود ١٤ غريزة في الإنسان، ولكن معظم الأثر للجنس، وقال فرويد في كتابه حياتي: إنه ولد من أبوين يهوديين، ولا أشك بأن فرويد قد تأثر كثيراً بالتوراة لما فيها من أسس وأبعاد جنسية تظهر واضحة في القصص والنصوص.

آثار اليتم:

من نعم الله عليّ أني نشأت يتيم الأبوين ... ولليتيم أكثر من صورة، وكلها عواصف وقواصف، ولكن آثاره ـ علىٰ الرغم من ذلك ـ أضداد متنافرة، فقد يؤدي اليتم إلىٰ التسوّل وارتكاب الجرائم، وقد يجعل الله فيه خيراً كثيراً فيصنع اليتيم كيانه من آلامه، ويحقق ذاته من أوصابه تماماً كما تصنع الشعوب المغلوبة من

أغلالها معولاً تحطم به السدود والقيود، وهل الرجولة في واقعها إلاّ أن يخلق الإنسان نفسه بنفسه؟ أبداً لا فرق بين أعمىٰ يتوكأ علىٰ عصاه وبصير يعتمد علىٰ إنسان مثله.

بدء المسيرة :

ولدت سنة ١٩٠٤ م في جبل عامل في قرية طيردبا قضاء صور ماتت والدتي وأنا دون الرابعة من عمري، وبعد وفاتها بقليل هاجر أبي مرة ثانية إلىٰ النجف الأشرف وصحبني معه ومكثت هناك أربع سنوات أتعلم القراءة والخط والحساب ومبادىء النحو، وأتقنت اللغة الفارسية ثم نسيتها بعد أن عدت مع أبي إلىٰ جبل عامل لأني لم أنطق بكلمة واحدة من هذه اللغة مدىٰ إقامتي في الوطن. وكنت آنذاك دون التاسعة من عمري أقرأ وأكتب وأحفظ كلمات في النحو دون أن أستوعب معناها، وأعرف الغاية منها .. وكنت أعتقد أن العلم هو حفظ الكلمات المطبوعة في الكتاب عن ظهر قلب وكفىٰ ... ولا أدري من أين جاءني هذا الاعتقاد، ولكني أذكر أن أبي رحمه الله كان يهتز طرباً إذا حفظت شيئاً منها، ويكافئني بقطعة من نقود .. وما حاول ـ ولو مرة واحدة ـ أن يشرح ويوضح.

وهكذا كان التعليم، الكتاب طلاسم، والأستاذ يلقن، والتلميذ يحفظ تماماً كالببغاء، أما الفهم والتطبيق فخارج عن القصد، أو يترك لجهد التلميذ وإن كان فوق عقله وطاقته.

ولا يقف أمر الحفظ والتلقين علىٰ التلاميذ الصغار، فهناك نوع من الشهادة يسمىٰ الإجازة بالنقل عن الشيوخ، أي إن الشيخ يأذن للتلميذ المتخرج عليه بأن يروي عنه ما سمع منه .. إذا وثق من حرصه ودقته في النقل، بل أجاز البعض

للتلميذ أن يروي عنه ما لم يسمع منه إذا أخبره الثقة بما قال! ولهذا النوع من الإجازة بحوث وتفاصيل في كتب الأولين بل والمتأخرين أيضاً.

كلنا يعلم أن مناهج التعليم تطورت إلىٰ أرفع المستويات، ومن جملة ما قرأت أن في الولايات المتحدة شركة للمدارس التجارية تتحمل مسؤولية فشل التلميذ ورسوبه في صفه، وأنها ترجع الأموال التي تقاضتها إذا لم ينجح.

وتضم الجامعات الحديثة مختبرات ومعامل جامعية ينطلق إليها التلاميذ من قاعة الدرس ليجربوا النظريات التي سمعوها من الأساتذة. وينطلق بعضنا من حلقات الشيوخ إلىٰ بلده حاملاً ورقة تجيز له أن يُلقنّ كما تَلَقنَ، أو أنه جدّ واجتهد، وفرغ من المعقول والمنقول.

في بيت أخي:

توفي والدي وأنا في العاشرة من عمري، ولقد ترك أبي ثلاثة ذكور وبنتاً واحدة زوجها أبي وأحسن لها الإختيار[١]، ثم زوج أخي الأكبر عبد الكريم من بنت كبير الأسرة ورئيس العلماء[٢] في عصره.

انضممت مع شقيقي الأصغر أحمد بعد وفاة أبي إلىٰ عائلة أخي الأكبر، وبقينا معاً سنتين حتىٰ نهاية الحرب العامة الأولىٰ[٣]، حيث هاجر أخي الأكبر رب العائلة إلىٰ النجف لطلب العلم، وتركني وأخي أحمد بلا ولي وكفيل نعاني ألم البؤس والأخطار .. ولكن كانت غايته شريفة وهي تحقيق الرغبة في طلب العلم

١ ـ المجتهد الأكبر الشيخ محمد تقي الصادق.
٢ ـ المجتهد الأكبر الشيخ حسين مغنية.
٣ ـ [يقصد الشيخ المؤلف الحرب العالمية الأولىٰ].

والحرص على نيله وتحصيله .. فلقد كان العلم ضالته ولذته، ونال منه ما يؤهله للمرجعية بشهادة من يعرفه من أهل النظر والإجتهاد[١]، وانتقل إلى رحمة ربه في ريعان شبابه في سن ٤٣.

ولقد ورثت وأخي الأصغر من والدي أرضاً شاسعة واسعة، كثير منها الآن يسقى من آبار ارتوازية، ولقد ذهبت هذه الأرض لسبب أو لآخر وكنت أنا وأخي طفلين صغيرين قاصرين، ولا داعي أو فائدة الآن للخوض في تلك القصة.

كنت في بيت أبي أنام في فرشة ولحاف، وعندما انتقلت إلى بيت أخي فقدت الفرشة ولا أدري أين ذهبت؟! وبعد أن سافر أخي إلى النجف لطلب العلم انتقلت زوجته إلى بيت أبيها ففقدت اللحاف ولا أدري أين ذهبت أيضاً؟ لقد فقدت كل شيء إلاّ قنبازاً «قفطان» كنت ألبسه على «الريق» بلا قميص ولا سروال.

كنت أقضي الأيام طاوياً لا أذوق الطعام إلاّ حبات من الحمّص المقلي أو من الفستق آكلها مع القشور أشتريها من دكان القرية، حتى هذه كان يحرمني منها صاحب الدكان، لعجزي عن وفاء الدين القديم، وما زلت أذكر حتى الآن أني أمضيت ثلاثة أيام لم أذق فيها شيئاً.

ومن الطريف وأنا على هذه الحال كنت أحب ابنة الجيران وأنظم بها الأشعار ولقد طلبتها بنفسي من أبيها فابتسم معتذراً بفقر الطالب وعجزه عن القيام بالواجبات.

كنت أخشى فصل الشتاء والبرد، بخاصة إذا غابت الشمس وأقبل الليل،

---

١ ـ في المجلد ٣٨ من «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين الشيخ عبد الكريم مغنية ولد ١٣١١ هـ توفي ١٣٥٤ هـ ، مؤلفاته «كتاب القضاء» «رسالة في الإرث» «أصول الفقه اللفظية والعملية» «رسالة في الطهارة» «رسالة في العدالة».

كنت أقيم في بيت أبي القديم أجلس على الأرض، وأثني ساقيّ واضعاً صدري على فخذي، وساعديّ على رأسي أغطي جسدي بعضه ببعض، حتى أصبح كالصرة المربوطة عسى أن تخف وطأة البرد. وأصبت من جراء ذلك بمرض الروماتزم، ولازمني أكثر من ٢٧ سنة، وكانت تعتريني نوبات عنيفة لا تخف إلاّ بالأبر المسكنة، وقد ذهبت في سنة ١٩٤٦ م إلى حمام طبريا والحمة في فلسطين للاستشفاء فعوفيت والحمد لله.

نقطة التحول :

تولى أبواي حفظي وحضانتي حتى الرابعة من عمري، ثم تولى أبي وحده رعايتي حتى العاشرة أو الحادية عشر، ومنها إلى الثانية عشر في بيت أخي الكبير وأسأل الله سبحانه أن يجزيهم جميعاً بالإحسان وأن يعفو عنهم ويغفر لهم ويتغمدهم برحمته الواسعة.

وعند هجرة أخي إلى النجف كانت نقطة التحول الحاسمة في حياتي، فقد تخلت عني الدنيا برُمّتها، وصرت وحيداً لا أملك إلاّ نفسي المعذبة وجسدي الجائع.

لا تؤلمني إطلاقاً ذكريات اليتم والبؤس .. وأحدّث بها شاكراً ذاكراً لنعمة جعلت مني إنساناً يشعر بتفرده واستقلاله، وإني وحيد في هذه الحياة، ومسؤول عن نفسي وعليّ أن أعمل معتمداً عليها بعد الله سبحانه.

والبائس والمحروم من كل حق يعيش في الغالب حياة الجريمة يسرق ويتسول، يحتال ويمارس أنواع الشذوذ .. وأحمد الله سبحانه الذي عافاني وهداني أن أمارس طاقتي في الكفاح والعمل الحلال.

وعلىٰ أية حال فالقول: إن البؤس والتشريد يؤدي إلىٰ الجريمة ـ صحيح ـ ولكن علىٰ الغالب لا علىٰ الحتم والعموم ... ومثله أيضاً إن الغنىٰ والترف يؤدي إلىٰ الغطرسة والطغيان، وعليه يحمل قوله تعالىٰ: ﴿**إنّ الإنسان ليطغىٰ أن رآه استغنىٰ**﴾[1].

إلىٰ العاصمة بيروت:

كُتب عليّ أن أكون مسؤولاً عن نفسي قبل سن التكليف والبلوغ فلم أدعها فريسة الأقدار، وحاولت جهدي أن أعمل للحصول علىٰ لقمة العيش. كان أكثر شباب القرية يذهبون إلىٰ بيروت يشتغلون حمالين أو مستخدمين في محلات تجارية، كغيرهم من أبناء قرىٰ جبل عامل وما زالوا يفعلون حتىٰ يومنا هذا. عزمت علىٰ الذهاب إلىٰ العاصمة لعلي أجد عملاً يقيم الأود بعد أن ضقت ذرعاً بحياة البؤس والشقاء في قريتي المعدمة.

بعد يومين قضيتهما سيراً علىٰ قدميّ وصلت إلىٰ بيروت عند الغروب. وأول شيء استوقف نظري وأنا القروي كان منظر «الترام» فقد أعجبت به ودهشت لمرآه. سرت في أسواق المدينة علىٰ غير هدىً، فألتقي صدفة أحد أبناء قريتي واسمه حسن ورحب هذا بي وصحبني معه إلىٰ الغرفة التي ينام فيها العمال، وكانت هذه الغرفة في ايجار امرأة عجوز من سكان قريتي أيضاً.

وكان ينام فيها أكثر من عشرين عاملاً، يصطفون كالسردين المعلّب. وكانت العجوز تنام مع ولدها في زاوية من الغرفة، وتنصب بينها وبين العمال ستاراً من الخيش أو شبهه وتتقاضىٰ من كل عامل في الشهر أجراً معيناً. سهرت تلك الليلة

---

١ ـ [سورة العلق، الآية ٦ ـ ٧].

مع الكادحين نمت معهم بدون غطاء ولا وطاء. ونصحني بعضهم أن أبيع القصص والروايات، لأني أعجز عن الأشغال الشاقة.

في صباح اليوم التالي ذهبت مع أحد الرفاق إلىٰ بائع الكتب، وأخبرته بحالي وما أشير عليّ، فأعطاني الكتبي حزمة من قصص أبي زيد الهلالي وعنترة بن شداد وبئر ذات العلم والسبع حصون وما إلىٰ ذلك، وحدد لكل قصة ثمناً، حتىٰ إذا بعتها بأكثر أخذت الزائد ودفعت له السعر المعيّن.

حملت تلك القصص ورحت أذرع الأسواق من ساحة البرج إلىٰ باب إدريس إلىٰ سوق الطويلة والميناء، صائحاً منادياً علىٰ بضاعتي، أعرضها علىٰ هذا وذاك، ولا أجد راغباً واحداً، وإذا سامها أحد دفع ربع أو نصف الثمن الذي حدده لي الكتبي، وهكذا أمضيت النهار علىٰ غير جدوىٰ، فأرجعت القصص إلىٰ صاحبها كما هي، واستدنت خمسة قروش ثمن العشاء، وفي المساء رجعت إلىٰ غرفة العمال، وسألني أحدهم عما اكتسبت، فأخبرته بما كان، فقال لي آخر: جرب حظك ببيع «الكازوز» والمرطبات، عملت بنصيحته وجربت حظي في اليوم الثاني فلم يكن بأسعد منه في اليوم الأول.

وفي اليوم الثالث أخذت أذرع الأسواق هائماً علىٰ وجهي لا أدري ماذا أصنع، يائساً من نفسي ومن أهلي ووطني.

في اليوم الرابع مررت صدفة بولد في سني يبيع الكعك، تقدمت وسألته: كم تربح في اليوم؟

قال: مصروفي.

قلت: أتحصل علىٰ ثمن الغذاء والعشاء؟

أجاب: أغلب الأيام، وإذا جعت آكل من هذا الكعك.

قلت: أرشدني إلىٰ الفرن.

صحبني الصبي إلىٰ الفران الذي أخبرته برغبتي في العمل عنده، فرحب بي وقال تعال صباح الغد، انتظرت الصباح بفارغ الصبر، وفي الصباح الباكر أسرعت إلىٰ الفرن حيث ينتظرني عملي الجديد، وتسلمت من صاحب الفرن كمية من الكعك، ورحت أتجول بها هناك وهناك، وكان يوماً سعيداً حقاً لأني تغديت كعكاً وربحت ثمن العشاء، ولكن لم أستطع الاستمرار في هذه المهنة لأني اكتشفت أن صاحب الفرن يستغلني فهو يبيعني العشرين كعكة بـ ١٥ قرشاً مع أنها لا تكلفه أكثر من خمسة قروش.

تعلمت صنع الحلوىٰ «المشبك والعوامة والنمورة» من بائع حلوىٰ يقيم معنا في الغرفة فتركت للتوّ بيع الكعك، وشرعت أصنع الحلوىٰ بنفسي وأبيعها مستقلاً استقلالاً تاماً. وكانت هذه المهنة نهاية المطاف بالنسبة لعملي في بيروت التي بقيت أكدح فيها أربع سنين أو أكثر.

ولقد عيرني بمهنتي كبائع حلوىٰ بعد أن أصبحت عالماً معروفاً ورئيساً للمحاكم الجعفرية في لبنان، عيرني البعض من المعممين ومن أبناء العلماء، ونشروا يهاجموني في أكثر من صحيفة يصفوني ببائع الحلوىٰ. تهجموا عليَّ لأني كدحت من أجل لقمة العيش الشريف وكافحت لكسب الحلال ولأن نوع العمل الذي مارسته لا يتناسب مع وضع آل مغنية المرموق ومكانتهم الاجتماعية العريقة، وتناسوا أن أولياء الله وعباده الصالحين كانوا من الكادحين وأن علياً عليه السلام كان يضرب الأرض ليخرج منها الماء ويحمل أكياس الرمل علىٰ ظهره، ويتقاضىٰ اجرته من الزرّاع الذين عمل عندهم ولأن الواجب في منطقهم كان يقضي عليَّ أن أولد قبل أن يموت أبويَّ بثلاثين سنة علىٰ الأقل حتىٰ لا أعاني شدائد اليتم بلا كفيل ومصاعب الطفولة المشردة.

أما الذين تجنوا عليَّ وهاجموني فلهم فضل السبق إلىٰ اختيار وقت ولادتهم، وبقائهم في حجور آبائهم وأمهاتهم حتىٰ بلغوا سن الأربعين أو يزيد .. والجدير بالذكر أن أحد هؤلاء انتهىٰ مجنوناً في مستشفىٰ الأمراض العقلية وآخر يعيش علىٰ الصدقات، أما أخيرهم طواه الزمن ولم يعد شيئاً مذكوراً. أشهد أمام ربي عزّوجلّ أني آسف لحالهم من أعماق قلبي، سامحهم الله وغفر لنا ولهم جميعاً.

العاجز والقادر:

كنت بالأمس بائعاً متجولاً لا أبتغي إلاّ قوت يومي، وكنت أحصل عليه وأرضىٰ به، بل وأشعر بسعادة الكادح غير آبه بما يجيء به الغد، ولا بمسكن وملبس، بل ولا بغطاء ووطاء، وأعجب اليوم من نفسي وأنا عالم في بحبوحة من العيش ويسره ولكن يغلبني الأمل وأجري في عنانه، هل هو قوة الإيمان وصدق التوكل بالأمس، وضعفه اليوم؟ كلا .. معاذ الله .

بالأمس قنعت قناعة العاجز وزهده، واليوم أطمح طموح القادر وجهده. كنت عاجزاً عن كل شيء فكانت اللقمة هي الغاية القصوىٰ، وأراني اليوم أقدر وأقوىٰ فتطلعت إلىٰ ما فيه مطمح.

إلىٰ النجف الأشرف :

أقف بالقلم عن حياتي كيتيم كادح عند هذا الحد وإن كان لدي الكثير ما أحدث به القارىء، ولكني أمسك عن الكلام خوفاً أن لا يثق أحد بما كان ويكون.

كنت على الرغم من صغر سني، أعرف أن في هذه الحياة خيراً وشراً، وأن فيها ما يسوغ وما لا يسوغ، وأن في الناس عالماً وجاهلاً، وأن قياس العالم بالجاهل كقياس الناطق بالصامت، لذا كنت دائم التفكير بطلب العلم كما فعل آبائي وأجدادي متمنياً لو يتيسر إلى ذلك سبيلاً. وكثيراً ما فكرت بالذهاب إلى النجف سيراً على قدمي، وكنت آمل .. والأمل فطرة الله في عبده حتى ولو تحطمت سفينة الإنسان في بحر يغشاه اليأس والألم.

وأخيراً أذن الله سبحانه، ويسر لي أجرة الطريق، فباشرت بتهيئة جواز السفر وتنقلت بالأوراق الرسمية في دوائر البيروقراطية حتى وصلت إلى أمين الصندوق وقدمتها إليه ليؤشر عليها، فرفض الموظف المذكور التأشير على الجواز، حتى أدفع له جميع الضرائب المكدسة على الأرض التي تركها والدي، وليس في يدي هذه الأرض ولا أملك منها إلاّ القليل القليل، ولو بعت ما بقي عندي في ذلك الزمان لما استطعت أن أفي بثمنها عشر المطلوب من الضرائب المتوجب دفعها. مزقت أوراق الجواز وعزمت على السفر بدونه مهما كانت العواقب سأغامر وأخاطر ولن أدع أي شيء يقف في طريقي.

ذهبت إلى إحدى الشركات لكي أستأجر سيارة من بيروت إلى بغداد وسألني صاحب الشركة: هل أتممت معاملة الباص؟

أجبته: كل شيء جاهز بإذن الله.

وفي اليوم التالي تحركت السيارة على طريق طرابلس فحمص، لأن طريق دمشق كانت مقفلة بسبب الثورة الوطنية ضد المستعمرين الافرنسيين، وعندما وصلت السيارة إلى حمص جاء شرطي ليأخذ جوازات السفر من الركاب .. ولمّا جاء دوري سألني: أين باصك؟

ناولته ريالاً في يديه وقلت: هذا باصي.

أخذ الشرطي الريال ووضعه في جيبه ومضىٰ، فحمدت الله علىٰ السلامة، كان سائق السيارة رجلاً طيباً، وهو من الأرمن الذين شُرِّدوا من تركيا فلجأ إلىٰ لبنان، ولقد شعر بما جرىٰ بيني وبين الشرطي فأخبرني بأنه سيطلب من الركاب جوازات السفر في تدمر وسألني: عندها ماذا ستفعل؟ أخبرته بقضيتي ورغبت إليه أن يساعدني علىٰ الخروج من هذا المأزق، فقال لي: لا تخف ستدخل معي بغداد مهما اقتضت الحال.

ولما وصلت السيارة إلىٰ أول تدمر أوقفها السائق وقال: انزل يا جواد، وسر متجهاً نحو الشرق مسامتاً لجدران البلدة، حتىٰ إذا تجاوزتها وجدتني في انتظارك علىٰ الطريق خارج المدينة.

سرت متسللاً متوارياً خلف المنازل والجدران، وبينما أنا أسير اعترضتني قلعة تدمر الشهيرة، فدهشت لمرآها، ورحت أتأمل عظمتها، وأتنقل من جناح إلىٰ جناح متعجباً لا أكاد أصدق عيني متخيلاً أني في حلم، ذهلت عن كل شيء حتىٰ عن نفسي، وقد رأيت عيناً نابعة في وسط القلعة، فتذكرت الصلاة، وكان الوقت عصراً، فتوضأت من تلك العين وما إن شرعت في الصلاة حتىٰ رأيت طفلين يركضان نحوي ويصيحان، وعندما وصلا إليّ قالا: السائق ينتظرك، وقد أرسلنا إليك فعجل، خففت الصلاة والخطىٰ، ووجدت السائق والركاب ينظرون إلىٰ الطريق وينتظرون بفارغ الصبر، اعتذرت لهم وتابعنا المسير.

هكذا تعاون السائق معي وكتم أمري الركاب وبذل كل جهده حتىٰ اجتزت الحدود العراقية كما اجتزت الحدود السورية بلا جواز، وكم يؤلم وجود الحدود المصطنعة بين أبناء العرب حتىٰ أن العربي في يومنا هذا بحاجة إلىٰ جواز سفر وسمات دخول ليتنقل في وطنه العربي الكبير، وأعود إلىٰ السائق الأرمني الكريم

وأقول إنه لولاه لربما عدت حيث كنت واستحال علي أن أحقق شيئاً من أمنيتي.

وقد مضى على ذلك ستين سنة ولكني مازلت أذكر وأشكر ذاك السائق على جميله، ولن أنساه ما حييت، لأنه أول إنسان جعلني أشعر ـ بعد ما قاسيت ـ أن في هذه الحياة إنساناً يساعد أخاه الإنسان، ويسدي إليه الخير والمعروف لوجه الخير والمعروف، ولو رأيت الآن هذا الإنسان الطيب لخفي علي، فألف تحية وسلام عليك حيثما أنت، والسلام على كل من ينفّس كربة مهموم ويغيث ملهوفاً، ولو بكلمة أو بسمة أو نظرة حنان.

طالب علم:

نزلت في بيت أخي الأكبر الذي كان قد هاجر قبل إلى النجف لطلب العلم وكنت قد قرأت قبل ذهابي إلى النجف كتاب «الأجرومية» وشطراً من كتاب «قطر الندى» في النحو وأكملت دراسته عند أخي في النجف، وأعدت قراءة الأجرومية عند المرحوم السيد محمد سعيد فضل الله بطلب منه، وكان يومذاك استاذاً في الأصول والفقه، ولكنه أراد لي الخير، وقد استفدت كثيراً من علومه وتوجيهاته. وكنت أرجع إليه فيما تعسر علي فهمه من دروس العربية والمنطق والأصول والفقه وطلاسم العبارات، فيرحب بي ويشرحها لي بكل هدوء وروية، ولا يتركني حتى يطمئن إلى أني قد فهمت وهضمت، وقد انتقل هذا السيد العلامة إلى ربه قبل أن يصل إلى سن الشيخوخة، وبعد أن أصبح أحد الكبار الذين يمثلون النجف الأشرف عاصمة العلم والدين للطائفة الإمامية، وفيها دفن فرحمة الله عليه ورضوانه وأثابه ثواب من خدم العلم للعلم.

لقد اختططت لنفسي طريقاً خاصاً، وهو أن لا أقرأ في اليوم إلاّ درساً واحداً،

وذلك إذا أعدت ثانية قراءة ما كنت قرأته من الكتب، كالمجلد الثاني من كتاب كفاية الأصول للخراساني قرأته على السيد أبو القاسم الخوئي، ثم أعدت قراءته على الشيخ محمد حسين الكربلائي، كنت أقرأ الدرس وأذاكر به، وإذا عجزت عن فهمه وهضمه أعدته في اليوم الثاني، ولا شيء أصعب عليَّ من أن أتجه إلى الدرس الجديد ولم أكن قد فهمت الدرس السابق، حيث أبقى مشغول الذهن به حتى يتضح لي، وهذا ما كان يضطرني إلى مراجعة الشروح والحواشي، وسؤال من أثق بعلمه ومقدرته.

وعندما ابتدأت بالأصول شرعت بالكتابة، فكنت أكتب كل درس أقرؤه، فشرحت كتاب (المعالم) وكتاب (الكفاية) وكتبت دورة كاملة على الأستاذ الحمّامي من أول الموضوع إلى آخر التعادل والتراجيح، وكانت أكثر دراستي على أخي الأكبر والسيد الحمّامي الذي لازمته ست سنوات كاملة، وقرأت أيضاً شطراً من المكاسب على السيد أبي القاسم الخوئي.

تعطل الدروس في النجف يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، وأيام الأعياد ووفيات الأئمة، والعشر الأول من شهر المحرم، وشهر رمضان، كنت أنتهز أيام العطل هذه وأتردد على مكتبة الحسينية العامة، وأقرأ ما تيسر، وأستعير من اخواني الطلاب ما عندهم من الكتب وما زلت أذكر أهم تلك الكتب مثل تاريخ ابن الأثير، المسعودي، الأغاني، إحياء العلوم للغزالي، كتب المنفلوطي وطه حسين، العقاد والزيات وإسماعيل مظهر، وكتاب حديث عيسى بن هشام، كتب جبران خليل جبران، كتاب ملوك العرب للريحاني، أشعار المهاجرين اللبنانيين كأبي ماضي والقروي وفرحات ونعيمة وشغفت بديوان اللزوميات للمعري. قرأت أيضاً حاضر العالم الإسلامي لشكيب أرسلان، والأبطال للفرنسي كورنيل، وعصر المأمون ومقدمة ابن خلدون، وغيرها، وغيرها كثيراً، أما الصحف التي

كنت أقرأها في النجف فكثيرة أهمها مجلة العرفان لصاحبها المرحوم الشيخ عارف الزين وقد نشرت فيها شعراً ونثراً قبل رجوعي إلى جبل عامل، وأقرأ بانتظام جريدة الهاتف للخليلي، أما رسالة الزيات ومجلة العصور كانتا تصلان إلى بعض الطلاب فأستعيرهما منهم.

مراحل التعليم:

التعليم في معظم البلاد ومنذ زمن له ثلاث مراحل: ابتدائي وثانوي وتخصص، إلاّ في النجف فإنه مرحلتان .. يدرس الطالب في الأول النحو والصرف والمنطق الأرسطي والمعاني والبيان، وهذه المعارف أو المواد يحتاج إليها الطالب لتفهم الفقه وأصوله، ومن هنا أطلقوا عليها اسم المقدمات وتمتد دراسة هذه الفترة الأولى إلى ثلاث سنوات، ولقد أتممت قراءة الأجرومية والقطر معاً، وألفية ابن الناظم، ومغني اللبيب وحاشية الملا عبد الله، ومطول التفتزاني لا المختصر، ولقد أتقنت جميع المواد كأستاذ، وقد درّستها بالكامل في النجف.

ينتقل الطالب إلى المرحلة الثانية التي تمتد إلى سبع سنوات، يسمونها دراسة السطوح، ويطلع فيها الطالب على بعض كتب الفقه والأصول، ولا يهم الجهل بالانشاء وقواعد الإملاء ما داما لا يمتان إلى الاجتهاد بسبب. ويحضر الطالب حلقات يلقي فيها الأساتذة الكبار محاضرات في الفقه وأصوله، وتسمى (درس الخارج) وهي تكرار بأسلوب أو بآخر لكتاب (كفاية الأصول). وكتاب (الرسائل) مع بعض الاشكالات والملاحظات التي لا تمس الأساس والجوهر، وهذان الكتابان مقرران في دراسة السطوح، وكان الأول درساً لخارج مؤلفه الخراساني والثاني لخارج الأنصاري ولا أدري كيف تحولا إلى السطوح؟ وهل عند أساتذة الخارج الآن من علم الأصول ما يجهله هذان القطبان؟

أنهيت في المرحلة الثانية (السطوح): المعالم درساً وكتابة، والكفاية درساً وكتابة الأول والثاني، والرسائل درساً وكتابة، وأعدت مرة ثانية درس الجزأين من الكفاية والمكاسب، ودورة أصول -كدرس خارج- اللفظية والعملية، وذلك عند السيد الحمّامي مع الكتابة من أول الموضوع إلىٰ آخر التعادل والتراجيح، والحقيقة أني اتخذت من درس الأصول الخارجي وسيلة للتمكن من فهم الكفاية والرسائل، ولم أكن أهتم بغير مطالبهما اطلاقاً، معتقداً بأني إن فهمتهما علىٰ الحقيقة فأنا أدرس بخارج لأنه مجرد اشكالات واحتمالات وأجوبة. وما تركت الكفاية والرسائل والمكاسب إلّا كأستاذ درّستها وأنا متضلع فيها جميعاً.

وحين عدت إلىٰ لبنان بقيت مكباً ٢٢ سنة من ١٩٣٦ م إلىٰ ١٩٥٨ م ملازماً كتب الفقه والأصول ليل نهار مطالعة وكتابة في مسائل الفقه وكان الكتاب الرئيسي في الأصول المجلد الأول من تقريرات النائيني بقلم الخوئي، والثاني بقلم الخراساني، أما الفقه فكان كتاب الجواهر والمسالك، وقد راجعت الأول مرات ومرات وكان هذان الكتابان هما الأصل لمطالعتي، ثم يأتي بالدرجة الثانية الحدائق ومفتاح الكرامة وملحقات العروة وبلغة الفقيه والمستمسك.

كنت أعتقد أيام دراستي في النجف أن الشيخ الأنصاري صاحب الرسائل هو الأول علماً وتحقيقاً بين المؤلفين في أصول الفقه، ويأتي الخراساني صاحب الكفاية في الدرجة الثانية وبعدهما بلا فاصل الميرزا النائيني صاحب التقريرات الذي كان حياً في عهدي. أما بعد أن عدت إلىٰ عاملة وتابعت البحث والتنقيب أعتقد الآن أن النائيني يأتي في الرعيل الأول مع الأنصاري الذي لا يمتاز عن النائيني إلاّ بفضل السبق والتقدم.

وقد كانت ثمرة دروسي وأبحاثي أني انصرفت نهائياً إلىٰ التأليف منذ سنة ١٩٥٧م حتىٰ سنة ١٩٧٩ م وكان من جملة الستين كتاباً ألفتهم كتاب «أصول

الاثبات» أي القضاء، و«الفقه على المذاهب الخمسة»، و«فقه الإمام الصادق» عرضاً واستدلالاً، وكتاب «علم الأصول».

الهمزة اللمزة :

حدثني من يتقي الله في حديثه أن متعمماً كان في جلسة مع حجاج يأتمون به في الصلاة ثقة منهم بزهده وتقواه، لأن ظاهره يوحي بذلك، وله قدرة على الإلتزام بالسكينة والوقار، وصادف أن أحد الحاضرين أثنى على شيخ بما يعتقد من فضله وجهده، تنحنح المتعمم ومطّ شفتيه استياءً وكشف عن سريرته، وقال هامزاً لامزاً: «ولكن هذا الشيخ مكث في النجف ١١ عاماً فقط» (ملاحظة، مكث هو أكثر من ذلك).

أسأل الله مخلصاً أن يعافينا جميعاً من داء التنافس في غير طاعة الله.. وقد تجاهل هذا المتعمم ـ سامحه الله ـ أبسط القواعد وأوضحها، وهي أن العلم لا يقاس بمدة المكوث في النجف أو الأزهر، ولا بالحضور في حلقات الدرس، وإنما يقاس بالسهر والنشاط المتواصل مع الفهم والإستعداد للرسوخ في العلم، بحيث يتحقق الهدف على أتمه الذي بُذل النشاط من أجله، أما قياس العلم بطول الزمن في المدرسة أو قصره بغض النظر عما يؤدي إليه، فهو قياس متأثر بالهوى والغرض، أو نتيجة للعمى والجهل، ولكن هذا اللّامز يعلم علم اليقين أن الشيخ الذي عناه ما سوّف ساعة من وقته طوال إقامته في النجف، وأنه كان يجدّ ويجتهد في طلب العلم بحماس لا يعرف الكلل والملل، وأنه أتقن كل درس من دروسه ووعى كل كلمة سمعها من أساتذته، وأيضاً يعلم أن هذا الشيخ استمر في المراجعة والمطالعة وما انقطع عنها أبداً بعد عودته إلى لبنان، ويعلم أيضاً أن هذا الشيخ استاذ للفقه والشريعة والفلسفة في النجف وقم والجامعة اللبنانية ومرجع

للقضاة والمحامين، وأن أحكاماً صدرت في محاكم لبنانية وعربية مستندة إلىٰ مؤلفات هذا الشيخ والتي بلغت العشرات .. ورحم الله من قاتل هواه بعقله ودينه.

.. وهكذا ينتاب أحدنا ما يشبه الحمّىٰ إذا رأىٰ أو سمع حسنة لزميل ونظير! .. والتنافس ـ كما هو معلوم ـ غريزة في الإنسان من أية فئة كان.. ولكنَّ أبناء الدنيا يتنافسون علناً بالنفع علىٰ حياتهم، أما نحن سدنة الدين فنتنافس علىٰ الشكليات، وبقناع الدين والإيمان، وما من ريب أن هذا يثير الشكوك حول ما نقول ونفعل، ونحن مسؤولون عن طهارة الثوب الذي نظهر به أمام الناس.

هل أنا مرجع ...؟

من الطريف أن إيرانياً كبير العمامة طويل اللحية، سألني مرة:

ـ هل أنت مجتهد في الدين، ومرجع في بلدك؟

أجبته مداعباً: ومن أين آتي بالاجتهاد وعمتي صغيرة ولحيتي قصيرة؟ وكيف تأتيني المرجعية وأنا لا أقبل الأموال ولا أوزِّعها؟ ألا تراني بلا حاشية وأتباع؟ والأطرف من ذلك يا سيدي أنني أنطلق مع سجيتي بلا تصنّع، وأمشي في الأسواق، وأجلس علىٰ قارعة الطريق عندما أتعب، وأقف علىٰ البقال وبائع الفواكه والخضار، أنتقي ما أريد، أحمل إلىٰ بيتي قوت عائلتي بيدي.

حياتي في النجف :

جئت إلىٰ النجف وكانت آنذاك بلد المرض والفقر، الوجوه شاحبة، والثياب بالية، والبيوت واطئة تدب فيها العقارب، وتسعىٰ الحشرات في جوانبها، الشوارع

ضيقة قذرة، المتسولون على كل باب وفي كل طريق، وماء الشرب ينقل بالقِرَب على الحمير من مكان بعيد، ويباع كالخبز والزيت، ومعظم موارد النجف من الأوقاف والصدقات والأخماس تأتي من الخارج ومن الزوار والجنائز التي ترد إلى وادي السلام من أقطار شتى.

والطالب الغريب السعيد من كان له ولي وكفيل يتعهده من حين لآخر بحوالة مالية، فإذا وصلت إليه انتشر خبرها بين الطلاب وقدم له التهاني الخلاّن والأحباب .. وكان بعضهم يجثو على ركبتيه في رسائله لتاجر أو مهاجر يستعطفه ويسأله العون بلسان مرتجف وحزين، ومعظم العلماء والطلاب أو الكثير منهم يعيشون في عفة واغتراب لا عمٌ لهم ولا خال ينهكهم العوز والحرمان، ومع هذا مضوا على الطريق بصبر وجاهدوا في سبيل العلم وبلغوا الهدف، وحولوا الجوع والبرد إلى علم وخلق وطهارة، والترف افيون يخدِّر أهله ويصرفهم عن كل حافز إلى الجهاد والطموح.

كنت واحداً من الفئة البائسة المحرومة، ولكن كان لي هدف واحد، وهو أن أفهم وأستوعب الدرس الذي أنا فيه. إنه منتهى أملي وشغلي الشاغل وفي سبيل تحصيله يهون كل شيء من أجله أتخلى عن كل شيء.

نصيحة:

إنّي أنصح كل طالب أن يصمم بعزم ثابت على تفهم دروسه بكاملها، وأن يستوعبها أيام الدراسة مهما كانت العقبات، وأن لا يغيب عن مدرسته ثانية واحدة، ويصغي لأستاذه بكل كيانه، فإنّ الوقت إذا ذهب لن يعود، فإن فعل هذا وجاء وقت الإمتحان استقبله في راحة واطمئنان وتجاوزه في يسر وسهولة إلاّ

لصدفة أو عارض، وإن أهمل وقصر أيام الدراسة ثم حاول أن يستوعب جميع المواد المقررة لسنته قبل الامتحان كما يفعل بعض الطلاب، إن فعل هذا فاته الركب وإن أسرع الكرّة، إلاّ أن يصادفه «الحظ الذي يأتي من لا يأتيه»[١]، كما قال الإمام علي عليه السلام .

نفحة إلٰهية :

تخرّج من النجف العديد من أئمة الفقه والدين وأعلام الأدب، وعاش بعض هؤلاء حياة البؤس والشقاء. حتىٰ قال أحدهم: «كدت من الجوع آكل الحصير» ومع هذا كان هؤلاء يواصلون السير حتىٰ بلغوا القمة. وإن دلَّ هذا علىٰ شيء فإنه يدل علىٰ أنّ الإنسان باستطاعته أن يتغلب علىٰ ما يسمّىٰ بالضعف والعجز.

قال المتصوفة: إن العلم نور يقذفه الله في قلب من قهر نفسه، وتحرّر من معدته، وترفّع عن الطبيعة ومطالبها.

وقال الفيلسوف الإنكليزي جون لوك: «إنّ الإنسان بأفكاره وعواطفه ثمرة لبيئته وتربيته» .

أما نحن فنقول: إنّ في أعماق كل إنسان نفحة إلٰهية إذا أحسن استغلالها وصبر علىٰ مرّها يبلغ هدفه، ويصبح وجوده حقيقة ذات قيمة ومعنىٰ حتىٰ ولو كان في بيئة متخلِّفة، وإذا أهمل وتكاسل عاش علىٰ هامش الحياة بلا معنىٰ ومذاق، حتىٰ لو كان في بلد الرقيّ والحضارة.

---

١ ـ [شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٩ / ص ١٦٥ باب الحكم والمواعظ ، رقم ٢٨١].

لمجرد العبرة والعظة:

في أيام دراستي كان عدد الطلاّب اللبنانيين في النجف يتراوح بين الستين والسبعين، وكان أكثرهم تنقصه النفقة الضرورية، وأحياناً لا يجد بعضهم ثمن ماء الشرب، وكان قلة من الطلاب اللبنانيين يعيشون في يسر ورفاهية، وأذكر اثنين من هؤلاء كانا يعيشان في دنيا الوهم والخيال، فقد أيقن كل واحد منهما بأنّ الرّياسة تنتظره، والشهرة له دون غيره، وكان يصبح ويمسي على هذا اليقين لا شيء يؤهله للصدارة سوى النسب والوراثة، فجاءت النتيجة سراباً ويباباً. وهكذا كل خرافي اتكالي يجهل قدره، ويتجاوز حدّه.

إن معرفة النفس على حقيقتها هي الخطوة الأولى إلى بناء الشخصية، وفي ضوئها يحدد العاقل هدفه في الحياة، ويكافح من أجله، ومن جهل طاقته وأعماقه عاش في دنيا الخيال، والضياع وانتهى إلى جحيم.

وهذا ما حدث لهذين الطالبين عندما عادا إلى وطنهما لبنان وتشاء الصدف أن أعود إلى عاملة في نفس الوقت مع المذكورين، ونحن الثلاثة من أبناء العلماء، ولكني عشت يتيماً مسؤولاً عن نفسي، وعاش كل منهما ومعه زوجته وأولاده كلاً على أبيه حتى بعد رجوعه إلى وطنه كعالم من النجف.

كتب سبحانه على نفسه أن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء: **﴿أمَّن يجيبُ المُضْطر إذا دعاهُ ويَكْشِفُ السُّوء ويجعلكم خلفاءَ الأرض أإلٰهٌ مع الله قليلاً ما تذكَّرون﴾**[١] إن الله أنجز لي ما وعد، ووفقني إلى ما أردت وطلبت، فحمداً لله وللنجف التي آوتني وجعلت مني تلميذاً يتذوّق العلم

---

١ ـ سورة النمل الآية ٦٢.

ويعشقه، بل ويحسن التعبير عنه ببيان لا يطلب من قارئه أي جهد لتفهمه وتعقله .. ولولا رحمة الله ودراستي في النجف ما وجدت سبباً يصلني بالمعرفة، ولا طريقاً إلى ما أنا عليه الآن من شرف وسعة.

حادث غريب:

حدث لي في النجف حادث غريب لم أعرف له سبباً حتى الآن. في ذات يوم من أيام الصيف كنت في بيتي مع زوجتي وطفلتي آمناً مطمئناً كعادتي، طُرق الباب، وإذا بشرطي يطلب مني أن أصطحبه إلى السراي، لبَّيت وسرت معه، وعندما وصلنا إلى السراي أدخلني الشرطي على ضابط جالس وراء مكتبه، وما أن رآني هذا حتى فاجأني قائلاً:

ـ تأكل من العراق، وتتكلم على العراق.

ـ لا آكل من أموال العراق ولا أتكلّم على العراق.

ـ تشرب ماء العراق وتستنشق هواءه.

ـ كأنك لم تسمع بماء وهواء لبنان.

ـ رد الضابط بحدّة: لا تأكل مال العراق، ولا تشرب ماءه، ولا يعجبك هواؤه، لماذا لا تدعه وتذهب لبلدك؟

ـ أتيت إلى هنا أطلب العلم، وإن في هجرتي وهجرة أمثالي إلى العراق دعاية كبرى له، قلت هذا بحدّة وصوت مرتفع سمعه من كان خارج السراي، كما أخبرني أخي الأصغر أحمد حيث هرع ورائي وكان ينتظرني خارج الغرفة.

الضابط ـ أنت تصيح في وجهي، تتخيّل أني ضابط سوري أمامك (يقصد

ضابط لبناني).

ـ وقفت بعد أن كنت جالساً وصحت في وجهه من حيث لا أشعر: كن ما شئت، إنّي أتكلّم بصوت أعلىٰ من صوتك وأرفع، وبلسان أطول وأبلغ ما دمت علىٰ الحق .. نظر الضابط إليَّ ملياً وبصمت تام، ثم مال بوجهه عني وقال: إذهب لشأنك.

خرجت وأنا أحسب أن الأمر قد انتهىٰ عند هذا الحد، ولكن بعد يومين جاءت الشرطة وفتشت بيتي وجمعت الأوراق التي كتبتها وَذَهَبت.

وبعد أيام جاء الشرطي يدعوني مجدداً إلىٰ السراي، فذهبت وإذا بضابط غير الأول وأخذ هذا يحقق معي ـ عن مدة إقامتي في النجف، مَن أستاذي؟ من هم رفقائي؟ ماذا أقرأ من الصحف؟ وأين أنشر؟ وعن المواضيع التي أكتبها وأتحدث عنها؟ الخ الخ.

وكنت أجيب والضابط يدوِّن. ثم أذن لي بالإنصراف، وتكرر استدعائي والتحقيق معي مرّات ومرّات، حتىٰ بدأ الأمر يقلقني ولقد ألح عليَّ الأصدقاء أن أتوسط عند رئيس الأعيان ولكني رفضت، وبعد أكثر من شهر من استجوابي وإزعاج راحتي، كفوا عن سؤالي من تلقاء أنفسهم وأرجعوا لي أوراقي حيث لم يثبتوا عليَّ ما يدينني، وحتىٰ الساعة لا أعلم ما الذي دعاهم إلىٰ التحقيق معي حتىٰ أنهم لم يقولوا لي عن التهمة الموجهة إليَّ.

الجدير بالذكر أن يحدث لصديقي المرحوم الشيخ محسن شرارة حادث مماثل ولكن مع الرجعيين لا مع الحكومة. نشر المرحوم شرارة مقالاً توجيهياً في مجلة العرفان دعا فيه إلىٰ إصلاح برامج التعليم، ومسايرة التطور، ونعىٰ علىٰ الجمود والرجعية، ووضع النقاط علىٰ الحروف فقامت عليه قيامة الذين يقفون

حجر عثرة في طريق كل مصلح وإصلاح، وكان لهم في ذلك العهد قوة ونفوذ، ثاروا عليه وكفّروه، حرّضوا العوام، فحاول هؤلاء إهانته، بل قتله، فاضطر إلىٰ الإختفاء والمواراة، حتىٰ هدأت العاصفة، وعرف الناس الحقيقة، ومن الطريف أنّ المرحوم صدّر مقاله بكلمة «أكاديمية علمية» ففسر بعض الشيوخ كلمة «أكاديمية» بـ «أكاد أحلف يميناً».

المساجلات والمراسلات:

كثيراً ما كانت تحصل بيني وبين إخواني الطلبة مساجلات ومراسلات شعرية لمناسبات شتىٰ، وكنت قد دوّنتها في كتابي «المرآة» ثم أحرقت الكتاب ولهذا قصة أشير إليها فيما بعد. وما زلت أحفظ من تلك الأشعار ثلاثة أبيات من قصيدة نظمتها جواباً عن قصائد ثلاثة أرسلت إليّ من إخواني بعدما انقطعت عنهم أياماً بسبب حاجتي وضيق يدي، ومطاردة أرباب الدين لي، وتلك القصائد كلها تعبر عن معنىٰ واحد، عن التعزية وتطييب الخاطر، وأن في العلم والأدب غنىً عن المال، وفي الخلق وثقة الناس كفاية عن كلِّ شيء، وهذه هي الأبيات الثلاثة التي ما زلت أحفظها:

أيسوؤني خطبٌ وقد أصبحت في ... نيل العلىٰ أستعذب التعذيبا

لست المليك إذا ملكت دراهماً ... وأنا المليك إذا ملكت قلوبا

من لا يميل إليه قلب صادق ... يمسي ويصبح في الحياة غريبا

ومن أبيات لي في وصف زمرة من الطلاب الذين انصرفوا عن الدرس والتحصيل إلىٰ القيل والقال ووضع المناهج لمشروعاتهم الخيالية المقبلة:

ما زال أعورهم يـذري بأحـولهم وعاب هذين شخص يفقد البصرا
من الظريف تناجيهم إذا اجتمعوا بعض مليك وبعض يرأس الوزرا

ومن أبيات أسخر فيها من بعض الشيوخ الجهلة المتحذلقين الذين يدّعون التجدد والمعرفة:

أفـتنكر العـلم الغـزير وهـذه كـلماته تـتلى عـليك مـرارا
مكروب مكرسكوب ثم سبنسر بـنجور مسـيو تـقطف الأزهـارا
قد أضحك الثكلى الحزينة نـملة أمست تـحاول أن تـجر قـطارا

أستاذي:

درست ست سنوات متوالية عن السيد الحمّامي لم أحضر خلالها على أستاذ غيره ولازمته ملازمة الظل لصاحبه. كان أستاذي أفقر أستاذ في النجف وكنت أنا أفقر تلميذ فيها، وكنت أشعر أنني من أحب تلاميذه إليه وأقربهم لديه .. كان أستاذي على حاجته وكثرة عياله يبدو منطلقاً دائماً مرحاً ساخراً، وكثيراً ما كان يتخذ من حاجته موضوعاً للتفكهة والتسلية. من نوادره التي أذكرها أنه في ذات يوم كنا نحن الطلاب عند أستاذنا العظيم، وقبل الدرس خاضوا في حديث الأغنياء، لأن (ذكر العيش نصف العيش) كما يقول أستاذي .. قال أحد الطلبة: قرأت في الصحيفة أن روكفلر يملك خمسمائة مليون دولاراً، علق طالب آخر: قاتله الله، اللعين يكنز الأموال ولا ينفقها على الفقراء والمحتاجين، فقال الأستاذ على الفور مستنكراً:

ـ وأعجب من ذلك وأغرب أنه استطاع الحج إلى بيت الله الحرام ولم

يفعل ...

لقد كافح السيد الحمامي بقوّة وتقى، وصبر على الفقر والألم مجاهداً في سبيل العلم والدين أكثر من خمسين سنة. وكان من نتيجة هذا الصبر الطويل، والجهاد المتواصل أن ابتسمت له الأيام بعد العبوس، ولانت له الحياة بعد الشدّة، وأطاعته الظروف بعد النشوز، فأصبح عالماً، وأستاذاً، ورئيساً، ومرجعاً للطائفة، وآتاه الله سبحانه من فضله ما يرضيه ويكفيه، فوفى ديونه، ووسع على عياله، واشترى داراً، وأعان تلاميذه بما تيسّر.

ذكرى وحنين :

قضيت أيامي في النجف ولم يمرّ عليّ يوم خيرٌ من يوم، ولا شهرٌ خير من شهر، ولا عام خير من عام، وبالرغم من ذلك مازلت أذكر تلك الأيام بلهفة المشتاق، وأحنّ إلى الجولات العلمية مع الرفاق وجدالهم وصياحهم، إلى بحوث الأستاذ وتحقيقاته، إلى الرحلات أيام العطلة، والفرات ونخيله، والسرداب ومائه البارد، وإلى «التسيارات»[1] والتحلّق حول سماور الشاي الذي وصف الدكتور طه حسين غليانه بعد «التزمير» بقوله: «ترنّم شاكياً ثم أجهش باكياً» مازلت أحنّ إلى المودة والصفاء، إلى أبوة الأستاذ لتلميذه، وأخوة الرفيق لرفيقه، وإخلاص الطالب لشيخه، إلى تلك اللطائف والنكات العذبة المرحة تخدّر أوجاع المديونين والمفلسين وتسكن آلام الفقراء واليائسين، وما أكثر اللطائف النجفية وأروعها ولو جُمعت لملأت كتاباً ضخماً فريداً من نوعه.

عندما تركت النجف ذهبت نفسي حسرات على فراقها وفراق الإخوان

---

١ ـ باللهجة العراقية تعني السّهرات باللهجة اللبنانية، وسيَّر عليه بالعراقية تعني زاره.

والأصدقاء، وودعني هؤلاء بالروح التي ودعتهم بها، وهذه أبيات لصديقي الأديب الكبير الأستاذ حسين مروّة[١] قالها عند وداعي:

هاقد نفضت يدي من الأحلام ... وأفقت من سكري على آلامي

إنّي رأيت مدامعي في ثورة ... ورأيت قلبي باكي الأنغام

ورأيت نفسي أظلمت آفاقها ... كظلام نفسٍ جمّة الآثام

ورأيت أصحابي لئالىء قد غدت ... منثورة كمدامع الأيتام

لاعقد ذياك النظيم ولا البها ... ذاك البها في أمسنا البسّام

إيه «جواد» أخذت مني بسمة ... كانت تريك بشاشة الأحلام

وأخذت نغمتي التي كانت على ... ثغري تفيض بخمرة الإلهام

---

١ ـ الجدير بالذكر أن الأستاذ حسين مروة كان طالباً معمماً في النجف، ثم خلع الزيّ الديني وأصبح باحثاً وناقداًكبيراً في عالم الأدب، والتزم بالفكر الماركسي.

الفصل الثاني :

النجف الأشرف



الشيخ محمد جواد مغنية طالب في النجف الأشرف ١٩٢٦ م

العلم النجفي

الكتب :

أرسل الأزهر بعثة علمية للتدريس في كليات لبنان، فتعرفت على أفرادها وتوطدت روابط الصداقة بيني وبين رئيسهم، أحببت أن أطلع على الكتب التي يقرؤها رجال الأزهر، وأطلعه على الكتب التي يقرؤها رجال النجف، فاستعرت منه ما أردت وأعطيته مجلداً من مجلدات الجواهر، وكتاب الجواهر أعظم موسوعة فقهية عند الشيعة الإمامية، وبعد أيام سألته عن رأيه في الكتاب، قال يحتاج العالم إلى أن يبذل جهداً كبيراً لقراءته وجهداً أكبر لفهم مطالبه، والوقت لا يتسع للجهدين معاً .. قلت له: صدقت.

الدروس :

إن الدروس النجفية كمّاً وكيفاً هي مسلمات متوراثة جيلاً بعد جيل لم تمسها يد التقليم والتطعيم إلاّ نادراً .. ونفس الشيء يقال فيما تخرجه المطابع من كتب فقهية وأصولية ورسائل علمية لشيوخ النجف .. يدور الخلف في فلك السلف، ويعيد اللاحق ما قاله السابق باللفظ والمعنى .. مع العلم بأن قسم المعاملات من الشريعة الإسلامية يتسع كثيراً للتجديد.

ولو أن الفقهاء تجاوزوا أسوار النجف وكتبها المتوارثة، واطلعوا على

المنجزات الحديثة أو طرف منها في ميادين شتىٰ بخاصة قوانين العصر واجتهاداته، وأعادوا النظر في التراث علىٰ ضوء أحدث المعلومات، لو فعلوا ذلك لأثروا الفقه الإسلامي، وكانت أفكارهم في الطليعة، وكانوا أبعد صيتاً في الشرق والغرب .. والغريب أن الكثير منهم أمضىٰ عشرات السنين في دراسة الفقه وتدريسه، ومع هذا لم يسمع باسم «السنهوري»[1] فضلاً عن قراءة شيء من كتبه.

عقلية أفلاطون وأرسطو:

في النجف وقم علماء موهوبون يبذلون جهوداً مضنية لا تقل عن جهود المكتشفين والمخترعين من علماء الطبيعة، ولكن ما زالت عقلية افلاطون وأرسطو والملا صدرا تسيطر علىٰ مدرسة النجف وقم، وتقول هذه العقلية: إن العلم يطلب كغاية لأنه شرف وفضيلة بذاته، وأنه في واقعه وحقيقته تأمل عقلي خالص، وتفلسف نظري بحت، وأن المحقق المدقق هو يتقن الحوار والجدال، ويفحم من يعارض رأيه وقوله بالأقيسة المنطقية والالزامات العقلية، أما التطبيق العملي وخدمة الحياة وحل مشكلاتها ـ فيأتي علىٰ الهامش، بل لا وجود له.

احتقر افلاطون وأرسطو ومن علىٰ فلسفتهما، احتقروا العمل ونفروا منه لأنه بشتىٰ أنواعه عار يختص بالعبيد، والشريف من يحيا حياة الفراغ والبطالة ويعفيه الأرقاء من كل جهد جسدي، واذن فلم يبق للعلم الأعلىٰ أية ثمرة إلاّ مجرد النظر والتفكير والتعمق في التحليل، وأية محاولة لاختبار صحة الفكرة في عالم

---

١ ـ حقوقي مصري عالمي أحاط بالشرائع السماوية والقوانين الوضعية، أشهر مؤلفاته الوسيط ١٢ مجلداً.

التطبيق والعمل تهوي بالعلم إلى الأسفل[١].

ومن جملة ما قرأت أن المخترع في العصور القديمة كان يخفي مخترعاته حرصاً على أن يذكره الناس بأنه عالم نظري لا عملي، لأن العمل عيب من شؤون الارقاء .. وأيضاً قرأت أن افلاطون غضب غضباً شديداً على عالم رياضي لأنه طبق ميكانيكيا مسألة هندسية نظرية، وقال له: شوهت جلال العلم وهبطت بالعقل إلى العمل الذليل.

وهذا يفسر لنا انتشار الكسل والبطالة بين أبناء العلماء «والأفندية والبكوات» إلى زمن قريب، وقد أدركت ذلك وشاهدته .. وقيل «لأفندي» عاملي: لماذا لا تعلِّم أولادك؟ قال: نحن نورث المجد ولا نورث العلم! والمجد في مفهوم هذا الأفندي أن يأنف من عمل نفسه، ويأكل من عمل غيره.

والآن قد ذهب عصر التجريد والترفع عن العمل، وجاء عصر المصانع والأنابيب، وأصبح العمل شعار الشرفاء بعد ان كان عنواناً للأرقاء، وصارت كلمة الكادحين اسماً للأحرار الذين يصنعون التقدم والحضارة، وآمن العلماء والفلاسفة في هذا العصر بأن أية فكرة لا تخدم الإنسان وترفع من حياته وتحل مشكلة من مشكلاته فهي مجرد وهم وخيال ... وما دام كذلك فلماذا تصر النجف وقم على إبقاء ما كان في عصر الرقيق؟

وبالمناسبة أشير إلى أن أحد مراجع النجف في عهدي ألف كتاباً في الفقه فانبرى له أكثر من واحد يجادله، ويبرهن على صحة الرأي المضاد لا لشيء إلاّ ليثبت أنه هو أيضاً من الراسخين في التحليل النظري الدقيق العميق! .. يا سبحان الله!

---

١ ـ استعرت التعبير بالعلم الأعلى والأسفل من صاحب الأسفار.

التوجيه:

تهتم المدارس والمعاهد أو معظمها بتوجيه الطالب إلىٰ العمل لحياة أنقىٰ وأفضل بعد نجاحه وتخرجه، وتستخدم لذلك شتىٰ الأساليب تماماً برسوخه في المادة التي يدرسها ... ولا أثر لهذا التوجيه في النجف أو في قم، بل إن بعض الأساتذة يفسد عقل التلميذ بأساطير ما أنزل الله بها من سلطان، ويصرفه من غير قصد عن الحياة ومشكلاتها، كالاستعمار، والظلم الاجتماعي والتفرقة العنصرية ...

ورأيت طالباً، وأنا في قم، يبرر حرب الولايات المتحدة في فيتنام، بل ويتحمس لها ضد الشعب الفيتنامي ... وأنا لا أعرف دخيلة هذا الطالب، وأنه منزه عن الغرض بلا ريب ... وأظن أن الذي غرر به سذاجة استاذه، وإيمانه بأن شعب فيتنام لا يؤمن بالله تجب إبادته، جاهلاً بأن الظلم إثم كبير بشتىٰ أنواعه.

وفي كتاب أصول الكافي عن المعصوم: «**إن الله لا يدع ظلامة المظلومين وإن كانوا كفاراً**»[١] ... «**من أصبح لا يهم بظلم أحد غفر الله ما اجترم**»[٢]. ومعنىٰ هذا أن كراهية الظلم والكف عنه حسنة لا تضر معها سيئة إلاّ الشرك للنص القاطع: «**يا أبا ذر كف أذاك عن الناس فإنه صدقة تتصدق بها علىٰ نفسك**»، أي أن مجرد كف الأذىٰ مع القدرة عليه فضيلة يثاب عليها المرء ويمدح.

---

١ ـ [في أصول الكافي، للشيخ الكليني: ج ٢ / ص ٣٢٠ / ١٤ كتاب الإيمان والكفر، باب الظلم: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله عزوجل أوحىٰ إلىٰ نبي من أنبيائه في مملكة جبار من الجبارين أن ائت هذا الجبار فقل له: «إنني لم أستعملك علىٰ سفك الدماء واتخاذ الأموال، وإنّما استعملتك لتكف عني أصوات المظلومين فإنّي لم أدع ظلامتهم وإن كانوا كفاراً»].

٢ ـ [أصول الكافي، للشيخ الكليني: ج ٢ / ص ٣١٩ / ٨ كتاب الإيمان والكفر، باب الظلم، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].

المؤسسات الدينية وموقفها من الفئات الباغية :

وإذا اتهمنا النجف بالتقصير في بعض الميادين، فعلينا أن نعترف بما لها ولقم أيضاً من فضل وامتياز على سائر المؤسسات الدينية، فما انضوت واحدة من هاتين المؤسستين تحت لواء السياسة الباغية، ولا استخدمت الدين في يوم من الأيام كأداة لمساندة القوى المعتدية، أو ضد القوى الوطنية المخلصة ... بل على العكس فقد ثارت النجف سنة ١٩٠٩ م ضد الاستبداد والدكتاتورية بقيادة الشيخ كاظم الخراساني وضد الانكليز سنة ١٩٢٠ م بقيادة الميرزا محمد تقي.

أما معظم المؤسسات الدينية في أوروبا وأمريكا، فإنها ساندت الاقطاع والاستبداد من قبل، والاستغلال والاستعمار من بعد ... وبالأمس تقرّب وتحبب المجمع المسكوني إلى الصهيونية أو اليهودية، ومنحها وثيقة البراءة من دم السيد المسيح، وخالف بذلك نص الانجيل .. وحج بابا روما إلى بيت المقدس وزار إسرائيل. وبعد هذه الزيارة والحجة اعتدت دولة الصهاينة على الدول العربية .. وبعد هذا الاعتداء الأثيم صدر بيان الكهنة الفرنسي يبارك إسرائيل علناً وبلا خجل حتى ظن كثير من الناس أن هذا البيان صدر بغضاً بالإسلام والمسلمين لا حباً بالصهيونية والصهاينة.

وقلت: معظم المؤسسات الدينية في اوروبا وأمريكا ولم أقل كلها، لأن في بعضها وبخاصة أميركا اللاتينية قسيسين ورهباناً يشعرون بالمسؤولية إزاء البشرية كلها، ويناضلون ضد الظلم واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ويلاقون في هذه السبيل أنواع الاضطهاد والتنكيل .. وأيضاً فينا نحن المسلمين ضالة ممن يلبسون ثوب الدين وغيرهم تمهن الخيانة والعمالة لقوى الشر والطغيان .. ولكن هذه

الحثالة معروفة، والحمد لله، بالعين والأثر، وقد فضحها وشهر بها أكثر من أي شيء آخر.

الحرية في التعليم النجفي:

للدراسة في النجف مرحلتان، كما أشرت في الصفحات السابقة، ولكل منهما كتب مقررة، ولكن لا أحد يلزم الطالب بدراسة مادة معينة، أو كتاب خاص، بل يترك هو وحريته يختار المادة والكتاب والاستاذ كما يشاء لكي يستخدم طاقته بنفسه، ويتحمل تبعة عمله. ومدرسة النجف وقم تترك للطالب حرية تكوير عمامته كمّاً وكيفاً والواقع أن في هذه الحرية نفع كثير وفيها أيضاً ضرر غير قليل حيث يختلط الحابل بالنابل، والأصيل بالدخيل وكل شيء فيه جانبان: سيّىء وحسن، والذي يركّز علىٰ أحدهما دون الآخر لا يمكن تبرئته من الجهل أو الهوىٰ والغرض.

والخلاصة أن مدرسة النجف وقم امتداد للمدرسة القديمة مضموناً ومنهجاً، ولكن من هذه المدرسة وأوراقها الصفراء تخرج أئمة الفقه والدين، وعمالقة العلم والفلسفة، وأعلام الأدب والفن .. وإذن فليست العبرة بالنظام وكفىٰ، وبل وبالكفاح المتواصل والصمود أمام المصاعب والاعتماد علىٰ النفس بعد الله سبحانه .. وهذا هو حجر الأساس.

والشيء الذي لا عذر فيه لمدرسة النجف وقم هو ميلها إلىٰ العزلة، ووقوفها علىٰ الحياد من الأحداث العالمية، ما سمع لها صوت مع ثورة الجزائر، ولا ضد الحروب الاستعمارية، وضد التفرقة العنصرية في أمريكا وجنوب أفريقيا وروديسيا ولا ضد السلاح الذري وتحريمه وإلىٰ غير ذلك.

من علوم النجف :

يخطىء أفحش الخطأ من يظن أن علوم النجف غيبية بحت، تبتعد بالطالب عن واقع الحياة .. إن النجف تدرّس العلوم العربية بشتىٰ فروعها وأقسامها .. وبديهة أن هذه العلوم من الحياة في الصميم، ولها دورها الفعال في التفاهم بين البلدان والأقطار التي تتكلم بهذه اللغة، وربط بعضها ببعض .. بالإضافة إلىٰ أنها الوسيلة الوحيدة إلىٰ معرفة التراث الضخم الذي تركه العرب والمسلمون في شتىٰ الميادين.

وأيضاً تدرس النجف المنطق والفلسفة وعلم التوحيد، وفي هذه العلوم يبرز الجهد العقلي بأوضح وأكمل معانيه، ومن هنا كان اهتمام الجامعات العلمانية والدينية بها علىٰ السواء.

أما علم الأصول فإنه يتصل بالعلوم العربية، وبالمنطق والفلسفة أوثق اتصال .. فهو يبحث عن مداليل صيغ الألفاظ وهيئاتها، كالأمر والنهي والعموم، وما إليه، يبحث عنها بما هي، وبصرف النظر عن ورودها في الشرع أو غيره، كما يبحث عن حكم العقل بقبح الشيء أو حسنه بما هو .. هذا، إلىٰ أن علم الأصول هو العنصر الهندسي للفقه.

أما علم الفقه فإن به تستخرج الأحكام من مظانها لجميع ما تتطلبه الحياة العامة والخاصة، ومحال أن ينتظم المجتمع بدون هذا العلم ... ومن هنا أنشئت له مجالس التشريع، وخصصت لتدريسه كليات الحقوق والقانون.

وبهذا يتبين أن العلوم لا غنىٰ عنها بحال، ولو ابتعدت بالطالب عن الحياة لما احتل علماؤها الكبار مكان العظمة في تاريخ الإنسان.

ملاحظات مهمّة:

كان فيما مضىٰ عالم يجلس في مكان الصدارة، فسأله منافس في المهنة عن شيء؟ قال العالم: لا أعلم. قال المنافس بزهو: لماذا إذن تجلس في هذا المكان؟ قال العالم: ويلك .. إن هذا المكان لمن يعلم شيئاً، والذي يعلم كل شيء لا مكان له.

وقال أفلاطون: إن الحق لم يصبه الناس في جميع وجوهه، ولا أخطاؤه في جميع وجوهه.

وهذه الحقيقة تنطبق علىٰ النجف وغير النجف .. وأن الكثير من شيوخها وطلابها المخلصين الفاهمين يدركون ذلك، ويعلمون أن النجف بحاجة إلىٰ اصلاح يدفع بعجلتها إلىٰ الأمام .. وتجاوباً مع هؤلاء أسجل الملاحظات الآتية، ولو كره الذين يفضلون الثناء الكاذب علىٰ كلمة الحق والصدق:

١ ـ إن النجف في حقيقتها وواقعها جامعة إسلامية لا طائفية، عملت طوال ألف عام في خدمة الإسلام، ونشر تعاليم القرآن والسنة النبوية، وصانت شريعته من الجمود، وتسرّب البدع، وما يثير الشكوك والشبهات وأنجبت للإسلام والمسلمين أضخم العقول، وأغنىٰ الأفكار.. ومع هذا كله فإن أكثر المسلمين، أو الكثير منهم يظن أن النجف للشيعة والتشيع فقط، وأنها عاصمة التعصب لطائفة، ولمذهب ضد مذهب .. بل هناك بلدان إسلامية ومعاهد دينية لم تسمع باسم النجف علىٰ الإطلاق، أو تسمع باسمها، ولا تعرف عنها كثيراً ولا قليلاً.. والسر هو عزلة النجف، والتزامها الصمت، وانطواؤها علىٰ نفسها، وعدم التعبير عنها بأية وسيلة من وسائل الدعاية والنشر، فلا إذاعة تهتم بشأنها، ولا صحيفة واسعة

الانتشار أو بعثات تجوب الأقطار تتحدث عنها، وتكشف عن مهمتها وتعرف الناس بحقيقتها وأعمالها، مع العلم بأن الدعاية للنجف دعاية للإسلام، وأن الأموال متوفرة أو يمكن أن تتوفر لهذه الغاية.

٢ ـ ليس للرئاسة تخطيط معروف، ونظام معين يلتزمه رئيس الحوزة والمراجع الأوَل، فكل من يتولىٰ الرئاسة له نظام مستقل قائم بنفسه .. وبالأصح النظام هو الخليط من الحواشي والمستشارين، ومنهم طلاب عيش لا طلاب علم، ولا دعاة مبدأ .. وهمهم الأول والأخير أن يتسابقوا بين يدي الرئيس ومن خلفه، ويتظاهروا بالزهد والقداسة لخداعه، والفوز بثقته التي تملأ جيوبهم، و «تفرفح» قلوبهم ..

٣ ـ تأتي النجف أموال طائلة من بلدان الشيعة باسم الأخماس والزكوات، فيستقل الرئيس بالتصرف فيها، لا يسأله أحد: كم هي؟ ولا أين هي؟ ولسنا نشك في نزاهته وأمانته، ولا في مقدرته وكفاءته في إلقاء الدروس، وحل المشكلات العلمية، وصواب الأجوبة عن المسائل الدينية التي تتوارد عليه ليل نهار، ولكن الفرق بين العدالة والكفاءة كالفرق بين السلطة القضائية، وبين القوىٰ التي تحافظ علىٰ الأمن .. إن العالم ينشر العلم، ويغرس في نفوس تلاميذه ملكة الإجتهاد، ويمون عقولهم علىٰ التمحيص والتحقيق، أما الإدارة والتنظيم، والإجراءات التي تستدعيها الظروف والمناسبات، وتدعيم الجامعة في الداخل والخارج، أما هذا وما إليها فيوكل أمرها إلىٰ العارفين بها، والقادرين عليها .. وبديهة أنه لا ترابط بين الاثنين ..

أجل، إن هذا لا يمنع أبداً أن يختار الرئيس الأكفاء لهذه المهمة، ينفذونها بدقة وأمانة، ويقدمون له الحساب عما يقومون به من أعمال، وينصرف هو للبحث والتدريس، حتىٰ ولو كان له الخبرة التامة بالإدارة والتنظيم فإنه أعجز من

أن يقوم بالمهمتين معاً: التدريس وإدارة الجامعة التي تضم الألوف من الاستاذة والطلاب.

٤ ـ يترك الطالب وشأنه .. يدرس ما يشاء، ويحضر أية حلقة يشاء .. لا امتحان ولا رقيب ولا شيء على الاطلاق .. ومن هنا كثرت الدعاوىٰ الكاذبة والألقاب الفارغة، وارتدىٰ هذا الثوب من لا يمت إليه بسبب أو نسب.

هذه ملاحظات سريعة أشرت إليها بالمناسبة .. وقد رغب إلي أكثر من واحد من أهل الفضل والوعي والإخلاص أن أضع كتاباً خاصاً أتحدث فيه عن أوضاع النجف، والسبيل التي تحررها من التقاليد الموروثة جيلاً عن جيل، وحجتهم بأن مثل هذا الكتاب إن لم يأت كلّه في العاجل فسيكون له أحسن الأثر في الآجل .. وسأحاول، وعلىٰ الله التوفيق، مع علمي بأن مثل هذا الكتاب يثير ضجة الذين سمموا أهواء النجف، وعكروا صفوها .. ولكني علىٰ المبدأ المعروف، لا أهتم بالقيل والقال ما دمت علىٰ يقين من أمري، وثقة بأني أخلص تلامذة النجف للنجف، وأبر أبنائها، وأقصىٰ أمنيتي أن تكون دائماً في طليعة الركب[1]. كيف ولولاها لم أكن شيئاً مذكوراً.

مدينة النجف:

النجف لغز محيّر .. يدخلها واحد من الناس، لا يعرف له أصل ولا فرع، لا مال له، ولا كفيل من إنسان أو نظام، ولا شغل في تجارة أو مهنة أو غير ذلك، ولا

١ ـ من غرائب الصدف أني بعد أن انتهيت من كتابة هذه الكلمات اتصل بي المشرفون علىٰ التلفزيون في لبنان ورغبوا أن أسجل ٦ حلقات فاشترطت أن يكون لي اختيار الموضوع، وكان حديثي عن النجف الأشرف في حلقة خاصة.

شيء على الإطلاق إلاّ القصد إلى طلب العلم .. ثم تمضي الأيام وإذا بهذا النكرة المعدم علم بين الأعلام .. أليس هذا في ظاهره خارقاً للمعتاد؟ إن النجف لا نظير لها في العالم كله ـ على ما أعتقد ـ لا نظير لها في وضعها المعقد، وفي عيش الطالب فيها، فأول مشكلة تواجه الطالب الغريب هي مشكلة التوافق والانسجام بينه وبين أوضاعها، فإذا استطاع أن يصبر عليها، ويلتحم معها أمكن أن يصل إلى ما يبتغيه من طلب العلم، وإلاّ فليرجع من حيث أتى.

يستطيع الطالب، أي طالب، ودون أن تعرف هويته وحقيقته، وبلده وأسرته، يستطيع ـ على أسوأ الاحتمالات ـ أن يحصل على الخبز الكافي، وعلى غرفة صغيرة في المدرسة بالمجان، وعلى أستاذ عارف ناصح، يخلص في تدريسه وتوجيهه من غير مقابل، أما كتب الدراسة فيحصل عليها بالاعارة وبسهولة من الطلاب الذين تجاوزوها إلى غيرها، كما يوجد العديد من الكتب الموقوفة لهذه الغاية، أما التطبيب والدواء فمشاع في العراق للفقراء والأغنياء، وللمواطنين والغرباء.

وأهل النجف ـ على وجه العموم ـ أذكياء ظرفاء .. لهم حس شعري، وطبع مرهف، وسجيّة غريبة في سرعتها إلى الجواب الناعم اللاسع، والسخرية الحلوة، وهم أكثر الناس تسامحاً في تقبلها، وأشدهم تقديراً للنكت التي تعبر عن الذكاء، وصفاء البديهة.

ومن خصائص النجف أنها لا تعرف الجديد، بل لا تريد أن تتعرف عليه لا في مواد الدراسة ولا في أسلوبها .. فهي هي منذ مئات السنين .. أجل، إنها تترك الطالب وإرادته، يسلك السبيل التي يريد، لا تفرض عليه شيئاً، ولا تتدخل في شأن من شؤونه .. والسر أن النجف لا تسيطر عليها جهة سياسية، ولا هيئة معينة، ولا شركة تجارية، لا أحد على الإطلاق، أما المال فمن المحسنين، والأغنياء

المؤمنين.

ومن خصائص النجف، أو من فضائلها أنها لا تقيم وزناً للشهادات تُرسم حبراً على ورق، وأن الوسيلة الوحيدة عندها إلى معرفة الكفاءة والفضيلة هي التجربة والآثار المحسوسة الملموسة، هي المؤلفات، والمطارحات العملية، ومقارعة الحجة بالحجة .. وأحسب أن لا يحمل أي نوع من الشهادات أكبر العلماء في النجف.

والله سبحانه المسؤول أن لا يكون من خصائص النجف الخلط وعدم التمييز بين الناصح والكاشح .. وأقسم أني ما رأيت منتسباً إلى النجف وجامعتها يعوزه الوعي والمعرفة بالدين، بخاصة بالشريعة إلاّ شعرت بالخسارة، بل بالكارثة على المذهب والطائفة، سواء أكان قد تخرج من كلية الفقه، أو من مسجد الهندي... فإن مثلي الأعلى كان، وما زال قول الرسول الأعظم لله جل وعز: «**إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي**»[1].

ومن حسنات النجف التي يجب أن تسجل للحقيقة أنها قدمت على مدى ألف عام خدمات جلى للإسلام بعامة، وللتشيع بخاصة، ومن هنا كان احترامها البالغ لكل عامل في هذا الميدان، ولكل من تثق بدينه، وإخلاصه لأمته.

النجف في ألف عام؟

قلت لصاحبي: ألا تكتب مقالاً لمجلة «النجف» وأجرك على الله؟

قال: اقترح الموضوع.

---

١ - [تفسير القرطبي للقرطبي: ج ١٦ / ص ٢١١ ؛ وتفسير ابن كثير، لابن كثير: ج ٤ / ص ١٧٦].

قلت: في فلاسفة الشيعة.

قال: الموضوع صعب.

قلت: في المقارنة بين من خرجتهم النجف بالأمس، ومن خرجتهم اليوم.

قال: الموضوع شائك.

قلت: في أعلام المؤلفين الشيعة.

قال: سأحاول.

وعلى هذا تفارقنا، ولكن بقيت أفكر في الموضوع الأول، قلت بيني وبين نفسي: إن في النجف الأشرف علماء في الفلسفة، كما فيها علماء في الفقه والأصول، فلماذا لا يكتبون في هذا الموضوع؟ لماذا لا يثبتون بالأرقام للعالم كله أن للمسلمين فلسفة مستقلة عن كل فلسفة، وأنهم مؤسسون لا ناقلون عن اليونان، وأن الفرق بين الفلسفة اليونانية وبين الفلسفة الإسلامية كالفرق بين المركب الشراعي وبين المركب البخاري، وكالفرق بين الكوخ وبين ناطحات السحاب.

فهل تتحقق أمنيتي هذه؟ هل يكلف صاحب مجلة «النجف» الأكفاء ليكتبوا في هذا الموضوع؟ هل أقرأ في الأعداد المقبلة مقالاً أو أكثر بهذا العنوان؟

أما الموضوع الثاني فهو في الحقيقة بحث في تاريخ النجف الأشرف، وبالأصح في تطورها وتقدمها أو جمودها وتأخرها ولا أخفي القارىء أني منذ سنوات، وأنا أحاول الكتابة في هذا الموضوع، ولكني لم أوفق وبالتالي يئست، وليأسي قصة، فيها ألف غصة وغصة.

القصة والغصة :

منذ شهور مضت قرأت كتاباً يقرب من مائتي صفحة، للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي، واسم الكتاب «الأزهر في ألف عام» وهو المجلد الأول، وإليك بعض مواضيعه:

تأسيس الأزهر وبدء حياته الجامعية. قوانين الأزهر. الأزهر والحركة العلمية. الأزهر وتاريخنا القومي. جهاد الأزهر.

القوة الشعبية في الأزهر .. تحديد اختصاص مشيخة الأزهر. بعثات الأزهر إلى أوربا. الاعتراف بشهادة الأزهر. الأزهر يغذي الثورات، وما إلى ذلك.

أما الغصة فيشاركني فيها الكثير، ثم أين المصادر لهذه المواضيع؟ وأين قانون جامعة النجف، وتحديد اختصاص المرجع الأعلى وأين الدولة أو الجامعة التي تعترف بشهادة النجف؟!

ولكن نحن في النجف ندرس قاعدة الميسور، وباب الإجزاء، أي الاكتفاء بالبدل الاضطراري عن المطلوب الواقعي، فلماذا لا نطبق ذلك علمياً؟! فنكتب في مجلة النجف نفسها مقالاً بعنوان البعثات النجفية إلى البلاد الإسلامية، وأثر النجف في الثورات التحررية، واللغة العربية، والشريعة الإسلامية، وعن القوة الشعبية للنجف، ولا أظن أن بلداً في الشرق والغرب يشارك النجف في هذه القوة، لماذا لا نكتب في الشهادات العلمية وتسامح بعض السادة الأعلام فيها.

قصة ثانية دونها كل غصة :

في سنة ١٩٥٤ م أعلنت العدلية في لبنان أنها ستجري امتحاناً للمرشحين لمنصب القضاء الجعفري، ويشترط في المرشح أن يكون حائزاً على شهادة الدروس الدينية العليا من جامعة النجف، وتقدم المرشحون بشهاداتهم، وفيهم الغث والسمين، ولما اطّلع مدير العدلية على بعض الشهادات استغرب الأمر، لأنه على علم اليقين من عدم كفاءة بعض المرشحين، فقال لي في دهشة وذهول: ما هذا؟! أجبته أني أعرف الكثير من حاملي الشهادات العليا «الدكتوراه والليسانس» المتخرجين من جامعات أوربا وغيرها، وهم أجهل من أمي، فلتكن هذه من تلك، وليكن الاعتماد على الامتحان، وهل تعين الحكومة قاضياً مدنياً بمجرد الشهادة وبدون امتحان.

قال: أجل، عند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

وبالتالي: فهل يقدر الله أن نقرأ في القريب العاجل، وفي مجلة «النجف» بالذات بحوثاً تكون مصدراً لمن يريد أن يؤلف كتاب «النجف» في ألف عام؟!

حول النجف الأشرف :

سألني عالم يعرف مهمّته جيّداً عن رأيي في بعض الكتب والنشرات التي صدرت حديثاً في النجف الأشرف .. فصارحته بما أعتقد.

ثم انتقل بنا الحديث إلى أشياء أخرى من صادرات النجف ووارداتها، الأهم من التأليف والنشر، وغير الأهم، وشعرت ـ بعد أن افترقنا ـ أنّ شبح السؤال

يطاردني، بل ويضايقني أيضاً، ويقف نصب عيني أني اتجهت في الطريق .. مع الناس .. في الفراش .. ويلح عليّ في أن أكتب شيئاً أيّ شيء، ولو فيما يجب أو ينبغي أن تلتزمه تلك المؤلفات والنشرات، وحاولت بكل سبيل أن أصرف شبح السؤال عن ذهني، فلم أُفلح، وذهبت محاولتي مع الرياح، فلبّيت علىٰ غير اختيار:

إنّ الكاتب نجفيّاً كان أو غير نجفي، مؤلفاً أو غير مؤلف لا يكتب النجاح لأقواله إلاّ إذا حقق أحد هذه الأمور:

الأول: أن يأتي بجديد لا يعرفه أحد غيره.

الثاني: أن يجلو غامضاً استعصىٰ فهمه علىٰ غيره.

الثالث: أن يساند الحق بالأرقام والحجج الدامغة، ويدفع شبهات المبطلين بسلاح أقوىٰ وأمضىٰ من أسلحتهم وأباطيلهم.

هذا من حيث الفكرة، أما من حيث الأسلوب فالشرط الأول التركيز والثاني التوضيح والثالث الإختصار علىٰ أن ينطلق الكاتب مع سجيته، ولا يشغل نفسه باختيار الألفاظ، ورصف العبارات، فما تكلّف أحد البلاغة إلاّ جاء كلامه أشدّ علىٰ القارىء والسامع من ضرب السياط، ولماذا يخشىٰ البساطة، وهي أصدق تعبيراً، وأكثر تأثيراً؟!

أضع هذا القياس بين يدي القارىء، ليقيس بنفسه ما صدر ويصدر في النجف من الكتب والصحف والنشرات، ولا يطمع مني بأكثر مما قلت.

والذي يستلفت النظر أن النجف ـ وهي جامعة دينية، وليست مدرسة تعلّم الفن والجمال ـ قد خرّجت أُمراء في الشعر، بل وأئمة أيضاً، كما خرّجت أئمة في الفقه وأقطاباً في العلم والفلسفة، أما في مضمار الكتابة والنثر فما زال بينها وبين الأساليب الحديثة مراحل، فما هو السر يا ترىٰ؟ .. أليس كلّ من الشعر والنثر من

مقولة اللسان والبيان؟

ونجيب ـ على سبيل الظن ـ أن المدرسة الأدبية الحديثة قد تركت أثرها وطابعها على النثر العربي الموروث وشعره، ولكن تأثير هذه المدرسة على النثر كان أقوى بكثير من تأثيرها على الشعر، حتى كادت تنسخ الأسلوب القديم في النثر من الأساس، وحتى أصبح الناس على اختلاف أذواقهم وفئاتهم لا يستسيغون المناهج القديمة لا في الرسائل والنشرات، ولا الكتب والمؤلفات، أما الشعر القديم فما زال محتفظاً بمكانته، مستساغاً لدى الجميع، يقبل عليه العلماء والأدباء والطلاب يحفظونه ويتدارسونه.

إذا عرفنا هذا، وعرفنا أيضاً أن النجف ما زالت تحتفظ بطابعها الإسلامي والعربي الموغل في القدم، وأنها أبعد الجامعات عن كل ما استجد من المناهج والأساليب والغايات الفنية أدركنا لماذا خرّجت النجف أُمراء في الشعر دون النثر.

ولكن النجف أحوج إلى النثر والكتابة منها إلى الشعر والنظم، لأنه من الممكن أن تعيش بلا شعر، ولا يمكن أن تعيش بلا نثر يعبّر عن حقيقتها، ويسمع صوتها الشرق والغرب، ويفرض عظمتها على البعيد قبل القريب بما تملكه من ذخائر وكنوز.

وقد يقال: لماذا لا تعبّر أنت عن النجف ما دمت تملك وسائل التعبير، وقد أوجدتك النجف من العدم، ولولاها لم تكن شيئاً مذكوراً؟ ألم تؤوك بعد اليتم، وتغنك بعد الفقر، وترفع ذكرك بعد الخمول؟!

قلت: أجل، وما أنا بمؤدّ بعض شكرها، وإن حرصت، وأتمنّى لكل من خرّجته النجف العلم والعمل الصالح، والخير والنجاح المطرد، ليثق بنفسه، ويلهو عن غيره، وإذا هيّأتني النجف لما أنا فيه فقد خرّجت أعداء لي ـ إن صح التعبير ـ لا

لذنب إلاّ أني تخرّجت وإياهم من جامعة واحدة، ثم تيسر كل لما خلق له .. وما لنا وللشكوىٰ؟! فلنعد إلىٰ الجواب.

لو كانت الدعاية إلىٰ النجف، والتعبير عن عظمة النجف، وتراثها الخالد، وكنوزها القيمة المتنوعة تتم بمقال أو مقالين لقضي الأمر منذ زمان وزمان .. إن النجف إذا أرادت أن تسمع صوتها للقريب والبعيد، وتفرض نفسها علىٰ الجميع فلا وسيلة لها إلاّ الإذاعات المتواصلة، والبعثات الواعية، والصحف المنتشرة في جميع الأوساط .. وليس من شك أن هذه تحتاج إلىٰ جهاز باهظ التكاليف.

وقد رأينا للأزهر مجلة الأزهر، بل إن جميع صحف القاهرة في خدمة الأزهر والدعاية له، ورأينا بعثات إلىٰ أوربا وأفريقيا وبلاد آسيا، وفي العام الماضي ذهب شيخ الأزهر بنفسه إلىٰ أندونيسيا وغيرها .. ويؤلمني أن أقول: إن للشيعة بلاداً لا تعرف النجف عنها شيئاً، ولا هي تعرف عن النجف شيئاً، وآخر خبر سمعته أن في الجزائر جبلاً نائياً، جميع أهله من الشيعة الإمامية.

النجف الأشرف في القرن العشرين :

تضم مدينة النجف أناساً من بلاد شتىٰ، ففيها من إيران والأفغان وروسيا والهند والتبت والبحرين والحجاز وسوريا ولبنان والعراق، ويبلغ عدد نفوسها حوالي ثمانين ألفاً وعلىٰ الرغم من اختلاف هذه العناصر، فإن للنجف طابعاً خاصاً يجمع سكانها ـ في الغالب ـ ويميزهم عن غيرهم، هو طابع الدين بشتىٰ فروعه وشعائره، ففي وسط المدينة يقع الضريح الشريف تحيط به الأسواق والأحياء من جميع الجهات، وفي كل حي مدارس دينية، ومساجد عديدة ولكل مسجد إمام لصلاة الجماعة، وحلقة أو حلقات للدرس.

ولا يوجد في النجف دور للسينما، ولا محلات للخلاعة وآلات للهو والطرب، ولا حوانيت لبيع الخمرة، فأنّىٰ اتجهت تجد حلقات الدرس ومجالس الوعظ والإرشاد والتعزية، والصلاة جماعة وفرادىٰ، وتلاوة القرآن والأدعية والأذكار والمناجاة، خاصة في عشر المحرم وشهر الصيام وأيام الزيارات، فالنجف مدينة دينية بمدارسها ومساجدها ومجالسها وأنديتها، وأكثر عاداتها، شعارها البساطة والتواضع، لا فرق فيها ـ في الغالب ـ بين فقير وغني في ملبس أو مسكن، بل نجد الكثير من أرباب الأملاك تركوها لغيرهم، وانصرفوا إلىٰ العبادة، فكثر فيها الزهاد والعباد والمتصوفون، وهاجر إليها ناس كثر من أقاصي البلدان لهذه الغاية معرضين عن الدنيا وملذاتها، وعلىٰ كل من يقيم في النجف أو يدخلها أن يخضع مختاراً أو غير مختار للدين وشعائره بحكم البيئة وتقاليدها، وليس باستطاعة أي إنسان كائناً من كان أن يخرج علىٰ هذه الأوضاع الموروثة.

والحق أن تلك العادات تبعث في النفس الرهبة والخشوع فتذكر بالله واليوم الآخر، وتخلق فيها وازعاً عن الغواية والقبائح ومن لم تهده النجف وتردعه عن محارم الله فما له من هاد، وكان مصداقاً لقوله تعالىٰ: **﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾**[١]... **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾**[٢].

حدثني المقدس السيد حسن محمود الأمين قال: كنت والمرحوم السيد شريف شرف الدين أخوين متصافيين، فأصابني داء الحمّىٰ ففقدت معه الشعور والإدراك، ونسيت كل شيء حتىٰ الصلاة وأفعالها وأقوالها، فكان يأتيني السيد شريف في أوقات الصلاة، ويجلس إلىٰ جانبي ويقول لي: قل وافعل، كما أقول

---

١ ـ [سورة الجاثية، الآية ٨].

٢ ـ [سورة الكهف، الآية ٥٧].

وأفعل، فيشرع بالصلاة وأنا أُتابعه. إن في هذا المثال صورة بارزة عن قداسة أولئك الصفوة الهُداة، وعن شعورهم بالواجب تجاه خالقهم وإخوانهم، إنّ مرض السيد حسن أسقط عنه الفرض، وإنّ السيد الشريف قد أبىٰ عليه دينه أن لا يذكر أخوه الحسن الله سبحانه في الأوقات التي كان يذكره فيها، فكان له عوناً علىٰ البر والتقىٰ في هذه الحال ليكون الله في عونهما في جميع الأحوال.

لقد كان من تأثير هذه العوامل الدينية أن أنجبت النجف أقطاباً تمحضت أقوالهم وأفعالهم لله وحده، فإن نطقوا ففي نطقهم الصدق والهداية، وإن سكتوا ففي سكوتهم التفكير والطاعة، وإن فعلوا ففي فعلهم الخير والصلاح، وإن آخوا آخوا في الله، وفي الله وحده.

حديث النجف وذكرياتها:

إذا اجتمعنا، نحن رجال الدين، وليس بيننا جليس ولا أنيس إلاّ منا وفينا حطمنا قيود الكلفة «بالإجماع» وتحررنا من أغلال الوقار والتزمت الموروث إلاّ من شذ، والشاذ نادر لا يقاس عليه مضافاً إلىٰ أنه معلوم النسب. نتداول الحديث في مرح وانطلاق، وبدون قيد أو شرط من شروط السيادة والفضيلة، فينتقل أحدنا من كلام إلىٰ كلام يعرض له بمناسبة قريبة أو بعيدة، هذا إذا لم يكن الحديث عن جور الزمان، ومزاحمة الاخوان وإلاّ فالمناسبة ليست جزءاً ولا شرطاً.

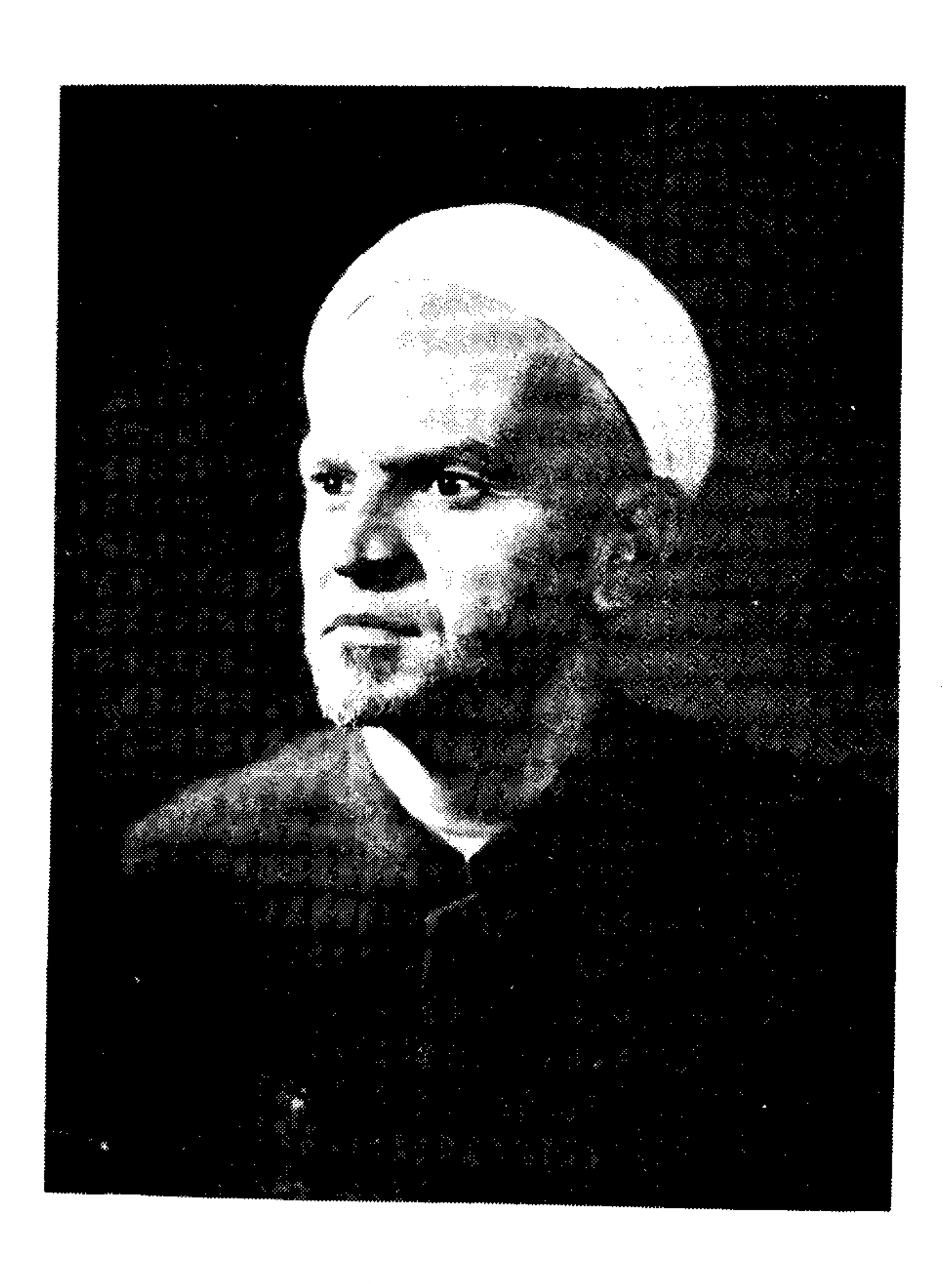
وألذ الأحاديث إلىٰ نفوسنا حديث النجف وذكرياتها، وحلقة الدرس وأستاذها، والرحلات إلىٰ الكوفة ومساجدها، وكربلاء وحسينيتها، والشواطىء وساقيتها، أما سر هذه اللذة والنشوة فيعود «إلىٰ حياتنا تلك البعيدة عن التحفظ والاحتياط علىٰ الرغم من أنه سبيل النجاة، وحسن علىٰ كل حال، كنا ننثر اللطائف

والنكات ذات اليمين وذات الشمال، ونرسل الضحكات والقهقهات، كيف شئنا وأردنا، حتىٰ الدرس لم يكن درساً وكفىٰ، بل كان درساً وسمراً، بل اغراقاً في الضحك من زميل زل لسانه، أو ذهل عن أمر، أو بدرت منه حركة نابية، أو .. فيتقبل متواضعاً شاكراً، وضاحكاً مستبشراً.

كانت حلقات الدرس تجمع بين الجد والهزل، والفائدة والمتعة التي تخدر آلام الطالب وأتعابه، وتنسيه الفقر وعذابه، أما أسلوب الأستاذ الحاذق الماهر، وطريقته في الإلقاء فيجمع بين الروعة والإبداع، روعة في الملاحظات ودقتها وإبداع في التنسيق والترتيب. يبدأ الأستاذ بتحرير المسألة، وتحديد مفهومها، ثم يذكر أقوال العلماء، وقد تنتهي إلىٰ العشرة، كمسألة «إقرار المريض» ثم يختار الأستاذ أحدها، ويستدل علىٰ صحة اختياره، ثم يكرُّ علىٰ الأقوال الأخر، ويتناولها واحداً واحداً، ويبذل أقصىٰ ما لديه من جهد لإبطالها والرد عليها حلاً ونقضاً، وقد ينبري أحد التلاميذ لأستاذه، وفريق آخر للطالب المعارض، فينقسمون إلىٰ موالين ومعارضين، ويحتدم الجدال، ويقوم علىٰ قدم وساق، تماماً كما في الأمم المتحدة، وأرقىٰ البرلمانات.

الفصل الثالث :

ثمن الحق



صورة معبرة للشيخ محمد جواد مغنية أُخذت له سنة ١٩٥٦ م

العودة إلى الوطن

هجمة غرور:

تركت النجف سنة ١٩٣٦ م لأحل محل أخي الأكبر الذي كان عالماً دينياً في إحدى قرى جبل عامل، لأن الله اختار إليه هذا الأخ، وهو في ريعان الشباب. وإذا تركت النجف ونفسي حسرات على مجالسها العلمية والأدبية، إلاّ أني كنت شديد الإعجاب بعلمي وذكائي، قوي الإيمان بكفاءتي التي ستضمن لي مستقبلاً زاهراً.

تخيلت أنني عندما أصل إلى جبل عامل، ستهرع الناس إليَّ أفواجاً تتقرّب إلى الله باحترامي، وتقبيل أناملي، فآمر، وأنهى، وما على الناس جميعاً إلاّ تسمع وتطيع، وسيكون شأني كشأن فلان وفلان من أبناء العلماء وساداتهم، لأني درست كما درسوا، ولبست العمامة كما لبسوها، وأطلقت لحيتي كما أطلقوها، وما هم بأوفر مني نصيباً في الفقه والأصول، ولا بأكرم مني حسباً ونسباً، هذا إلى أني نشرت مقالات في الصحف، وخطبت في محافل فاستحسن المستمعون جرأتي، وفضلاً عن ذلك كلّه فإني أنظم الشعر موزوناً.

وصلت إلى بلدي وأنا أحمل معي هذه الأطنان من الغرور والأوهام وأحشو رأسي بأحلام السعادة والأبهة، ومما زاد في غروري حفاوة بعض رجال الدين بي وثناؤهم على علمي ومقدرتي، وصلاتهم خلفي جماعة، ليدلّوا الناس إلى عدالتي وأمانتي على الدين.

كنت قبلاً أرىٰ في نفسي قروياً جاهلاً، لا أحلم باحترام أحد من الناس، ولا سبيل لي إلىٰ الرزق إلاّ عن طريق العمل، أما اليوم فإن عمامتي ولحيتي ستفرضاني فرضاً علىٰ الناس، فيجب عليهم أن يقوموا بجميع حوائجي، ويشبعوا زهوي وغروري بالإكبار والتعظيم.

بهذا السلاح الأشل الأبتر نزلت إلىٰ معترك الحياة في بادىء الأمر. وبهذه المقاييس العقيمة أخذت أقيس الأمور، ومن الطبيعي أن يكون نصيبي في البداية الفشل والخذلان، لأن هذه المقاييس أحدثت هوة سحيقة بيني وبين الناس كافة، ولم يتحقق لي حلم واحد من تلك الأحلام الجميلة، فلعنت الزمان وأهله، ونعيت علىٰ الناس عدم تقديرهم للفضيلة وأهلها.

إعراض الناس عن رجال الدين :

ما أكثر شكوىٰ رجال الدين، وتذمرهم من إعراض الناس عن الدين ورجاله أما سبب هذا التذمر فيختلف باختلاف الأفراد من رجال الدين، فإن منهم من لم يستمع له الناس إذ لا أثر له في نفوسهم ولا يمت إلىٰ شؤونهم المعيشية بشيء. ومنهم من ابتغىٰ رئاسة أو وظيفة، فلم يحصل منها علىٰ شيء، ومنهم من ضاقت عليه سبل العيش، وآخرون تهالكوا علىٰ التعظيم والتقديم وكان نصيبهم الحرمان، لأن الرأي العام لا يراهم أهلاً لذلك.

الناس لا تهب عفواً ولا تعطي من غير عوض، العطاء في منطق الحياة يرتكز علىٰ الأخذ والعكس بالعكس أيضاً. فعلىٰ العلماء الذين يطلبون من الناس أن تعطيهم عليهم هم أن يعطوا الناس أولاً، من تعليم للدين إلىٰ التزام بمطالبهم الحياتية والدفاع عنها، إلىٰ حل مشاكلهم وحل نزاعاتهم، وإلاّ

فالمآل هو الخسران الذي ينتج الزفرات والحسرات لأنّ الناس أصلاً في إعراض عن الدين وأهله.

ألقت الحياة عليَّ درساً لم أسمعه من أستاذ، ولم أقرأه في كتاب، درساً عملياً لا عهد لي بمثله من قبل، تعلّمت أنّ النجاح لا يقاس بالعلم والذكاء، ولا بالكتابة في الصحف، ولا بالجرأة والخطابة، تعلّمت أنّ هذه وحدها لا تبني مقاماً، ولا تعصم إنساناً، وأنها ليست بشيء إذا لم تقترن بتحمّل المسؤوليات تجاه الناس، المسلوبة حقوقهم. وأن الشعب يحترم العالم الشجاع الحازم الذي يناضل في سبيل إحقاق الحق ويضحي من أجله، وأن الشعب يقدّر رجل الدين الذي يتبنى قضاياهم العادلة، ويكافح لإعلائها، وبعد .. أليست هذه كلمة الدِّين ورسالة الإسلام؟

تعلمت من هذا الدرس الجديد، أن العلم بشيء لا يستلزم العلم بكلّ شيء، فمخترع القنبلة الذرية قد لا يجيد فهم الشعر أو الكلام بالسياسة، تعلّمت أنّ المقاييس الصحيحة يجب أن تؤخذ من صميم الحياة لا من صميم الذات.

جبل عامل:

أقمت في قرية معركة ـ قضاء صور ـ والتي كما قلت كان أخي المرحوم الشيخ عبد الكريم مقيماً من قبل، ويعرف أهل هذه القرية في ذلك الوقت بالخلافات والمشاحنات يلقيها بينهم الزعماء والإقطاعيون الذين يملكون قسماً كبيراً من أراضيهم. أقمت في معركة سنتين ونصف كنت خلالها هدفاً لتحامل المفسدين وتجنّي المنافقين لا لشيء إلاّ لأني أبيت أن أكون أداة طيعة في أيديهم، ووسيلة لتحقيق أغراضهم.

رغب إليّ أهل هذه القرية أن أقوم مقام أخي، فنزلت عند رغبتهم، أو أنزلتني الظروف على الأصح. وعندما وصلت إليها استأجروا لي غرفة لتكون «ديواناً» يجتمعون فيه، يتلقون الدروس الدينية، يستمعون إلى موعظة وإرشاد، يرفعون إليّ خصوماتهم، وما أكثرها وأعسر حلّها. استأجروا الغرفة الديوان، ليدفعوا هم الأجرة، ولكن صاحبها طالبني بالدفع في آخر الشهر، لأنهم امتنعوا عن الدفع، والغرفة كما قلت هي لهم وليست لي، تغصّ بهم ليل نهار، ويطلبون مني بإلحاح أن أحدّثهم، فكنت أفسر لهم آية من آي الذكر الحكيم تارة، وأسرد لهم غزوات الرسول تارة أخرى، وأعدد لهم مناقب أهل البيت حيناً والصحابة حيناً آخر فيأنسون ويمدحون، ويصفونني بالعالم الخطيب والكاتب الأديب إلى آخره، ولكن تفكيري الدائم بالحصول على أجرة الغرفة وثمن الكاز الذي يستهلكه سهرهم عندي جعلني لا أهتم بمدحهم وإعجابهم بي.

عشت أيامي في معركة في ضيق شديد، حتى مرّ عليّ أسبوع أو أكثر وأنا أقترض الخبز لي ولعائلتي، ومع ذلك لم أظهر الحاجة لأهل البلدة أو غيرهم، وفي ذات يوم شعر جماعة طيبون من أهل القرية بحالي، فتحدثوا بذلك وأطالوا وأخذتهم الحمية، ودفعت بهم النخوة والحماس إلى أن حمل أحدهم كيساً على ظهره، وآخر صاعاً في يده، وانتقلا من بيت إلى بيت يطلبان من أهله ما تجود به نفوسهم على شيخهم المسكين من حنطة أو ذرة أو تين، وبعد أن جمعا ما تيسر لهما قدّماه لي في غبطة وسرور كأنهما يهبان لي الحياة. فرددت الكيس معتذراً وشعرت بلهيب يستعر في أحشائي وبما يشبه الإنفجار في دماغي، ومن شدة تأثري نظمت أبياتاً نشرتها مجلة العرفان منها:

إنَّ الذي عنده دين ومعرفة ... لا يستخف بأهل العلم والدين

وما تحملت آلاماً على ألمي ... وعشت مدة عمري عيش مسكين

حتىٰ أخادع فلاحاً ليشحذني مدّاً من القمح أو رطلاً من التين

أذل نفسي والعرفان شرّفها؟ إذن فلست علىٰ دين بمأمون

كان لهذه الأبيات دوي وصدىً في أوساط جبل عامل، حتىٰ أنها ذهبت مثلاً بين الناس يرددها العامة والخاصة في جلساتهم واجتماعاتهم.

كنت أحس أن كل واحد من أهل القرية كان يرىٰ أنه متفضّل عليّ دون أن يقدّم لي اي خدمة وعون، بل لمجرد إقامتي فيها، وصبري علىٰ جحيمها، وكان الفقر وجليس السوء أهون عليَّ ألف مرة من انقطاعي عن الحياة الفكرية وأسبابها. فلا مكتبة عامة ولا خاصة في القرية ولا أخبار ولا راديو ينقل إليّ الأنباء العالمية، ولا تصل أية صحيفة إلاّ نادراً. ولا أدري هل أنا في سجن أو منفىٰ، أو في محكمة أسمع فيها حكم الإعدام؟

وليست هذه الكلمات من وحي الانفعال، بل هي صورة طبق الأصل لمشاعري يوم كنت أعيش في القرية .. وما الشعور إلاّ انعكاس وامتداد للواقع، ومن أقوال العرب ووحي الفطرة التي فطر الناس عليها: «لكل إناء رشح، ولكل سقاء نضح».

لقد كان السبيل في النجف ممهداً لقراءة ألوان من الكتب، أما في القرية فشعرت بفراغ مميت فلا كتاب جديد، ولا صحيفة، ولا رفيق، لا شيء إلاّ الملل والضجر، والصخب والشغب، وما شعرت بالحرقة واللوعة لشيء من هذه إلاّ كشعوري بالعجز عن شراء وقراءة الكتب والصحف.

أخيراً اهتديت إلىٰ ما حقق بعض أمنيتي، حيث اتفقت مع قريب لي، يبيع القصص والروايات التافهة في بيروت، علىٰ أن يجمع لي الجرائد والمجلات القديمة من مجلة الهلال والمقتطف ورسالة الزيات ويرسلها إليّ، وهكذا كان،

فصرت أقرأ الأخبار العالمية، والمحلية بعد أيام من وقوعها، ومع ذلك كنت أنتشي لما أجده فيها من سلوىً وفائدة، وإن أنسَ لا أنسىٰ غبطتي بتلك الحزمة التي أرسلها إليّ قريبي، وفيها مائة عدد من أعداد السنة الأولىٰ والثانية والثالثة من مجلة الرسالة، وما زلت أحتفظ بها حتىٰ اليوم.

ومن الطريف أني -كنت في ذات يوم أراجع تلك الجرائد المكدسة أمامي، وحولي أفراد من أهل القرية الذين تعودوا أن يلازموني رغماً عني فسمعت أحدهم يقول لصاحبه متعجباً:

- لماذا يقرأ الشيخ كل هذه الجرائد؟

فرد عليه الآخر:

- يقرؤها حتىٰ يتعلّم الحكي.

علىٰ أية حال فإن تجربتي في قرية معركة -علىٰ عنفها- كانت مجدية .. فقد تعلمت منها ما لم أكن أعلم، كما أنّها كانت الحافز لي علىٰ الصبر والعمل، والبحث عن مكان أفضل وهكذا لم أر ندحة عن الخروج من «معركة» ولكني تريثت حتىٰ يتهيّأ لي المحل الذي أنتقل إليه. وقد علمت أن قرية «الجبّين» في أطراف القضاء ليس فيها جامع، فذهبت إليها، وحثثت أهلها علىٰ التعاون لبناء جامع في قريتهم كبقية القرىٰ، فلبّىٰ البعض، وتلكأ آخرون، فاستعنت بأولئك علىٰ هؤلاء وجمعت مبلغاً من المال يكفي لأجرة قطع الحجارة فقط.

أخذت أتردد علىٰ قرية الجبين بين الحين والحين، لأجمع المال لبناء الجامع وكنت أمر بقرية مجاورة تدعىٰ «طير حرفا»، وقد أبدىٰ أهل تلك القرية ميلاً نحوي أكثر من غيرهم، فلا يدعوني أمرّ حتىٰ أمكث عندهم ليلتين أو أكثر، وأخيراً أجمع أهلها علىٰ أن أترك قرية معركة وأقيم بين ظهرانيهم.

طير حرفا:

وبعون الله وحده وتوفيقه زُحزحت عن نار «معركة» واستقرت بي الدار في «طير حرفا» بالقرب من الحدود الفلسطينية، إنتقلت إليها بطلب من أهلها دون شفيع ووسيط، وأقمت فيها تسع سنوات وأشهراً راضياً مرضياً عند الجميع من أهلها ومن حولها، وسارت أمورهم معي وأموري معهم علىٰ ما يرام طوال هذه المدة، رزق الكفاف والعفاف، بلا شكاة وغمزات، وأنجبت ولداً بعد طول انتظار، وصار عندي ابن وبنت، وهذا كل ما رزقني الله من العيال، وحمداً له وشكراً.

وجدت لدىٰ معظم سكان طير حرفا وسكان القرىٰ المجاورة لها البراءة والبعد عن التصنّع وهم يحترمون أهل الدين ويعطفون علىٰ الغريب، ويكرمون الضيف، وأكثرهم يجهل أساليب الخداع والاحتيال، لذا كانت حياتي فيها حياة هدوء واطمئنان، بعيدة عن القيل والقال، وقد بنيت في طير حرفا بمساعدة أهل القرية ومن جاورها داراً صغيرة في قطعة واسعة تقع في طرف البلدة مشرفة علىٰ البحر، وكنت أزرع شكارة في أرض طير حرفا، وثانية في أرض شمع وثالثة في أرض مجدل زون.

عشت في هذه المنطقة حوالي عشر سنوات من سنة ١٩٣٩ م إلىٰ ١٩٤٨ م، وما شكوت من شيء إلاّ من السأم والملل، فكان صدري يضيق بالوحدة، فلا أنيس يسامرني، ولا رفيق يذاكرني، ولا «راديو» ينبئني بالأخبار، ولا مواصلات تقربني من المدينة، ولكنّ الله سبحانه إذا ابتلىٰ من ناحية، أعان من ناحية، فقد كنت أجد المتعة والسلوىٰ بجمال الطبيعة، بالجبال والوديان والأشجار، ومنظر البحر، وبالهواء العذب، فكانت تمتلىء نفسي حبوراً بالحرج الممتد من أعالي الجبال إلىٰ ساحل البحر، كنت أحمل كتابي وأوراقي، وأجلس تحت أشجار

السنديان والملّول، بين أزهار الاقحوان والقندول أقرأ وأفكر وأحاكم منصرفاً عن كل شيء إلاّ عن الكتاب صاحبي الناطق الصامت.

غرفة المطالعة:

يقع إلىٰ جنوب طير حرفا وادٍ سحيق عميق يقال له وادي السروة، يضيق وينفرج ويستقيم وينعرج، كثير الصخور، كثيف الأشجار، فيه أوكار ومغاور تأوي إليها النمور والحيوانات، وتعشعش في أشجارها صغار الطيور وكواسرها التي توالي غاراتها علىٰ دواجن القرية، فتحمل منها الكبير والصغير، ثم تحلق مسرعة في الجو، وتهبط في الوادي وغاباته، مقرها الأمين وحصنها الحصين.

كنت أقصد هذا الوادي في أغلب الأحيان، وفي ذات يوم رأيت صخرة ملساء ناتئة ترتفع عن قعر الوادي أكثر من مائة متر، يعلوها سقف من أغصان الشجر المحيط بجوانبها الثلاثة منسّق بشكل هندسي بديع، حتىٰ كأن يد الصنعة غرست تلك الأشجار، ونظمت من فروعها سقفاً متناسباً فخفق قلبي سروراً لهذه المفاجأة، واستلقيت علىٰ الصخرة مستروحاً ومغتبطاً بالكنز الثمين، ثم جلست أقلب النظر في الأشجار الوارفة والوادي الظليل العميق، وأخذت ألتقط الأحجار وأرمي بها في الوادي أعد الأرقام حتىٰ أتعرف مقدار المسافة بين الصخرة وقعر الوادي.

أعجبت بهذه الصخرة واخترتها مقراً لعزلتي، وأسميتها غرفة المطالعة، وكنت أقصدها صباحاً ومساءاً، أصحب معي قلمي وأوراقي وبعض الكتب وإبريق الشاي، كنت أقرأ وأفكر وأكتب وأشرب الشاي وأدخن، والطيور تحلق فوق رأسي وتحوم من حولي، والحيوانات تذهب وتجيء في أرض الوادي

خارجة من أوكارها، وداخلة إليها آمنة مطمئنة.

القراءة والكتابة:

كنت أتابع قراءة رسالة الزيات وثقافة أحمد أمين ومجلة الهلال والاثنين، وأضفت إلىٰ مكتبتي مجموعة من الكتب المتنوعة فاشتريت كتباً لطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، وهيكل وشكيب أرسلان وجبران، ولتولستوي ونيتشه، وولز وشبنهور، وشكسبير وبورنادشو، وغيرهم، وما كتب عن غاندي وبتهوفن وتشارلي شابلن وأديسون وغيرهم كثر ـ لا يتسع المجال لذكرهم وأنفقت معظم أوقاتي مع رجال الفقه والفكر والعلم والأدب والفلسفة وانتفعت بآثارهم وكانت خير معين ورافد لي فيما كتبت ونشرت. وما أحببت أحداً من الذين قرأت عنهم كحبي لتولستوي وغاندي، فقد أكبرت فيهما الإيمان بالإنسان، والجهاد من أجل الحب الشمولي، والحقوق المتساوية بين أبناء البشر.

بداية التأليف:

ألفت في هذه القرية رسالة في أسباب الضمان، وثانية في الإرث، ثم أضفتهما إلىٰ كتاب فقه الإمام الصادق عليه السلام، وأيضاً ألفت رسالة ثالثة في مجهولي التاريخ (بحث في أصول الفقه) ورابعة في التضمين (بحث نحوي) وكتاب (المرآة) رسمت فيه صوراً نثراً وشعراً لعدد من الذين عرفتهم من علماء وأدباء وزعماء، وأضفت إليه ما نظمته من الشعر قبل ذهابي إلىٰ النجف وأثناء دراستي فيها وبعد عودتي. وفي ذات يوم من أيام سنة ١٩٥٦م وأنا في بيروت خطر لي أن أحرق هذا الكتاب «المرآة» فطلبت من أهلي أن يشعلوا الحمام، وما أن أوقدوا

النار حتىٰ ألقيته فيها، أما الباعث علىٰ هذا فأمور عديدة منها: أنـي كـنت أعـتقد بصلاح بعض من كتبت عنهم، فتبين لي العكس، فخشيت خطأ القول في غيرهم كما أخطأت فيهم، ومنها أن في الكتاب صراحة لا يحتملها الكثيرون، ومهما يكن فأنا غير آسف علىٰ شيء في الكتاب إلاّ علىٰ ما نظمته من شعر، ولم أعد أحفظ منه إلاّ النزر القليل، وهذه أبيات أداعب فيها شيخاً فاضلاً وزميلاً كريماً أخذ يزاحمني عند الكلام والدخول والخروج والجلوس وفي كل شيء فقلت:

عـلام تـزاحـمني فـي الطريق	وعـــند دخـــولك للـــمنزل
وعـــند القـعود لأكـل الطـعام	وعـند جـلوسك فـي المـحفل
أتجمد كالصخر فـي المـعضلات	وتـزحـف كـالليث للـمأكـل
تـقدمت كـيما يـضل الجـهول	ويـعمىٰ عـن الأعـلم الأكـمل
تـقدم فـروحي فـوق السـماء	تـعالت عـن العـالم الأسـفل
ألفت الصـــواب وأربـــابه	فكـيف أعـيش مـع المـبطل؟
مـتىٰ سأل النـاس أيـن الأديب	أشـــرنا لشـــخصك بـالأنمل
وإن قـيل أيـن الخـطيب البـليغ	فـــغيري وغـــيرك لم يـــعتل
عشـقنا الفـضائل والمكـرمات	ودســـنا الرذائـــل بـالأرجـل

وأيضاً ألفت كتاباً في دعبل والكميت، ثم أهملته، وكنت قد شرعت وأنا في «معركة» بكتاب التضحية فأتممته في «طير حرفا» وراجعته في بيروت ونشـرته باسم المجالس الحسينية، وأعيد طبعه مرات. وألفت أيضاً كتاب «الوضع الحاضر في جبل عامل»، وهو أول كتاب طبع ونشر لي، وذلك سنة ١٩٤٧ م ، وهذا الكتاب هو أول صوت أرفعه في وجه الظلم منددأً بالظالمين، وقد لا يجد القارىء فـيه

نظرية محددة أركز عليها وأروج لها، ولكنه يجدني أشعر بهموم البائسين ومتاعبهم، وأشاركهم آمالهم،، وأطالب بإنصافهم من الزعامة الآثمة، والطغمة الحاكمة، وأثور على كل باغية وطاغية. فقد صورت في هذا الكتاب قسوة الحياة التي يعانيها الفلاحون في جبل عامل من بؤس وجهل وإهمال من كل مسؤول، وإنهم يعملون ليل نهار، ثم لا يكون نصيب الأكثرية منهم إلاّ أقل الكفاف. رسمت كما شاهدت ورأيت، وناشدت العلماء أن يرفعوا أصواتهم ضد النواب والحكام، ولا يتجاهلوا ما يحيق بقومهم من حيف وعسف. وفي فصل آتي يطالع القارىء مقتطفات من كتاب «الوضع الحاضر في جبل عامل».

ولكن بعض الشيوخ رأى في كتابي هذا وأقوالي هذه خروجاً عن الأصول وتقاليد العلماء الأبرار، فكتب أحدهم مقالاً مطولاً في الهجوم والرد عليّ، ربما لأن كتابي هذا، هو أول صرخة تدوي من شيخ عاملي لأجل انصاف الفقراء والمساكين من جور الحكام والمتزعمين ربما لأنه لم يسبقني عالم عاملي من قبل في التكلم بهذا الموضوع وهنا تكمن البدعة والضلالة في نظرهم فانبرى لي العلماء والزعماء الرجعيون، ولكن هيهات أن يؤثروا عليّ بشيء فأنا لا أنهزم لأول صدمة، وأستسلم من أول ضربة، بل العكس لأن هذا يزيد من صلابة ديني ويشحذ عزيمتي للنضال في سبيل الحق، ومهما بلغت درجة الإيذاء وعظمت التضحيات.

أعود إلى حياتي في طير حرفا .. لقد كنت كمن يقيم في برزخ بين الدنيا والآخرة، أنا في الدنيا أتمتع بجمال الطبيعة، أقرأ وأكتب، آكل وأشرب، ولكن في نفس الوقت بعيد عنها لأني محروم بما يتمتع به المثقف من سكان المدينة من انشغال بالعلم واحتكاك بالحضارة، ومن بحبوحة ويسر في العيش.

لقد كنت أشكو السآمة ولكني كنت في دعة واطمئنان، ولكن بعد أن تم لي ما أردت وانتقلت إلى بيروت صرت أقول يا ليتني آثرت الوحدة في القرية على

اجتماع المدينة، وقبلت بملل الريف على صخب العاصمة.

تجربة وعبرة :

وجدت أن القروي في الأغلب لا يهدف إلى شيء سوى أن يزرع ويحصد ويسعى وراء العشب والماء لرعي ماشيته، أما هدف العالم الذي يعيش في القرية فسدّ حاجته الضرورية ومهمته الأولى أن يجيب رعيته عن مسألة دينية، ويعظ في المجتمعات والمناسبات، ويصلي على الجنازات ويشهد على الطلاق وبعض المعاملات، ويفصل بين خصمين إن ترافعا لديه ويجري عقد زواج إذا دعي إليه، وما عدا ذلك مما يهول ويذهل فما هو من اختصاصه في شيء، ولا شأن له إن قامت الدنيا ولم تقعد.

تأخر جبل عامل :

قال الذين درسوا التاريخ: إن المجتمعات الإنسانية في تغير مستمر، لكن هذا القول لا يصدق على أهل القرى في جنوب لبنان، اللهم إلاّ التغير إلى الوراء كما حدث لسكان جبل عامل في الربع الأخير من القرن العشرين.

إن التغير والتقدم إلى الأمام لا يكون ولن يكون عفوياً وتلقائياً، بل بالخطة وبالتصميم والعمل، وإذا صادف أن التقدم حصل بدون تصميم فإن هذا التقدم مزيف ينهار لأتفه هزة ووخزة، كما حدث مؤخراً للبنان وجنوبه المنكوب، كما أن الفرد لا يستطيع أن يغير وضعه إلاّ بالنضال الهادف مرتفعاً بجهده الخاص فوق العقبات الناتجة من واقع بيته ومجتمعه، فأديسون عاش في مجتمع يستضيء

بالشمع والزيت، وظل يجري تجاربه المدروسة مئات المرات بلا كلل وملل حتى أعطى الكهرباء للإنسانية جمعاء.

العلم في مواصلة العلم:

قد يجتهد الإنسان في طلب العلم، ويحظى منه بنصيب، ثم يزهد فيه ويتوانى عنه، يهجره إلى غير رجعة، ويعود كما بدأ أول مرة، ويصبح من الجاهلين. وقد عرفت أكثر من واحد كانوا في النجف على قدر كبير من المعرفة والذكاء وحين عادوا كل إلى قريته هجر الكتاب، فعاد إلى الغباء وحال الجهل. ويقول شاعر صيني: «يحس المفكر الذي تمضي عليه ثلاثة أيام دون أن يقرأ شيئاً، أن حديثه قد فقد النكهة، كما يرى أن وجهه أصبح كريهاً إذا نظر إليه في المرآة». وفي الحديث الشريف: «**لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل**» معنى هذا أن بقاء العلم رهن بمواصلة السير على طريقه.

أجل لا شيء في القرية يغري سوى القراءة والمراجعة، اللهم إلاّ أن يقرأ الإنسان بعقله، لا بعينه فقط، لمجرد التسلية وتضييع الوقت، حيث لا يجد شيئاً آخر يفعله.

الوضع الحاضر في جبل عامل

مقتطفات من أول مؤلفاتي نشر سنة ١٩٤٧م

جبل عامل مستعمرة لبنان :

«إلى جنوب لبنان القديم، أرض مكتظة بجبال لا يحصى عددها تختلف علواً وانخفاضاً، فيرتفع أعلاها عن سطح البحر ألف متر أو فوقها بقليل، ثم تتفاوت في النزول حتى يبلغ الأدنى المائة أو ما يقرب منها وهي في تقاربها ودنو بعضها من بعض، كأصابع الكف يخالها الرائي من بعيد جبلاً على هيئة سلّم، لم تنظم درجاته ومراقيه. تدعى هذه الجبال ـ التي هي كالجبل الواحد ـ على لسان عارفيها بـ(جبل عامل) وربما كان هذا هو السر بتسميتها بصيغة المفرد دون الجمع.

وقد شاء الفرنسيون وأذنابهم أن يُسمى هذا الجبل بالجنوب تمويهاً بأنه جزء من لبنان، له ما للبنان وعليه ما عليه، ولكن لبنان أصبح دولة وجبل عامل من مستعمراته! يدر عليه غلاً وسمناً، ينتثر على رؤوس تلك الجبال قرى ومزارع هي في عين الناظر البعيد، رجم وآكام، وفي عين الرائي القريب قبور وأجداث».

الغنم والغرم :

«... قرى جبل عامل فرّت من لبنان لما رأت نفسها عند حكامه ونوابه، في

مكان الوصيف، وغيرها في مكان السيد. رأت لغيرها الغنم وعليها الغرم، لغيرها المدارس والمستشفيات والطرقات .. وعليها دفع الضرائب والنفقات! لغيرها الصحة والعلم .. ولها الجهل والأمراض! لغيرها العيون الجارية والرياض الزاهية .. ولها المستنقعات الراكدة والأشواك الدامية! لغيرها المقاهي والملاهي والثراء .. ولها التعب والجوع والعراء».

«ولو عددت قرىٰ جبل عامل، قرية قرية وما لحقها من الإهمال لأخرجت عدة مجلدات! لذلك أختصر علىٰ وصف بعضها، وأجعله نموذجاً تعلم منه حال بقية القرىٰ، كما يقدم التاجر نموذجات لأنواع بضاعته، ولأكون علىٰ هدىٰ في القول، أصف الناحية التي أقيم فيها لأنني شاهدت بنفسي نكباتها:

لقد شاءت الأقدار أن أجعل مقري في قرية من قرىٰ الشعب تدعىٰ -طير حرفا- تقع وسطاً بين (شمع) و (الجبين) و (مجدل زون) و (يارين) وما يتبعها. تحيط بهذه القرىٰ الأوعار، وتملأ أرضها الصخور والأحجار، يصعد قاصدها جبلاً ويهبط وادياً، فلا يصلها حتىٰ يبلغ التعب والكلل منه مبلغه، إن هذه القرىٰ البائسة علىٰ ما بينها من قرب الجوار، ودنو الدار ليس فيها مدرسة تأوي إليها الأطفال الذين يقضون حياتهم بين الحيوانات ولعباً مع الكلاب!» .

الصحة العامة :

«أما الحالة الصحية فالحديث عنها ذو شجون وفنون في سنة ١٩٤٥ م فتكت بهذه القرىٰ الملاريا فتكاً ذريعاً، فلم يسلم منها واحد بالمائة وأودت بحياة المئات، فمات من مجدل زون وحدها سبعون شخصاً علىٰ التقريب مع أنه لا يتجاوز عدد سكانها أربعمائة شخص! للعجز عن العلاج والتطبيب، حتىٰ باع أهل

القرية الحبوب، وشطراً من الحيوانات التي يضطرون إليها للفلاحة والزراعة، وأنفقوا الثمن على الدواء والأطباء، ولكن على غير جدوى، وأخبر مختار القرية طبيب البلدية في صور بالحالة فلم ترسل الحكومة طبيباً، ولا ممرضاً ولا حبة من الكينا، وأشد من المرض وقعاً الوصول إلى الطبيب لعدم تسهيل المواصلة، وإذا طلبوا أي طبيب إليهم تقاضى منه ليرة أجر ذهابه وإيابه، فكانوا إذا لم يستطع المريض الركوب على الدابة يضعونه في نعش الأموات، ويحملونه على الرؤوس والأكتاف كما يحملون الميت ليوصلوه إلى طريق السيارات، فيوحي هذا المنظر المخيف في نفس المريض هواجس الموت، فيزيد في علته، وربما قضى على حياته، وكان حاملوه كلما مشوا قليلاً وضعوه على الأرض واختبروه هل مات من الخوف وحرارة الشمس ولفحات الهجير! وإني أعرف أفراداً معرفة شخصية ماتوا على هذه الحالة المشجية قبل أن يبلغوا الطريق العام!».

الماء وحفلة الزفاف :

«أما العطش وعدم وجود الماء، فأكتفي بنقل نادرة طريفة تدل على كل ما يتصل بالموضوع، كما تمثل جهل العوام وسيرهم من غير وعي وشعور.

في سنة ١٩٤٦ م وقع العامليون في شدة وضيق من جرّاء تأخر الري، وكان نصيب الشعب من هذا البلاء وافراً، فكان السكان يقضون الليالي والأيام الطوال، لا يغسلون ثيابهم وأبدانهم لفقدان الماء، وصادف في هذه الفترة زفاف عروس إلى عريسها، فاستعد شلة من شباب القرية، وهيأ كلّ واحد منهم قليلاً من الماء لغسل ثيابه وبدنه استعداداً لحفلة الزفاف، ونظراً لقلة الماء وعدم كفايته لتنظيف الثياب والبدن معاً، كانت ربة البيت تغسل الثياب بالماء أولاً حتى تصبح غُسالة الثياب كالقطران، ثم تجمعها ثانياً ليغتسل بها صاحب الثياب، وتنتقل القذارة من

ثيابه إلى وجهه وبدنه، وبعد هذه العملية السوداء يلبس المغتسلون ثيابهم، ويحملون طبلهم، يطبلون وينشدون للبك والنائب حتى يبست منهم الحناجر، وبحت الأصوات، وكلت القلوب والأبدان».

الشعب والبكوات:

«ولقد هالني ما رأيت وسمعت، أهؤلاء أحياء أو أموات؟ كلا إن الميت جماد، لا يطبل ولا يزمر .. أهكذا يفعل الجهل بصاحبه فيريه القطران ماء، والجوع ثراء، والمرض دواء!! قلت لبعضهم ماذا أفدتم من ـ البكوات ـ والنواب لتطبلوا لهم وتزمروا، ماذا عمل النواب لأجلكم؟ أنظروا في أية حالة أنتم؟! فأجابني أطال الله عمرك يا سيدي نحن الذين يجب أن نعمل لأجل البيك؟! نحن يجب علينا أن نفيد البك نحن مقصرون بحقه، لقد أنساني هذا الجواب الماء والطرقات، أنساني الجوع والمرض أنساني كل شيء ولم أذكر معه إلاّ شيئاً واحداً هو العلم والوعي، إن الجهل داعية الطيش، وآلة الشر، وجرثومة الفساد».

العلاج:

«لا علاج لهذه الأدراء إلاّ بالعلم والوعي. إن الجهل مصدر البلاء وينبوع الفساد، ولو كان وراء هؤلاء النواب أمة واعية منظمة تحاسبهم حساب الأصيل للوكيل، والمستأجر للأجير، لانقلبوا مصلحين أمناء، يقدسون الواجب ويعملون للوطن.

نحن مستعمرون مستعبدون ما دمنا جهلاء، وإن تحررنا من التركي

والفرنسي، لا استقلال مع الجهل ولا جهل مع الاستقلال».

العوام قوة المستبد:

كل شيء ذكرني بقول عبد الرحمن الكواكبي: «العوام هم قوت المستبد وقوته، بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول، يأسرهم فيهللون لشوكته، ويغتصب أموالهم فيحمدونه على بقاء الحياة، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، إذا أسرف بأموالهم يقولون عنه إنه كريم وإذا قتل ولم يمثل يعتبرونه رحيماً، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بغاة».

مسؤولية السلطة وممثل الشعب:

كنا في عهد الانتداب، نسير وفقاً لإرادة حاكم، لا نملك لأنفسنا معه ضراً ولا نفعاً، فلا وجود للشخصية الفردية، ولا أثر للجموع وإن عدوا بالملايين، ومن جابه الحاكم بنقد ما يقع في أعماله من جور واعتساف، فجزاؤه القتل والسجن أو النفي فسبيل السلامة هي الصمت، وكم الأفواه والاستسلام للظلم والطغيان، أما اليوم فمهدنا عهد الحرية والاستقلال الذي جاء ثمرة طيبة لحرب سنة ١٩٣٩ م العالمية الثانية ولهذا تتحمل السلطة الوطنية كافة المسؤوليات والواجبات».

«أما النواب فعليهم تقع معظم التبعات والآثام. يرشح أحدهم نفسه للنيابة، ويخوض المعارك الانتخابية، ويضحي بكل ما لديه مستهيناً بالنفس والنفيس، ولكن لا ليحقق مثلاً عالياً وفكرة صحيحة، تعود على أمته بالخير، فكل ما يبغي

من وراء النيابة، الألقاب والمظاهر، ونكاية الخصوم! والتوصل إلىٰ منافعه الشخصية. بهذا الدافع يجري وراء أعماله النيابية كلها، وعلىٰ هذا الأساس يعارض ويوافق ويمنح الثقة ويمنعها! فإذا نال ما يشتهي ذل وخضع، وإلاّ ثار ثورة الأسد المكلوم..».

«وإلىٰ هذا يعود السبب في تخاصم النواب، حيث تتزاحم الأهواء وتتصادم الأغراض، فتقع الحروب الدامية والمعارك الحامية .. ولو كان هدف الجميع مصلحة البلاد لاتحدت قلوبهم علىٰ هذا الأساس، وعملوا يداً واحدة، ولكن أين أهل المفاداة والقداسة والوطنية، من أهل الأغراض والشهوات البهيمية؟!».

«يمني النائب المتخاصمين بالمواعيد الكاذبة، والادعاءات الفارغة ليكثروا الترداد إليه، والوقوف بين يديه .. فيخال الرائي أن النائب من ذوي السلطات والنفوذ.

يقول الصادق عليه السلام : «**يجبل المرء علىٰ كل طبيعة، إلاّ الكذب والخيانة**»[1]، كذب بإخلاف المواعيد، وبعد الأفعال عن الأقوال، وخيانة بإيجاد (الشارات) التي هي من أقوىٰ أسباب الفساد والشقاق في البلاد...».

لماذا الخنوع:

«أيها العامل كيف تقضي النهار حائراً! وتطوي الليل جائعاً! لا تجد عملاً يعود عليك بالرغيف .. وإذا فررت من الجوع إلىٰ فلسطين، ألقوك في غياهب السجون .. كأنك من مجرمي الحرب!

---

١ ـ [الاختصاص، للشيخ المفيد: ص ٢٣١، والموجود فيه هو: قال الصادق عليه السلام: «يجبل المؤمن علىٰ كل طبيعة، إلّا الخيانة والكذب»].

وأنت أيها الفلاح منك تملأ الحكومة خزائنها، بينما تعمل الليل والنهار أنت وعيالك، ثم تعيش عيش الحشرات! تفتك بك الأمراض فلا تستطيع التطبيب والتداوي، وتشرب الماء ممزوجاً بالطين والقذارات! وأطفالك يلعبون مع القطط والكلاب! وإذا قطعت مسافة قصيرة صعدت جبلاً وهبطت وادياً! لا علم .. لا طريق .. لا ماء .. جهل .. وأمراض .. وفقر.. فانقم على دولتك ونوابك الذين تخلوا عنك».

حقوق الطائفة :

«والمضحك المبكي العجيب الغريب الذي سيكون العار والشنار في تاريخ النواب مدى الدهر، هو نقمتهم على الحكومة وإعلان الثورة عليها، إذا لم تحقق شهواتهم، ولم تنزل عند رغباتهم النفعية، ويحتجون عليها بحقوق الطائفة وضياعها!! وما أسرع ما تعدهم وتمنيهم، حتى يعلنوا مناصرتها، ويمنحوها الثقة والتأييد، على حساب الطائفة المفجوعة! يا للسخرية والعار ويا للسخافة والجهل.

أيها النواب! إذا غضبتم لأجل الطائفة كما تزعمون، فلماذا رضيتم قبل أن تحصل الطائفة على حقها المهتضم؟ إذا كنتم أرباب غايات، وأصحاب شهوات! فلماذا اتخذتم الطائفة آلة ووسيلة؟».

جبل عامل وجبل لبنان :

«نحن لا نريد من نواب الجنوب أن يتعصبوا لطائفة دون طائفة ولا لعنصر دون عنصر ولا لإقليم دون إقليم، ولا نريد منهم أن يجعلوا من جبل عامل أمريكا

الثانية، وإنما نريد أن يكون جبل عامل جزءاً حقيقياً من لبنان له ما له وعليه ما عليه، فتقاس مدارس جبل عامل بمدارس جبل لبنان وطرقاته بطرقاته ومستشفياته بمستشفياته، حتى إذا جاء التاريخ قاس جميع أجزاء الجمهورية اللبنانية بمقياس واحد بدون تفاضل وتمايز بين جزء وجزء، لا أن يكون جبل لبنان فرنسا والجنوب جبل عامل!!

ليست خدمة الجنوب خدمة لأبنائه خاصة، وإنما هي خدمة للبنان وجمهوريته ووزرائه ونوابه، إن الجسم لا يكون سليماً تاماً إذا كان في بعض أعضائه خلل وفساد، إن فساد الجسم بفساد بعض أعضائه، وسلامته بسلامة الكل».

في بيروت

المحكمة الشرعية:

في سنة ١٩٤٨ م انتقلت من طير حرفا إلىٰ بيروت قاضياً شرعياً وفي سنة ١٩٤٩ م عيّنت مستشاراً في المحكمة الجعفرية العليا، وفي سنة ١٩٥١ م رئيساً للمحكمة المذكورة حتىٰ سنة ١٩٥٦ م ، وبعد هذا التاريخ بقيت في المحكمة مستشاراً حتىٰ تقاعدت سنة ١٩٦٨ م .

كان رائدي الحق ولم أبالِ بالمغريات والشفاعات وإن كثرت وقويت، وكثيراً ما كنت أخذل في أحكامي رؤساء ووزراء ونواباً لأنهم كانوا علىٰ باطل، وبقيت كما كنت قبل القضاء أكتب وأنشر ساخطاً علىٰ البؤس والتخلف أقف مع الحرية والعدالة، غير مداهن ولا واهن.

حذرني بعض الأصحاب من غضب الأشرار وغدرهم، وقالوا: لو سكت كما سكت غيرك حرصاً علىٰ رزقه ومنصبه .. فمضيت مع كلمة الحق غير مكترث بالمناصب والمغريات.

وجمعت في كتاب «الوضع الحاضرٰ» معظم ما نشرته في هذا الباب قبل القضاء، أما المقالات التي نشرتها أيام القضاء فهي كثيرة، أدرجت طرفاً منها في كتاب «مع الشيعة الإمامية» وطرفاً آخر في كتاب «الإسلام مع الحياة» وبعضها موجود الآن في ملفي الخاص بوزارة العدل اللبنانية ـ والذي أطلعني عليه سراً

أحد كبار موظفي الوزارة ـ شاهد على أني أنقم على كل ناكب وناكث.

وأخبرني أكثر من مصدر أن الاستخبارات الأجنبية كانت تكتب التقارير عني للسفارة الامريكية والإنكليزية، وأن بعض العملاء من أبناء الشيعة كان يحرضها عليّ، وأن موظفي الأمن العام اللبناني سودوا العديد من الصفحات ... أما المتزعمون القراصنة من الشيعة فقد كان الاصطدام يتصاعد بيني وبينهم يوماً بعد يوم، بخاصة رئيس النواب وآخرين من الزعماء أرادوا المحاكم الجعفرية مزرعة لهم، وأردتها للحق وللإمام جعفر الصادق عليه السلام تماماً كاسمها ونسبها، فقامت قيامتهم ولم تقعد، وقال لي وزير الزراعة[١] سنة ١٩٥٦م من جملة ما قال: استجب لطلبي وأنا أثبتك في الرئاسة، قلت له: المهم أن يثبت ديني، أما الكرسي فظل زائل.

وليس هذا بالشيء الغريب على السياسة وأهلها، بل هو مرتبط بمهمتهم وكيانهم ارتباطاً صحيحاً، وإنما الغريب أن يتخذ العلماء بدين الله منه شعاراً لأنفسهم ثم يبيعوه لمن يدفع الثمن، ولو استجبت لهؤلاء الزعماء الفاسدين ورضخت للضغوطات لكنت غداً مع ابن سعد الذي باع دينه بملك الري، وابن العاص الذي باعه بولاية مصر.

هكذا كان شعوري وإيماني حين حدثت الفجوة بيني وبين المتزعمين من أصحاب السلطة .. إن أرضيتهم حرصاً على رئاسة المحكمة أغضبت الله سبحانه، وإن أرضيته تعالى فاتت الرئاسة .. وآثرت الآخرة على الأولى عملاً بسنة البشير صلى الله عليه وآله الذي قال لمن يحيي ويميت: «**إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي**».

---

١ ـ كاظم الخليل.

تنظيم القضاء الجعفري:

كان القاضي قبل أن أتولىٰ الرئاسة يعين بدون امتحان ويترك أمر اختياره إلىٰ ذوي النفوذ من نواب الشيعة، وقد فتح هذا التدبير الباب أمام الجهلة والعناصر الفاسدة المستسلمة للزعامات. وقد سعيت وبذلت كل جهد، حتىٰ تقرر قانوناً أن لا يقبل أحد في سلك القضاء الجعفري إلاّ إذا تخرج فعلاً من النجف ونجح في الامتحان الذي سيجريه أمام هيئة قضائية عليا كنت أنا أحد مسؤوليها.

إن المادة ٢٤٠ من قانون المحاكم الشرعية التي تنص علىٰ «أن تعين قضاة المحاكم الشرعية ونقلهم وترقيتهم لا يجري إلاّ بعد استطلاع رأي مجلس القضاء الشرعي» وكان أكثر أعضاء هذا المجلس من السنة بحيث يصبح تعين القاضي الجعفري نافذاً وإن لم يوافق العضو الجعفري علىٰ هذا التعيين، فعملت جاهداً من أجل تعديل هذه المادة المجحفة بحق الشيعة والتي تحرمهم حق اتخاذ القرار الذي يتعلق بشؤونهم المذهبية، وكان لي ما أردت حيث زيد علىٰ المادة ٢٤٠ الفقرة التالية «**وإذا صدر هذا المجلس قراره بالأكثرية في حق أحد الجعفريين لا يكون نافذاً إلاّ إذا وافق العضو الجعفري علىٰ القرار**» وبهذا أصبح للشيعة حق «الفيتو» الرفض.

وقد أردت أولاً من إجراء امتحان الدخول إلىٰ سلك القضاء الشرعي تنزيه القضاء من دنس الدخيل وسد الطريق علىٰ الجهلة والأذناب، وتعيين القضاة الأكفاء الجديرين بشغل هذا المنصب. وأردت ثانياً من تعديل المادة ٢٤٠ من إعطاء الشيعة حقهم الشرعي من صنع القرارات التي تنظم المحاكم الجعفرية في لبنان ولقد وفقني الله عزوجل في إحقاق الحق. فكان عملي هذا سبباً لإعلان

الحرب عليَّ من رئيس مجلس النُّواب[١] الشيعي ومن لفّ لفّه من بعض زعماء ونواب الشيعة وإلىٰ القارىء القصة التالية:

بعد أن تقرر الإمتحان رسمياً شغر مركز في القضاء الجعفري، فرشح رئيس مجلس النواب أحد أتباعه، ولما جرىٰ الإمتحان سقط هذا المرشح، فقامت قيامة زعيمه مع العلم أن الهيئة التي أجرت الإمتحان تتألَّف من الشيخ علايا مفتي الجمهورية، ورئيس محكمة الإستئناف السنّية ومنّي، والقاضيان إحسان المخزومي وجواد عسيران، ولكن رئيس النواب لم يعلن الحرب الضروس إلاّ عليّ، فحشد كل ما لديه من عدة وعدد لينحّيني من الرياسة، ففشل أولاً، ولكنَّه لم ييأس وواصل الهجمات أكثر من ثلاث سنوات متتالية، وصادف أنني أصدرت حكماً ضد كاظم الخليل الذي كان يومذاك وزيراً فجن جنونه، وانضم في الحرب إلىٰ الرئيس عسيران، وأقنعا هذان الإثنان نائبين شيعيين آخرين بالإنضمام إليهما، وهكذا تألفت كتلة من أربعة أقطاب، وأعدوا العدة لمحاربتي وتنحيتي من رياسة المحكمة ولم يستطع هؤلاء الأربعة الكبار أن يحاربوني وجهاً لوجه، ويعملوا ضدي علناً، بل تخفوا وتستروا في أعمالهم.

وأخيراً ذهب الأربعة المذكورين إلىٰ رئيس الجمهورية شمعون ثم إلىٰ رئيس الوزراء وكان ذلك في أول سنة ١٩٥٦ م ، وألحوا عليه بأن يصدر مرسوماً بتنحيتي من رياسة المحكمة العليا، رفض في بادىء الأمر، ولكنَّهم ضيقوا عليه الخناق وهددوه بأنهم سينتقلون من موالاته إلىٰ صفوف المعارضة، وأنهم سيحجبون عنه الثقة في جلسة المناقشة بمجلس النواب إذا امتنع عن إمضاء مرسوم تنحيتي فنزل عند رغبتهم، وسأتحدث عن هذا الأمر في فصل آتي.

---

١ ـ عادل عسيران.

تقدمت أن السبب المباشر في محاربة عسيران أن مرشحه سقط في الامتحان، وأن الوزير كاظم الخليل قامت قيامته لأنني أصدرت حكماً ضده، أما النائبان الآخران فقد كانت لهما مصالح خاصة عند الوزير ورئيس النواب. أما قصة الدعوىٰ التي حكمت بها ضد كاظم فهي:

إن رجلاً من بلدة جويا اسمه محمد مصطفىٰ صوفان، هاجر إلىٰ تشيلي، وتزوج امرأة من هناك، ولدت له ولدين، ثم توفي هذا المهاجر في مهجره، وأمه علىٰ قيد الحياة تقيم في جويا، وتدعىٰ فاطمة جواد، وكان للمرحوم ثروة طائلة، أودع قسماً منها في لبنان والآخر في تشيلي، فوكلت أمه فاطمة المحامي الوزير كاظم الخليل لينفي حفيديها ولدَي ابنها الميت من ميراث أبيهما، ويحصر الميراث بها خاصة من دون سواها، علىٰ أن يكون الوزير كاظم الخليل شريكاً لها في التركة، بموجب اتفاق ثنائي فيما بينهما.

ولقد استطاع كاظم وبوسائله المعروفة أن يحصل من محكمة صور علىٰ قرار بحرمان الأولاد من تركة أبيهم، والجدير بالذكر أن الخليل هذا هو من مدينة صور، مركز زعامته الاقطاعية ومنطقة نفوذ عائلته المافياوِيَّة، ولكن المحامي وكيل الأولاد استأنف الحكم إلىٰ المحكمة العليا، ورفعت الدعوىٰ إليَّ.

راجعني كاظم مرات عديدة، مُرغباً تارة ومُرهباً أخرىٰ، ولم يتركني بحال، وحاولت مرات ومرات أن أفهمه وأقنعه أن ما يطلبه حرام، ومستحيل في شرع الله، والوزير الخليل يزداد إصراراً وتعنتاً، ولما يئس مني رجاني أن أرجىء النظر في الدعوىٰ وأؤجل إصدار الحكم، فرفضت... وكنت أدرك تماماً بالعاقبة عند إصداري الحكم ضد كاظم الخليل لأنني أعرف ماذا يمثل هذا النافذ ومن يقف وراءه. ولكن هل أنفي الابن اليتيم من ميراث أبيه لأن الزعيم الخطير يريد ذلك؟ وهل هذا عذر عند الله سبحانه؟ ... وأصدرت الحكم ... وهو مسجل في المحكمة

الجعفرية العليا برقم ١٠٨ أساس ٠٢٣ تاريخ ٢٨ / ١٢ / ١٩٥٥ م.

بعد صدور الحكم اشتد الضغط على رئيس الوزراء من قبل رئيس النواب وبعد أن استعان كاظم الخليل بشمعون رئيس الجمهورية وهذان الإثنان مجبولان من نفس الطينة والعجينة ... حتى صدر المرسوم بإقصائي عن رئاسة المحكمة العليا ـ أعلى منصب ديني شيعي في ذلك الوقت ـ كما أقصي الشيخ محمد عبده من منصبة مشيخة الأزهر، ولكني بقيت مستشاراً لدى المحكمة حتى سن التقاعد أتقاضى راتبي دون أن أحضر للوظيفة ولا أتدخل في شؤون المحكمة إلاّ فيما ندر.

لقد كان الخير كل الخير فيما وقع، إذ أخرجني الله سبحانه من دنس الحكومات ومراسيمها ـ شريفاً مرفوع الرأس، ويسّرني إلى أفضل الأعمال وأنبلها، إلى الإنصراف للبحث والتأليف، إلى «تفسير القرآن» و«شرح نهج البلاغة» و«موسوعة فقه الإمام الصادق» و«في ظلال الصحيفة السجادية»، إلى العشرات مما أخرجته لي المطابع .. أيهما أفضل هذه الأسفار الخالدات أم الكرسي الزائل؟! وشتان ما عاقبته البقاء، وما عاقبته الفناء.

لا آسفاً، خرجت من الرئاسة إلى العيش بكد اليمين وعرق الجبين والربح الحلال وحظي كبير وتوفيقي أكبر لأن ما من شيء حُرمته عن طريق العبد إلاّ وعوضه الله أضعافاً مضاعفة، وكان صديقي الشاعر الضابط العميد محمد جواد دبوق قد نظر بعين الغيب حين تحررتُ من رق الوظيفة، وحيّاني بهذه الأبيات:

عابوا عليك طريق الحق تسلكه ... وكل من ضل نهج الحق فهو عمي

وحاربوك لعدل ما حكمت به ... إلاّ لتنصف أهل الحق والذمم

ما زلت في عون مظلوم تناصره ... فالله عونك رغم الظالم الأثم

أجل يا صديقي العزيز أنا على العهد، بايعت الحق والعدل، ولن أنكث البيعة وأناصر المظلوم ولن أتراجع، وإن تظاهر عليّ القوم الظالمون، وكفى بالله ولياً ونصيراً.

الأسباب الحقيقية :

زارني في سنة ١٩٥٣ م في منزلي القائم بأعمال السفارة الأمريكية ودعاني باسم السفير إلى لقاء على ظهر أحد حاملات الطائرات الأمريكية الراسية في مياه بيروت فطردته ورفضت / وسأفصّل القصة في فصل آتي /.. وقال لي مدير عام في الدولة /لن أذكر اسمه /: ستدفع الثمن غالياً، وأجبته: أعرف ذلك ... وكنت قد نشرت في الصحف وخطبت في الاحتفالات الوطنية مهاجماً أميركا وإسرائيل ومشروع ايزنهاور «الفراغ» وحلف بغداد الذي كان ركيزته نوري السعيد وأشد المتحمسين له شمعون لبنان.

الدسّ الرخيص :

اشتدت محاربتي من العملاء والرجعيين ولجؤا إلى السلاح الوحيد الذي يشهره الرجعيون وأذناب الاستعمار في وجه الأشراف والأحرار، وهو الرجم والتهمة الباطلة بأني يساري وشيوعي هدام، ولا يجوز بقائي في منصبي الديني الحساس، لأن ذلك يشكل خطراً على الطائفة الشيعية في نظر الاستعمار وعملائه.

أما التهمة باليسار والشيوعية لا تفزعني، لأن هذه الفرية وألف من أمثالها، لا تؤثر عليّ بمقدار تأثير الغبار على حذائي، لأني على يقين من ديني وإيماني

وعدله، وإني أحمده تعالىٰ علىٰ حظي عند شرار خلقه.

إن التهمة باليسار والشيوعية كانت موضة العصر في الخمسينات، يطلقها الخونة والرجعيون ضد كل وطني ينادي بالعدل والحرية، وفي حينها ألصقت هذه التهمة بالكثير من المناضلين في لبنان، والعالم العربي. والواقع أن هذه التهمة المعيّنة أخذت الطابع الحركي والايديولوجي بعد أن انطلقت من الولايات المتحدة باسم «المكارثيه» نسبة إلىٰ السانتور الأميركي جوزف مكارثي. ولقد عانىٰ من هذه الحركة جميع الأحرار في العالم حتىٰ في أميركا نفسها، وما لبثت أن تلاشت المكارثيه في أواخر الخمسينات مع تلاشي مكارثي نفسه، وتنفس العالم الصعداء.

موقف السلطة :

الواقع أن قصصي كثيرة مع أصحاب الفخامة، وأصحاب العطوفة، ودولة الرؤساء، ومعالي الوزراء وحضرات السادة النواب ـ لاحظ الألقاب ـ ، ولا مجال لذكر هذه القصص عند نهاية هذا الفصل من الكتاب، ولكني سأكتفي بنص هاتين البرقيتين وأترك التعليق للقارىء الكريم.

الجمهورية اللبنانية **سري**

عدد ٥٦١٢

حضرة رئيس محكمة الاستئناف الشرعية الجعفرية العليا نشرت جريدة التلغراف في عددها ٢ أيلول سنة ١٩٥٢ م عدد ٢٢٥٤ المرسل ربطاً

مقالاً مذيلاً بإمضائكم تحت عنوان «الرأسمالية والاقطاعية»

وبما أن هذا المقال تناول أموراً سياسية لا ينبغي للقضاة التعرّض إليها أو البحث فيها.

لذلك، ألفت نظركم إلىٰ وجوب الامتناع عن الخوض في مثل هذه المواضيع السياسية.

بيروت ٣ أيلول ١٩٥٢ م

وزير العدلية

وفي سنة ١٩٥٨ م أبرق رئيس مجلس النواب إلىٰ كل من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء البرقية التالية:

«إن الشيخ محمد جواد مغنية نشر مقال اهانة وذم بمجلس النواب ورئيسه بشكل لا يمكن ولا يصلح السكوت عنه، وأن حضرات السادة النواب يلحّون بوجوب اتخاذ الموقف الحازم بأسرع ما يمكن».

رأسمالي الحقيقي

نتيجة التجربة :

والدرس الذي انتفعت به من بُعدي أو إبعادي عن رئاسة المحكمة هو أن النجاح لا يقاس بالوظائف وقبض الرواتب، ولا بالفوز والانتصار علىٰ زعيم أو كبير في حلبة الصراع معه علىٰ مال أو منصب .. وإنما النجاح في الاستقامة علىٰ نهج الحق وعدم التسامح مع أعدائه، وفي الكفاح المتواصل من أجل هدف نبيل يخدم الإنسان والحياة.

خرجت من رئاسة المحكمة وانتهىٰ المسرح مع القراصنة والسماسرة، وتمايلوا في خيلاء، وانتهبوا الفرصة، فخلا لهم الجو، يفعلون ما يشاؤون.. وتحررت أنا، بحمد الله، من التبعات وأعباء الخصومات وانصرفت إلىٰ الكتاب والقلم، وقررت أن لا أمارس شيئاً من مهمة الشيوخ إلاّ الجواب عما يُوجه إليّ من الأسئلة، والتزمت بهذا المنهج، وأخذت به نفسي .. لا أزوج ولا أطلق، ولا أصلي بجماعة أو علىٰ جنازة، ولا أقبل الإيصاء من أحد، ولا أقبض الحقوق والصدقات ولا أقبل الأمانات، أبداً لا أستعطي وإنما أعطي .. وأوصي إليّ مرات فتهربت من الوصية، وعُرضت عليّ أموال طائلة من حق الله فرفضت.

وبالأمس القريب اعترضت طريقي عجوز فقيرة، وقالت: أنا ذاهبة إلىٰ الحج، وعندي من حق الله ٣٠٠ ليرة، وأنت بها أولىٰ وأدرىٰ .. قلت: لعلك ضالة

عن الذين تريدين، قالت: كلا، أنت الشيخ مغنية، قلت لها ملاطفاً: عندي غير جبتي هذه ثلاث جُبب، وإذا أخذت منك الـ ٣٠٠ ليرة فسأشتري جبة خامسة تفوق بأبهتها جبب الشيوخ مجتمعة، أليس الأولى أن تنظري البائسين والمعوزين في بلدك، وتوزعين عليهم المبلغ على أن يكون نصفه للسادة الفقراء من نسل الرسول ﷺ والنصف الآخر لغيرهم من المحتاجين وإذا عرفت عاملاً يضيق كسبه عن عياله، ويعجز عن تعليم أطفاله فادفعي عنه ثمن الكتب وقسط المدرسة .. فاقتنعت وقالت: أفعل.

المناصب الرسمية:

أجمع فقهاء المذاهب قولاً واحداً على أن التعاون مع الظالم الجائر من أعظم المحرمات وأشدها، حاكماً كان أو غير حاكم .. وأجاز كثير منهم أن يتولى المرء أية وظيفة في حكومة الحاكم الجائر، شريطة أن يقيم حقاً أو يدفع باطلاً، واستدلوا بالآية ٥٥ من سورة يوسف: **﴿قال اجعلني على خزائن الأرض﴾** وفي الحديث: «**كفارة عمل السلطان قضاء حوائج الاخوان**»[١] ومع هذا فإن لعلماء الشيعة الإمامية تقليداً ورثوه جيلاً عن جيل، وهو أن ابن العلم والدين ينبغي له أن يبتعد عن كل منصب يسند إليه بمرسوم أو إذن من الدولة، سواء أكان المنصب قضاء أم افتاء أو رئاسة (مجلس ملّي)[٢]، ومن يتولى شيئاً من ذلك نظروا إليه بعين الاستخفاف.

---

١ ـ [مَن لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج ٣ / ص ٢٣٢ / ٥٧ أبواب القضايا والأحكام ـ باب الأيمان والنذور والكفارات، علماً أنّ هذا الحديث هو من أحاديث الإمام الصادق عليه السلام].

٢ ـ [مجلس ملّي: أي مجلس الشعب، وملّي كلمة فارسية بمعنى الشعب].

عُرضت رئاسة المحكمة الجعفرية بلبنان على الكبار من علماء الشيعة فاستنكفوا عنها، وقبلها شيوخ من الدرجة الثانية أو الثالثة.

ويتساءل المرء، ما دام الأمر كما ذكرت، فلماذا توليت مركز القضاء؟

الجواب: أجل كنت في غنىً عن القضاء، لو أني قبلت أن يتفضّل علي الآخرون، أو أن أستسلم لعيش الكفاف ولكن أبت علي نفسي الاستجداء، وطمحت إلى حياة أشرف وأرغد، على أني لا أذم، العاقبة للأمور التالية:

منها شعوري بأن الله سبحانه قد أرفق بي حين عجّل بإخراجي من القضاء قبل أن تصير كلمة قاضي مرادفة لكلمة «ملوّث».

ومنها أن وجودي في بيروت أتاح لي الاتصال بالعقول الكبيرة والاطلاع على أحداث العصر، والمشاركة في معركة التحرر الوطني. وفتحت لي آفاقاً أوسع، فنشرت في الجرائد، والمجلات، وأذعت في الراديو والتلفزيون، وحاضرت وخطبت في الأندية والمجتمعات، ودرّست في الجامعة، ورجع العديدون إليّ، من الذين كتبوا الماجستير والدكتوراه، واستعان بي من كتب عن الشريعة الإسلامية، والشيعة، والتشيع، بالإضافة إلى الأجوبة عن الأسئلة الدائمة للمحامين الذين يرافعون في المحاكم الشرعية والمدنية.

ومنها صلتي بدور النشر التي نشرت كتبي وبلغت أربع عشرة داراً. وبخاصة دار العلم للملايين التي نشرت لي الموسوعات الثلاث: تفسير الكاشف، في ظلال نهج البلاغة، فقه الإمام جعفر الصادق، بالإضافة إلى العديد من المؤلفات. والتي شجعتني بصدقها ووفائها، على المضي في طريق التأليف، ولو بقيت قابعاً في القرية دون الانتقال إلى بيروت لتعذر عليّ أن أكتب ما كتبت وأقرأ ما قرأت ..

بل وأهجر ما هجرت.

كانت مواقفي في القضاء، وحملاتي على الاستعمار والاقطاع والرجعية سبباً لثقة الأحرار بي، كما أن دفاعي عن الاسلام ونشر مبادئه، جعلني محل تقدير عند العلماء الطيبين والناس الشرفاء ـ ألا يكفيني هذا الرأسمال؟ ـ نعم .. اللهم أدم عليّ هذه النعمة ...

حظي وتوفيقي

نعمتان لا نكبتان:

كانت تحدث معي أشياء أشبه بالمعجزة وفي يقيني أنها تحدث مع كل الناس أو جلهم دون أن يتنبهوا أو يتدبروا، وجعلت ذلك في كتاب بين الله والناس دليلاً على وجود الله سبحانه. ومن جملة ما حدث معي أمران. ظننت في بادىء الحدوث أنهما نكبتان، ثم تبين لي مع الزمن أنهما من النعم، ومصداق لقوله تعالى: ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم**﴾[1].

الأول: إخراجي سنة ١٩٥٦ م من رئاسة المحكمة الجعفرية العليا الذي كان من نتائجه التفسير الكاشف والمبين وفقه الإمام الصادق وفقه المذاهب الخمسة وفي ظلال نهج البلاغة وفي ظلال الصحيفة السجادية الخ، فأيهما خير هذه الأسفار أم الكرسي؟

الثاني: في سنة ١٩٦٦ م قررت جمعية أصدقاء الكتاب أن تكون الجائزة ٥٠٠٠ آلاف ليرة لي على كتاب فقه الإمام الصادق وما أدراك ما فقه الصادق وجهل الأباعد به وما أن نشرت الجريدة خبر هذه الجائزة حتى أقام أحدهم الدنيا ولم يقعدها، واحتج باسم الشيعة على ذلك ولم تتحول الجائزة إلى شيعي غيري لعدم وجوده، بل تحولت إلى غير شيعي.

---

١ ـ [سورة البقرة، الآية ٢١٦].

ولكن الله سبحانه عوّض بدل الخمسة مئات الألوف. والسر الذي أعتقده هو النية والسريرة لأن الله يعلم أني لو كنت مكانه وكان هو مكاني ما فعلتها حتىٰ ولو قُطِّعت، وإذن فحظي كبير وتوفيقي أكبر لأن ما من شيء حُرمته عن طريق العبد وإلاّ وعوضه الله أضعافاً مضاعفة.

وقلت، حظي وتوفيقي لأن بعض المعممين قالوا لي صراحة أن رواج كتبك سببه الحظ والتوفيق.

في المسألة المادية :

في سنة ١٩٤٨ م عينت قاضياً شرعياً في بيروت، فجاءني وجوه برج البراجنة، ورغبوا إليّ بإلحاح أن أقيم عندهم عالماً، ويبنوا لي داراً مجهزة بالأثاث وتوسطوا مع السيد أحمد الحسيني وكان آنذاك وزيراً للعدل فأبيت.

وجاءني وفد من تجار بيروت، ورغبوا في أن أتولىٰ بناء جامع وهم أعوان مساهمين، فقلت: أدعو لكم بالخير، ولا أتصدىٰ لأي مشروع مادي حتىٰ ولو كان جامعاً.

وجاء الإمام السيد ... وقال: أنا أجمع المال بالملايين وأبني كلية شرعية في بيروت علىٰ أن تكون أنت الولي، فرفضت.

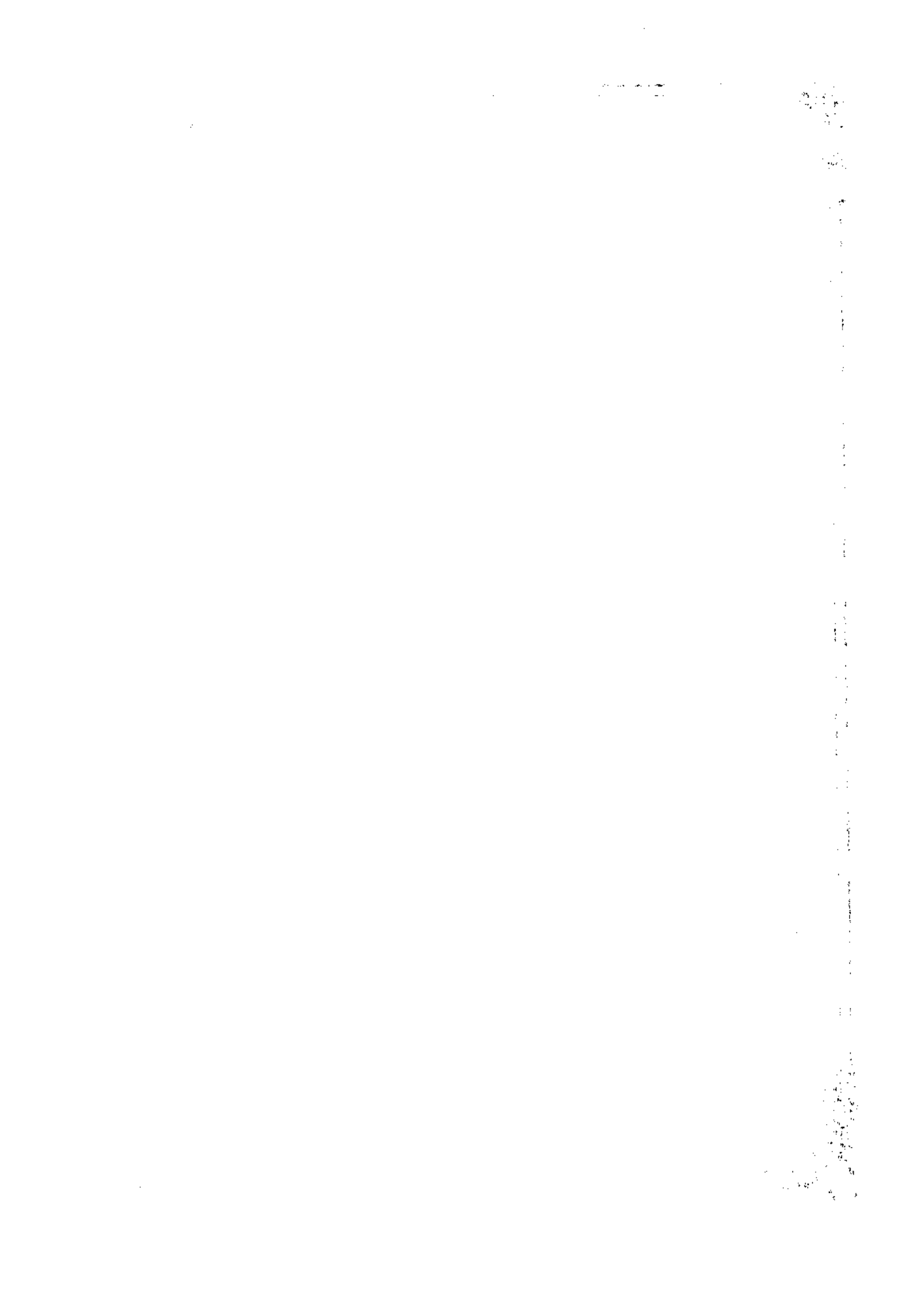
وفي سنة ١٩٧٦ م كنت أدرّس بقمّ إيران، وحدثت نكبة النبعة وبرج حمود، حيث قتلت الكتائب والأحرار الشيعة وطردتهم من ديارهم فكتبت في جريدة كيهان الإيرانية وجمعت الملايين، وعرض عليّ أن أتولىٰ التوزيع فامتنعت.

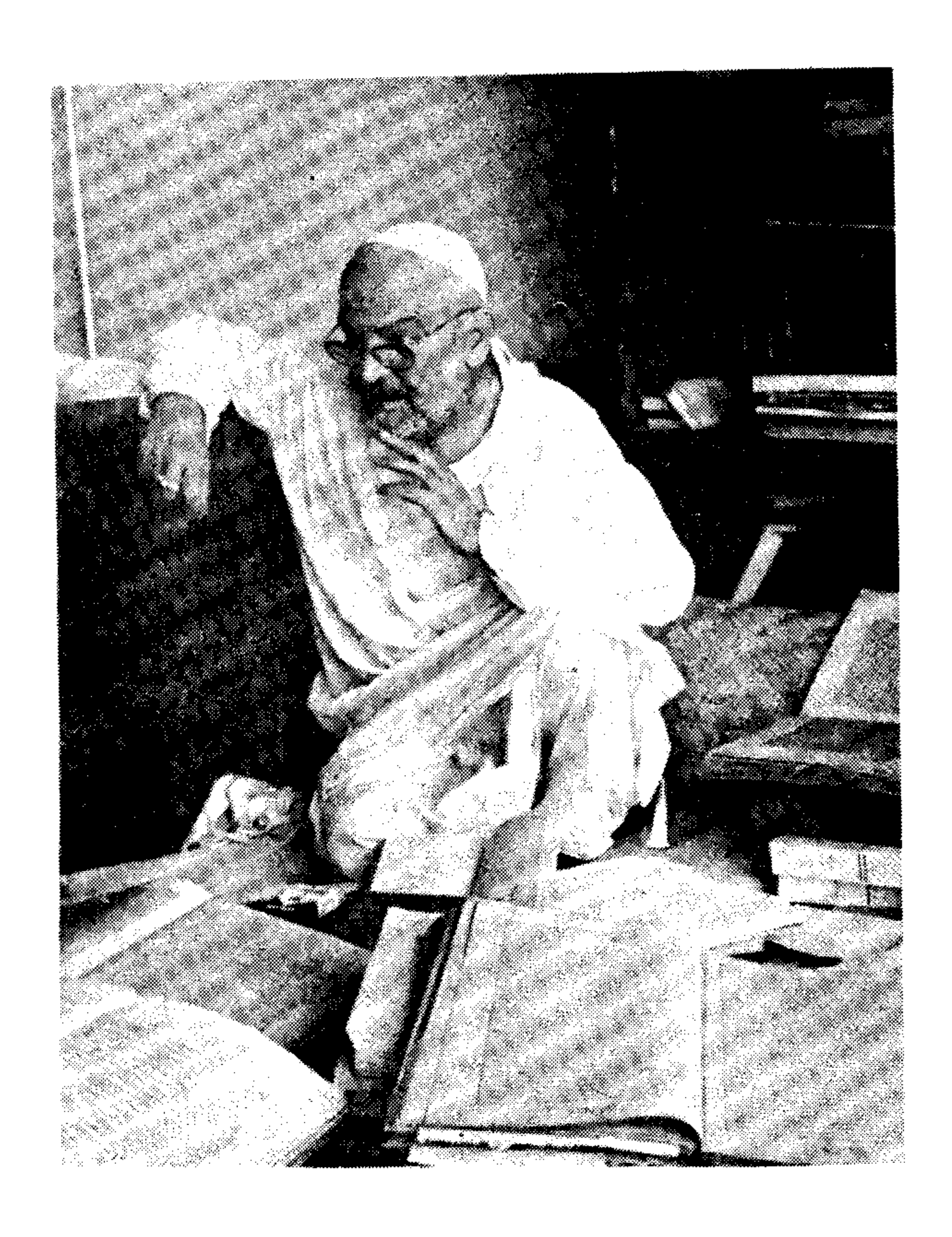
وكانت الحقوق تعرض عليّ فأمتنع، ومنذ ثلاثين عاماً تركت عقود الزواج

والطلاق وكل مهنة من مهن المشايخ، وأرفض الوصايا، وأخيراً اهتديت إلى دليل يجيز للموصى إليه أن يرفض لو أوصي إليه من غير علمه إلاّ بعد الموت بشرط أن يكون الموصي قادراً على إعلام الوصي، ولكن أخفى عليه خوف الرد.

الفصل الرابع :

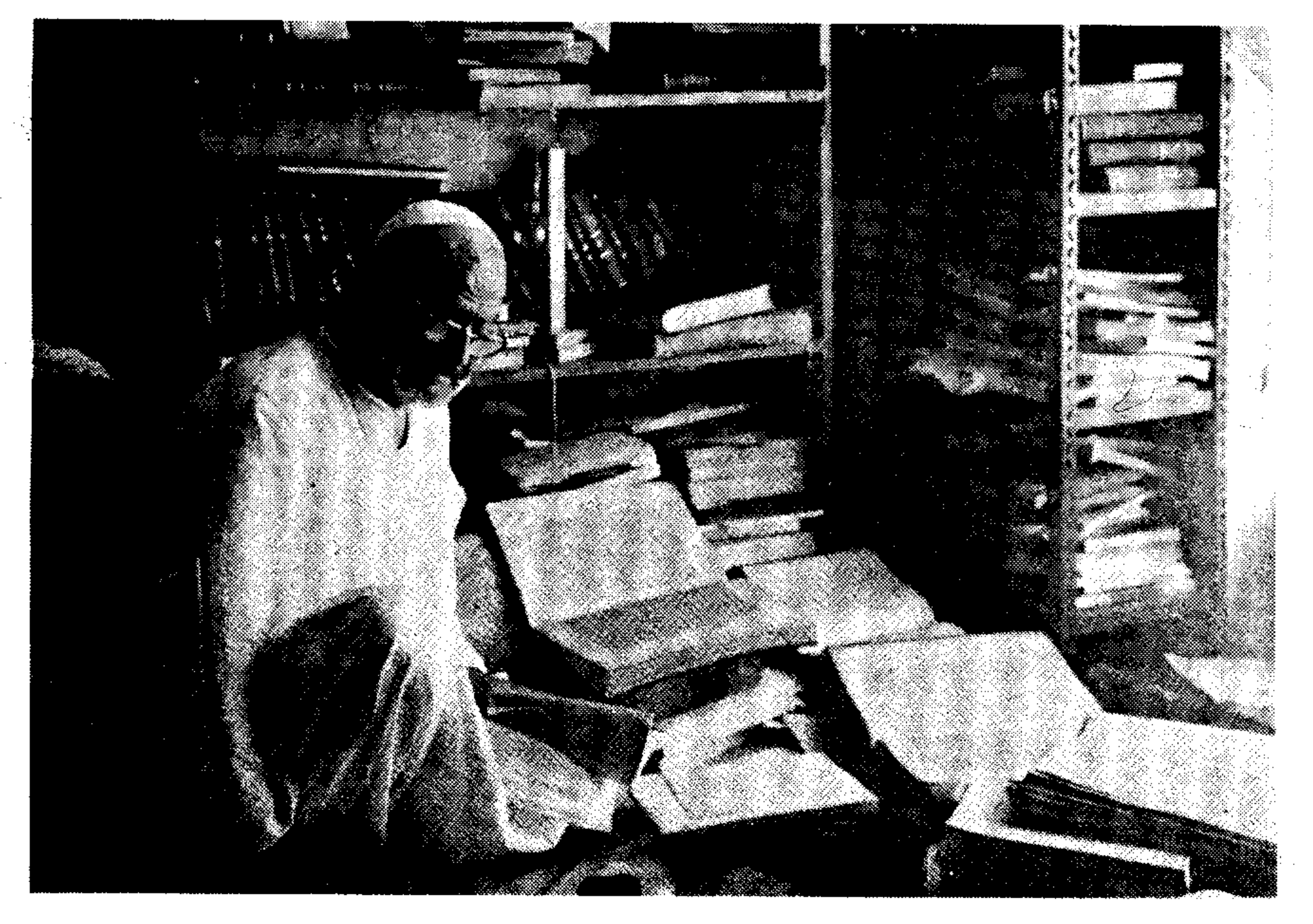
مع الكتاب والقلم



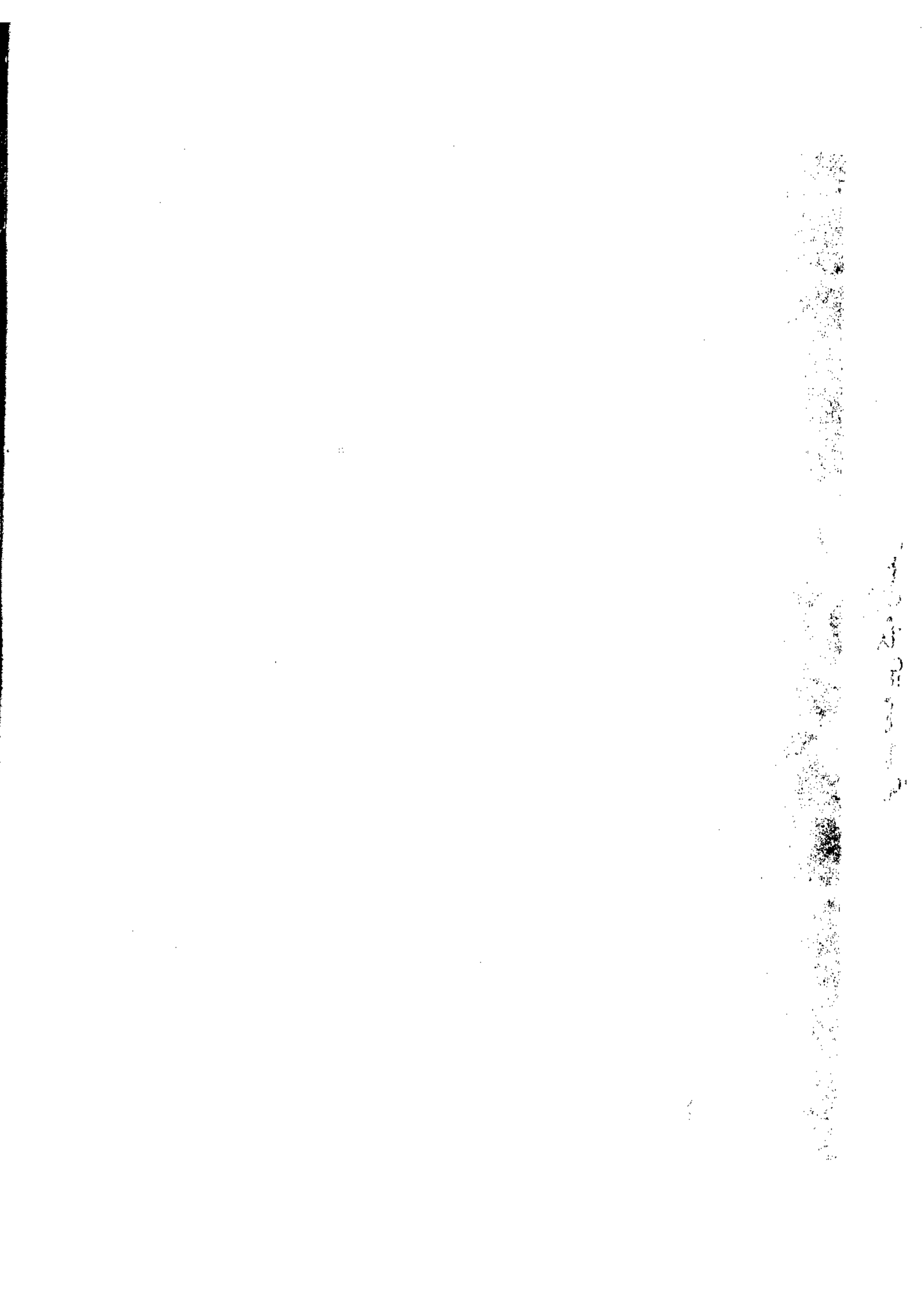


الشيخ محمد جواد مغنية في غرفة عمله





في صومعته بين كتبه وأسفاره





في طريقه إلى المطبعة وفي يده «الملزمة» والقلم الذي يكتب ويصحح فيه

سنة ١٩٥٨ م



شغلي الشاغل

هذا صياد لا يعرف غير الشباك، وما يقع فيها .. وذاك مزارع لا تتعدىٰ آفاقه البذر والحصاد، وآخر تاجر همه الكسب والربح، ورابع موظف ينتظر آخر الشهر بفارغ الصبر، وخامس أجير لمن دفع، أمير علىٰ من منع.

ورجل عاش حياته في جدال ونقاش منذ الأول لدراسته إلىٰ ساعته هذه، وربما إلىٰ آخر يوم في حياته، فأول درس تلقاه بعد أن تعلم القراءة والكتابة «الكلمة اسم وفعل وحرف، جاء لمعنىٰ».

وبعد أن ألقىٰ الأستاذ هذه الجملة قال: لماذا قدم النحاة الاسم علىٰ الفعل، والفعل علىٰ الحرف، ثم لماذا قيدوا الحرف بأنه جاء لمعنىٰ، وأبقوا الاسم والفعل من غير قيد؟

وثالثاً هل هذا التقسيم من باب الحصر العقلي، أو من باب الاستقراء؟

وهكذا مضيت في دروس النحو .. تساؤلات وأجوبة، واشكالات المحشين والشارحين، واختلاف الكوفيين والبصريين والحجازيين والتميميين، مع الأدلة والطعن فيها .. وانتقلت من النحو إلىٰ منطق أرسطو، وهل المنطق إلاّ جدل، وتأليف أقيسة للنقض والحل، وإفحام الخصم بالحق أو بالباطل؟

ومن المنطق إلىٰ مطول التفتازاني في علم المعاني والبيان، وما عليه من تعليقات للجلبي، والسلكوتي والسكاكي والجرجاني .. ثم إلىٰ أصول الفقه الذي

يكمن الفرا كله في جوفه، من تحقيقات الشيخ الأنصاري وجولاته إلى المرزا محمد تقي ونظراته، والشيخ الخراساني وتعقيداته، والنائيني وتقريراته .. ثم إلى البحر الخضم «الفقه» وأقوال المذاهب، وآراء القدامى والجدد التي لها أول بلا آخر.

أما علم الكلام الذي عُكف عليه سنين طوالاً فقد أنشىء للذب والدفاع عن عقيدة الإسلام ومعتنقيها باستخراج المتناقضات من أقوال الخصوم، وأخذهم أسرى بلوازم المسلمات عندهم.

هذي هي دراستي، وحياتي الفكرية: «إن قلت قلت، ويرد طرداً وعكساً، ونقضاً وإبراماً .. أولاً، وثانياً، وثالثاً الخ».

وقد أعطيت هذه الحياة كل ما أملك من مواهب ووقت، وتفكير، حتى في المنام كنت أرى نفسي مع آخر أناقشه وأجادله.

وماذا كانت النتيجة لهذا الجو المتخم بالأخذ والرد، والحوار والجدال مع أضخم العقول، وأكثرها علماً، وأشدها مراساً على الحجاج والدفاع؟

والجواب واضح، فإن النتيجة تتبع مقدماتها، وهي فيما نحن فيه الشغف باكتشاف الحق والذب عنه.

لقد كتبت كثيراً، وقرأت أكثر مما كتبت، قرأت بالألوف، وكتبت بالعشرات، قرأت الجرائد والمجلات، والكتب القصار والطوال، ولا أزال .. وجاءت النتيجة انعكاساً لمقدماتها، فألفت الكتب القصار والطوال.. وأيضاً كتبت المقالات في الصحف والمجلات.

وإن سألني سائل: ما بالك تقرأ وتكتب «حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين»؟

أجبته: لو تركت لفاتني الركب، ومن فاته الركب فهو من الهالكين.. أنا من أهل المعرفة، هكذا أدعي، أو هكذا يقال .. ولو مزقت عمري في الأكل والنوم والحديث عن هذا وذاك لكذبت في دعواي على نفسي، وعلى الله والناس .. إن العالم، وبخاصة في هذا العصر، عصر التغيير السريع، والتطور الهائل هو الذي يواصل السير على طريق المعرفة والعلم، فإذا أحجم عن طلبه، لأنه بلغ النهاية بزعمه، فقد انتهى العلم منه، ولم ينته هو إلى شيء منه.

وأعود إلى الحديث عن القراءة والكتابة، أو عن نفسي على الأصح، أعود إلى هذا الحديث، وأنا أعلم أن الناس يكرهون من يحدثهم عن نفسه .. ومع ذلك فإنهم يحبون الحديث عن أنفسهم، بل ويتحدثون كثيراً عنها .. وهنا محل الغرابة .. على أن من تكلم عن نفسه فقد تكلم عن غيره أيضاً، وعلى الأقل يعطي صورة من صور الحياة، وعلى أية حال فلست أرى بأساً بحديث الإنسان عن نفسه، على شريطة أن يتقي الله في حديثه، ولا يدعي ما ليس فيه .. وعلى هذا الشرط أحدّث: أن ما من يوم يمر عليّ، لا أقرأ فيه، ولا أكتب إلاّ أحسست بوخز الضمير وتأنيبه، أو كأنّ ينبوعاً كان في داخلي فجف ماؤه ونضب .. وأنا على وفاق تام مع ضميري ونفسي يوم أقرأ وأكتب .. وفي تصوري أن كل من شغل وقته بشاغل، أي شاغل، ولو بقراءة أي كتاب فإنه يشعر بالغبطة وراحة الضمير.

ماذا أقرأ ؟[1]

ننشر هذا المقال الوطني العلمي الذي يتدفق الإخلاص منه، وتتجسم الروح القومية والإنسانية فيه، مقدرين للشيخ مبدأه وتفكيره وعلمه ووطنيته.

نسيب المتني

قال:

أحب أن أقرأ كثيراً، وأكتب قليلاً، بل لا أحب أن أكتب إلاّ إذا لم أجد مفراً من الكتابة، أي عندما أحس في نفسي شيئاً لا يدعني أهدأ وأستقر حتى أعلنه للناس، إني أتعطش إلى القراءة والمطالعة، وأود أن أشغل وقتي كله فيها ليل نهار، ولكني لا أجد السبيل إلى تحقيق هذه الرغبة في كل حين، لا لأن وقتي لا يتسع للقراءة أو لا أجد صحيفة أو كتاباً يستحقان العناية، وإنما السر في ذلك أنـي لا أستطيع المضي في قراءة صحيفة أو كتاب إلاّ إذا توافرت فيه العناصر التالية:

أن يكون التعبير بسيطاً واضحاً بعيداً عن الزخرف والتضخم، واللف والدوران، وأن يكون الكاتب واقعياً يرتبط بعصره ارتباطاً كاملاً، وأن يكون عالماً بالتاريخ والأحداث وقوانين التطور، والأسباب والنتائج، ومخلصاً لا يستوحي أقواله وأحكامه من رغبات رجعية أو أجنبية، وبقول أوضح أني أرغب في قراءة ما يقوّم المعوج من أفكاري، ويثبت لي بالأرقام والأدلة الحسية أني على خطأ في

---

١ ـ جريدة التلغراف ٧ / ١١ ٥٤ وقدم له الشهيد نسيب المتني صاحب الجريدة.

بعض ما أعتقد، أو يرشدني إلىٰ حقائق لم أعرفها ولم أسمع بها من قبل، أو يذكر لي الحلول السليمة لمشاكلنا السياسية والاقتصادية أو يحدثني عن شعب كافح وناضل حتىٰ تحرر من الاستعمار والاستثمار، أو عن عصامي لم يكن شيئاً فأصبح بفضل جهاده وشجاعته إنساناً مذكوراً.

فإذا تهيأ لي شيء من هذا اشتريته بأغلىٰ الأثمان، وآثرته علىٰ كل عزيز، وأقبلت عليه بشغف وشوق، ولا أدعه حتىٰ أنتهي منه فإذا فرغت من قراءته ترك في نفسي أثراً يحملني علىٰ الحديث عنه، والتفكير به أمداً طويلاً.

إن الإنسان لا يريد أن يكون كوكباً لامعاً، ولا ولياً يأتي بالمعجزات ولا ملاكاً يطير بجناحين من سماء إلىٰ سماء، ولا جباراً طاغياً يتحكم بالملايين وإنما يريد أن يحيا حياة طيبة كريمة في هذه الأرض التي عليها ولد.

لقد مضىٰ الزمن الذي كانت تُفسر فيه الأحداث بالقضاء والقدر، وتقسم فيه الناس إلىٰ سادة وعبيد، ويوجه الدين والأخلاق إلىٰ خدمة الظلم والطغيان، لقد مضىٰ عهد الدين الذي يعد الصبر علىٰ الذل فضيلة، وتحمل الاضطهاد منقبة، ومضىٰ عهد الأدب الذي يسبح بحمد البغي والفساد، ومضىٰ عهد العلم الذي يؤخذ من أفواه الرجال لا من الواقع، لقد تغير الزمن، وتغيرت معه المقاييس، فالعلم اليوم يعتمد علىٰ الواقع لا علىٰ الأفكار والتصورات، والقيم ليست بشيء إذا لم تحطم أغلال الذل والاضطهاد، والدين تخريف وشعوذة إذا لم يدعُ إلىٰ التعاون والحب الإنساني الشامل للناس أجمعين، والأدب تسلية وزخرف إذا لم يعبر عن شعور الجماهير، ويقف إلىٰ جانب الكادحين، والصحافة عامل هدام إذا خافت بأس الظلمة، وقبضت من أيد قذرة.

قبل أن أمسك بالقلم...

مع أخ كريم:

قال لي أخ فاضل وكريم من السادة الأشراف: نحن وأنت في سباق مع الفارق في الميدان .. أنت تكتب ونحن نقرأ .. وكأن فرحي بقراءته أشد من غبطتي بما يدره عليّ حق التأليف، لأنه إلىٰ زوال قلّ أو كثر، ولكن هاج بي الطمع في العقبىٰ.

وأنا بدوري سلخت أعواماً مديدة في القراءة .. أنقّب عن شوارد الأفكار ونوادرها، أُدرّب بها ذهني علىٰ النمو والتفكير، وأرمم ما فيه من ثغرات وفجوات قبل أن أمسك بالقلم .. وحتىٰ الآن، لأن ترميم البيت أولاً، ثم السكنىٰ .. وإذا اهتديت إلىٰ حكمة أستضيء بنورها أصابني ما يشبه مس الكهرباء، وأتذكر قول من قال حين يطالع ويذاكر: «أين السلاطين مما نحن فيه؟ أما لو فطنوا لنا لقاتلونا عليه بالسيوف». وقال غيره: هذه هي اللذة من غير إثم.

يقرأ ويصفق:

ومن جملة ما قرأت في هذا الباب: أن رجلاً كان يقرأ، وهو مستلق في فراشه، وفجأة وبلا شعور قفز وأخذ يهتف ويصفق طرباً! وهكذا تفعل البذرة الصالحة في الأرض الطيبة، أو كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين صعق همام

عند سماعه الخطبة الشهيرة الخطيرة: **«هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها»**[1].
وإذن الفكرة الإنسانية ليست بشيء إذا لم تصادف قلباً راغباً ومزاجاً قارئاً..

---

١ - [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٠ / ص ١٤٩ خطبة الإمام علي عليه السلام في وصف المتّقين برقم ١٨٦، في المصدر «أهكذا» بدل «هكذا»].

المطالعة دليل التقدم

الغربيون والقراءة :

يثير إعجابي الشديد أن ملايين الكتب تُطبع وتباع في الاتحاد السوفياتي وأميركا والبلاد الأوروبية. وأن معظم الناس في تلك البلاد يقرؤون ويتذوقون، ويصحبون معهم الكتاب أنىٰ توجهوا كزاد الطعام، وأنهم «يتموّنون» من الكتب من أجل مطالعتهم الشهرية وحتىٰ السنوية، كما نتمون نحن العرب من الفول والبصل والثوم.

وقرأت مرة تعليقاً لصاحب دار نشر كبرىٰ في الغرب، أنه قسّم الكتاب إلىٰ نوعين: الأول تافه، مسلّي يقرأ مرة واحدة ثم يُطرح كالورقة الخاسرة من أوراق «اليانصيب» أو كعود الثقاب المحترق، والنوع الثاني الكتاب، القيم الناجح يطالعه القراء عشرين مرة وأكثر، وأيضاً قسّم القارىء إلىٰ نوعين: الأول يقرأ الكتاب بلا فكر وروية تماماً كما يقرأ الإعلان عن السلع والبضائع، والثاني يقرأ بقلبه وعقله، ويستخلص منه التجربة النافعة، والحكمة الغالية.

تذكرت ـ وأنا أكتب هذه الكلمات ـ رجلاً من أهل الغرب قالت عنه بعض الصحف: إنه يقرأ طوال حياته وساعاته، ولما سئل عن ذلك أجاب بأنه يشعر أن كتب البشرية بكاملها لا تكفيه، وأنه يحسّ بالأسف لأن الحيوانات لا تستطيع أن تؤلف ويتمنىٰ لو يعرف ماذا يجول في عقل البغل والحمار من أفكار وانطباعات.

أهكذا يطالعون..؟

وما أبعد ما بين هذا القارىء الشغوف، وبين من يحسّ بأن القراءة أثقل على قلبه من الكابوس .. ومع هذا إذا رأى كتاباً أسرع يُقلب صفحاته وينتقد الطبع والإخراج، وإن وقع بصره بالصدفة على خطأ مطبعي طار به فرحاً، وتحدث عنه مطولاً! .. أما العالم حقاً فيتسامح مع الأخطاء المطبعية، ولا يهتم كثيراً بالإخراج، لأن همه الأول منصرف إلى الفكرة وما تهدف إليها.

وقال لي شيخ أمضى زمناً في النجف: في مؤلفاتك أخطاء مطبعية.

قلت له: ولماذا ركزت اهتمامك على هذه الأخطاء بالذات ولم تر غيرها؟ وحبذا لو ناقشت في خطأ فكري لا مطبعي.

وقال لي شيخ آخر معلقاً على كتابي فقه الإمام الصادق بأجزائه الستة: لابد وأن تعمى من المطالعة والكتابة، فقلت له: وأنت أيضاً لابد أنك فهمت جيداً فقه الإمام الصادق بدليل تعليقك «العظيم» يا أيها «العلامة الكبير».

وسمع شيخ ثالث الثناء على كتاب فقه الإمام الصادق فقال: ولكن صاحبه جمعه من آيات الأحكام في القرآن وكتب الحديث والفقه وأصوله! .. وتجاهل هذا الشيخ أن هذي هي طبيعة كتب الفقه وحقيقتها، وأن مصادرها الكتاب والسنة وإجماع العلماء والعقل وبناء العقلاء، وليس من شك أني لو أتيت بفقه جديد لأصدر حكمه علي بالمروق والتكفير، وهكذا يكشف المرء عن دخيلته من حيث لا يريد.

وشيخ رابع صادفني ذات يوم، وفي يدي مجموعة من المجلات والجرائد، فتعجب وقال: حرام عليك شراؤها، وكان الأولى أن تدفع ثمنها للشعب

الفلسطيني! قلت له: الحرام ما حرمه الله. وأنا بهذه الصحف أعرف من هم أعداء الشعوب والإنسانية، وأطّلع على أخبار الفلسطينيين ومدى وعيهم وصمودهم وتضحياتهم، وأطّلع أيضاً على حركات التحرر في كل مكان وأشاركها آمالها، وأقول كلمة الحق بقلمي ولساني، وأنا على بصيرة منه .. ولو استرسلت في هذا الباب لملأت عشرات الصفحات.

أنا والقلم

طموح:

كنت، وأنا طالب في النجف، أطمح إلى أن أكون عالماً مجتهداً يلبس ثوب العلم والدين باستحقاق وجدارة وأن لا يختلف اثنان في علمي وفضلي تماماً كما كان أبي الشيخ محمود وأخي الشيخ عبد الكريم، وغيرهما من علماء الأسرة التي يرجع تاريخها العلمي إلى أكثر من ثمانمائة سنة، كما في معجم قرى جبل عامل للشيخ سليمان ظاهر.

هذا ما كنت أطمح إليه يوم كنت طالباً في النجف الأشرف سيراً على طريق الأجداد والآباء، كما أشرت، وصوناً لكرامتي من سخرية عابث، وضحكة هازىء .. وأيضاً كنت أعتقد أن مستقبلي ومصيري يرتبط بنجاحي كفقيه مجتهد، ومن أجل ذلك أقبلت بكياني كله على الدرس وإتقانه .. وما خطرت المرجعية والرئاسة في بالي على الإطلاق مع أني شاهدت هالتها حول ابن عم والدي المقدس الشيخ حسين مغنية رئيس العلماء وثقة الأتقياء في عصره.

أجل، كنت أتمنى أن أحسن الكتابة ونظم الشعر، لأنشر في الصحف، ويرى الناس اسمي مطبوعاً في صفحاتها، عسى أن أستحوذ على إعجابهم وتقديرهم .. وما عدا ذلك من أنواع العلاقة بين القارىء والكاتب والشاعر ـ كان آنذاك أبعد الأشياء عن فهمي وإدراكي .. وكنت من حين لآخر أنظم أبياتاً، أو أكتب مقالة، وأرسلها إلى صاحب مجلة العرفان فينشرها من باب التشجيع، كدأبه مع الناشئين،

عليه الرحمة والرضوان. وكان ذلك في أوائل الثلاثينات. وأول كلمة نشرتها كانت معنونة بهذا الحديث: «إنما الأعمال بالنيات»(١).

الكتابة وعي والتزام:

بعد عودتي إلى لبنان قرأت المئات من الكتب الحديثة في مواضيع شتى، وطالعت العديد من المجلات العلمية والأدبية والاجتماعية، وتابعت الكثير من أنباء ما يحدث في الشرق والغرب من ثورات وأحداث، ومؤامرات وأحلاف، أما التقدم العلمي المذهل ومنجزاته، وأخيراً الاستخدام الهائل للفضاء ومخترعاته، فقد كنت وما زلت أبحث عنه وأقرأه بلهفة ودهشة .. وانتهيت من مجموع ما قرأت إلى أن العالم مهما بلغت مكانته من العلم ـ أي علم حتى علم الدين والشريعة ـ لا يصلح للقيادة وتأدية رسالتها إذا وقف به علمه عند تخصصه المهني المحدود، وجهل أو تجاهل طبيعة الحياة في العصر الذي يعيش فيه، وما يجري من أحداث، ويتحكم بأهله من أوضاع وتحديات.

ومن أجل هذا كتبت مقالاً حول الأضاحي التي تُذبح في الحج، ثم تُطمر في الأرض، أو تترك للتعفن، ونُشر هذا المقال في مجلة رسالة الإسلام لدار التقريب في القاهرة بتاريخ كانون الثاني سنة ١٩٥٠ م بعنوان «هل تعبدنا الشارع بالهدي في حال يترك فيها للفساد؟». وفي سنة ١٩٥١ م كتبت مقالاً بعنوان «نحو فقه إسلامي في أسلوب جديد» ونُشر في مجلة النشرة القضائية التي تصدرها وزارة العدل في لبنان، ودعوت في المقالين إلى إعادة النظر في بعض المسائل الفقهية على أساس المصلحة العامة، والعمل بروح النص لا بظاهره، والهدف في التشريع، فقامت

---

١ ـ [الخلاف للشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ٤٩ مسألة ٥٧].

قيامة الشيوخ التقليديين، وأثاروا العواصف.

ثم نشرت مقالاً بعنوان «الفقر وليد النظام الجائر» قلت فيما قلت: «ليس الفقر من الله، ولا من صنع الطبيعة، وإنما هو من صنع الإنسان والأوضاع الفاسدة» ... فعاتبني أحد الشيوخ وقال: كيف تقول: الفقر من صنع الناس لا من صنع الله؟ قلت له: هذا قول رسول الله وأهل بيته عليهم السلام فقد روىٰ عنهم جماعة من العلماء، منهم صاحب الوسائل في أول باب الزكاة: **«إن الناس لو أدوا زكاة أموالهم ما بقي فقير»**[1].. **«وإنما يُؤتىٰ الفقراء من منع من منعهم من الأغنياء»**[2].

---

١ - [وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٩ / ص ١٢ / ٦ كتاب الزكاة، رقم الحديث ١١٣٩٢، عن من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: ج ٢ ص ٧ / ٦ باب علة وجوب الزكاة، وفيه:
قال الصادق عليه السلام: «إنّما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء، ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولاستغنىٰ بما فرض الله عزوجل له، وإنّ الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلّا بذنوب الأغنياء، وحقيق علىٰ الله عزوجل أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله، وأُقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق، أنّه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلّا بترك الزكاة، وما صيد صيد في بر ولا بحر إلّا بتركه التسبيح في ذلك اليوم، وإنّ أحب الناس إلىٰ الله عزوجل أسخاهم كفّاً وأسخىٰ الناس من أدىٰ زكاة ماله ولم يبخل علىٰ المؤمنين بما افترض الله عزوجل لهم في ماله»].

٢ - [وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ٩ / ص ١٠ / ٣ رقم الحديث ١١٣٨٩، عن من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: ج ٢ / ص ٥ / ١ باب علة وجوب الزكاة، وفيه:
عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله عزوجل فرض الزكاة كما فرض الصلاة، فلو أنّ رجلاً حمل الزكاة فأعطاها علانية لم يكن عليه في ذلك عيبٌ، وذلك أنّ الله عزوجل فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يكتفون به، ولو علمَ أنّ الذي فرض لهم لا يكفيهم لزادهم، وإنّما يؤتىٰ الفقراء فيما أوتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة].

مهنة الكتابة

قضيت في حياة التأليف والكتابة أمداً غير قصير، وتطور أسلوبي، واتسعت أفكاري يوماً بعد يوم، ووجدت قراءاً في بعض الأوساط، وربما كنت أثيراً عند عدد غير قليل .. ويعود السبب في ذلك إلى ما يلي:

التعبير والأسلوب:

أولاً: من حيث التعبير والأسلوب ـ لا أنقل المعنى إلى القارىء بالكلمات التي أتصورها في الوهلة الأولى وأيضاً لا أطيل التفكير، بل لا أفكّر إطلاقاً في نقش الألفاظ وزخرفتها، وإظهار المهارة والبراعة في هذا الميدان، لأن التكلف والتصنع في التعبير أشبه بالرياء والنفاق في الدين .. وكثيراً ما أطيل التفكير أتحرى الإيجاز والوضوح مع التركيز على المعنى المقصود.

أبداً ودائماً أضع نصب عيني هذه الأركان الثلاثة: التركيز والإيجاز والوضوح، وأراها ضرورية لنجاح الكتاب، لأن التركيز كالخط المستقيم لا ينحرف بالقارىء يميناً وشمالاً، ويجعله منسجماً مع الموضوع لا يتأرجح بينه وبين غيره، أما الإيجاز فيبتعد بالقارىء عن الملل والضجر، وبالوضوح يدرك أدق الأفكار من غير جهد، ولهذا الركن أهمية قصوى، والوسيلة إليه أن يسير الكاتب على سجيته، ويستخلص ما أمكن كلماته من لغة الناس العاديين غير العامية طبعاً.

ويرىٰ كثير من العلماء والأدباء أنه لا قواعد إطلاقاً لجودة الأسلوب وفن الكتابة، وأن الكاتب العظيم لا يلتفت إلىٰ شيء منها، لأن «أسلوب الإنسان هو نفس الإنسان»، ويستحيل أن ينجح ككاتب إلاّ إذا كانت له شخصية أدبية وموهبة فنية. ويلاحظ بأن الشخصية الأدبية والموهبة الفنية قاعدة أساس لبناء الأسلوب، وعليه يكون كل من الموهبة والأسلوب جزءاً متمماً للآخر تماماً كاستعداد التلميذ والقارىء لتفهم ما يدرس ويقرأ.

بعض القراء لا يطيقون الصبر علىٰ غموض التعبير وصعوبته، ويلقون بكل كتاب معقد، ويسخطون عليه وعلىٰ صاحبه، ويتلاشىٰ بذلك حبهم للقراءة والاطلاع .. وليس من شك أن في ذلك خسارة بالغة علىٰ الكاتب، لأنه يكتب للآخرين لا لنفسه، وأيضاً خسارة علىٰ القارىء الذي لا يقرأ للمتعة وكفىٰ، بل يقرأ الكلمة لأنها نور لعقله وغذاء لروحه.

ولعل خير الطرق لحل هذه المشكلة هو تصميم القارىء وعزمه علىٰ التفهم مهما كلفه الأمر، والصبر علىٰ التعقيد وإن طال أمد التأمل والتفكير.. ويخطىء من يظن أن العلم والفهم وقف علىٰ أهل الاختصاص.. فقد كان دماغ العقاد دائرة معارف، يكتب في أي علم شاء، وما درس منه ولا من غيره شيئاً في المدارس والمعاهد .. وقرأت له من جملة ما قرأت بحثاً في أصول الفقه لا يأتي بمثله إلاّ أستاذ نجفي أو أزهري متضلع. وفي مكتبتي ألوان من الكتب، وأكثرها لا يمت إلىٰ اختصاصي بسبب، ومنها في الذرّة والألكترون .. قرأتها بصبر وعزم، ولممت بجوهرها الأساسي وبالصورة العامة لموضوعها وأثره في الحياة واستخلصت منها ما أنتفع وأستشهد به عند الإقتضاء.

وجاءتني رسالة من بلد عربي، قال كاتبها: إن مؤلفاً سئل ـ بحضور كاتب الرسالة ـ عن سبب الفرق بين أسلوبه الغامض الذي يصعب فهمه، ويعسر هضمه،

وأسلوب غيره الواضح الذي لا يكلف القارىء أي جهد؟ فقال المؤلف، ما زال الكلام لصاحب الرسالة: إن الصعوبة في دقة أفكاره وأهدافه لا في تعبيره وأسلوبه.

وهذا الجواب قديم جداً، له من العمر مئات السنين، وأظن أن المؤلف يعلم ذلك، ويعلم أيضاً أن الفلاسفة الكبار شرحوا بوضوح وبساطة أدق المعاني والأفكار، وقد يحدث العكس، وتُغلّف الأفكار الواضحة بلغة قاتمة غامضة.

وبعد، فإن أسلوب الكاتب يتأثر إلى حد بعيد بشخصيته، فإن كانت له موهبة فنية أدبية جاءت كلماته مشرقة متألقة وإلاّ خانه النطق، وتكلف وتعسف.

قال العالم الكاتب الفرنسي «بافون»: «إن أسلوب الإنسان هو نفس الإنسان».

وقال آخر: ليست الكتابة إلاّ التعبير عن طبيعة الكاتب وطابعه.

الفكر والمحتوى:

ثانياً: من حيث الفكر والمحتوى ـ ما طبّلت وزمرت لقوي وغني حتى في أيام فقري وفاقتي، ولا أيّدت وناصرت أية سياسة شرقية أم غربية، لأن السياسة هوى متّبع، وخداع مقنّع، ولا انتهجت وحبذت أية فكرة قديمة كالصوفية، أم حديثة كالوجودية والماركسية، أما الأحزاب في هذا العصر فقد حرمتها على نفسي، ولا ارتضيتها لمن أحب. والمحور الذي يدور حوله قلمي هو الإنسان واستقلاله وكرامته، هو أن يتعاون جميع الناس من أجل حياة طيبة آمنة لا جوع فيها وأنات، ولا قهر واستغلال، ولا تهديد وعدوان على أحد حتى ولو كان في أبعد أطراف الدنيا، وعلى أي دين ومذهب. فالإنسان هو الغاية والقيمة العظمى، وإلى إشباع حاجاته يجب أن تهدف وأن تجمع القيم الدينية والاجتماعية، وأن

يرتفع بها كل صوت، ويعلنها كل قلم، وتدعو إليها كل رسالة، وتقوم من أجلها الثورات والمظاهرات، وتشاد المصانع والمعاهد .. وأي فكر أو حزب أو فعل يؤدي إلىٰ هذا الهدف فهو خير وحق وعدل، وإن أضر بمخلوق في جهة من الجهات فهو رجس وجريمة، وإن لم يكن فيه ضر ولا نفع فهو لغو وعبث.

والإسلام الذي ارتضاه سبحانه ديناً لعباده ـ يتجه بجميع مبادئه وتعاليمه إلىٰ تحقق هذا الهدف علىٰ أكمل وجه، لأن الإسلام لا يكتفي بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر إلاّ مع العمل بموجب هذا الإيمان وما يدخل في دلالته ولوازمه، والإيمان بلا إله إلاّ الله يجرد بدلالته البشر من حق السيطرة والاستغلال، ويضع الناس كلهم علىٰ مستوىٰ واحد في الحقوق والواجبات، ويبطل مزاعم الذين ينظرون إلىٰ الملونين والمستضعفين كأداة للرفاهية ومصدر للربح، أما الإيمان برسالة نبي الهدىٰ فيدخل في مفهومه الأمر بالمعروف ووجوب العمل به، والنهي عن المنكر ووجوب الإعراض عنه، ويدخل في مفهوم الإيمان بالبعث والحساب أن الإنسان لن يُترك سدىً، ويُهمل عبثاً، وأنه مسؤول أمام قوة عليا، وأن المحسن لابد أن يثاب، والمسيء لن يفلت من العقاب، وأي فرق بين الخير والشر إذا استوىٰ مصير الأخيار والأشرار؟

هذا ما أقتنع به، وأتحمس له، ومن وحيه وجوهره انطلق قلمي إلىٰ كتابة «الله والعقل» و «الآخرة والعقل» الخ .. وإلىٰ الغضب والثورة علىٰ القهر والاستئثار .. حتىٰ كتاب «الشيعة والتشيع»، ومع «الشيعة الإمامية»، و «الشيعة والحاكمون» و «الاثنا عشرية» كل ذلك ثورة علىٰ المفترين وأعداء الإسلام والمسلمين.

وهو سبحانه المسؤول أن يمنحني حسن الإرشاد، والأمن يوم المعاد.

في سنة ١٣٨٩ هـ قضيت الثلث الأول من شهر المحرم في كربلاء لزيارة

سيد الشهداء عليه السلام كعادتي كل سنة منذ باشرت بتأليف التفسير الكاشف، فرآني هناك طالب في العلوم الدينية، وبعد التحية قال: يُقبل القراء على مؤلفاتك بلا إعلان ودعاية ودعامة من شركة أو حزب أو دولة بينما غيرك من الشيوخ يكتب ويطبع، ويعلن على الغلاف وغير الغلاف بضخامة الألقاب والبحر العباب، ومع هذا لا يلتفت القراء إلى كتابه، ولا تفسير لذلك إلاّ الحظ!

تخيل هذا المسكين أن العبرة بالكتابة والطباعة والإعلان بالألقاب، أما الفكر والمحتوى فما له من أثر قريب أو بعيد!

ومعمم آخر رغب إليّ أن أضع اسمي على ما يكتب ويؤلف! .. ولعل الذي دعا هذا البريء إلى هذه «التضحية العظمى» إيمانه بأن اسمي يحالفه الحظ حتى لو وضع على النقد الزائف لتحول إلى أصيل .. وعلى أية حال فإن بعض الناس تأخذهم نشوة الغرور حين يمسكون بالقلم فيسطّرون ما لا يعقلون .. وفيما مضى كان ينسب عالم مغمور إلى عالم مشهور انتقل إلى حياته الآخرة، ينسبه إليه رغبة في رواج الكتاب وإذاعته، أما أن يهذو هزيل باللغو، ثم يسأل الآخرين أن ينتحلوه فهو من خصائص هذا العصر، عصر اللصقاء والدخلاء.

ماركس ولينين وتفسير القرآن

قيل لي: كيف ذكرت اسم ماركس ولينين في التفسير الكاشف؟

قلت له: إن الله سبحانه ذكر في المتن لا في «التفسير والشرح»! .. ذكر المشركين والكافرين، والشيطان وحزبه، وفرعون وهامان، وفوق ذلك ذكر اليهود وأنهم قالوا: يد الله مغلولة، وأنه فقير وهم الأغنياء! .. ذكر سبحانه ذلك في معرض الذم والوعيد، وأنا ذكرت ماركس ولينين والماديين في معرض الرد عليهم ودحض معتقداتهم لأنهم أنكروا فكرة الدين والعصمة ونفوها عن النبي وأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وقلت من جملة ما قلت: كل من استدل بقول إنسان، وجعله حجة ودليلاً على الحق فقد قال وآمن بعصمته من حيث يريد أو لا يريد، والشيوعيون يستدلون على الحق بقول ماركس ولينين، ومعنى هذا أنهما معصومان عند الشيوعيين.

وفي ذات يوم جاء إلى بيتي شاب لا أعرف من هو ولا من أين هو؟ فرحبت به، وظننت أنه كأحد الشباب الذين يأتون إليّ للسؤال عما يعنيهم من أمر، ويهمهم من علم، وبعد أن استقرّ به الجلوس قال: لماذا لا ترد في كتبك على الشيوعيين؟ فرابني من هذا الأسلوب الذي افتتح به حديثه، وظننته مدسوساً من بعض الجهات المشبوهة .. وسألته بهوادة: لعلك من الحزب «الفلاني» وأسميت حزباً تكثر حوله الشكوك والتساؤلات.

ثم قلت له: إن كل كتاب من مؤلفاتي هو صاعقة على الشيوعيين

والملحدين، وعلى الرأسماليين والمستعمرين وعملائهم الخائنين .. أما قرأت يا هذا كتاب «الله والعقل» و «النبوة والعقل» و «الآخرة والعقل»، و «المهدي المنتظر والعقل»، و «فلسفة المبدأ والمعاد» ... فهل الشيوعيون والملحدون يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر؟ وهل يدينون بعصمة النبي وأهل بيته وغيبة المهدي المنتظر، ويدافعون عن فكرة العصمة والغيبة، وعن الشيعة والتشيع، ويقدسون النجف وعلماء النجف، ويؤمنون بالقرآن ونهج البلاغة ويلتزمون بفقه الإمام جعفر الصادق، ويتخذون الإسلام ديناً وشريعة ومنهجاً للحياة؟ .. هذا، إلى ردي الصريح على النظام الاقتصادي الشيوعي في كتاب «المهدي المنتظر والعقل والتفسير الكاشف وشرح النهج وفلسفة التوحيد والولاية!».

ولا تعجب أيها القارىء من جحود هذا المريب ـ ومن هم على شاكلته ـ لهذه البديهيات القاطعات. ولا أبتعد بك إلى عهد إبراهيم وموسى، ومحمد وعيسى (ص) فالآن وفي هذا العصر بالذات تعلن إسرائيل بكل صلافة: أنه لا يوجد شيء اسمه فلسطين ولا شعب فلسطيني وأنهم مجرد مخربون هدامون! .. وفي كل قوم وطائفة شيطان وإسرائيل ينكرون الحق ويكفرون. وعلى أية حال فمن يحارب الشيطان لا يعبأ باقواله وآرائه .. ويأبى الحق إلاّ أن يفرض نفسه ولو كره المعاندون.

أعمل بين ١٤ ـ ١٨ ساعة يومياً

في تشرين الأول من سنة ١٩٦٤ م ابتدأت بتأليف فقه الإمام جعفر الصادق عليه السلام موسوعة كاملة من الألف إلىٰ الياء عرضاً واستدلالاً، وانتهيت من تأليفها بحزيران من سنة ١٩٦٦ م، وبلغت صفحاتها أكثر من ألفين في ستة أجزاء، ثم جمعت في ثلاثة مجلدات تجليداً فنياً .. وإذا قدرنا سير الصفحات بالأيام بلغت سرعة التأليف حوالي ثلاث صفحات في اليوم الواحد، أما الفضل في هذه السرعة ـ إن صحت التسمية ـ فيعود لمواصلة السير، لا لخفة اليد، ولا لسهولة الطريق ـ كما يظن ـ فلقد كنت وما زلت أعمل بين الـ ١٤ والـ ١٨ ساعة من اليوم والليلة، وفي بعض الأحيان تسيطر الفكرة علىٰ جميع حواسي، وتمنعها من النوم ٣٦ ساعة، وما زلت علىٰ ذكر أنّ هذا حدث لي، وأنا أكتب عن الفضولي وأحكامه الشرعية، وأحل طلاسم الشيخ الأنصاري في مكاسبه ومطالبه .. فقلت: سبحان الله لقد بلغ الفضولي من ثقالة الدم، وكثافة الظل أن يمنع من النوم من يفكر فيه، أو يكتب عنه، حتىٰ ولو كان الكاتب فقيهاً أو ثقيلاً.

وكنت أظن، وأنا مع فقه الإمام أنّ الكتابة فيه أكثر صعوبة من الكتابة في غيره، لأنّ علىٰ كاتب الفقه أن يلتزم الخطة المرسومة لا يحيد عنها قيد شعرة، وإن كان ملهماً، فإنّ إلهامه عجلة تجري علىٰ الخط، أو جناحا طائر في قفص يصفّ بهما أو يدفّ، وهو في سجنه .. والخط المرسوم لكاتب الفقه هو كتاب الله وسنة نبيه .. إنّه يكتب، ما في ذلك ريب، ولكن كأداة في يد الكتاب والسنّة، لا كمؤسس ومشرّع.

انتهيت من الموسوعة الفقهية بأجزائها الستة، وباشرت بالتفسير الكاشف وقلت: انطلق العصفور من القفص إلىٰ الغابة يبسط جناحيه أنّىٰ يشاء، وينشد القصائد كما يريد .. وقبل النشيد ابتدأت ببسم الله الرحمن الرحيم بعد أن تعوّذت من الشيطان الرجيم وإذا بالمفاجأة الكبرىٰ .. فقد تحوّل ذو الجناحين إلىٰ إنسان يسبح في بحر لا قعر لعمقه، ولا حدّ لشاطئيه .. وما الفقه وغير الفقه إلاّ نقطة منه . وأعجب ما في هذا العظيم المُعجز أنّ ما من آية من آياته إلاّ ويستطيع الملهم أن يوصل بها معنىً من معاني الخير والفضيلة، ذلك أن القرآن في جميع مقاصده يتجه إلىٰ المبدأ العام، والنظرة الشاملة لكلّ الناس في كل زمان ومكان، وإذا تحدّث عن شيء معيّن فإنّما يتحدّث عن الجهة العامة فيه، وهذي ميزة العلم، وأخص خصائصه حيث يتجاهل من الموضوع ما هو خاص فيه، وينظر إلىٰ ما هو عام ينضوي تحت لوائه جميع أفراده ..

وقد حاولت أن أُطبّق آيات القرآن علىٰ حياتنا، وأربطها بأفعالنا ما استطعت .. ولست الآن بصدد الحديث عن عظمة القرآن، ولا عن فقه الإمام، وإنّما أردت بهذه الإشارة أن أُمهّد للقول بأنّ التفسير الكاشف قد ملأ وقتي وعقلي وقلبي، ولم يترك فراغاً إلاّ ساعة من نهار أمرّ فيها قبل الظهر بمكتبة الأرز أنظر الصحف والجديد من الكتب، وأتسلم ما يحمل البريد إليّ من رسائل، وهي أشكال وألوان، منها دعاء وثناء، ومنها أسئلة شرعية، وهذه أُجيب عنها أيّاً كانت الشواغل والعوامل، ومنها تقترح عليّ الكتابة في موضوع معيّن، وأدع هذه للظروف، لأنّ الله تعالىٰ ما جعل في جوفي إلاّ قلباً واحداً، ومنها يرغب إليّ كاتبها أن أبعث إليه بمؤلفاتي، ومصير هذه إلىٰ سلة المهملات إلاّ إذا صحبها الثمن جنباً إلىٰ جنب[1]، حتىٰ ولو كان المرسل أخي الوحيد الفريد الشيخ أحمد.

---

١ ـ الواقع أن هذه المؤلفات تطبعها وتبيعها دور النشر والمكتبات، وإذا رغب أحد شراء ⟸

.. واستناداً إلىٰ قاعدة «الشيء بالشيء يذكر» فإنّ لي زوجة واحدة، وابناً واحداً، وبنتاً واحدة، وأخاً واحداً وأُختاً واحدة لأمّ واحدة .. وكلنا نعبد إلهاً واحداً ونحن له مسلمون.

هل أفر من نفسي:

فقد يظن أني أريد الكتابة عن رغبة وشوق، كلا بل هي أرادتني، وفرضت نفسها عليَّ، ذلك أني منذ سنوات وبعد أن بلغت من الكبر عتياً، حاولت الفرار من القلم وما زلت أحاول من غير جدوىً، وهل أفر من نفسي؟ وربما ولعل ... لو كان لي شاغل وسبيل غير الكتاب والكتابة، علماً بأني كلما مضيت في البحث والتفكير والتأليف، لاحت أمامي بارقة رشد وهدىٰ إلىٰ طريق العلم والمعرفة، ولكن **﴿وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيباً﴾**[1].

الكتابة والنوم:

لا ميزان له في حياتي منذ البداية فبعض الأيام يستغرق ٦ ساعات وفي بعضها الآخر دون ذلك وقد أكتفي بـ ٤ وقد أمضي ٤٨ ساعة بلا نوم، والسبب هو الموضوع الذي أكتب فيه، فإن كان صعباً حرمني النوم للتفكير الدائم، وإن كان

⟸ أي كتاب فإنه يشتريه من البائع وليس من المؤلف، وقد يعتقد البعض أن هذه الكتب ملك للمؤلف وهذا خطأ جسيم، لأن المؤلف نفسه يأخذ من الناشر عدة نسخ مجاناً لا تتجاوز أصابع اليد، وإذا أراد المؤلف بعد ذلك أن يأخذ مزيداً من مؤلفاته فإنه يشتريها ويدفع الثمن كأي زبون آخر. الناشر.

١ - [سورة مريم، الآية ٤].

سهلاً استطعت النوم أكثر وإذ أوشكت على الانتهاء من تأليف الكتاب عز النوم بل يكاد يطير عني بلا رحمة.

أغلىٰ أمنية :

لا أدري هل تمتد بي الحياة إلىٰ النهاية، وأرىٰ نتاج ما ضحيت وقاسيت، وأن الأقدار قد تنصرف عكس ما رسمت وأوردت؟

أسئلة لا يعلم أجوبتها إلاّ صاحب الكلمة الأولىٰ، والإرادة العليا: **﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾**[1].

وإيماني بهذه الحقيقة لا يمنعني أبداً من التصميم والمضي في الجهد والعمل الدائب .. لأني أؤمن أيضاً بأن لعزمي الجاد أثره البالغ في تحقق ما أريد .. ومن أجل هذا أظل أكتب وأكتب، وأحلم بالتمام والنجاح، حتىٰ الموت، فهو وحده الذي يحد من نشاطي، فأنا دائماً أبذل الجهد، ما دام الموت بعيداً عني.

وأغلىٰ أمنية علىٰ قلبي أن يفاجئني الأجل، وأنا أكتب داعياً إلىٰ الله والحق والعدل .. بل أسمىٰ الرغائب لدي أن أدخل الجنة لأقرأ فيها وأكتب خالي البال، متحرراً من الأشغال، وهموم العيال .. وكم مرّ بخيالي هذا السؤال ـ جاء السجع من غير قصد ـ: إذا أنعم الله عليّ بالجنة فهل أكون فيها بطّالاً؟ وهل يتسنىٰ لي أن أقرأ فيها وأكتب؟ وأجيب نفسي: أجل، إن فيها ما تلذ الأعين، وتشتهيه الأنفس، حتىٰ ولو اشتهت القراءة والكتابة .. ويعود السؤال، ولكن بصيغة ثانية: ولمن أكتب؟ وأهل الجنة كلهم علىٰ غاية الكمال ..

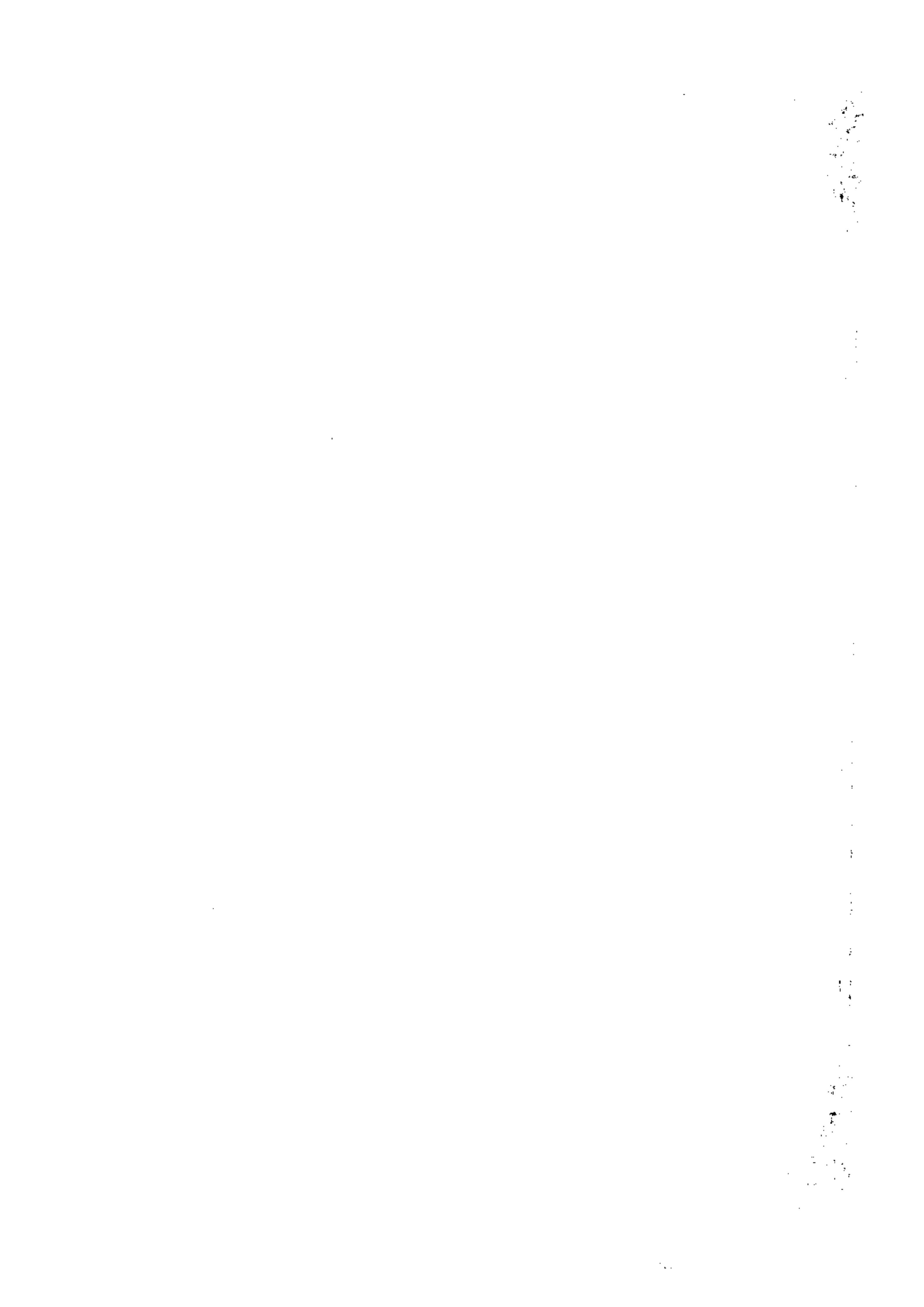
---

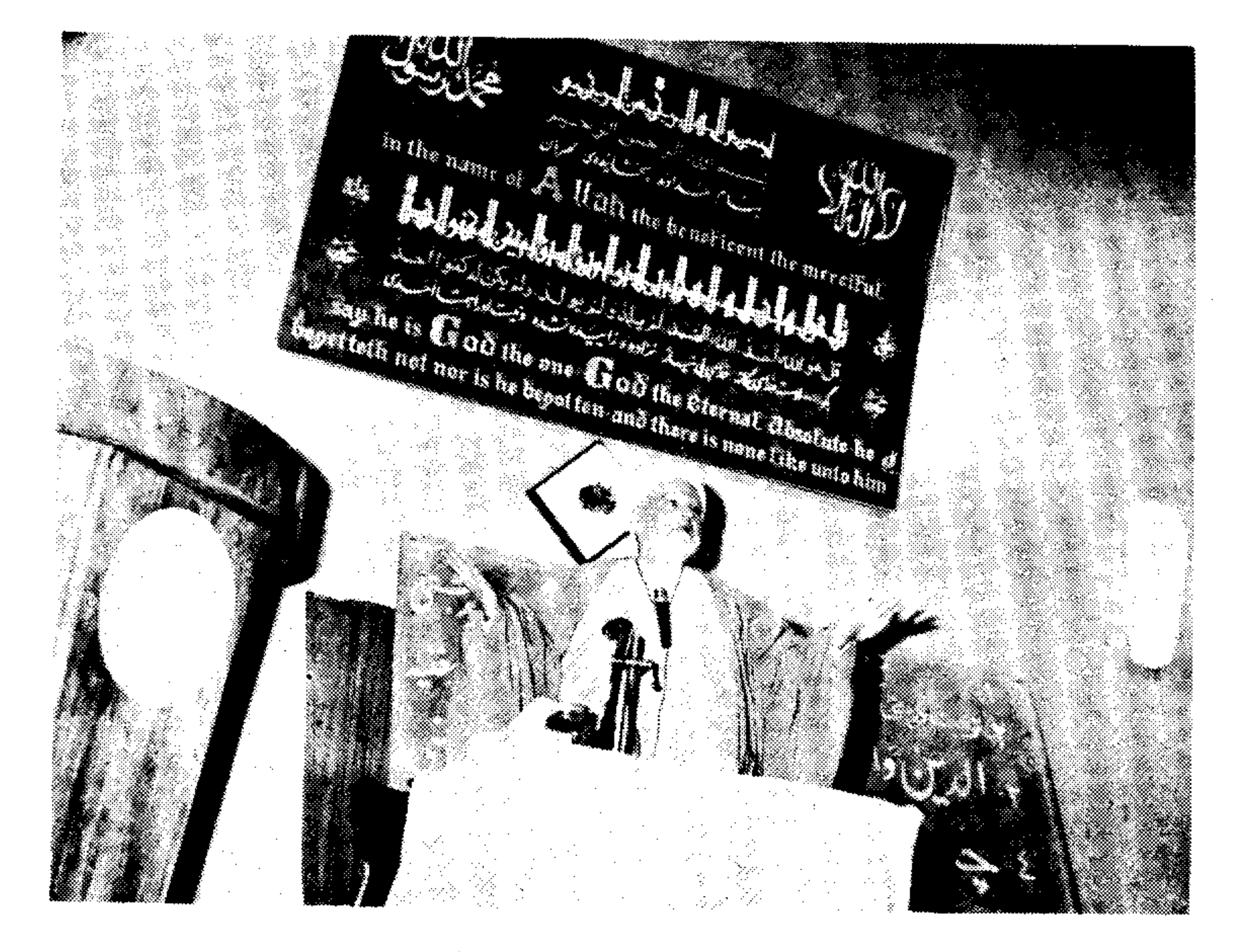
١ ـ سورة لقمان، الآية ٣٤.

ومعذرة من هذا الاسترسال مع القلم، وعلى الأصح مع ذاتي في التعبير عن نفسها.. وهل أنا إلاّ مجرد إنسان يصعب عليه أن يتحرر من ذاته وينفصل عنها؟ أو يصعب عليه أن يمنعها عن التعبير عما في كهوفها وقراراتها حين تجد فرصة ومنفذاً لهذا التعبير.

الفصل الخامس :

من وحيّ الإسلام





الشيخ محمد جواد مغنية خطيباً



الإنسان

لقد أودع الله في نفس الإنسان من القوىٰ والمشاعر ما سارت به في طريق التقدم والتطور، حتىٰ بلغ مرتبة ليس فوقها إلاّ الخالق، أما الحيوانات والحشرات فإنها تسير في سبيل واحدة لا تحيد عنها قيد شعرة، ولو ذهب الإنسان بذهاب جسمه هذا، ولم ينتقل إلىٰ حياة ثانية لكان مصيره كمصير النبات والحشرات، وكان ما أودع فيه من القوىٰ العاقلة المُدركة أشبه بشرر تطاير من الزناد ثم ذهب مع الريح.

لقد حلل علماء الطبيعة جسم الإنسان في مختبراتهم، وانتهوا بعد التحليل والتجارب إلىٰ أن فيه من الدهن ما يكفي لسبع صابونات، وفيه من الكربون ما يكفي لسبعة أقلام رصاص، ومن الفوسفور ما يكفي لـ ١٢٠ عود ثقاب، ومن الملوحات ما يصلح جرعة للإسهال، ومن الحديد ما يصنع منه مسماراً متوسط الحجم، ومن الكلس والجص ما يبيّض بيت دجاج، ومن الكبريت ما يطهّر جلد كلب من البراغيث.

أهذا هو الإنسان الذي سخر الأرض والشمس والقمر في مصلحته، وحاول أن يترك المريخ يسير وراءه وفي خدمته؟ .. أهذا هو الإنسان الذي تعلم البيان، ونسج منه الدموع والسحر والألحان؟ أهذا هو الإنسان الذي رسم بريشته الصغيرة الحقيرة الكون بما فيه من حقائق وكفاح، وأفراح وأتراح؟ .. أهذا هو الإنسان العجيب الذي وسع عقله كل شيء، وما وسعه شيء إلاّ خالقه؟..

ليس الإنسان إنساناً ببدنه وهيكله، فإذا قال أنا فإنما يشير إلىٰ روحه وفكره وعقله، وما هذا الجسد إلاّ أداة تعبر بها الروح إلىٰ سعادة الإنسان الأبدية أو شقائه الدائم.

وبالتالي فمن ينفي عن روحه الأبدية والخلود فقد رضي لها أن تبقىٰ مع الحيوانات والحشرات .. وأعجب العجائب كلها أن يقول بني البشر كلا لله تعالىٰ لأنه يريد للإنسان العظمة والخلود ويربأ به عن الحضيض .. ويأبىٰ الإنسان إلاّ أن يكون كعود ينتهي إلىٰ رماد .. ﴿**قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلىٰ جهنم وبئس المهاد**﴾[1] صدق الله العظيم، وصدق رسوله المبلّغ الأمين.

الفرد في الإسلام:

إن الفرد في نظر الإسلام هو غاية بنفسه، لا وسيلة إلىٰ غيره، وأنه ظاهرة إنسانية، له ما لها من الحرمة والكرامة، وأن العدوان عليه عدوان علىٰ الإنسانية التي تتمثل به وبالناس جميعاً، وأن الإحسان إليه إحسان إلىٰ الناس جميعاً.

وتسأل: أن هذا تضخم خيالي لذات الفرد، وتضحية بالجماعة من أجله، مع أن العكس هو الحق والعدل؟

الجواب: ليس المراد بمصلحة الفرد، المصلحة التي تطغىٰ علىٰ مصلحة الجماعة، وتتنافىٰ معها، ولا المراد بالفرد الذي يحول العيش علىٰ حساب غيره من الناس .. إن هذا لا يُعد إنساناً بالمعنىٰ الصحيح، بل هو أعدىٰ أعداء الإنسانية في نظر الإسلام، وإلىٰ هذا يومىء قوله تعالىٰ: ﴿**أو فساد في الأرض**﴾[2]. وإنما

---

١ ـ [سورة آل عمران، الآية ١٢].

٢ ـ [سورة المائدة، الآية ٣٢].

المراد بالفرد الذي يستمد مصلحته من مصلحة الجماعة، ويرىٰ حياته بحياتها، وكرامته بكرامتها، كما أن المراد بمصلحة الجماعة مصلحة جميع أفرادها، لأن الجماعة ليست مجموعة أصفار كما هو الحال عند الماديين والشيوعيين. وإنما هي مجموعة أفراد.. فأية جماعة يوجد فيها ضعيف واحد يخاف علىٰ حقٍ من حقوقه فهي ضعيفة في كيانها، فاسدة في أوضاعها، تماماً كالجسم إذا فسد بعض أعضائه، أو البيت إذا انهدم ركن من أركانه.

وعلىٰ هذا تكون مصلحة الفرد والجماعة متكاملتين، يملأ بعضهما بعضاً، ولا تنفك إحداهما عن الأخرىٰ.

التكامل والتعادل في الإسلام:

لما كان الإنسان مكوّناً من جسم ترابي فانٍ، ومن سر إلٰهي خالد، وهو الروح ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾[1] ولما كان لكلٍ منهما مطالب وحاجات، لذلك جاءت تشريعات الإسلام وتوجيهاته علىٰ أساس الأمرين وتنظيمهما معاً دون أن يطغىٰ أحدهما علىٰ الآخر.

وبكلمة: للإنسان جزءان: مادة وروح، فإهمال أحدهما هو إهمال للإنسان بالذات.

لقد حرّم الإسلام الرهبانية، وإرهاق النفس بالقضاء علىٰ الطبيعة، كما حرّم الخبائث والإسراف في الشهوات، والترف علىٰ حساب الغير .. وأحل زينة الحياة ومتعها من الأكل الطيب، واللبس الطيب، وما إليهما .. ومن يستعرض آيات القرآن

١ ـ [سورة الإسراء، الآية ٨٥].

يجد أن الدنيا كلها خلقت من أجل حياة راضية مرضية عند الجميع، وأن الانكماش عنها انكماش عن الدين، كما أن التكالب على احتكارها وحرمان الغير فساد في الأرض، وخطر على المجتمع كله .. وأفضل الأرزاق كلها عند الإسلام ما كان بكدّ اليمين، وعرق الجبين.

قال أنس: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، ومنا الصائم، ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً في يوم حار، فسقط الصائمون، وقام المفطرون بخدمتهم، فقال رسول الله ﷺ: «**استحق المفطرون اليوم الأجر كله**»[1].

هذا هو الوسط والعدل الذي يرتكز عليه الإسلام، ويدعو إليه، لا عبادة تقعد بك عن السعي والعمل، ولا شراسة في التكالب تصرفك عن الله وعبادته.

والذي أميل إليه أن علماء المسلمين خاصة مكلفون ديناً بأن يبلغوا رسالة محمد ﷺ على وجهها للناس، سواء منهم المسلم الجاهل، وغير المسلم .. فمن قام بهذا الواجب المقدس من العلماء يصبح شاهداً على من بلغه الرسالة ولم يعمل بها، ومن أهمل من العلماء ولم يبلغ فإن محمداً ﷺ يشهد عليه غداً أمام الله أنه قد خان الرسالة بعد أن عرفها وحملها.

الإسلام والاخوة الإنسانية:

إن الرب واحد والأصل واحد والخلقة واحدة والمساواة بين بني الإنسان واجبة، فالحب ينبغي أن يكون عاماً لا خاصاً تماماً كرحمة الله التي وسعت كل شيء؟ وأي فرق بين أن نقسّم بني آدم على أساس ديني كما في لبنان، أو على

---

١ ـ [صحيح مسلم، لمسلم النيسابوري: ج ٣ / ص ١٤٤ ؛ وصحيح البخاري، للبخاري: ج ٣ / ص ٢٢٤، وفيهما: قال رسول الله (ص): «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»].

أساس اقتصادي كما فعلت الماركسية، أو أساس الجنس والعرق كما دانت النازية، أو على أساس النار والدولار كما هي السياسة الأمريكية؟

إن التعاون والتكافل يجب أن يكون بين بني الإنسان قاطبة دون استثناء، وهذه هي دعوة الإسلام بالذات، ويدلّ عليها عشرات الآيات والروايات، نكتفي منها بذكر آية ورواية، قال تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1]. فنداؤه تعالى بيا أيها الناس مع قوله: من ذكر وأنثى .. وأتقاكم دليل قاطع وواضح على أن دعوة القرآن إنسانية عالمية تعتبر الإنسان أخاً للإنسان مهما كانت عقيدته وقوميته وجنسيته، ومثل هذه الآية معنىً ووضوحاً قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «**الناس سواسية كأسنان المشط**»[2]، «**لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلاّ بالتقوى .. كلكم من آدم وآدم من تراب**»[3].

---

١ ـ سورة الحجرات الآية ١٣.

٢ ـ [في كتاب المبسوط، للسرخسي: ج ٥ / ص ٢٣، وفيه: قال رسول الله (ص): «الناس سواسية كأسنان المشط».
وفي كتاب من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: ج ٤ / ص ٣٧٩، وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الناس كأسنان المشط سواء»].

٣ ـ [في كتاب الغدير للشيخ الأميني: ج ٦ / ص ١٨٨، وفيه: في لفظ أحمد: قال رسول الله (ص): «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلّا بالتقوى» نقله عن مجمع الزوائد: ج ٣ / ص ٢٦٦.
وفي ج ٧ / ص ١٨٨ من نفس الكتاب، في لفظ ابن القيم: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أبيض إلّا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب» عن زاد المعاد: ج ٢ / ص ٢٢٦.
وفي بحار الأنوار للمجلسي: ج ٣ / ص ٥١: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلكم من آدم وآدم من تراب»].

وبهذا يتبين معنا أن كتاب الله وسنة رسوله يعتبران الإيمان بالإنسان جزءاً متمماً للإيمان بالله ورسله وكتبه، وعليه يكون المراد بالمؤمن في الآية والمسلم في الحديث هو الذي يؤمن بالله وبالإنسان بما هو إنسان ..

وبكلام آخر لا صراع ولا تناقض بين الأخوة الإنسانية والأخوة الإسلامية، بل هذه تدعم تلك، وتزيدها قوة ورسوخاً.

تحريف التوراة والانجيل

بماذا يجيب المسلم إذا قال له يهودي أو نصراني: لقد نص قرآنكم على أن التوراة والإنجيل بشّرا بنبوة محمد ﷺ مع أنه لا أثر لهذه البشارة فيما لدينا من نسخ التوراة والإنجيل؟

الجواب: إذا سأل هذا السؤال يهودي أو نصراني فللمسلم أن يقول له: لقد أجاب عن سؤالك هذا علماء اليهود والنصارى أنفسهم، حيث اعترفوا صراحة بأن التوراة الأصلية التي نزلت على موسى قد فُقدت، وبعد سنين طوال ادعى من ادعى بأنه يحفظها عن ظهر قلب، وكتب دعواه هذه، ثم قال لها كوني توراة موسى فكانت .. ونفس الشيء حدث للإنجيل الأصيل الذي أُنزل على عيسى ..

ومن الطريف أن إنجيل السيد المسيح عليه السلام قد أولد بعد أن فُقد عشرات الأناجيل حتى تجاوز عددها الخمسين .. وفي سنة ٣٢٥ م اجتمع رؤساء النصارى، وأقروا (٤) أناجيل مع أن عيسى نزل عليه إنجيل واحد فقط لا غير باتفاق النصارى، فما الذي جعل الواحد أربعة؟ ولو أقروا ثلاثة أناجيل لقلنا: لكل اقنوم إنجيل .. ولا شيء أدل على أن هذه الأناجيل من رجال الكنيسة لا من المسيح إنها تحدثت عن صلبه ودفنه وخروجه من القبر وصعوده إلى السماء واختتام حياته على الأرض، فهل نزل عليه الوحي بعد أن صُلب ودُفن؟ وإذا أمكن ذلك فهل من الممكن في حكم العقل والواقع أن ينزل عليه الوحي الذي دُوِّن في الإنجيل بعد أن صعد إلى السماء واختتم حياته على الأرض؟

سؤال ثانٍ: وأين نجد هذا الاعتراف من علماء اليهود والنصارىٰ؟

الجواب: في العديد من كتبهم العربية والأجنبية، فمن الكتب العربية قاموس الكتاب المقدس الذي اشترك في وضعه ٢٧ عالماً، فلقد جاء في مادة يوشيا من هذا الكتاب ما نصه بالحرف: «مما لاشك فيه أن معظم الأسفار المقدسة أُتلف أو فقد في عصر الارتداد عن الله والاضطهاد» وفي أسفار: «هناك رأي يقول: إن الذي أضفىٰ صفة القانون علىٰ أسفار العهد القديم هم كتّاب الأسفار أنفسهم .. ورأي آخر يقول: هم الكتّاب المقودون أي المؤيدون ـ بالروح القدس، ومعهم قادة الدين من اليهود والمسيحيين الذين قبلوا هذه الأسفار بإرشاد الروح القدس أيضاً وهذا اعتراف لا يقبل الشك بأن الأسفار الأصلية فقدت، وأن جماعة قد كتبوا ما كتبوا أسفار وأضفوا عليها صفة القداسة من عند أنفسهم علىٰ قول، وبتأييد الروح القدس علىٰ قول آخر .. وسواء أخذنا بالقول الأول أم الثاني فالنتيجة واحدة، وهي الاعتراف القاطع بأن الأسفار الموجودة الآن ما هي بأسفار موسىٰ وعيسىٰ لأن هذه قد فقدت، وحل محلها أسفار جديدة كتبها الذين زعموا لأنفسهم أو زعمها لهم قوم آخرون، وكلهم مؤيَّدون بالروح القدس .. والروح القدس عندهم هو روح الله الاقنوم الثالث، وسمي الله روحاً لأنه مبدع الحياة: وقدساً لأن من عمله تقديس قلب المؤمن علىٰ حد تعبيرهم.

وقد وضع علماء الإسلام عشرات الكتب للدلالة علىٰ تحريف التوراة والإنجيل، منها كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي، وفيه مائة شاهد علىٰ تحريف التوراة والإنجيل لفظاً ومعنىً، أشار إلىٰ هذا الكتاب صاحب تفسير المنار عند تفسير الآية ٤٦ من سورة النساء. ومن هذه الكتب الرحلة المدرسية للشيخ جواد البلاغي، وكتاب «محمد رسول الله في بشارات الأنبياء» لمحمد عبد الغفار، وكتاب «هكذا بشرت الأناجيل» لبشري زخاري مخائيل، وآخر كتاب قرأته في

هذا الموضوع «البشارات والمقارنات» للشيخ محمد الصادقي الطهراني، صدر حديثاً، وهو متخم بالشواهد القاطعة من كتب اليهود والنصارىٰ علىٰ تحريف التوراة والأناجيل المتداولة.

(فلما جاءهم ـ أي جاء عيسىٰ بني إسرائيل ـ بالبينات قالوا هذا سحر مبين) لم يكتف اليهود بقولهم عن السيد المسيح عليه السلام: أنه ساحر، حتىٰ قالوا: هو ابن النجار، كما جاء في إنجيل متى اصحاح ١٣ آية ٥٥ وانجيل مرقس اصحاح ٦ آية ٣ .. ينص الإنجيل علىٰ أن اليهود قذفوا السيدة العذراء بالزنا .. ومع هذا نرىٰ الكثير من النصارىٰ يتحالفون مع الصهيونية عدوة الأديان والإنسانية بخاصة المسيحية ـ يتحالف الكثير منهم مع الصهاينة ضد الإسلام وأهل القرآن الذي يقول: **﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة﴾**[1].. وإن دل هذا التحالف علىٰ شيء فإذا يدل علىٰ أن المسيحية عند أنصار إسرائيل هي مجرد شعار لمآرب أخرىٰ، وأن دينهم وضميرهم هو الاستيلاء والاعتداء تماماً كالصهاينة.

---

١ ـ [سورة المائدة، الآية ٧٥].

محمد هو الوحيد

ظهر أخيراً في الولايات المتحدة الأمريكية كتاب جديد للدكتور (هارث) الذي يحمل أربع شهادات دكتوراه: الأولىٰ في الرياضيات، والثانية في القانون والثالثة في الفيزياء والرابعة في الفلك، وهو الآن مسؤول علمي عن التطبيقات العلمية لعلوم الفضاء في الولايات المتحدة ومن أخص صفاته أنه يبذل جهداً جباراً خارقاً في القراءة والمطالعة بخاصة تاريخ العالم وحضارته بكل وجوهها، واسم كتابه الجديد «المائة»! وموضوعه أهم مائة رجل في التاريخ الإنساني كله، وقد أخذ علىٰ نفسه أن يرتب المائة في الذكر تبعاً لأهمية كل واحد منهم، فالأول عظمة هو الأول ذكراً، وهكذا الثاني والثالث ..

وقد اختار الأول من المائة محمداً ﷺ ويدلّ هذا أن المؤلف علىٰ درجة عالية من التجرد وعدم الإنحياز، لأنه مسيحي علماً بأنه جعل السيد المسيح عليه السلام في الرقم الثالث، وموسىٰ الكليم عليه السلام في الرقم السادس عشر، وبرر المؤلف المسيحي اختياره محمداً للأولية بقوله:

«إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ قد يدهش القراء، لكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلىٰ نجاح علىٰ المستويين الديني والدنيوي، فهناك رسل وحكماء بدأوا رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها كالمسيح في المسيحية ... أو شاركهم فيها غيرهم أو سبقهم فيها غيرهم أو

سبقهم إليها سواهم كموسىٰ في اليهودية، ولكن محمداً هو الوحيد الذي رسالته الدينية كاملة، وتحددت كل أحكامها وآمنت بها الشعوب بأسرها، في حياته، لأنه أقام إلىٰ جانب الدين دولة جديدة، ووحّد القبائل المختلفة في شعب متقدم، والشعوب في أمة متحضرة ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها ووضعها في موضع الإنطلاق إلىٰ العالم ... أيضاً في حياته».

ثم يضيف المؤلف المسيحي إلىٰ ذلك: «إن معظم الذين غيروا التاريخ ظهروا في قلب أحد المراكز الحضارية في العالم ... ولكن محمداً هو الوحيد الذي نشأ في بقعة من صحراء جرداء مجردة تماماً من كل مقومات الحضارة والتقدم، ولكنه جعل من البدو البسطاء المتحاربين قوة معنوية هائلة قهرت بعد ذلك إمبراطوريات فارس وبيزنطية وروما المتقدمة بما لا يقاس. وفي تاريخ الغزو في كل زمان ومكان يكون الغزو عسكرياً، ولكن الرسالة المحمدية جعلت معظم البلاد التي فتحها خلفاؤه عرباً تماماً وتغيرت لغة وديناً وقومية ... وثبت ذلك واستقر بما ليس له مثيل في تاريخ الفتح في العالم ... كذلك لايوجد نص في تاريخ الرسالات نقل عن رجل واحد وبقي بحروفه كاملاً دون تحريف سوىٰ القرآن الذي نقله محمد، الأمر الذي لا ينطبق علىٰ التوراة مثلاً أو الإنجيل ... ومن أجل ذلك وجدت أن محمداً هو صاحب الحق الوحيد في أن أعتبره صاحب أعظم تأثير علىٰ الإطلاق في التاريخ الإنساني».

هذه الترجمة قرأتها عن محمد في مجلة العربي عدد ٢٤١ وأنا أكتب في الصلاة عليه وعلىٰ آله في شهر كانون الأول ١٩٧٨ م .

أبداً، لا ذنب للإسلام عند خصومه إلاّ ذنب الطاهرة عند العاهرة، والمخلص عند الخائن، والضاري الشقي عند البر التقي وهل يطلب من الصهاينة

والمستعمرين القدامى والجدد أن يهادوا الإسلام والقرآن الذي يثير الشعوب والأجيال ضد كل جائر وكافر بقوله: ﴿**فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين**﴾[1]. إن الإسلام كدين قد أصبح محركاً للشعوب، وليس افيوناً لها كما قال ماركس.

---

١ ـ سورة الأعراف الآية ٤٤.

الدول

لا أؤمن بالدول مهما كان نوعها أما الرأسمالية ـ أي الديمقراطيات الغربية ـ فهي أعدىٰ أعداء البشرية، هي الاستعمار، تستغل مواطنيها ولكنّها تتركهم يعيشون أوهام الحرية الشخصية ـ أما الدول الاشتراكية فتعطي شعوبها الخبز والضمان ولكنها تسلب الحرية الفردية. الفرد مستعبد للرأسمال الخاص في الدولة الرأسمالية وعبد للدولة في الأنظمة الإشتراكية.

ولعل أغرب ما في الأمر هو التعايش السلمي بين رأسمالية أمريكا مصدر الفساد وكل بلاء واشتراكية روسيا التي تنادي بنصرة المغلوبين «وتدعيم» حركات التحرر الوطني .. ألم يحن الأوان لكي تعلم أن تعايش رأسمالية أميركا واشتراكية روسيا يعني الاتفاق علىٰ تقاسم العالم بين هاتين القوتين العظمتين .. ولا عجب إذا رأينا رومانيا الإشتراكية تستقبل نيكسون بحفاوة منقطعة النظير وجيوشه تفتك بالآلاف في فيتنام الإشتراكية، والصين أيضاً اشتراكية مثل روسيا وبينهما أكثر ما بين الذئب والحمل.

لا أؤمن إلاّ بالإسلام ... إلاّ بدولة محمد الرسول الأعظم، دولة السلام والمحبة والعدالة والرحمة الإنسانية التي انتشلت ملايين المعذبين في الأرض من رعايا الإمبراطورية الرومانية المسيحية والإمبراطورية الفارسية المجوسية والهندية. ورحب الكثيرون منهم بنظام الإسلام ليتحرروا من ظلم القادة وطغيانهم وينعموا في ظل العدل والرحمة.

إن الشريعة الإسلامية في أصولها ومبادئها إنسانية وتعم وتشمل أشياء الحياة في كل العصور والبيئات وتتبنى كل عمل صالح وكل فكرة نافعة للإنسان. ما أشبه اليوم بالأمس وما أحوجنا في هذا العصر إلى نظام الإسلام «العدل» لينقذنا من طغيان الرأسمالية والشيوعية».

الدولة الإسلامية

إن بعض الفئات تدعو الآن إلىٰ قيام دولة إسلامية، وأي مسلم يخلص لله فيما يدين يأبىٰ إلاّ أن يكون للإسلام سلطان ينفذ أحكام القرآن، وللمسلمين ما يوحد كلمتهم ويجمع قوتهم، وينقذها من التفتيت والتشتيت؟

ولكن نسأل: هل توجد هذه الدولة بمجرد رفع الشعارات وإذاعة البيانات، أو بتكثير العمائم علىٰ رؤوس الجهلاء والدخلاء؟ وهل من الممكن أن تنبثق عن ١٠٠٠ مليون مسلم منتشرين في شرق الأرض وغربها، ولهم قوميات متعددة ومذاهب سياسية مختلفة، وفرق متباينة، وبعضهم يخضع لدول اشتراكية، وبعضهم لدول رأسمالية وآخرون لهم كيان مستقل أو شبه مستقل. وإذا تكونت هذه الدولة من المسلمين العرب أو غير العرب فهل تستطيع أن تواجه مسؤولياتها، وتنجح في حل مشاكل المسلمين في الأقطار الأخرىٰ؟ ثم هل تكون هذه الدولة سنية أو شيعية أو منهما؟ ونترك الجواب عن هذه التساؤلات للمخلصين من ذوي الاختصاص.

لقد عانىٰ المسلمون الكثير من الهزائم والاذلال، وكفىٰ بهزيمة ٥ حزيران وهناً واذلالاً، والسبب الأول والأخير هو التمزق والترف، والعلاج معروف عند الجميع وهو الوقوف صفاً واحداً ضد العدو المشترك الذي حددته حرب حزيران، وأبرزته واضحاً للعيان، فمن أخلص لله وأراد النصح للإسلام والمسلمين حقاً وصدقاً فعليه أن يحصر جهوده كلها في العمل من أجل تعاون

المسلمين على الخلاص والتحرر من القوىٰ الفاسدة الداخلية والخارجية، ومتىٰ تمت التصفية وتحققت الحرية الكاملة فكّر المخلصون في دولة إسلامية أو غيرها مما فيه لله رضا، وللمسلمين صلاح.

وخير ما نؤيد به إشارتنا هذه قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: **«وإنّ المبتدعات المشَبَّهات هن المهلكات .. وإن في سلطان الله عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتكم .. أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام»**(١). وإذا انتقل سلطان الإسلام عن السلف لتفرق أهوائهم وشتات كلمتهم فهل يعود إلينا ونحن أكثر تفرقاً وشتاتاً؟

وتسأل: أصحيح ما قال: إن المصدر لفكرة الدولة الإسلامية هو الصهيونية لتبرر بها دولتها الدينية العنصرية، وتقول لمن عاب عليها ذلك: إن المسلمين يطالبون بدولة دينية؟

الجواب: إن دين اليهود عدو الحياة والإنسانية، لأن الله في عقيدتهم إلٰه قَبَلي لا يعنيه من العالم أحد سوىٰ إسرائيل وحدها، وأن جميع الناس خلقهم الله عبيداً لهم كما جاء في كتاب «الكنز المرصود» للدكتور يوسف حنا نصر الله، وكتاب «البقاء اليهودي» للصهيونية روز مارين.

أما الإسلام فهو دين الحياة والرحمة والإنسانية جمعاء، ولا شيء أدل علىٰ ذلك من الآيات والأحاديث التي أعلنت بأن الإسلام يهدي للتي هي أقوم، وأنه يرتكز علىٰ العقل والفطرة، وأن دعوة الله والرسول إنما تجب تلبيتها لأنها تدعو إلىٰ حياة أفضل، ومعنىٰ هذا أن الإسلام علماني عقلاني أي يهتم بالإنسان بما هو

---

١ - [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ٩ / ص ٢٩٥ من خطبة للإمام علي عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلىٰ البصرة برقم ١٧٠، تمَّ تصحيح النص وفقاً للمصدر].

إنسان أياً كان ولو يهودياً، شريطة أن لا يتعدىٰ علىٰ أخيه الإنسان .. وأين هذا من دين اليهود الذين أسموا أنفسهم شعب الله الخالص؟

دولة الشيوخ

قد يظن أن الدولة الإسلامية تعني حكم الشيوخ والفقهاء! وهذي هي قمة التخلف والرجوع إلىٰ الوراء .. فبالأمس القريب خلع العذار شيخ شيعي من لبنان، وأعلن بكل صلافة ووقاحة أن الشاه نعمة كبرىٰ خص بها شيعة القرن العشرين ـ نحن الآن في السبعينات ـ وبعث إلىٰ المراجع الكبار بإيران رسائل ينعتهم فيها بالعقوق والجحود لهذه النعمة الجسيمة! وأيضاً أعلن علماء الأزهر تأييدهم المطلق للشاه المخلوع ضد المظلومين الذين أذاقهم الطاغية السفاح ألواناً من العسف والخسف. ومن قبل كفّروا الشيخ محمد عبده!

وفي مجلة الكاتب المصرية العدد ١١٥ ص ١٥٦ وما بعدها: أن علماء الأزهر عرضوا علىٰ الملك فؤاد أن يبايعوه بالخلافة. وفي العدد ٢٢٩٨ من روز اليوسف ص ٥٢: «في سنة ١٩٢٧ م قامت في المملكة العربية السعودية ضجة بين علماء الدين علىٰ تعليم الرسم واللغات والجغرافيا التي تقول بدوران الأرض وكرويتها». وفي سنة ١٩٧٨ م أفتىٰ رئيس العلماء بهدم المراحيض الصحية التي بُنيت بمنىٰ بعد أن أُنفق عليها عشرات الملايين.

الجواب:

١ ـ ليس كل الشيوخ رجعيين ومطيّة السلطان، إن فيهم الشيخ عبده والسيد

الأفغاني والسيد محسن الأمين والكثير الكثير من أمثالهم.

٢ ـ إن الدولة الإسلامية لا تعني سيطرة الشيوخ على الحكم واحتكارهم لسلطان السياسة، وإنما تعني أن الشريعة الإسلامية هي الإطار والمعيار لقوانين الدولة وتصرفاتها، فكل ما يتفق وهذه الشريعة يجب تنفيذه، ولا يسوغ الطعن فيه، وما ثبت تعارضه معها يحكم ببطلانه وإلغاء آثاره.

والخلاصة أن الشرط الأساسي في الدولة الإسلامية هو الإخلاص والكفاءة والعدل والأمانة، أما هدفها ومثلها الأعلىٰ فهو إحقاق الحق وإزهاق الباطل، هو أن يأمنها ويثق بها كل محق وبريء، ويهابها كل مجرم ومبطل، سواء أكانت الفئة الحاكمة من الشيوخ وأهل العمائم أم من الشباب المهتدي والطامح، فدولة أمريكا عصرية والأولىٰ في سلاحها واقتصادها، ولكنها أعدىٰ أعداء العدل والحرية والحق والإنسانية والشاهد قنبلة هيروشيما واغتصاب فلسطين وتدمير فيتنام وعدوان إسرائيل علىٰ جنوب لبنان، وطغيان شاه إيران ... إلىٰ مخططات العنف والدمار لكل شعب لا يرضخ للقهر والغصب، وأيضاً حكم هتلر ألمانيا العصرية وموسوليني إيطاليا الغنية، فكانت النتيجة الحرب العالمية الثانية، وحكم ستالين باسم الثورة ضد الإرهاب فملأ روسيا قمعاً ورعباً، أبعد هذا ومثله كثير يقال: الفئة الدينية رجعية والدول العصرية تقدمية؟

أبو الكلام:

وأخيراً ما قاله العالم الكبير والمصلح الشهير أبو الكلام: «نحن لم نتعلم السياسة إلاّ بالدين، فالدين هو الذي خلق السياسة، فكيف نفرق بينه وبينها؟ ... لا شيء أدعىٰ للخزي والمهانة من أن ينحني المسلمون أمام أفكار غيرهم السياسية،

فالإسلام لا يسمح لهم أن يكونوا ذيولاً في أفكارهم، بل عليهم أن يدعوا غيرهم إلى مشاركتهم فيما يؤمنون ويفكرون، ولو أنهم خفضوا رؤوسهم لله وحده لخفض العالم رأسه أمامهم، لقد أوضح الإسلام للمسلمين طريق الخلاص فلماذا يستعيرون الطريق من غيرهم؟

الدولة الإسلامية لكل الناس

الدولة الإسلامية والدولة اليهودية :

نشير إلىٰ بعض ما قالت توراة اليهود لليهود في معاملة الآخرين، وما قاله القرآن للمسلمين من التراحم والتعاون مع الناس أجمعين ... لقد أمرت التوراة آل إسرائيل بالقسوة والغلظة والبغي والعدوان ما استطاعوا إليه سبيلاً، ومن ذلك: «اقتلوا لهلاك الآخرين، ولا تعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء»[١] وقد فعلت إسرائيل هذا في فلسطين وزيادة حيث بقرت في دير ياسين بطون الامهات حتىٰ كان اليهودي يراهن زميله عما إذا كان في بطون الحبالىٰ أناث أو ذكورا!

وقال القرآن للمسلمين: **﴿لا يَنْهاكُم اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوكُم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾**[٢]. ومعنىٰ هذا أن الإسلام لكل الناس، وليس وقفاً علىٰ أتباعه بالخصوص، وأن خيره يمتد إلىٰ الذين لا يؤمنون به ما داموا لايشهرون عليه سلاحاً، ولا يوجهون ضده عدواناً، ولا يتناولون أتباعه بأذىٰ.

أبعد هذا يقال: وجود الدولة القرآنية الإنسانية يبرر قيام الدولة الصهيونية

---

١ ـ سفر حزقيال الإصحاح ٩.

٢ ـ سورة الممتحنة الآية ٨.

العدوانية؟ فأين القدر الجامع والقاسم المشترك بين النعيم والجحيم؟

دولة الإسلام والمعذبون في الأرض:

لقد حدد سبحانه رسالة محمد ﷺ ودولته بقوله: **﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾**[١]، **﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوىٰ﴾**[٢]، **﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور﴾**[٣]. وصدع النبي ﷺ بأمره تعالىٰ، وأسس دولة السلام والمحبة والرحمة والإنسانية، وانتشلت ملايين المعذبين في الأرض من رعايا الإمبراطورية الرومانية المسيحية والإمبراطورية الفارسية المجوسية، ورحب الكثير منهم بالإسلام والمسلمين، ليتحرروا من ظلم القادة وطغيانهم، وينعموا في ظل العدل والرحمة.

مؤهلات الإسلام:

إن الإسلام بمؤهلاته وطاقاته يصلح لكل زمان ومكان تماماً كالطبيب الماهر يعالج كل داء بدوائه، فهو لعصر الجاهلية حيث أخرج أهلها من عبادة الأصنام إلىٰ عبادة إله واحد هو رب العالمين، ومن قبائل متحاربة متناحرة إلىٰ أمة واحدة، إلىٰ غير ذلك كثير، وأيضاً الإسلام لما بعد الجاهلية حيث دفع بهذه الأمة إلىٰ طريق المدينة والحضارة، وهو للعصر الراهن، لأنه نير في عقله وعمله ومتحرر من التقليد الذي ينعىٰ الإسلام عليه وعلىٰ أهله.

---

١ ـ سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

٢ ـ [سورة ص، الآية ٢٦].

٣ ـ [سورة إبراهيم، الآية ١].

وأخيراً، فإن كل الأحرار في الجيل الجديد يتطلعون بشوق بالغ إلىٰ نظام بلا شيوعية تتحكم بالحريات، ولا رأسمالية تحتكر الثروات، ولا عنصرية تتعصب لجنس دون جنس أو لفئة دون فئة ... أبداً لا شرور فيه علىٰ الإطلاق، وهذا بالذات نظام الإسلام ودستوره. ومعنىٰ هذا أن جميع الأحرار يلتقون مع أنصار الإسلام علىٰ صعيد واحد، شاؤوا ذلك أم أبوا.

العقّاد وحكومة الإمام علي

حكومته :

ذكر العقاد في كتاب عبقرية الإمام فصلاً بعنوان «حكومته» قال فيه: «من اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه بغير حاجة إلى الإطالة في التعريف وسرد الأمثال، لأنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية، فنحن نتحدث ما شئنا من طريقين متقابلين، فإذا طريق علي هي طريق المنزهة حين تقابل الدول الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض».

وقوله: «في نضال الخلافة الدينية مع الدولة الدنيوية» يريد به أن الحرب الأولى ضد الخلافة الدينية كانت حرب الردة عن الإسلام في عهد أبي بكر، وأن الحرب الأخيرة هي حرب الجمل وصفين ضد خلافة الإمام الدينية. ثم ذكر العقاد في الفصل أموراً تتصل بدستور حكومة الإمام عليه السلام وقوانينها، ونعرض بعضها فيما يلي مع الشرح والتوضيح:

أولاً : «لا محاباة لقوي، ولا إجحاف بضعيف» أي أن حكومة الإمام عليه السلام لا يأمنها المريب، وإن كان قوياً ويثق به البريء، وإن كان ضعيفاً. وفي نهج البلاغة: **«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ**

الحق منه»[١].

ثانياً : «يجب الرفق بالرعية على كل وال، فلا إرهاق ولا استغلال حتى ولو كانت الحكومة هي صاحبة الحق في المال» ومثال ذلك أن تتراكم الضرائب المالية للحكومة على أي إنسان. ويعجز عن الوفاء لسبب أو لآخر، فلا يسوغ، وهذي هي الحال أن يُسجن أو يُصادر شيء مما يضطر إليه في حياته وحياة من يعول.

ثالثاً : «لا أحد يحسم عن حاجته، ولا يحبس عن طلبته» إن تك حقاً. ومن وصيته لولاته: «**فأنصفوا الناس من أنفسكم. واصبروا لحوائجهم ... ولا تُحسموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته**»[٢]. وهذا هو التعريف الجامع المانع للعدالة الاجتماعية القائمة على أساس سد الحاجات لجميع الناس بغض النظر عن عقائدهم وصفاتهم ومؤهلاتهم.

رابعاً : «النظر في عمارة الأرض أبلغ من النظر من استجلاب الضرائب» أي أن الأهم من كل شيء زيادة الدخل لكل إنسان دون استثناء عن طريق تقدم وسائل الإنتاج بشتى أنواعها، وإنما ذكر الأرض بالخصوص لأنها الأصل والأهم بما فيها من قوى وثروات ومعادن.

خامساً : «كل الولاة والموظفين لا يستعملون إلاّ على أساس الكفاءة والجدارة بلا محاباة» أي وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

وكل ما تقدم هو اقتباس من عهد الإمام لمالك الأشتر الذي يتضمن توجيهاً لكل حاكم في كل عصر ... ودولة الإمام علي عليه السلام هي أمنية كل واع ومخلص سواء

---

١ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ٢ / ص ٢٨٤ من كلام للإمام علي عليه السلام يجري مجرى الخطبة برقم ٣٧].

٢ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٧ / ص ١٩ من كتاب للإمام علي عليه السلام إلى عماله على الخراج، برقم ٥١، في المصدر «ولا تحشموا» بدل «ولا تحسموا»].

أكان مسلماً أم غير مسلم، لأنها تتجه إلى العدل والأمن والبناء ووفرة الانتاج وزيادة الدخل لكل فرد بدون استثناء، وتضمن الحرية والكرامة للجميع.

ثم قال العقاد: «كان أنصار الإمام أبداً من الفرس والغرباء والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش خاصة وبين بني هاشم على الأخص وبين قبائل العرب على التعميم» أي أن الموالين لعلي عليه السلام من غير العرب أكثر من العرب، ومن العرب أكثر من قريش، ومن قريش أكثر من بني هاشم. ويريد العقاد ببني هاشم هنا بنو العباس بالخصوص الذين فعلوا بأولاد علي ما أشار إليه الشاعر بقوله:

والله ما فعلت أمية فيهم ... معشار ما فعلت بنو العباس

وأيضاً قال العقاد وهو يتحدث عن الإمام وحكومته: «وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة علي، أو خلافته هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه والخلافة، فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك، أياً كانت السياسة المتوخاة وبالغاً ما بلغ نصيبها من السداد والصواب».

ومعنى هذا الكلام أن خلافة علي عليه السلام إنسانية وعالمية يعمّ خيرها ويشمل كل الناس والأجناس، وأية حكومة تلتزم الإنسانية وأحكامها، وتتوخى السداد والصواب فثم خلافة علي وحكومته، أو تلتقي معها على صعيد واحد. وحيث لا إنسانية ولا صواب وسداد فلا عين وأثر لعلي وإرادته.

الجهاد

معنى الجهاد:

معنى الجهاد عند الأحرار: الموت أو الحرية، وليس المراد بالحرية هنا حرية الجنس والفساد والنهب والعدوان على حقوق الآخرين، كما هي الحال في العالم الحر، ولا حرية الدولة في الضغط على العباد ومصادرة الأموال وحصر الفلسفة والفن والثقافة بمبادىء ماركس ولينين، كما يفعل المعسكر الشيوعي، بل المراد حرية الإنسان في أن يوافق أو يرفض، وأن يقرر مصيره بنفسه، ويحدد نوع الحياة التي يريدها والناس الذين يختارهم لقيادته وحكمه، ومن أجل هذه الحرية قامت الثورات في شرق الأرض وغربها، ومن أجلها ضحى الأحرار بالنفس والنفيس.

قال الحسين سيد الشهداء عليه السلام حين تألبت عليه قوى البغي في كربلاء: **«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد»**[١] .. **«هيهات أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»**[٢]. ومن الطغام اللئام: الذين يضعون القوانين التي تُلغي وجود الفرد، وتطغي عليه الفئة الحاكمة، أو تطلق له العنان بلا حدود وقيود، والخضوع للقوانين الأولى خضوع لدكتاتورية الكبت والاضطهاد، والخضوع للثانية خضوع لديمقراطية الفساد والضلال، والمؤمن الحر يجاهد هذه وتلك.

---

١ ـ [مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب: ج ٣ / ص ٢٢٤].
٢ ـ [الاحتجاج، للطبرسي: ج ٢ / ص ٩٩].

لا حرية بلا جهاد:

في كتاب الوسائل عن الإمام المعصوم عليه السلام عن الرسول الأعظم: «**من مات دون عقال من ماله مات شهيداً**»[(١)] ... «**الخير كله في السيف، ولا يقيم الناس إلاّ السيف**»[(٢)] أي إلاّ القوة الرادعة للعدوان والطغيان.

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**من ترك الجهاد رغبة عنه ألبسه الله الذل، وسيم الخسف ...**»[(٣)] «**الموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**»[(٤)].

وتسأل: كيف يكون الموت حياة وانتصاراً؟ وهل يسوغ تسمية الأشياء بأضدادها؟

---

١ - [وسائل الشيعة، للحر العاملي: ج ١٥ / ص ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ كتاب الجهاد باب ٤٦؛ من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج ٤ / ص ٦٤ و ٢٥٧، وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قتل دون ماله فهو شهيد»].

٢ - [في الجزء ٣ من كتاب فروع الكافي للشيخ الكليني ص ٥ / ١ وفيه: عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن عمر بن أبان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخير كلّه في السيف، وتحت ظل السيف، ولا يقيم الناس إلّا السيف، والسيوف مقاليد الجنة والنار»].

٣ - [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ٢ / ص ٧٤ خطبة للإمام علي عليه السلام برقم ٢٧:
أما بعد، فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوىٰ، ودرع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمِلَهُ البلاء، وَدُيِّثَ بالصَّغار والقماءة وضرب علىٰ قلبه بالأسهاب، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف].

٤ - [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ٣ / ص ٣٤٤ ومن كلام للإمام علي عليه السلام لمّا غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام علىٰ شريعة الفرات بصفين ومنعوهم من الماء، برقم ٥١].

الجواب: إن شهداء العقيدة ما هان عليهم الموت إلاّ انتصاراً لما يدينون ويعتقدون، بهذا استحقوا خلود الذكر وجميل الأحدوثة ... قال سبحانه: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله**﴾[1]. فأثبت سبحانه الحياة وعلو الدرجات لمن مات في سبيل عقيدته وكرامته، وقول الإمام عليه السلام تفسير أو اقتباس من هذه الآية الكريمة.

ميادين الجهاد:

وبعد الإشارة إلى الجهاد بوجه عام نذكر فيما يلي طرفاً من ميادينه ومظاهره:

التعبئة العامة لردع العدوان:

أولاً: يجب على كل مسلم ومسلمة شيخاً كان أم شاباً حتى الأعمى والمريض والأعرج، أن يتطوع ويجاهد بالنفس والمال ضد أي عدو يتغلب على بلد من بلاد المسلمين.

ولا يختلف في ذلك اثنان من فقهاء المسلمين، ونذكر عبارة الشهيد الثاني في المسالك كمثال لكل ما جاء في كتب الفقه الإسلامي، قال ما نصه بالحرف: «إذا دهم المسلمين عدوٌ يريد الاستيلاء على بلادهم فدفعه واجب على الحر والعبد والذكر والأنثى إن احتيج إليها، ولا يتوقف ذلك على إذن الإمام، ولا يختص هذا الوجوب بالمعتدي عليهم إلاّ أن يُعلم قدرة المقصودين على المقاومة، ويتأكد

---

١ ـ [سورة آل عمران، الآية ١٦٩ ـ ١٧٠].

الوجوب على الأقرب فالأقرب مكاناً سواء في ذلك الذكر والأنثى والسليم والمريض والأعمى لم يُعذر في التأخير بوجه»[١].

وكيف يُعذر وكلمة مجاهد تَدلّ بتكوينها أن المسمى بها مقتول أو قاتل أو هما معاً؟ قال سبحانه للذين قعدوا عن الجهاد حذر الموت: ﴿**فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾[٢].

وأيضاً تجب نصرة المظلوم على كل قادر. قال الإمام أمير المؤمنين للحسنين عليهما السلام: «**كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً**»[٣]. وفي الوسائل عن الإمام السجاد عليه السلام: «**اللهم إني أعتذر إليك من مظلوم ظُلم بحضرتي فلم أنصره ... ومن حق ذي حق لزمني لمؤمن فلم أوفره**»[٤]. أبداً لا فرق بين أن تسرق وتنهب، وبين أن تسكت عن الحق، وتتجاهل ما يقع حولك من جور، الساكت عن الحق شيطان أخرس.

وفي الجزء الثاني من أصول الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الله لا يدع ظلامة مظلوم، وإن كان كافراً**».

الاهتمام بأمور المسلمين:

ثانياً : روى أهل البيت عن جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من أصبح لا يهتم**

---

١ ـ [مسالك الأفهام، للشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي: ج ٣ / ص ٨ كتاب الجهاد].

٢ ـ سورة آل عمران الآية ١٦٨.

٣ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٧ / ص ٥ من وصية للإمام علي عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله، برقم ٤٧].

٤ ـ [تمّ تصحيح نص الدعاء ومقابلته مع دعاء (٣٨) من الصحيفة السجادية للإمام السجاد عليه السلام].

بأمور المسلمين فليس منهم»[1] ومعنىٰ اهتمام المسلم بأمور المسلمين أن يشعر ويفكر في فقر الفقير منهم ومرض المريض وظلم المظلوم وغير ذلك من المشكلات والمعضلات، وتتعاون مع كل من تحتاج إلىٰ معونته فيما تتطلبه الحياة.

وخير مثال علىٰ ذلك قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلىٰ تخير الأطعمة ولعل بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع**»[2].

الجهاد باللسان والقلم:

ثالثاً : سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الشعر؟ فقال: «**إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لهو أشد من النبل**» وكل الأنبياء أرسلوا بالكلام، وهل القرآن الذي نشر الإسلام إلا بيان؟ وقال موسىٰ عليه السلام: ﴿**واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي**﴾[3]. وفي العصر الراهن يقف الإعلام والدعاية إلىٰ جنب الصاروخ والمدفع.

وفي الحديث: «**توزن يوم القيامة دماء الشهداء مع مداد العلماء، فيرجح**

---

١ ـ [أصول الكافي، للشيخ الكليني: ج ٢ / ص ١٧٠ / ٥ باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم، تمّ تصحيح النص وفقاً للمصدر].

٢ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٦ / ص ٢٨٦ من كتاب للإمام علي عليه السلام إلىٰ عثمان بن حنيف الأنصاري وكان عامله علىٰ البصرة، وقد بلغه أنه دُعي إلىٰ وليمة قوم من أهلها فمضىٰ إليها، رقم الكتاب ٤٥، تمّ تصحيح النص وفقاً للمصدر].

٣ ـ [سورة طه، الآية ٢٧ ـ ٢٨].

مداد العلماء على دماء الشهداء»[١] وإذا أخذنا بروح هذا النص ساغ لنا القول بأن كل قلم يوجه الناس إلى الخير، ويغير أوضاع المجتمع إلى الأصلح والأنفع فهو كالصاروخ والمدفع في سبيل الله سواء أكان الكاتب من علماء الدين أم من غيرهم.

أما الأقلام التي تساند قوى الشر بالتضليل والأكاذيب وتزيف الحقائق والوقائع وتشوه دين الحق والقيم الروحية فهي أعدى أعداء الله والإنسانية، ويجب كفاحها وجهادها بكل سلاح، ومن سكت عنها فقد شاركها في الجرم والإثم.

الجهاد بالمقاطعة :

رابعاً : من الجهاد وأساليب إنكار المنكر مقاطعة أهل الفساد والضلال، قال سبحانه: **﴿إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾**[٢].

وفي الجزء الحادي عشر من الوسائل عن الإمام المعصوم عليه السلام: **«أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»**[٣] .. **«إن الله سبحانه يعذب الذين داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبه»**[٤] .. **«كان الرجل من**

---

١ ـ [من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج ٤ / ص ٢٦٥ / ٢٩].
٢ ـ سورة النساء الآية ١٤٠.
٣ ـ [وسائل الشيعة، للحر العاملي: ج ١٦ / ١٤٣ الحديث ٢١١٩٤، عن فروع الكافي، للكليني: ج ٣ / ص ٥٥ ، كتاب الجهاد، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر /ح ١٠].
٤ ـ [وسائل الشيعة، للحر العاملي: ج ١٦ / ص ١٤٦ الحديث ٢١٢٠١ عن فروع الكافي، للكليني: ج ٣ / ص ٥١ ، كتاب الجهاد، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / ١].

بني إسرائيل يرىٰ أخاه علىٰ الذنب فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه وشريبه حتىٰ ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»(١).

وتسأل: في مقدور الإنسان أن يهجر ولا يجالس العاصي الغريب البعيد عن بيته وأهله، ولكن يتعذر عليه ذلك إن كان العاصي من البيت وأهله كالزوجة والولد، فماذا يصنع، وهذي هي الحال؟ وسئلت هذا السؤال أكثر من مرة.

وكان جوابي: حين نزل قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً**﴾(٢). بكىٰ رجل من الصحابة وقال: أنا عاجز عن نفسي، فكيف أقدر علىٰ أهلي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**تأمرهم بما أمر الله، وتنهاهم عما نهاهم الله، فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك**»(٣).

جهاد النفس:

خامساً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عائد من بعض غزواته: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلىٰ الجهاد الأكبر**». ولما قيل له: ما الجهاد الأكبر؟ قال: «**جهاد النفس**»(٤). ومعناه أن الكفاح بالسيف والدم ضد الباغي والمعتدي هو جهاد كريم وعظيم، ما في ذلك ريب، لأن الإنسان بكفاحه من أجل حريته يثبت إنسانيته

---

١ ـ [وسائل الشيعة، للحر العاملي: ج ١٦ / ص ١٣٦ الحديث ٢١١٧٥، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].
٢ ـ سورة التحريم، الآية ٦.
٣ ـ [فروع الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ / ص ٥٨ كتاب الجهاد، باب ٣٠ تابع لباب إنكار المنكر بالقلب / ح ٢، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].
٤ ـ [شرح أصول الكافي، للمولىٰ محمد صالح المازندراني: ج ٨ / ص ٢٤٠].

وكفاءته، ولكن أكرم من هذا الجهاد وأعظم أن نتحرر من كل دنية ورذيلة، من الكذب والحقد والحسد والغيبة والجور والطمع والاستعلاء والتسلط الذي نمقته في الآخرين، ونحاربه بكل ما نطيق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**احمل نفسك لنفسك، فإن لم تفعل لم يحملك غيرك**»[١]. إذا كنت أنت لا تصبر على آلامك وأثقالك، فكيف تلقي بها على عاتق سواك، وتطلب منه أن يصبر عليها ويتجلد؟ هذا إلى أن الأبي لا يمد يد الذل والتسول إلى مخلوق مثله، ويرفض الصدقات بأنفة وإباء ويقهر نفسه على حمل الأثقال، ويجابه ضربات الدهر بعتو وصلابة، ويسعى جهده لينتصر على الحاجة والضرورة أو يموت ولا فضل عليه إلاّ لخالقه، وكفى بذلك عزاً وفخراً، وتكلمنا عن ذلك مطولاً ومفصلاً في كتاب «فلسفة الأخلاق» فصل الجهد فقرة جهاد النفس.

---

١ ـ [شرح أصول الكافي، للمولى محمد صالح المازندراني: ج ١٠ / ص ٢٠٦].

الإسلام يقرّ كلّ جديد مفيد

باستطاعة الإنسان أن يفهم الحقائق الطبيعية، ويستغلّها لمصلحته، وله أن يضع لها ما يشاء من الأسماء، ويصفها بما يريد من الأوصاف، وليس له أن يشرع قوانين وأحكاماً، ثمّ يفسر الطبيعة حسب قوانينه وأحكامه، كائناً من كان المشرّع، لأن التشريع غير التكوين، والنواميس الطبيعية غير الأحكام التشريعية، فالكلام عن أقصىٰ مدة الحمل، وعن المرأة الحامل هل تحيض أو لا تحيض، وما إلىٰ ذلك ليس من مباحث التشريع في شيء.

وقد صرح بهذه الحقيقة كثير من فقهاء المسلمين، وكرروها في كتب الفقه وأصوله لشتىٰ المناسبات، ويؤيدها قولهم: إن القدرة شرط للتكليف، وإنّ قول: إفعل، ولا تفعل يستدعي استطاعة المكلف علىٰ الفعل والترك، والنواميس الكونية لا تدخل في قدرة المكلف سلباً ولا إيجاباً.

حقيقة التشريع:

وإذا تجاوزنا الأشياء الطبيعية إلىٰ غيرها من الأفعال والعادات وجدنا المجال فسيحاً للتشريع سواءاً كان عرفياً أم برلمانياً، والتشريع البرلماني إرادة أكثرية أعضاء المجلس، والعرفي عادة الناس وتقاليدهم، والإلٰهي إرادة الله سبحانه، وقد حدّدته الآية الكريمة بأوجز وأبلغ تعبير: ﴿**قل ءالله أذِنَ لكم أمْ علىٰ**

الله تَفْتَرُونَ﴾[1] إذن ليس للتشريع بجميع أنواعه وجود مستقل في الخارج يلمس ويرىٰ، كوجود الطبيعيات، وإنما يوجد في عالم الإرادة والإعتبار، وبهذا أمكن فيه التبديل والتعديل حسب مقتضيات الظروف والمصالح.

التشريع رئيسي وتقريري:

القوانين علىٰ نوعين: رئيسية وهي التي يضعها المشرّع ابتداء، ولم تكن معروفة عند الناس، ولا مألوفة من عاداتهم، وتقريرية إمضائية وهي عبارة عن تقرير المشرّع وإمضائه العادات المستحسنة.

والعبادات كالصوم والصلاة والحج أحكام رئيسية، فالوحي وحده مصدر تشريعها، والمرجع لبيان حقيقتها، وليس لأيّ فرد من الناس، أو هيئة من الهيئات إثبات شيء منها أو نفيه.

الصحيح عند العرف صحيح عند الشرع:

أما المعاملات كالبيع والإجارة والشركة، وما إلىٰ ذلك مما يقصد منه المنفعة الدنيوية فجميع أحكامه تقرير وإمضاء لما عليه الناس، وليس للوحي حقيقة تغاير الحقيقة العرفية الموجودة قبل الشرع، فانتقال المال من شخص إلىٰ شخص لحصول نوع من التراضي بينهما، أو اشتراكهما في التصرف بشيء خاص، وتقسيم المنفعة بين الإثنين، أو جعل أحدهما مديناً للآخر، وما إلىٰ ذلك من المواضيع التي تختلف باختلاف نوع الإلتزام والتراضي، كل ذلك يرجع فيه إلىٰ

---

١ ـ [سورة يونس، الآية ٥٩].

العرف، لا إلىٰ الوحي، فالعرف هو الذي يحدد الأسباب، أي العقود والموجبات، ويحدد مسبباتها، وهي الآثار الخاصة لكل عقد، فليس للإسلام تشريع رئيسي، واختراع جديد في هذا الباب، وإنما أقرّ، وأمضىٰ ما عليه العرف. وأجاز كل معاملة يجريها الناس في زمانه، وبعد زمانه أجازها ببيان عام مثل قوله سبحانه: **﴿وأحَلَّ الله البَيْعَ﴾**[1] و **﴿أوْفُوا بالعقود﴾**[2] **﴿لا تأكُلُوا أمْوالَكُمْ بَيْنَكُم بالباطل إلاّ أن تكُونَ تجارَةً عنْ تراضٍ﴾**[3] وقول الرسول الأعظم «**الصلحُ جائِزٌ إلاّ ما حلّلَ حراماً، أوْ حرّمَ حلالاً**»[4] وقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كل شيءٍ يكونُ للناس فيه الصلاحُ مِنْ جهةٍ من الجهاتِ فهو حلالٌ**»[5]. وهذه تدل بجلاء علىٰ أن ما يسمىٰ بيعاً وصلحاً، أو أيّ عقد من العقود عند الناس فهو حلال وماض يجب الوفاء به في أيّ زمان أو مكان حصل، في عهد المشرّع أو بعده، في اللغة العربية، أو الأجنبية، فمع وجود هذا الإذن العام، والتقرير الشامل لكل معاملة لا نحتاج إلىٰ أمر خاص من المشرع لتصحيح المعاملات المتداولة بين الناس.

أما نهي الإسلام عن بعض المعاملات كبيع السلاح للعدو المقاتل، وإجار الدار للدعارة، وما إلىٰ ذلك فلأنّ هذه الأمور محرّمة بذاتها، فالنهي عن المعاملة بها نهي عنها بالذات، فكل معاملة صحيحة عند العرف هي صحيحة عند الإسلام إلاّ ما يتنافىٰ مع المبادىء العامة، أي ما حلّل حراماً، أو حرّم حلالاً.

---

١ ـ [سورة البقرة، الآية ٢٧٥].

٢ ـ [سورة المائدة، الآية ١].

٣ ـ [سورة النساء، الآية ٢٩].

٤ ـ [من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج ٣ / ص ٢٢ أبواب القضايا والأحكام، باب الصلح / ح ١، وفيه:
قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «البينة علىٰ المدعي واليمين علىٰ المدعىٰ عليه والصلح جائز بين المسلمين إلّا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً»].

٥ ـ [تحف العقول، لابن شعبة الحراني: ص ٢٤٣ ، تفسير التجارات].

لقد تطورت الحياة بتطوّر وسائل الانتاج، وأصبح الفرق بين الحاضر والماضي، كالفرق بين مطرقة الحداد، والمصانع الكبيرة التي تدار بالكهرباء، وكالفرق بين الثور والتراكتور، فمن المحال أن تبلغ الحياة هذا الحدّ من التطوّر، ويبقى النظام الإقتصادي على ما كان عليه في بدء الإسلام. وهل باستطاعة أحد أن يقول: إنّ منابع النفط ومناجم الذهب في الحجاز لو اكتشفت في عهد الرسول الأعظم لاستمرّ الرسول بعد هذا الاكتشاف في تطبيق النظام الإقتصادي الذي كان قبله! إذن أين التجانس بين الحكم وموضوعه، والاقتصاد ونظامه؟ فمن الخير للإسلام والمسلمين أن نقول: إنّ كل ما فيه الخير والصلاح يقرّه الإسلام، وينهى عما فيه من الضرر والفساد.

وقد أكد هذه الحقيقة رجال من فقهاء السنّة والشيعة الإمامية، ففي رسائل ابن عابدين ج ٢ ص ١١٥ نقلاً عن المبسوط: أنّ الثابت بالعرف كالثابت بالنصّ، ثم ذكر الحديث المشهور: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» وقال المرزا حسين النائيني في تقريرات الخراساني ج ٢ ص ١٤٠ و ١٤١ «المعاملات ثابتة عند عامة الناس قبل الشرع والشريعة، وعليها يدور نظامهم ومعاشهم، والشارع قد أمضاها بمثل أحلّ الله البيع، وأوفوا بالعقود، فليست الملكية المنشأة بالبيع، والزوجية المنشأة بالنكاح، والتسالم المنشأ بالصلح من المخترعات الشرعية .. فهذه كلّها متداولة عند من لم يلتزم بشرع ولا شريعة كالدهري والطبيعي».

لا رق في الإسلام:

وكلما أمعنّا النظر تجلّت لنا هذه الحقيقة أكثر فأكثر، وبرزت أمام أعيننا شواهد ناطقة لا ريب في صدقها ووضوحها:

كان نظام الرق موجوداً قبل أن تكون الديانة اليهودية والمسيحية، وعندما جاء الإسلام كان أصحاب النفوذ وكثير غيرهم يرون أن الرق ضرورة لا غنىٰ عنها لحياة المجتمع، وهاتان الديانتان لم يعارضا نظام الرق، فلم يجد الإسلام مندوحة لإلغائه دفعة واحدة، فأوجد سبلاً شتّىٰ للعتق وتحرير العبيد تؤدّي بالنهاية إلىٰ إلغاء الرق كليّة، وقد تذرّع الداعون إلىٰ إلغائه بهذه السبل، وكانت خير عون لهم علىٰ تحقيق ما أرادوا.

وإنّنا علىٰ يقين لا يداخله شك بأنّ الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ لو كان في عصرنا هذا الذي أُلغي فيه الرق لم يدع إلىٰ إعادته وبعثه من جديد، ولو قامت في عصره ثورة ضد الإسترقاق لباركها وساندها. إن رسولاً بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ويقول: «**شر الناس من باع الناس**»[1] وإنّ ديناً رسالته نفي «الضرر والضرار» بشتىٰ أنواعه المادية والأدبية لا يمكن أن يرجّح الإسترقاق أو يدعو إليه.

زواج غير المسلمين:

في كتب الفقه للسنّة أنّ الأئمة ما عدا مالكاً قالوا: «إنّ أنكحة غير المسلمين صحيحة يقرّون عليها، وتلحقها جميع الأحكام والآثار»[2]... وروىٰ الشيعة عن أئمتهم: «أنّ كلّ قوم يعرفون النكاح من السفاح ـ الزنا ـ فنكاحهم جائز»[3]، وأنّ

---

١ ـ [فروع الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ / ص ١٠٨ كتاب المعيشة، باب الصناعات / ح ٤].

٢ ـ [أنظر المغني، لابن قدامة: ج ٧ / ص ٥٣١ باب نكاح أهل الشرك ؛ وفقه السنة لسيد سابق: ج ٢ / ص ٢٣٨ زواج غير المسلمين ؛ وعون المعبود، للعظيم آبادي: ج ٦ / ص ٢٣٥].

٣ ـ [تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي: ج ٧ / ص ٤٢١ / [١٩٠٧] ١١٥، وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كل قوم يعرفون النكاح من السفاح فنكاحهم جائز»].

من يدين بدين قوم لزمته أحكامه، وأنّه لا يجوز قذف المجوسي بالزنا والفجور مع أنّه ينكح أمّه وأُخته، لأنّ ذلك نكاح صحيح في دينه»، وفي كتاب الجواهر باب الزواج مسألة اختلاف الدين «نحكم بصحة ما في أيدي غير المسلمين من النكاح وغيره بمعنى ترتب الآثار عليه، وإن كان فاسداً عندنا»[1].

واتفق الفقهاء على أنّ غير المسلم يملك الخمر والخنزير، ويحلّ له الإتجار بهما، لأنّ ذلك جائز في دينه، أما المسلم فلا يملكهما، ولا يحلّ له الإتجار بهما، لأنّ الإسلام نهى عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

إذن ليس للإسلام نظام اقتصادي خاص فرضه على أتباعه وغير أتباعه، أو على أتباعه خاصّة دون غيرهم، غير أنّه نهى عن أشياء كأكل المال بالباطل، والإعانة على الإثم، فإذا أجرى المسلم معاملة ما تستدعي شيئاً من المحرمات، نهاه الإسلام عنها، أما غير المسلم فيوكله إلى عقيدته وأحاسيسه، ولو كان للإسلام نظام معين لفرضه فرضاً على كلّ من يشمله نفوذ الإسلام ودولة الإسلام كما هو الحال في سائر الحكومات والممالك تطبّق قوانينها على جميع رعاياها على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

كتب الفقه:

أما الكتب التي وضعها الفقهاء للبحث عن المعاملات وأنواعها وتمييز صحيحها من فاسدها فإنّها بيان للمعاملات المعروفة عند الناس، أي لتشخيص الموضوع العرفي، وبعد أن يتحقق لدى الفقيه هذا الموضوع يبحثه من جهة

---

١ ـ [أنظر جواهر الكلام، للشيخ محمد حسن النجفي: ج ٣٠ / ص ٦٧ كتاب النكاح، في مسائل مترتبة على اختلاف الدين].

شرعية، أي أنّ هذه المعاملة العرفية هل ورد نهي عنها في الشريعة؟ وهل تستدعي الظلم والإعانة على الإثم كي تحرّم شرعاً، أو أنها لا تستدعي شيئاً من ذلك فتكون حلالاً، وهذه الجهة هامة جداً لابد من مراعاتها في كل عمل.

ويرى البعض أنّ في الكتاب والسنة بياناً لجميع القضايا الاقتصادية وغير الاقتصادية، فأيّ مسألة إذا لم يرد فيها نصّ خاصّ فبالإمكان استخراج حكمها من النصوص العامة. وبقيت على تقليد هذا القول أمداً طويلاً، ثم عدلت عنه حين تبيّن لي أنّ أكثر عمومات الكتاب والسنّة لم تتعرض للمعاملات إلاّ بطريقة إجمالية عامة، بحيث لا تصلح بحال أن تكون نظاماً شاملاً مفصّلاً، ولا يستفاد منها سوى إمضاء كل معاملة تتفق والصالح العام، والنهي عما يتنافى، وأنها تفيد قوله سبحانه: ﴿**جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾[1]، وقوله: ﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ولا تَطْغَوْا فيهِ**﴾[2]. فالمراد منها وجوب السير على الصراط السوي، والعمل ضمن المصلحة، أما تحديد هذه المصلحة، وكيف تنفذ فذلك يعود إلينا نحن دون سوانا، ولو فسّرنا مثل هذه العمومات بأكثر من ذلك لحمّلنا ظاهر الكتاب والسنّة ما لا يحملان، خذ إليك مثلاً بحثت الحكومة اللبنانية تعديل قانون الإنتخاب وتقسيم الجنوب وبيروت والبقاع إلى دوائر فهل ننتهي إلى النتيجة الحاسمة إذا رجعنا إلى قوله سبحانه: ﴿**وشاوِرْهُمْ في الأَمْرِ**﴾[3] ولو فعلنا هذا لكنّا كمن قال: إنّ هذا البيت:

رجل علّق الطلاق بشهر　　　قبل ما بعد قبله رمضان

يشتمل على مائة ألف مسألة، وهل لأحد أن يقول: إنّه يستخرج قانون

---

١ ـ [سورة الملك، الآية ١٥].

٢ ـ [سورة طه، الآية ٨١].

٣ ـ [سورة آل عمران، الآية ١٥٩].

البلديات والبناء والآثار والمهاجرين والإدارة العامة، وما أشبه من عمومات الكتاب والسنّة؟

من هنا يتبيّن أنّ الإسلام يترك الناس يختارون المعاملة التي يرون على شريطة أن لا تحلل ما حرّم الله، أو تحرّم ما أحلّ، فكما أنّ الإسلام لم يفرض على الناس نوعاً خاصاً من الزراعة والصناعة كذلك لم يفرض عليهم نوعاً معيّناً من أنظمة الاقتصاد. كان الحرث في الزمان الأول على الحيوان، وكان الحصاد والغزل بيد الإنسان فتطورت هذه إلى ما هي عليه اليوم، فهل في تطورها ما يتنافى مع الاسم ودعوته؟! بل هو عين ما يدعو إليه الإسلام، وكذا الحال بالقياس إلى كل ما من شأنه أن يرفع من مستوى الحياة، ويحسّن من أحوال الناس، فإذا رأوا أنّ من صالحهم تحديد الملكية الزراعية، وحصر التجارة في نطاق خاص، فالشرع يمضي هذا الرأي، ويوجب العمل به. كما يوجب العمل بكلّ تشريع يحارب الفقر والبطالة.

وليس من شك أنّ الإسلام يقرّ كلّ جديد مفيد يحقّق صالح الجماعة والفرد، قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**كلّ ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز**». وهذا أصل من أصول التشريع عند أئمة المذاهب كافة. فتأميم الكهرباء والماء وخطوط النقل والتعليم والطب، وما إلى ذلك مما فيه الخير العام جائز يقره الإسلام ويباركه، لأنّ الإسلام أقرّ وأمضى جميع أقوال الناس وعاداتهم وأنظمتهم ما وجد منها في عهد الرسالة، وما يوجد بعدها ما دام لا يخرج عن القواعد العامة لا يحلّل الزنا والسرقة والخيانة والظلم والغشّ والخمر والميسر، وما إلى ذلك وأي نظام اقتصادياً كان أم سياسياً أم اجتماعياً تفرضه فئة مستثمرة فهو محرّم في نظر الإسلام.

فالإسلام لا يبيح أن تعيش الجماعات والأفراد في ظلّ أنظمة تضرهم ولا

تنفعهم، بهذا النظر البصير العميق تكون الشريعة الإسلامية شريعة الحياة بحق تدوم وتبقىٰ بدوام الحياة وبقائها، فالشريعة التي لا تسند إلىٰ عقيدة أتباعها وإيمانهم بأنّها وضعت لمنفعتهم ورفع مستوىٰ حياتهم لا تكون شريعة لهم إلاّ بالاسم، إذ يعيشون عملياً بمعزل عنها، حتىٰ هذا الاسم يكون عرضة للزوال والإنهيار إذا ظهرت شريعة أصلح وأنفع، فالتشريع وحده لا يخلق الإيمان في النفوس، بل الإيمان بالمصلحة يخلق التشريع، وإذا آمن قوم في الزمان السالف بنظام لأنه يتّفق وأوضاعهم فإنّ هذا الإيمان لا تتوارثه الأجيال المتعاقبة إذا تغيّرت الأوضاع، وتبدلت الأحوال، ومن هنا كان نسخ الشرائع بعضها لبعض، واستبدال حكم بحكم في الشريعة الواحدة، كلّ ذلك رغبة في المصلحة والمنفعة الدنيوية.

وبهذا التفسير يظهر فضل الشريعة الإسلامية، ومرونتها، ويصدق القول: أنّ التشريع الإسلامي يكفل حاجات المجتمع في كل زمان ومكان، أي يقرّ الأحكام الوضعية التي تكفل هذه الحاجات، وإذا تنافىٰ حكم وضعي مع الصالح العام يكون مشرعه والحاكم به، ومنفذه ممّن عناه الله بقوله: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ الله فأولٰئِكَ هُمُ الكافِرونَ﴾**[1].

أما القول: إن للإسلام نظاماً، وإنّ هذا النظام هو الإشتراكية أو الديموقراطية أو الرأسمالية فاعتباط وتمحل، وماذا نصنع لو أثبتت التجارب فساد هذه الأنظمة كلاًّ أو بعضاً، أو ظهر في المستقبل ما هو خير منها، فهل نعدل عن التفسير الأول، ونفسّر الإسلام بالفلسفة الجديدة، ونقول كلّ يوم بقول! فخير ألف مرة للإسلام أن نقول: إنّ كل نظام عادل قديماً كان أو حديثاً يرفع مستوىٰ الحياة يحارب الفقر والجهل والمرض فهو متفق مع الإسلام وأصول الإسلام ولا يضر بأحد.

---

١ ـ [سورة المائدة، الآية ٤٤].

الإشتراكية في الإسلام

مبدأ أخلاقي وليست نظاماً اقتصادياً

نطلب المحال إذا قصدنا إثبات الإشتراكية ـ بمعناها المعروف اليوم ـ في التشريع الإسلامي، أو في أي قانون سابق. إن اشتراكية اليوم تولدت من تقدم الصناعة، وتكدس العمال، حيث أصبح العالم ملكاً لرجال الأعمال. إنّ قصة الاشتراكية كنظام إنما هي قصة التوسع الاقتصادي المدهش لأصحاب المصانع الحديثة.

وعليه يكون كلامنا عن الاشتراكية في الفقه الاسلامي، تماماً مثل بحثنا عن كتاب لسقراط في علم الجيولوجيا مع التسليم بأن هذا العلم لم يكن له في عهده عين ولا أثر. وإذا لم نجد الاشتراكية في التشريع الاسلامي كنظام فأولى أن لا نجدها في الفقه الحنفي أو الشافعي أو الجعفري أو الحنبلي أو المالكي لأن الفرع لا يزيد على الأصل.

أجل هناك بحث يتصل بالاشتراكية، وتتسع له مصادر التشريع والمذاهب الإسلامية، وهو:

هل يتقبل الفقه الاسلامي بأسسه ومبادئه الاشتراكية أو يرفضها ويتصادم معها؟

ليس من شك أن الإسلام يقر كل جديد مفيد يحقق صالح الجماعة والفرد.

قال الإمام جعفر الصادق: «**كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز**». وهذا أصل من أصول التشريع عند أئمة المذاهب كافة. فتأميم الطاقة وتأمين العمل والتعليم والطب، وما إلىٰ ذلك مما فيه الخير العام جائز يقره الإسلام ويباركه.

وإذا لم تكن الاشتراكية موجودة في الإسلام كنظام واجب المراعاة والتطبيق لتعذر إزالة العوائق من طريقها فإنها كانت موجودة كفكرة إنسانية وكمبدأ من مبادىء الأخلاق. فقد ثبت عن الرسول الأعظم أنه قال: «**لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون**»[1]. وقال الإمام علي: «**ما جاع فقير إلاّ بما مُتّع به غني**»[2] .. «**ما رأيت نعمة موفورة إلاّ وإلىٰ جانبها حق مضيَّع**».

وهذا القول لا يصح إلاّ علىٰ أساس التسليم بأن تأميم الثروات وتوزيعها بالمساواة جائز في الإسلام، ولكن هذه الفكرة لم تنتقل إلىٰ مرحلة العمل والتطبيق، لأن العصر لم يكن عصر تحقق الاشتراكية بعد. وإنما كان عصر التحرر والقضاء علىٰ العبودية وجميع العادات المرتبطة بتقديس الأصنام، ولا يستطيع الإسلام أن يلغي سنة التطور والظروف الواقعية «بضربة واحدة».

وقول الإمام ما جاع فقير الخ ظاهر بأن الرزق مضمون لكل إنسان، ولكن الناس يبغي بعضهم علىٰ بعض، وأن النعمة الموفورة قد أخذت من غير حِلٍّ ووضعت في غير حق. غير أن هذا القول من الإمام لا يجري مجرىٰ مبادىء التشريع وإنما هو حكم أخلاقي إنساني ليس إلا. فهو أشبه بقوله: «إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت تريد ما لا يكفيك فإن كل

---

١ ـ [كنز العمال، للمتقي الهندي: ج ١ / ص ٢٧٥ ؛ وتاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر: ج ٤١ / ص ٢٠٠].

٢ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٩ / ص ٢٤٠ باب الحكم والمواعظ برقم ٣٣٤].

ما فيها لا يكفيك». أي أن كل إنسان لو عمل لكفايته، وسد حاجته ولما هو ضروري لوجوده وحياته فإن في هذه الأرض الواسعة الخيرة من الأرزاق ما يكفي جميع سكانها بالغاً ما بلغوا، أما لو عمل للربح والسيطرة والظهور، وطلب أكثر مما يكفيه فإن كل ما في الدنيا ومعها عشرة أمثالها لا يكفي واحداً، لأن كل ما يفرض فهو أكثر من الكفاية، واللاكفاية كاللانهاية لا تحد بحد.

في ذات يوم جاءت الإمام امرأتان وهو خليفة، تشكوان فقرهما فأعطاهما، ولكن إحداهما سألته أن يفضلها على صاحبتها، لأنها عربية، وصاحبتها من الموالي، فأخذ قبضة من تراب، ونظر فيه، وقال: «**لا أعلم أن الله فضل أحداً من الناس على أحد إلاّ بالطاعة والتقوى**».

وقال في عهده للأشتر: «**ثمَّ اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى**»[1].

والطبقة السفلى تشكل الأكثرية الغالبة في المجتمع، وهي في نظر الإمام صاحبة الحق، لأنها لا غاية لها من الدنيا إلاّ سد جوعة، وستر عورة، وهذا أقل ما يجب. لذا قال بعض العلماء: «كل ما تدعو إليه الحاجة فهو لله وكل ما زاد عنها فهو لغير الله»، أما الطبقة العليا فغايتها القصوى جمع المال، ولا ترى الحق والخير إلاّ بالحصول عليه من كل سبيل، فإن أنفقت فإسرافاً وإن أمسكت فاحتكاراً، فهي في كلا الحالين مبطلة مغتصبة.

وبهذا نجد السر لقول الإمام: «**الزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة**»[2]. لأنها لا تطلب إلاّ الكفاف، وهو حق لكل إنسان.

---

١ - [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٧ / ص ٨٥ من كتاب للإمام علي عليه السلام كتبه للأشتر النخعي لما ولاّه على مصر، رقم الكتاب ٥٣، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].

٢ - [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ٨ / ص ١١٢ من كلام للإمام علي عليه السلام قاله ⟸

ومرة ثانية نكرر بأن هذه الأقوال وما إليها أحكام أخلاقية، وليست نظاماً اقتصادياً، وإذا دلت علىٰ شيء فإنها تدل علىٰ أن الإسلام يرحب بالاشتراكية، ويتقبلها بأحسن القبول ما دامت تحقق مصالح السواد الأعظم.

ومن الغريب أن كل ما قاله الاشتراكيون، أو جله نجد له أثراً وبذوراً في الحديث الشريف، أو في أقوال إمام من أئمة الفقه حتىٰ نظرية التناقض، قال الرسول الأعظم:

«مثل الحريص علىٰ الدنيا كمثل دودة القز، كلما ازدادت علىٰ نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتىٰ تموت غماً».

وأي فرق بين هذا الحديث، وبين قولهم: إن التناقض متحقق بين صاحب العمل والعمال في المجتمع الرأسمالي، فصاحب العمل لا يستطيع الحياة بدون العمال، وهم بدورهم يسعون من أجل حقوقهم والتي تتناقض مع أطماع رب العمل وقد يؤدي ذلك إلىٰ خراب العمل وصاحبه.

وقال الإمام الشعراني ـ من فقهاء القرن السادس عشر ـ في كتاب الميزان باب زكاة المعدن: «للإمام أن يضع علىٰ أصحاب المعدن ما يراه أحسن لبيت المال، خوفاً أن يكثر مال أصحاب المعدن، فيطلبوا السلطان وينفقوا علىٰ العساكر، وبذلك يكون الفساد».

وهذا تعبير ثان عن النظرية القائلة بأن رأس المال يؤدي بأصحابه إلىٰ السيطرة علىٰ الحكام والحكم.

وقال السبكي ـ من فقهاء القرن الرابع عشر ـ: «ليس للإنسان أن يحجر من الأرض إلاّ ما يطيق إحياءه، بل ينبغي أن يختصر علىٰ قدر كفايته، كي لا يضيق علىٰ

⟸ للخوارج، برقم ١٢٧، في المصدر (علىٰ) بدل (مع)].

الناس، فإن تجاوز كان لغيره أن يحيي الزائد عن حاجة من سبق».

وهذه أحدث نظرية في قانون الإصلاح الزراعي، وأجدىٰ الوسائل للقضاء علىٰ الاقطاع.

ويجد المتتبع ألف مثال ومثال من هذا النوع في كتب الفقه والحديث. ولكن هذه الأمثلة وما إليها ليست في شيء مما نفهمه من لفظ الاشتراكية التي تطبق اليوم في بعض البلدان، ولكنها تدل بصراحة ووضوح علىٰ أن الإسلام يرحب بالاشتراكية بشروط، أو قل إن للإسلام نظاماً مستقلاً عن الاشتراكية والرأسمالية، المعروفين في هذا العصر، فهو يقر الملكية الفردية، ولكنه يحددها بلا ضرر ولا ضرار، ويبيح التجارة، ويحرم الاستغلال والاحتكار، ومن أجل هذه المرونة يتقبل كل جديد مفيد، ويلتقي مع كل نظام وضعي شرقياً كان أو غربياً ما دام يؤمن العيش والحرية للجميع، ويحرم استغلال الإنسان للإنسان، سواء سمي بالاشتراكية أو الرأسمالية، وكفىٰ بهذا فضلاً للإسلام.

ومن نظر للإسلام بهذه النظرة فقد رآه بعين الواقع وتكلم عنه بلسان الحقيقة، ولم يحمل اللفظ أكثر مما يتحمل من المعاني، ويدخل في الإسلام ما هو خارج، أو يخرج ما هو داخل ومن حاول إثبات الاشتراكية بكل ما فيها من معنى في الاسلام فلابد أن يقع في التعسف والتحمل اللذين وقع فيهما سيد قطب حيث قال في كتابه «معركة الإسلام والاستعمار»: إن الإسلام حدد ساعات العمل بمبدأ لا ضرر ولا ضرار. ونقول له: إن دلالة لا ضرر ولا ضرار علىٰ تحديد مدة العمل كدلالة «يا عباد الله اتقوا الله» علىٰ مشروع السنوات الخمس.

إن عدم تعرض الإسلام لتحديد ساعات العمل لا ينقص من فضله وقيمته، لأن تطور التشريع تابع لتطور الحياة، وهي لم تبلغ في ذلك العهد ما يستتبع مثل هذا التشريع، حيث لم يعمل عشرات الألوف من العمال السنوات الطوال في

مصنع واحد لرجل واحد أو فئة معينة، فقد كان الرجل يستأجر معه شخصاً أو أكثر ليبني بيتاً أو يغرس بستاناً في أيام معدودات، ثم يذهب العامل إلىٰ شأنه، ومثل هذا لا يستدعي أن يؤمن رب العمل حياة العامل ويضمن له معاش التقاعد والتعويض.

ومهما يكن فإن جميع الأديان تتفق كلمتها علىٰ أن المصلحة العامة فوق الجميع، وأن كل ما يحققها يقره الإسلام وغير الإسلام من أي وعاء خرج من الشرق أو من الغرب.

مجلة العلوم

كانون ثاني ١٩٦٠ م

نظرة الإسلام

إلى الرأسمالية والاشتراكية

إن للرأسمالية جذوراً وأنصاراً في التاريخ، والشواهد على ذلك من الآثار لا يبلغها الاحصاء .. وهذه الرأسمالية تطلق للفرد الحرية الكاملة في تحصيل الثروة واستغلالها في مشاريع السلب والنهب، وأوضح تعريف لها قول المترفين لشعيب: ﴿**أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء**﴾[1]. فليس مرادهم بهذا أن ينفقوا أموالهم في المأكل والملبس .. كلا، وإنما مرادهم أن يستغلوا أموالهم في السيطرة على الناس، والتحكم بأقواتهم.

وكما دل التاريخ على أن الإنسان قديم العهد بهذه الرأسمالية فقد دل أيضاً على أنه قديم العهد بالاشتراكية، فقد جاء في دروس التاريخ للمؤرخ «ديورانت»: أن الباحثين قد عثروا على لوحة سومرية يرجع تاريخها إلى ٢١٠٠ قبل الميلاد، تقول: كانت الدولة هي التي توجه الاقتصاد القومي. وأن في بابل سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد كان قانون حامورابي يحدد أسعار كل شيء. وأن في عصر البطالة سنة ٣١٣ قبل الميلاد كانت الدولة تملك الأرض، وتدير الزراعة، إلى غير ذلك.

والإسلام يرفض كلاً من الاشتراكية والرأسمالية بمعناهما الشائع اليوم، ويقر كل ما من شأنه أن يواجه الصعاب، ويحل مشكلات الحياة، دون أن يبخس

---

١ ـ [سورة هود، الآية ٨٧].

الناس أشياءهم.

فالآيات والأحاديث تفيد أن الإسلام لا يقر ملكية الإنسان للمال بشتىٰ معانيها، سواء أكانت الملكية فردية مطلقة، كما هي في المذهب الرأسمالي، أو ملكية مقيدة، كما هي في المذهب الاشتراكي، أو ملكية جماعية، كما هي في المذهب الشيوعي .. كل هذه الأنواع للملكية ينفيها الإسلام، ويحصر الملك الحقيقي بالله وحده، ولكنه سبحانه قد أباح للإنسان أن يتصرف في هذا المال، وينفقه علىٰ نفسه وأهله بالمعروف، وفي سبيل الخير، علىٰ شريطة أن يصل إليه عن طريق ما أحله الله، لا عن طريق ما حرم ونهىٰ، كالغش والخداع، والنهب والسلب، والرشوة والربا والاحتكار والاتجار بالمسكرات والمحرمات، فالإذن بالاستيلاء علىٰ المال محدود بحدود، والإذن بالتصرف فيه أيضاً محدود ضمن نطاق خاص.

والخلاصة أن الإسلام أباح للإنسان حيازة المال بشروط خاصة، وإنفاقه ضمن نطاق معين، وشدد علىٰ مراعاة تلك الشروط في هذا النطاق، وحرم التجاوز عنهما، وهذا وحده كاف وصريح في الدلالة علىٰ أن الإنسان وكيل علىٰ المال، لا أصيل، وإلاّ جاز له التصرف بلا قيد ولا شرط. وخير ما نختم به هذا الفصل قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: المال مال الله وهو ودائع عند عباده، وجوز لهم أن يأكلوا قصداً ـ أي مقتصدين ـ ويلبسوا قصداً، وينكحوا قصداً، ويركبوا قصداً، ويعودوا بما سوىٰ ذلك علىٰ فقراء المؤمنين، ويلموا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً، ويركب وينكح حلالاً، وما عدا ذلك كان عليه حراماً.

رأي في الرأسمالية والشيوعية:

نحن ضد الرأسمالية الطاغية البشعة، وضد كل نظام يقوم على تنازع البقاء وبقاء الأقدر والأقذر أو فيه شائبة من ظلم واستغلال .. وأيضاً نرفض الشيوعية لا لأنها ملحدة وكفى، بل لأنها توغل في المادية وتنكر الروح نكراناً تاماً، وتنظر إلى الإنسان على أنه مجرد آلة يجب أن يعمل ليعيش، وتجعل الانتاج الاقتصادي هو الأصل للأديان والأخلاق، وتمنح السلطة لفئة خاصة من الأعضاء الحزبيين على حياة الناس بشتى جوانبها، ولا تسمح لأي مواطن أن يقول لها «لا» وإن كان محقاً.

أقول هذا عن علم وبعد أن قرأت في هذا الباب عشرات الكتب والمقالات، وأختار للقارىء من مطالعتي في هذا الموضوع هذه الجملة القصيرة للدكتور طه حسين، جاءت في كتابه الفتنة الكبرى (عثمان) وهذا نصها:

«قد ضمنت الرأسمالية للناس شيئاً من الحرية، وقليلاً من المساواة أمام القانون، ولكنها لم تضمن لهم من العدل الاجتماعي شيئاً، والشيوعية قد ضمنت للناس قليلاً أو كثيراً من العدل الاجتماعي، فألقت ما بينهم من فروق، وأتاحت للعاملين منهم أن يعملوا وينتفعوا بثمرة عملهم، وأتاحت للعاجزين منهم أن يعيشوا غير معرضين لذلة أو ضعة أو هوان، ولكنها ضحت في سبيل ذلك بحريتهم كلها فلم تدع لهم منها شيئاً، والفاشية قد ضحت بالحرية والعدل جميعاً».

أبداً لا يجد الإنسان ولن يجد ضماناً لحقوقه الطبيعية إلاّ بالإسلام الذي حدد رسالته بهذه الكلمات الثلاث: **﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم**

الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾[١]، والطيبات تعم المال الحلال الذي لا يكون على حساب الآخرين قال سبحانه: **﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعىٰ﴾**[٢] والخبائث تشمل المال الحرام ومنه الاحتكار والاستغلال.

أما وضع الأثقال والأغلال فإنه إشارة إلىٰ حرية الإنسان وقداستها قال تعالىٰ: **﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾**[٣]. والكرامة ترادف الحرية حيث لا كرامة ولاَ إنسانية بلا حرية.

وأيضاً قال: **﴿بل الإنسان علىٰ نفسه بصيرة﴾**[٤]. والمعنىٰ لا سلطان عليه ولا قائد له إلاّ نفسه وعقله وضميره.

وبعد، لقد كرم الإسلام الطبيعة البشرية علىٰ العموم والشمول بلا تمييز في عنصر ولون وجنس، ووضع الجميع في مستوىٰ واحد في الحقوق والواجبات، واعتبر الإنسان من حيث هو إنسان القيمة العليا، وجعل كل شيء لخدمته قال عز من قائل: **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾**[٥] ولكن الولايات المتحدة جاءت بجديد هو أسمىٰ وأعلىٰ وأجدىٰ للإنسانية وأبقىٰ، جاءت بقنبلة «النيوترون» التي تقتل كل الناس الذين تقع عليهم، ولا تمس بأي سوء وأذىٰ المؤسسات والمباني والممتلكات، وهكذا علم الله الإنسان ما لم يعلم ليدمر الإنسانية، ويبقي لها كل أملاكها وأموالها!!

---

١ ـ سورة الأعراف الآية ١٥٧.
٢ ـ سورة النجم الآية ٣٩.
٣ ـ سورة الإسراء الآية ٧٠.
٤ ـ سورة القيامة الآية ١٤.
٥ ـ سورة البقرة الآية ٢٩.

الحياة عند الماركسيين والأميركيين :

وقال الرأسماليون والأميركيون: إن الهدف الأسمىٰ من حياة الإنسان وعمله هو أن يجمع المال؛ ثم يصنع المال مالاً بغير توقف، وهكذا دواليك إلىٰ ما لا نهاية .. يجمع ويصنع عن أي طريق كان ولو عن طريق الحرب والتخريب والافتراس، وعلىٰ حساب دماء البشرية وأرواحها، أما الهدف من تكديس المال وتراكمه فمجرد المضاهاة والمباهاة.

وقال الماركسيون بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولا هدف من وجوده وحياته إلاّ أن يعمل ويأكل، لأنه هو بالذات من عمل الطبيعة، ولا صفة فيه تستدعي البعث والخلود بعد الموت تماماً كالحشرة والشجرة، فماهية الإنسان الكاملة الفاضلة هي الكدح في يومه من أجل شرابه وطعامه، علىٰ أن تفرض الدولة عليه نوع الكدح والعمل، ولا يرتفع شأن الإنسانية بحال إلاّ بزيادة الإنتاج.

وتلتقي الماركسية والرأسمالية في أن الإنسان بهويته كائن مادي اقتصادي وكفىٰ. وتفترقان من وجهين:

الأول: تذهب الماركسية إلىٰ أن الإنسان يجب أن يعيش من خلال عمله الجماعي القهري، وتقول النظرية الامريكية: له أن يعيش علىٰ حساب الآخرين حتىٰ ولو لم يعمل شيئاً إلاّ الاحتكار والتحكم بالأسعار.

الوجه الثاني: تذهب الماركسية إلىٰ أن الناس شركاء في الملك والعمل والانتاج، وأن علىٰ كل إنسان أن يكيف حياته مع المجتمع، لأن جميع أفراد الإنسان هي كل موحد.

والإسلام ينكر الاستغلال والاحتكار، وأيضاً ينكر تذويب الفرد في

الجماعة وكبت حريته، والقضاء على كرامته، ويترك أمر الإنسان لنفسه، ولا يسيغ لأحد أن يفرض عليه نوع العمل، ولكن يوجب عليه السعي لسد الخلة والحاجة ويحمله تبعة عمله.

وأيضاً لا ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مادي اقتصادي وكفى كما هو عند الأمريكيين والماركسيين، بل هو مخلوق شرّفه الله وكرمه بالروح والمادة، بالعقل والجسم على أحسن صورة، وربط كلا منهما بالآخر في كيان واحد. والإنسان الكامل من يستجيب لمطالب الروح والجسم، ويحفظ التوازن بينهما ولا يرجح أحدهما على الآخر، والذين يحسبون أنه بالخبز وحده يحيا الإنسان، وبتكديس الأموال يعلو شأنه ويرتفع هم مخطؤون .. وأيضاً الذين يحسبون أنه بالتقوى وحدها ينجو الإنسان مخطؤون. قال سبحانه: ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾[1]. وقال الرسول الأعظم ﷺ: «**ليس خيركم من عمل لدنياه دون آخرته، ولا من عمل لآخرته وترك الدنيا وإنّما خيركم من عمل لهذه وهذه**». وكما قال الإمام أمير المؤمنين: «**إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**».

وفي القرآن آيات بينات خاطب سبحانه بها البسطاء، وعرفهم بذاته عن طريق التذكير بنعمه وحياتهم الاقتصادية ونوعها، واعتبرها كدليل على وجوده تعالى وفضله وإحسانه. من ذلك قوله لأهل الفلاحة والزراعة: ﴿**أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**﴾[2]. وقوله لرعاة الإبل في الصحراء: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت**﴾[3]. وقوله لقريش، وهي في واد غير ذي

---

١ ـ [سورة القصص، الآية ٧٧].
٢ ـ [سورة الواقعة، الآية ٦٣ ـ ٦٤].
٣ ـ [سورة الغاشية، الآية ١٧].

زرع: ﴿**فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾[1].

وما أكثر الآيات التي أشارت إلى أسباب الحياة ومقوماتها من الماء والزرع، إلى الماشية وألبانها وأصوافها، إلى الحديد وغيره من المعادن، وإلى التجارة وغيرها. واقرأ معي هذا العموم والشمول في قوله تعالى: ﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها**﴾[2].

وهكذا يهتم الإسلام بالاقتصاد على أنه أحد الطرفين من حياة الإنسان، وليس الكل في الكل كما هو عند الشيوعيين والرأسماليين.

وبعد هذه الإشارة السريعة إلى آي الذكر الحكيم وحياة الإنسان ـ نشير إلى مدى الصلة والعلاقة بين الحياة والأصول الثلاثة لعقيدة الإسلام، وهي الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر. ولك أن تضغط هذه الأصول في أصل واحد، وتقول: الإسلام هو الإيمان برسالة محمد ﷺ.

الإسلام وقادة الفكر الأوروبي:

﴿**إنه لقرآن كريم**﴾. أجل، إن القرآن كريم يغني عن كل مرشد ودليل، ويشفي من داء الجهل والضلال، ويهدي إلى منازل الكرامة والسلامة، ويحرر من قيود الظلم والعبودية .. أما السر لأوصافه هذه وكثير غيرها فلأن القرآن الكريم يستجيب لكل حاجة من حاجات الحياة، ويربط الدين بالعمل في الدنيا لحياة طيبة عادلة لا مشاكل فيها ولا عدوان .. حتى سعادة الآخرة لا ينالها إلاّ من أخلص

---

١ ـ [سورة قريش، الآية ٣ ـ ٤].
٢ ـ [سورة إبراهيم، الآية ٣٤].

وعمل صالحاً .. أبداً لا طريق إلىٰ الله، ولا إلىٰ النجاة من غضبه وعذابه إلاّ العمل النافع **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**[١].

ومن هنا أجمع المسلمون قولاً واحداً علىٰ أن الله سبحانه ما شرع ولن يشرع حكماً إلاّ لخير الإنسان ومصلحته، وأنه من المستحيل أن يشرع حكماً فيه ضرر علىٰ أحد أياً كان، وأنه إذا نسب إلىٰ شريعة القرآن حكمٌ لا يتفق مع هذا المبدأ فهو من جهل الجاهلين أو دسائس الوضاعين، أما الآيات الدالة علىٰ ذلك فتعد بالعشرات، منها قوله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه شعيب: **﴿إن أريد إلاّ الإصلاح﴾**[٢]، وقوله: **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم﴾**[٣]. وقوله: **﴿إن الله بالناس لَرءوف رحيم﴾**[٤]، وقوله: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[٥].

هذا هو الإسلام في حقيقته وواقعه، وفي كتاب الله وعلمه، لا شيء فيه إلاّ ما يحتاج إليه الإنسان ويطلبه بغريزته وفطرته النقية الصافية التي ولد عليها، وتميز بها جميع الكائنات، لا ما يتطلبه الطمع والجشع، والبغي والعدوان. وقد أدرك هذه الحقيقة الكثير من فلاسفة الغرب وشعرائه وأدبائه، فأكبروا الإسلام وأشادوا بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لا لشيء إلاّ بدافع من حب الخير والحق والعدل، ولو اتسع لنا المقام لذكرنا الكثير من أقوالهم، ولكن ما لا يدرك كله أو جله فلا يترك كله، ونختار من بين أولئك الأعلام: «جوته» الألماني و «لأمرتين» الفرنسي و

---

١ ـ [سورة الرعد، الآية ١٧].

٢ ـ سورة هود الآية ٨٨.

٣ ـ [سورة المائدة الآية ٦].

٤ ـ [سورة البقرة الآية ١٤٣].

٥ ـ [سورة الروم، الآية ٣٠].

«تولستوي» و «برناردشو» الانكليزي، وهم كما نرىٰ مختلفون في ثقافتهم وقوميتهم واتجاهاتهم.

قرأ «جوته» الشاعر الألماني الكبير ـ القرآن، وأدرك ما فيه فأكبره واحتفل بليلة القدر التي نزل فيها القرآن، وقرأ تاريخ الرسول الكريم ﷺ فألف النشيد المحمدي، وكتب مسرحية محمد ﷺ، ومن أقواله: إذا كان الإسلام هو التسليم لله لا للأهواء والأغراض ففي الإسلام نحيا، وعليه نموت.

وقال «لامرتين» شاعر فرنسا العظيم: «إن كل ما في حياة محمد ﷺ يدل علىٰ أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش علىٰ باطل .. إنه هادي الإنسان إلىٰ العقل، ومؤسس دين لا فرية فيه».

وقال «تولستوي» الفيلسوف الروسي الإنساني: «مما لا ريب فيه أن محمداً خدم الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدىٰ مئات الملايين إلىٰ نور الحق والسكينة والسلام، ومنح للإنسانية طريقاً للحياة، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلاّ إنسان أوتي قوة وإلهاماً وعوناً من السماء».

وقال برناردشو الأديب الانكليزي العالمي: «يجب أن يدعىٰ محمد منقذ الإنسانية .. إنني أعتقد أنه لو تولىٰ رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب إلىٰ العالم السلام والسعادة .. إن محمداً هو أكمل البشر من الغابرين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله في الآتين».

وقول برناردشو: «محمد أكمل البشر من الغابرين والحاضرين» معناه أن رسالة محمد ﷺ لا تغني عنها أية رسالة من رسائل الأنبياء السابقين .. حتىٰ عيسىٰ وإبراهيم.

أما قول برناردشو: «ولا يتصور وجود مثل محمد في الآتين» فمعناه لا أحد

يستطيع بعد محمد أن يأتي الإنسانية بجديد يفيدها وينفعها أكثر مما أتى به محمد، ومعناه أيضاً أن دعوة محمد ودين محمد يغني عن كل دين وكل دعوة وشريعة ونظام، ولا يغني عنه شيء. وكلنا يعلم أن برناردشو في طليعة قادة الفكر الأوروبي في القرن العشرين، عصر الذرة والفضاء وأن شهادته هذه هي نتاج البحث الطويل، والتفكير العميق، والتحليل الدقيق، وهذه الشهادة من برناردشو هي تعبير ثان أو تفسير لقوله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين**﴾[1] أي كل العالمين في كل زمان وكل مكان. وأيضاً هي تفسير لقوله سبحانه: ﴿**ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[2]. وأيضاً هي أي شهادة برناردشو دليل قاطع على صدق المسلمين في عقيدتهم «بأن محمداً هو أكمل البشر من الغابرين والحاضرين، ولا يتصور وجود مثله في الآتين».

وبعد، فما هو رأي الشباب المتنكرين لدين آبائهم وأجدادهم؟ ما رأيهم في آراء قادة الفكر الأوروبي وقول برناردشو؟ وهل هم أعلم وأحرص منهم على الإنسانية أم أن شبابنا يتكلمون بوحي من أعداء الإسلام والإنسانية من حيث لا يشعرون؟

---

١ ـ سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

٢ ـ سورة الأحزاب الآية ٤٠.

الشباب والدين

من الأشياء الهامة التي يؤاخذ الشباب عليها تهاونهم في أمر الدين حتىٰ ظن الناس بهم الظنون، وقد يراهم البعض أنهم يحقدون علىٰ الدين وأهله.

بماذا نفسر هذا التهاون وعدم المبالاة؟ أنفسره بأن الدين قديم، وكل قديم جحيم وكل جديد نعيم؟ أنفسره بأن الدين لا يتماشىٰ مع روح العصر الحديث؟ لو تلفظ جاهل بهذا القول ثم لم نزد علىٰ جوابه إلاّ أن عذره جهله لكان الجواب كافياً شافياً، ولو كان له أدنىٰ خبرة بأسرار الدين وغاياته لما نطق بكلمة الكفر.

إن القديم والحديث وضعان عارضان لا أثر لهما في قيمة الأشياء ووزنها، وإنما يقاس الشيء بفعاليته ونتائجه، وآثاره، وبمنافعه ومقدار الحاجة إليه، وضوء الشمس مثلاً قديم ولكن لا غنىٰ للحياة عنه، والماء متقدم في الوجود عن الشمس إلاّ أنه سبب الإحياء والنمو. والدين أيضاً ضرورة مادية وروحية للإنسان تنظّم حياته البشرية.

لقد نظر الدين الإسلامي إلىٰ الحياة نظرة عامة وشمولية ولم يفصل ترابط الأجزاء بين القديم والحديث. لم يزل الباحث العلمي ينحني احتراماً للإسلام.

أواصر الأمة الإسلامية

وحدة المسلمين :

تربط الأمة الإسلامية ثلاث أواصر: إله واحد، وكتاب واحد، وقبلة واحدة، يفد إليها المسلمون من أقطار الأرض كل عام، ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة، هي أرض الوطن الروحي .. وهكذا تجسدت وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة الوطن الأعلى، ليذكر المسلمون أنهم وإن تفرقت أقطارهم وتعددت مذاهبهم، واختلفت أنسابهم وألسنتهم وألوانهم تجمعهم جامعة الدين والله والوطن .. وأنه إذا جد الجد وجب أن يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل الإسلام والمصلحة المشتركة.

بعض المسلمين يكفر بعضهم بعضاً :

الأَولى أن تكون السنة والشيعة طائفة واحدة حقيقة وواقعاً، لأن كتابهم واحد، وهو القرآن، لا قرآنان، ونبيهم واحد، وهو محمد، لا محمدان، فكيف ـ إذن ـ يكفّر بعض من الفريقين اخوانهم في الدين؟ .. ولو نظرنا إلى هذه الآية: **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾**[1].

---

١ ـ [سورة البقرة، الآية ١١٣].

لقد كفّر اليهود النصارىٰ، وكفّر النصارىٰ اليهود، ﴿**وهم يتلون الكتاب**﴾ أي التوراة والإنجيل .. فكيف بالمسلم يكفّر أخاه المسلم، وهما يتلوان القرآن الواحد؟ فليتق الله الذين يلوون السنتهم بالكتاب، وقلوبهم عمياء عن معانيه ومراميه.

كل الأديان:

وقعت الخلافات وما شاكلها في كل الأديان، وتفرق أتباع كل دين شيعاً وأحزاباً، فبنوا إسرائيل اتخذوا من دون الله عجلاً له خوار، وموسىٰ حيّ، وما أن انتقل إلىٰ ربه، حتىٰ افترقوا إلىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، وافترق المسيحيون بعد نبيهم إلىٰ اثنتين وسبعين، كما جاء في الحديث، وما زالوا مختلفين لا يتزاوجون ولا يتوارثون، ولا يجتمعون للصلاة وللعبادة في معبد واحد.

ولم تقف هذه الخلافات والمنازعات علىٰ أهل الأديان، فلقد اختلف العلماء فيما بينهم، وكذلك الأدباء والفلاسفة والسياسيون، وكل الناس يختلفون في الآراء والأفكار، وينقسمون إلىٰ فئات وأحزاب، يعتنق كل حزب نظرية تباين النظرية التي يعتنقها الحزب الآخر، ثم ينقسم الحزب علىٰ نفسه، ويختلف أفراده في الشروح والتفاسير، والقيود والحدود ضمن الإطار الحزبي، والمبدأ العام الذي يؤمن به الجميع، فالاشتراكيون علىٰ ما بين جميعهم من قاسم مشترك لم يتفقوا علىٰ جميع النقاط، ويتحدوا من جميع الجهات، وكذلك الرأسماليون والفلاسفة المثاليون، والواقعيون والوجوديون ذلك أنّ الاختلاف في القضايا النظرية أمر طبيعي، بل حتىٰ المحسوسات أنكرها السفسطائيون، واخوانهم المثاليون.

بالمناسبة :

وبهذه المناسبة نشير إلىٰ سذاجة الذين يدعون إلىٰ توحيد الأقوال والآراء بين السنة والشيعة ذاهلين عن أن الاختلاف بالرأي ضرورة يفرضها واقع الإنسان بما هو إنسان، لا بما هو سني أو شيعي. إن الذين يحاولون التوحيد بهذا المعنىٰ يطلبون المحال. وكل ما يستطاع صنعه في هذا الباب هو أن نصلح ما أفسده الماضي البغيض، فنتخلص من مخلفاته وتعصباته التي جرّت علىٰ المسلمين الويلات والخصومات، وأن تكف كل طائفة عن تكفير الأخرىٰ، والكيد لها، والافتراء عليها، وأن يفهم كل سني وشيعي أن الاختلاف في بعض المسائل كعدالة الصحابة، وتقديم زيد، وتأخير عمرو لا يستدعي التكفير والخصام والانتقام.

السنة والشيعة :

من فوائد مجلة رسالة الإسلام التي تصدر عن دار التقريب بالقاهرة ما جاء في عددها الثالث من السنة الأولىٰ بقلم الكاتب الكبير أحمد أمين صاحب فجر الإسلام وضحاه، قال تحت عنوان التسامح الديني في الإسلام: «قد يكون بين المذاهب الإسلامية اختلاف في الاجتهاد أو في تطبيق المبادىء الإسلامية، ولكن لم يتعد هذا أن يكون في مسائل جزئية لا ينطبق عليها كلمة مذهب .. ثم قال: وشاع بين المسلمين أن لا يكفر أحد من أهل القبلة بارتكابه ذنباً ما دام غير مستحل له .. فلا يصح أن يكفر أحد منهم، فالنزاع الحاد والدماء المسفوكة بين السنة والشيعة نزاع سياسة لا دين .. بل نظر الإسلام إلىٰ الأديان الأخر نظر سمح

كريم فقد سمىٰ اليهود والنصارىٰ أهل الكتاب، وسماهم أهل ذمة، وهما تسميتان في منتهىٰ اللطف ... ومن الخطأ تحميل الدين جرائر السياسة».

وهذه الحقيقة التي نطق بها صاحب الضحىٰ والفجر يقولها كل من اهتدىٰ إلىٰ الصواب. ولم يتوخ الكسب والتجارة عن طريق بث روح التعصب والتفرقة بين الفرق الإسلامية.

ولا شيء أوضح في الدلالة وأصدق في الشهادة من أن كثيراً من الخصومات بين السنة والشيعة هي تجارية لا سياسية. مما حكاه فيلسوف الإسلام ومصلح المسلمين السيد جمال الدين الأفغاني في كتاب «تتمة البيان في تاريخ الأفغان» قال: «يوجد في بلاد الأفغان قبيلة تدعىٰ التركمان يعيشون من السلب والنهب، فيغيرون علىٰ بلاد إيران يأسرون الرجال والنساء ويبيعونهم باسم العبيد والإماء مستدلين بأن أسراهم من الشيعة، وكثيراً ما يأسرون أشخاصاً من السنيين ويجبرونهم بالضرب والكي علىٰ أن يعترفوا أمام الناس بالتشيع كي لا يمتنع أتقياء بخارىٰ عن شرائهم، واتفق أن بعضاً منهم أسر عالماً من أهل السنة فكبله بالسلاسل خوف الهرب، ومع ذلك كان إذا حضر وقت الصلاة أطلقه ليؤم بالجماعة وكان بعد تمام الصلاة يقيده ثانية. ولما رأىٰ العالم منه ذلك قال له أنت تعلم أني رجل سني فبأي وجه تجوز أسري وتحلل بيعي، فأجابه إنك لست بأشرف من القرآن الكريم، فكما يجوز لي هبته، كذلك يجوز لي هبتك أما البيع فحاشا».

الفرق بين الدين والمذهب

نريد من الدين ـ هنا ـ الإسلام، ومن المذهب أي من المذاهب الإسلامية السنية أو الشيعية، والفرق بين الإسلام وبين أحد مذاهبه من وجهين، أو أن كلامنا في هذا المقام يقع في وجهين من الفروق:

الأول: أن الإسلام أعمّ، لأنه يشمل جميع المذاهب، والمذهب أخص، لأنه واحد، ومن ثمرات هذا الفرق أنه إذا قال أتباع مذهب بأن الإسلام يأمر بكذا، ورأى أتباع مذهب آخر العكس فلا يحق لأحدهما أن ينكر على الثاني وينفي عن قوله الصفة الدينية الإسلامية.

لقد انفرد كل مذهب بقول لم يوافقه عليه أحد من سائر المذاهب، كقول الشيعة بأن البنت تختص بالميراث مع عدم الولد الذكر، وقول أبي حنيفة بأن الصلاة تصح بغير الفاتحة، وقول مالك بأن الحامل إذا بلغت ستة أشهر فليس لها أن تتصرف فيما زاد عن الثلث، وقول ابن حنبل بأن من تزوج امرأة وشرط لها ألاّ يتزوج عليها، يلزمه الوفاء بالشرط، وقول الشافعي بأن شرط الخيار لا يصلح في الإجارة، فكل واحد من هذه الأقوال تخالفه أربعة مذاهب مجتمعة، ومع ذلك لا يسوغ لأحد أن يدعي بأنه ليس من الإسلام، ما دامت المذاهب بكاملها تنتمي إلى كتاب الله وسنة نبيه بنسبة واحدة، وأن نفي الإسلام عن مذهب يستتبع نفيه عن الجميع، وثبوته لمذهب يستدعي ثبوته للجميع بدون أدنى تفاوت، وهذا بديهي كالقول بأن المساويين لثالث متساويان.

وكما لا يسوغ نفي الإسلام عن مذهب إسلامي؛ لا يسوغ أيضاً نسبة حكم في مذهب إسلامي إلى الإسلام بنحو الإطلاق، فلا ينبغي أن يقال: ثبت في الشريعة الإسلامية أو في الفقه الإسلامي كذا، إذا لم تتفق عليه جميع المذاهب السنية والشيعية، بل لا ينبغي أن يقال: السنة تقول كذا إذا خالف أحد مذاهبها، وإنما يقال: ثبت في المذهب الإسلامي الحنفي، أو المذهب الإسلامي الجعفري.

الثاني: أن الإسلام هو الدستور الذي بُيِّنت مواده وأحكامه في الكتاب والسنة، وهي أحكام واقعية ثابتة لا تختلف باختلاف علم المكلفين بها أو جهلهم، أما المذهب فهو عبارة عن رأي صاحبه وفكرته عن الإسلام أو بعض أحكامه، فإذا كانت فكرته انعكاساً حقيقياً عن حكم الله فهي صواب، وإلاّ فخطأ يُعذر صاحبه إذا كان قد أفرغ الوسع في البحث والتنقيب عن الدليل، وعليه يكون الفرق بينهما كالفرق بين الوجود الخارجي والوجود الذهني، بين الحقيقة الواقعية وتصورها.

ومن ثمرات هذا الفرق أن مخالفة المذهب ليست دائماً مخالفة لواقع الإسلام وحقيقته، بل لفكرة صاحب المذهب والصورة الذهنية التي تصورها عن الإسلام، لذا يعدل الفقيه عن رأيه متى تبين له الخطأ.

إن أفكار الإنسان عالماً كان أو جاهلاً تتصل اتصالاً وثيقاً بحياته وظروفه الخاصة، فحياة الأديب تنعكس في أدبه، وحياة الفقيه تنعكس في أحكامه وفتاويه، ومن هنا تعددت الأقوال والمذاهب، ومن هنا قال الإمام أبو حنيفة بجواز التكبير في الصلاة بغير العربية، لأنه فارسي الأصل، أما الإسلام فواحد لا اختلاف فيه ولا تعدد، كان قبل المذاهب، وسيبقى إلى الأبد.

ليست آراء الفقيه ظلاً حقيقياً للأحكام الشرعية الواعية، وإنما هي اجتهادات تعبر عن الحكم الواقعي في نظر المجتهد، وليس من شك أن الاجتهاد

يقبل الجدال والنقاش، وإن بلغ دليله من القوة ما بلغ. غاية الأمر أن قوة الدليل تضعف احتمال الخلاف، ولا تلغيه بالمرة، وإلاّ فيخرج عن كونه اجتهاداً، ويصبح ضرورة دينية يشترك في معرفتها العالم والجاهل.

وعلى أي حال فإن الاجتهاد حجة في حق صاحبه يجب عليه اتباعه والعمل به، أو قل كما قالت الشيعة الإمامية: إن الحكم الشرعي على قسمين: حكم واقعي، وهو الذي شرع بالتشريع الأولي في حق جميع المكلفين، ولم يقيد بعلم أو جهل، وحكم ظاهري، وهو الذي شرع في حق المجتهد عندما تقوم لديه الأمارة من ظواهر الكتاب، أو السنة الثابتة بنقل الثقات، أو إجماع العلماء، أو دليل العقل، وقد يتفق الحكم الظاهري مع الحكم الواقعي، فيكتب للمجتهد أجران، أحدهما على العمل بالواقع، والثاني على ما بذله من جهد، وأحكام المذاهب كلها ظاهرية ليست بحجة إلاّ في حق القائلين بها، حتى هؤلاء يجب عليهم أن يعدلوا عنها إذا انكشف لهم العكس.

وبالتالي فإن التعصب لمذهب هو تعصب للفرد، تعصب لصاحب المذهب بالذات لا تعصب للإسلام، ولا لمبدأ من مبادئه، وإذا كان لابدّ لنا من التعصب فلنتعصب للدين، للإسلام، لا لمذهب من مذاهبه، على أن يكون معنى تعصبنا للإسلام هو الحرص على تعاليمه، واحترام شعائره، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، نتعصب للإسلام ببث روح الألفة والتآخي بين المسلمين جميعاً.

بدعة التعصب والإجتهاد
في مورد النص

الإجتهاد:

يتلخص الإجتهاد في الفقه بأنه استخراج الفرع الشرعي من أصله، والإستدلال عليه بدليله، وأوضح مثال على ذلك ـ لمجرد التوضيح ـ «قصة عمر بن الخطاب والمرأة حين أراد أن يجعل للمهر حداً أعلىٰ، فعارضته وقالت: ليس ذلك لك يا عمر، لأن الله يقول: ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾[1] فكان قولها بدليل، وقوله بلا دليل، بل اجتهاد في مورد النص باعترافه حيث قال: أصابت المرأة، وأخطأ عمر»[2].

البدعة:

البدعة في الدين إحداث ما ليس له أصل في الشريعة، وهي بهذا المعنىٰ من

---

١ ـ سورة النساء الآية ٢٠.

٢ ـ [كنز العمال، للمتقي الهندي: ج ١٦ / ص ٥٣٨ / ٤٥٧٩٩، عن عبد الرحمن السلمي قال: قال عمر بن الخطاب: لا تغالوا في مهور النساء، فقالت امرأة منهنّ: ليس ذلك لك يا عمر إنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وآتيتم إحداهنّ قنطاراً﴾. قال: وكذلك هي قراءة ابن مسعود، فقال عمر: إن امرأة خاصمت عمر فخصمته].

كبائر المحرمات إجماعاً وعقلاً وشرعاً، قال الرسول الأعظم ﷺ: **«كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة سبيلها إلىٰ النار»**[١] .. **«إذا رأيتم أهل البدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم»** .. **«من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان علىٰ هدم دينه»**[٢].

التعصب:

التعصب من العصبية، وهي الميل إلىٰ الجانب الذي تحب، وإن كان علىٰ خطأ وضلال، والجور علىٰ الجانب الذي تكره، وإن كان علىٰ حق وصواب.

وبعد هذا التمهيد نشير فيما يأتي إلىٰ قول من اتهم الدين بالتعصب، وإلىٰ أول من ابتدع القتل والقتال بين الصحابة، ومهد السبيل لما حدث من الفتن بين المسلمين، وكان السبب الموجب لفتح باب الاجتهاد في مورد النص، والتحايل علىٰ دين الله، وما إلىٰ ذلك مما يجري به القلم.

الدين وماركس وراسل:

قال الفيلسوف الانكليزي الشهير راسل: أباح الدين التعصب والبغضاء وكرسهما (كتاب راسل يتحدث عن مشاكل العصر)، وهذا القول يشبه إلىٰ حد كبير قول ماركس: الدين أفيون الشعوب[٣].

---

١ ـ [أصول الكافي، للشيخ الكليني: ج ١ / ص ١١٠ باب البدع والرأي والمقاييس].

٢ ـ [مناقب آل أبي طالب، لابن شهرآشوب: ج ٣ / ص ٣٧٥].

٣ ـ ألقىٰ الفيلسوف «روجيه جارودي» محاضرة في القاهرة بدار الاهرام، نشرتها مجلة الطليعة المصرية بتاريخ آذار ١٩٧٠، وجاء فيها أن هذه الكلمة قالها ماركس في أول كتاب له، ⟸

وفي ظني أن راسل وماركس أرادا بكلمة الدين هنا اليهودية والمسيحية فقط دون الإسلام، لأن نصوص القرآن والسنة النبوية تنكر التعصب وتعده من كبائر السيئات، وتأمر بالاعتماد على العلم، والاحتكام إلى العقل، وتعتبر إهماله وعدم الرجوع إليه جريمة تستحق العقاب والتوبيخ .. ومعنى هذا أن أي مسلم لا ينظر بعقله وبصيرته، أو يتعصب لهواه وعشيرته فهو منابذ لدينه، والحجة قائمة عليه من كتاب الله وسنة نبيه.

اليهودية والمسيحية والتعصب:

التعصب عند اليهود دين وعقيدة، لأنهم ـ كما يزعمون ـ شعب الله المختار بنص التوراة، فهو سبحانه لهم وحدهم، ولا يعنيه من شيء في السماء والأرض سوى مشكلاتهم (أنظر سفر التثنية الاصحاح ٦ فقرة ٦). وكفى دليلاً على تعصب المسيحية ما سجله التاريخ من فجائع الكنيسة في القرون الوسطى وفي الحروب الصليبية حيث كان البابوات يفتون بقتل المسلمين بل يقودون المعارك لذبحهم.

وتسأل: لماذا نسبت عصبية من تعصب من المسلمين إلى ذاته ومعاندته لدينه، لا إلى الإسلام، ونسبت عصبية من تعصب من المسيحيين إلى المسيحية لا إلى ذات المتعصب ومعاندته لدينه، مع العلم بأن إنجيل متى يقول في الاصحاح ٥ فقرة ٤٣: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعِنِيكُمْ، أحسنوا إلى مبغضيكم» أليس هذا تحيز منك وتعصب؟

الجواب: لقد نص القرآن الكريم صراحة على حرمة التعصب ـ كما سيأتي ـ وأيضاً نص على أن الحرام ما حرم الله، والحلال ما أحل الله، وما لأحد من

⇐ وكان عمره آنذاك ٢٥ سنة، وأنه لم يرددها بعد ذلك.

خلقه أن يُشرّع من عنده، ويحكم بغير ما أنزل الله، قال سبحانه: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[١]. وقال: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾**[٢].

أما إنجيل متى الذي يقول: أحبوا أعداءكم الخ فإنه قال أيضاً لرجال الكنيسة: «كل ما تربطونه في الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلونه في الأرض يكون محلولاً في السماء ـ الاصحاح ١٨ فقرة ١٨» ومعنى هذا أن الديانة المسيحية تؤخذ من رجال الكنيسة لا من الأناجيل فقط .. وكذلك الديانة اليهودية تؤخذ من رجال البيع لا من التوراة وحدها، فقد جاء في سفر أشعيا الاصحاح ٢ فقرة ٣ «من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب» على العكس تماماً مما جاء في القرآن الكريم الذي قال لمحمدﷺ: **﴿ليس لك من الأمر شيء﴾**[٣]. **﴿قل إن الأمر كله لله﴾**[٤]. **﴿ويكون الدين كله لله﴾**[٥].

فيتو الكنيسة ضد الإنجيل :

كان المسيحيون يلعنون اليهود في كل صلواتهم، لأنهم السبب الأول لصلب السيد المسيح، كما يزعمون، وفي سنة ١٩٦٥ م حصل اليهود على وثيقة بابا روما بتبرئة اليهود من دم المسيح .. وهذه الوثيقة تعارض نصاً صريحاً في إنجيل متى الاصحاح ١٧ فقرة ٢٦، وهي «إن دم المسيح على اليهود وأولادهم» ومع ذلك

---

١ ـ [سورة المائدة، الآية ٤٤].
٢ ـ سورة النساء، الآية ٥٩.
٣ ـ سورة آل عمران الآية ١٢٨.
٤ ـ سورة آل عمران الآية ١٥٤.
٥ ـ سورة الأنفال الآية ٣٩.

وافق الكاثوليك والبروتستانت على وثيقة البابا وباركوها وتركوا لعن اليهود في صلواتهم! .. ومعنى هذا أن للكنيسة كل الحق في استعمال الفيتو ضد الانجيل، فتنسخ منه ما تشاء حين تريد.

ومن طرائف ما قرأت حول هذه التبرئة ما نشرته جريدة الأخبار المصرية تاريخ ٩ / ٧ / ١٩٧٢ م : إن محامياً يهودياً أصر على بقاء لعن اليهود، واستأنف الحكم بتبرئتهم من دم المسيح بزعم أن لعن النصارى شرف كبير لمن يلعنوه، ولكن المحكمة التي استؤنف إليها الحكم رفضت دعوى المحامي اليهودي، لأنها قضية تاريخية، وليس لها أطراف متخاصمة.

وعلى أية حال فقد اتضح مع الأيام أن الهدف من هذه التبرئة هو دعم الصهيونية وإسرائيل لكي تحقق أطماعها على حساب العرب والمسلمين .. ولا ضير إطلاقاً في اعتداء إسرائيل على المقدسات المسيحية في فلسطين ما دامت الصهيونية في طريقها لإيجاد الدولة التي نصت عليها التوراة، وحددتها من النيل إلى الفرات في سفر التكوين الاصحاح ١٥ فقرة ١٨.

كل هذا وغيره كثير يدل على أن الإنجيل الموجود الآن يجيز لرجال الكنيسة أن يتجاوزوا أي نص من نصوصه. أما القرآن الكريم فقد أعلن بوضوح بقوله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[١] .. **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾**[٢].

---

١ ـ سورة الحجر الآية ٩.

٢ ـ سورة فصلت الآية ٤٢.

الإسلام والتعصب :

سبق أن أشرنا إلىٰ أن نصوص القرآن والسنة النبوية تنهىٰ عن التعصب، وتأمر بالأحكام إلىٰ العقل، ونذكر الآن أمثلة من هذه النصوص .. قال سبحانه في الآية ١٥٢ من الأنعام: ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربىٰ**﴾ والمراد بالقول هنا ما يشمل كل قول حتىٰ الحكم بالاعدام والشهادة المؤدية إليه. وفي الآية ٨ من الممتحنة: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾ أي الذين ينصفون الناس من أنفسهم، ويثق المحق بإخلاصهم، ويخشىٰ المبطل من عدلهم.

وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «**أيها الناس ربكم واحد، وأبوكم واحد، كلكم من آدم وآدم من تراب**» وما دام مصدر الكل ومعدنهم واحد فما هو المبرر للعصبية؟ وأين الفوارق التي تفصل وتميز بين القرشي والحبشي، والعدناني والقحطاني، والآري والسامي؟. وأيضاً قال: «**من تعصب فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه**»[1]. ومعنىٰ هذا في ظاهره أن التعصب كفر وارتداد.

من البادىء بتفريق المسلمين ؟

كان الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يبذلون المهج والأرواح من أجل مصلحة الإسلام ومقدساته، ولا يشهر واحد منهم السيف علىٰ أخيه أياً كانت الأسباب

---

١ ـ [أصول الكافي، للشيخ الكليني: ج ٢ / ص ٢٩٧ كتاب الإيمان والكفر باب العصبية / ح ٢، وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من تعصب أو تُعصبَ له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه»].

حتىٰ ولو تنافسوا علىٰ الرياسة والخلافة .. أبداً لا يلقون بأسهم إلاّ علىٰ أعداء التوحيد وعصابة الشرك والإلحاد.

وأول من خرج علىٰ هذا المبدأ القرآني، وفتح باب القتل والقتال بين الصحابة أنفسهم هما طلحة والزبير في وقعة الجمل .. وقد دفع العالم الإسلامي الثمن فادحاً لهذه الوقعة الميشومة.

وإليك بعض آثارها وأسواءها:

١ ـ جرّأت معاوية أن ينازع الشرعية الإسلامية المتمثلة بخلافة الإمام علي، ويحشد الجيوش لحربه في صفين، وتمخضت هذه الحرب عن وقعة النهروان.

٢ ـ فرقت المسلمين إلىٰ شيع وطوائف: طائفة تقول: كلا الفريقين كافر، وثانية: كلاهما فاسق، وثالثة: كلاهما تأوّل فأخطأ، ورابعة: أحدهما فاسق والآخر مؤمن، وخامسة أرجأت وأمسكت عن القول.

٣ ـ فتحت وقعة الجمل الباب لبدعة الاجتهاد في مورد النص، والتحايل علىٰ حلال الله وحرامه .. قال رسول الله ﷺ: عمار تقتله الفئة الباغية[١] والزبير يقاتل علياً وهو له ظالم[٢].

وقال المبتدعون الماكرون: كلا، ما بغىٰ من قتل عماراً، ولا ظلم من قاتل علياً، بل اجتهد فأخطأ، والمجتهد المخطىء مغفور له ومأجور!

---

١ ـ [صحيح البخاري، للبخاري: ج ٣ / ص ٢٠٧ كتاب الجهاد والسير].
٢ ـ الاصابة لابن حجر.

أمثلة من التعصب المذهبي:

والآن وبعد أن عرضنا بعض الأمثلة من بدعة الاجتهاد في مورد النص - نعرض أمثلة من التعصب المذهبي. قال أحمد تيمور في كتاب المذاهب الأربعة ص ٤٩ طبعة ١٩٦٥ م : جاء في معجم ياقوت أن أهل الري كانوا ثلاثة طوائف: شيعة وحنفية وشافعية، فتضافرت الطائفتان الأخيرتان على الشيعة فأفنوهم، ثم قامت الحرب بين الشافعية والحنفية فكان الظفر لأولئك على هؤلاء، وخربت محال الشيعة والحنفية، وبقيت محلة الشافعية.

وقال الشيخ عبد العزيز عيسى في كتاب ما لا يجوز فيه الخلاف، الفصل الثامن: سئل بعض فقهاء الشافعية عن حكم الطعام الذي وقعت فيه قطرة نبيذ؟ فقال: يُرمى لكلب أو حنفي! لأن الحنفية يقولون بطهارة النبيذ، والشافعية بنجاسته.

وسئل بعض فقهاء الحنفية عن زواج حنفي بشافعية؟ فقال يجوز الزواج بها، لا على أنها مؤمنة، بل قياساً على الزواج باليهودية والنصرانية.

وأيضاً نقل الشيخ عبد العزيز عيسى في كتابه المذكور أن حنفياً وشافعياً كانا يصليان جماعة، فقرأ الشافعي الفاتحة، ولما سمعه الحنفي ضربه ضربة قوية على صدره وقع منها على ظهره حتى كاد يموت، لا لشيء إلاّ لأن الحنفية لا يتابعون الإمام في قراءة الفاتحة.

المتعة وشيخ أزهري:

وحدثني أخ صادق كريم أنه اجتمع بشيخ من كبار علماء الأزهر

ومشاهيرها، وعندما عرف أني شيعي قال بحدة كادت تخرجه عن رشده: الشيعة يجيزون زواج المتعة، والزنا خير منها وأفضل!

ولا أدري لماذا نسي هذا الشيخ أو تناسى مشكلة الإلحاد وإعراض الناس عن الدين والقيم، ومشكلة قوى الشر وأسلحتها المدمرة، ومشكلة التفرقة العنصرية والصهيونية ووجود إسرائيل على الخريطة وغيرها من المشكلات والويلات، نسي كل ذلك، وما تذكر وذكر إلاّ المتعة حتى كأنها مركز الثقل من التوتر الذي يسود العالم في شرقه وغربه! .. وأيضاً لا أدري كيف أطلق الحكم بالزنا على المتعة من غير تحفظ وتردد علماً بأن كل من أبطل المتعة من فقهاء السنة أدخلها في باب الشبهة والجهل بالتحريم؟

وإذا كان غضب الشيخ لدين الله، وحافزه الغيرة على الشريعة فكان على أن ينسجم مع دينه وضميره، وينكر ما جاء في فقه مذاهب السنة من أحكام تمجها الأسماع والأفئدة، تسيء إلى الإسلام وشريعته.

زواج المتعة والزواج الموقت:

وبهذه المناسبة نشير إلى أن جماعة من فقهاء السنة يفرقون بين زواج المتعة والزواج الموقت من أوجه ثلاثة:

الأول: أن المتعة لا تكون إلاّ بلفظ متعت، والموقت يكون بلفظ الزواج.

الثاني: أن المتعة لا تحتاج إلى شهود، وهم شرط في الموقت.

الثالث: أن تعيين الوقت شرط في المتعة وليس بشرط في الموقت بل يجوز بمجرد كلمة «وقت أو زمن أو أجل» من غير تعيين. وقال بعض فقهاء

الحنفية: في الزواج الموقت يبطل الأجل ويصح العقد. وقال جمهور السنة: لا فراق من حيث فساد العقد وبطلانه بين المتعة والموقت[١].

وقال الشيعة: المتعة كالزواج الدائم في خلو المرأة من الزواج والعدة، وفي إلحاق الولد بأمه وأبيه، ووجوب أصل العدة بعد انتهاء المدة، والعقد المشتمل على الإيجاب والقبول. والفرق أن المتعة تقع بلفظ متعت أو زوجت أو أنكحت فقط لا غير، أما الزواج الدائم فلا يقع إلاّ بزوجت أو أنكحت ولا يصح بمتعت وحدها ولابد من تعيين الأجل وتحديده في المتعة دون الزواج الدائم، وأيضاً ذكر المهر ركن فيها دونه.. وليس للمتمتع بها نفقة ولا إرث إلاّ مع الشرط، وللدائم النفقة والإرث حتى مع شرط عدمهما. والتفصيل في كتب الفقه، ومنها كتاب فقه الإمام جعفر الصادقعليه السلام.

لكل رأيه وعذره:

من المتفق عليه والمقطوع به عند السنّة والشيعة أن النبيصلى الله عليه وآله أجاز المتعة وأباحها، ثم اختلفوا في النسخ فقال السنة: ثبت عندنا برواية الثقات أن النبيصلى الله عليه وآله نسخها وحرمها بعد أن أحلها وأذن بها .. فقال لهم الشيعة: لكم رأيكم وعذركم في ذلك ما دام راوي النسخ مقبولاً ومعتمداً عندكم .. والفقيه المحقق المتثبت هو الذي يفحص ويبحث جاهداً عن النص، ويعمل به بعد أن تثبت أمانة الراوي عنده لا عند غيره.

ونحن الشيعة قد فحصنا وبحثنا جاهدين عن النسخ فلم نعثر له على عين ولا أثر في النقل الموثوق الأمين عندنا .. ومن البداهة بمكان أنه لا يجوز القول

---

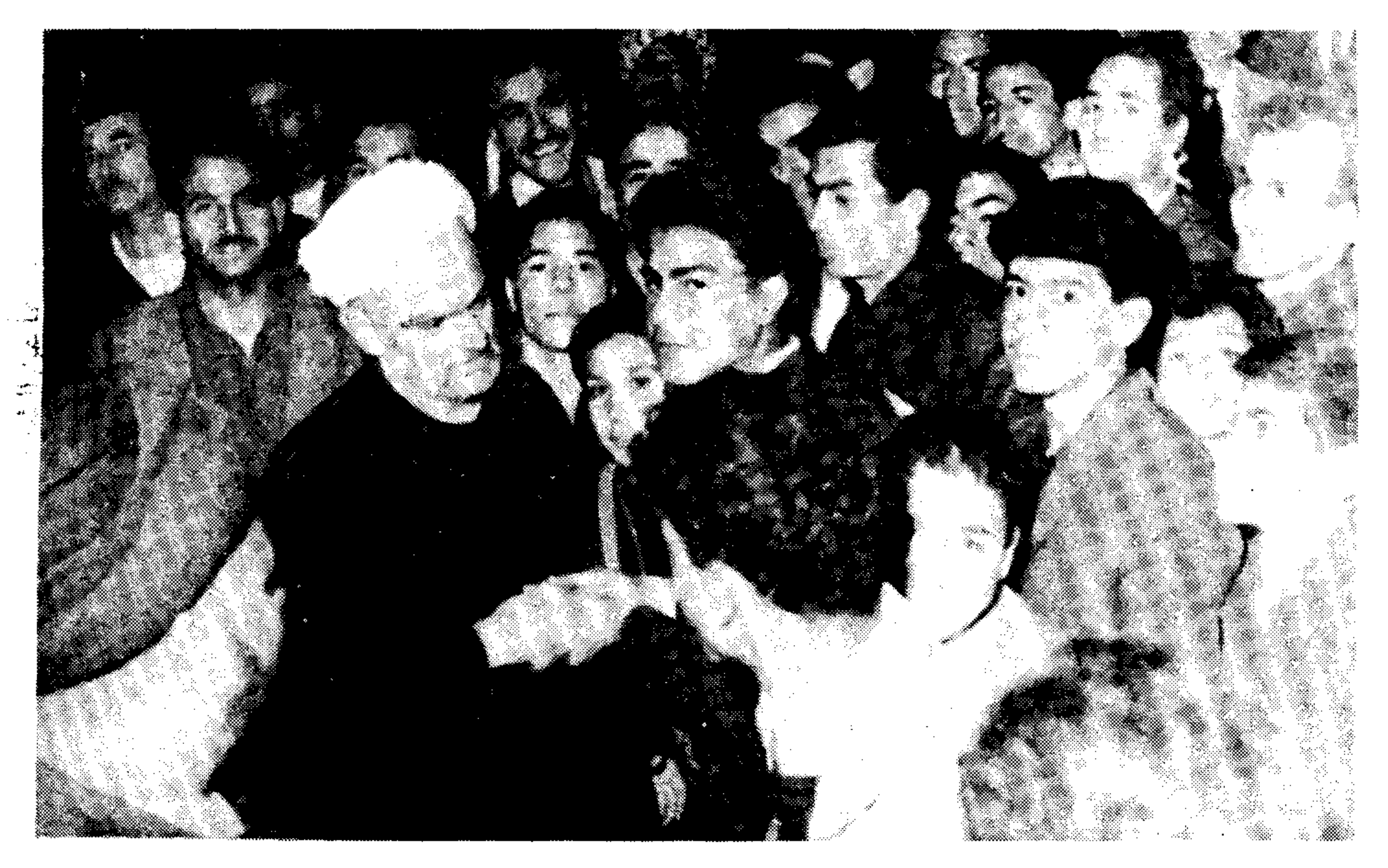
١ ـ الأحوال الشخصية لمحمد محي الدين، والأحوال الشخصية لأبي زهرة.

بنسخ الحكم الثابت عندنا قطعاً وباتّفاق المسلمين جميعاً إلاّ إذا تجلى ذلك بوضوح كامل، لأن ما ثبت باليقين لا يرتفع ويزول إلاّ بيقين مثله عند من أيقن بالثبوت لا عند غيره كما أشرنا، ولو قلنا بالنسخ، والحال هذه، لكنا ممن يحلل حرام الله من غير دليل ـ ما زال الكلام للشيعة ـ وإذن فتكليفنا الشرعي هو إبقاء ما كان على ما كان ما دام لم يثبت العكس، ولا عذر لنا عند الله إطلاقاً لو قلنا بالنسخ .. فلماذا لا يعذرنا إخواننا السنة كما عذرناهم؟ وهل يرتاب أحد أن النسخ لو لم يثبت عند السنة لقالوا بقول الشيعة، وأنه لو ثبت عند الشيعة لقالوا بقول السنة؟

وبعد، فقد كنت في غنى عن هذا النقض والجدل لولا ذاك الأزهري العجوز ومن على شاكلته الذين يُلجئون الآخرين للرد عليهم خوفاً من وباء التقليد الأعمى، وانتشار المحاكاة للجهل والتعصب الذي يبدد الشمل ويُشل العزم في وقت نحن أحوج إلى العمل يداً واحدة وقلباً واحداً لتحقيق ما نصبوا جميعاً إليه.

الفصل السادس :

دفاعاً عن الشيعة



مع الشباب الذين سيرثون الأرض وما عليها



الشيعة الإمامية الأثني عشرية

منذ أكثر من ألف عام، وعلماء الإمامية يكتبون ويذيعون عن عقيدة الاثني عشرية كيلا ينسب إليهم ما ليس لهم به علم، ويستدلون عليها بالنصوص بعد درسها وتمحيصها كيلا يكون لأحد فيها مهمز أو مغمز، ويحرصون كل الحرص أن يكون سندها محل وفاق بين المسلمين، لأن الشرط الأساسي عندهم لمدرك العقيدة أن يكون قطعي السند والدلالة على حد تعبيرهم أي العلم القاطع بصحة السند، ووضوح دلالته وضوحاً لا يقبل الشك والتأويل إذا كان المدرك نقلاً عن المعصوم ... وبرغم هذا الحرص والتشدد قال قائل: كل تشيع من أي نوع كان ويكون فهو رفض أي غلو. وقال آخر: هو زندقة. وتسامح ثالث وتساهل قائلاً: الشيعة كلهم باطنية.

ولا شيء من هذه الأقوال يقوم على أساس غير التقليد والتعصب، لأن الاثني عشرية يعتقدون بأن الغلو شرك، والزندقة إلحاد، وإخفاء العقيدة، والتأويل بلا مبرر من الشرع أو العقل بدعة وضلالة ... وأثبت ذلك بالأرقام في كتاب «الشيعة الإمامية».

ويبدأ تاريخ الاختلاف بين المسلمين حول الخلافة، يبدأ باليوم الذي انتقل فيه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى، حيث دان قوم بما حدث في السقيفة كأمر واقع لا مفر منه، أو لا يجوز الخطأ عليه، وأنكروا النص على الولاية بمعنى الخلافة والسلطة مع الاعتراف بولاية أهل البيت على معنى الحب والاحترام، ودان

آخرون بنصوص الولاية لآل الرسول ﷺ على معنى الخلافة، وأوضحت ذلك مفصلاً في كتاب «فلسفة التوحيد والولاية».

وقد اتسع الجدال والنقاش حول الخلافة على مر الزمن، ثم تطور إلى التراشق بالاتهامات وخبث الكلمات، ولعبت السلطة الحاكمة دورها في التمزيق والتفتيت، كما هو شأنها في كل جيل .. وحاول المصلحون من الفريقين أن يجمعوا ويوحدوا حرصاً على مصلحة الأمة، فخفت الوطأة إلى حد، بخاصة بعد أن تكررت النكبات والعثرات في كل بلد مسلم.

والآن، وبعد أن تراكمت الهزائم والمشكلات عربياً وإسلامياً فماذا نحن صانعون إذا لم ندفن الماضي، وننظر إلى المستقبل الطويل العسير، ونواجه بالعمل الجدي الموحَّد!؟ ... وهذا ما يخافه ويخشاه العدو المشترك .. فأطلق بلسان أبواقه وعملائه صيحات منكرة لإيقاظ الفتنة وكتبوا مقالات مضللة، ونشروا كتباً متخمة بالدس والافتراء لا بأي دافع إلا صالح الاستعمار والصهيونية .. فدعاني هذا إلى أن أعرض عقيدة الشيعة، وبخاصة الفرقة الكبرى الاثني عشرية، أعرضها على حقيقتها، وأدرسها دراسة تفصيلية في ثلاثة مؤلفات هي: «الشيعة والتشيع» و«مع الشيعة الإمامية» و «الاثنا عشرية».

ولما كثر الطلب على هذه الكتب الثلاثة جمعتها في مجلد واحد بعنوان «الشيعة في الميزان».

أطلب من القارىء، على أن ينظر إلى عقيدة التشيع من خلال الإسلام، وعلى ضوء كتاب الله وسنة نبيه، لا من خلال عقله ... لأن العقل مهما سما يظل مقصراً عن إدراك كثير من الحقائق الإلهية، ككيفية الصلاة، وعدد الركعات، والهرولة في الحج، ورمي الجمار، وما إلى ذاك.

وتقول: أراك تهتم كثيراً بأمر الشيعة والتشيع، فهل فرغنا من مشاكل الحياة، ولم يبق إلاّ التعريف بهذه الطائفة وصحة ما تدين به وتعتقد؟ .. أو أن هذا أهم وأجدىٰ؟

أجل، إن المشاكل التي نعانيها لا تتصل في واقعها بقضية التشيع والتسنن من قريب أو بعيد، بل إن حديث هذه القضية والاهتمام بها يزيد المشاكل تعقيداً، ويجعلها مستحيلة أو عسيرة الحل، وهذا ما يريده لنا المستعمرون والصهاينة، أعداء الدين والوطن، إنهم يريدون أن نتلهىٰ بالمشاحنات والنعرات الطائفية، ليعزلونا عن الحياة، ويخلو لهم الجو ... ويظهر أن لهم جهازاً ضخماً ... يعرف مداه من قرأ كتاب «الخلافة» للنبهاني، وكتاب «أبو سفيان» للحفناوي، وكتاب «الخطوط العريضة» لمحب الدين الخطيب، ومجلة «التمدن الإسلامي» التي تصدر بدمشق، والنشرات المتتابعة التي يصدرها «أنصار السنة» بالقاهرة، ومقال الجبهان في مجلة «راية الإسلام» السعودية عدد ربيع الآخر سنة ١٣٨٠ هـ، وغيرها وغيرها ...

لقد دأب هذا الجهاز ـ في تآليفه ونشراته ـ علىٰ مهاجمة الشيعة، وتصويرهم كطائفة ملحدة مجرمة تكيد للإسلام والمسلمين ... والغرض الأول هو تنفيذ «الخطوط العريضة» التي رسمتها أميركا وإسرائيل لإيقاظ الفتنة، وإشاعة الفرقة بين المسلمين ...

فرأيت من واجبي أن أنبه الأفكار إلىٰ مقاصد هذا الجهاز الفاسد وأهدافه، وأقطع الطريق عليه بالكشف عن عقيدة الشيعة، مع الإشارة إلىٰ شيء من تاريخهم، ليتبين للناس المزاعم الكاذبة الي لفقها أولئك المأجورون.

وبديهة أن الشيعة ليسوا من القبائل البائدة التي خيم الظلام عليها وعلىٰ آثارها، حتىٰ يُتقول عليهم بالحدس والتخمين .. فهذه بلادهم منتشرة في شرق

الأرض وغربها، ومؤلفاتهم العقائدية وغيرها تغص بها المكتبات العامة والخاصة، أما علماؤهم فلا يبلغهم الاحصاء، وهم يرحبون بكل من يريد جدالهم ونقاشهم بالحكمة والمنطق ... إذن يستطيع طالب الحقيقة أن يعرف عقيدة الشيعة من كتبهم وعلمائهم دون الرجوع إلى كتبي ... ومع ذلك فقد عرضت عقائدهم بأسلوبي الواضح الذي يقتصر على الجوهر واللباب، ولا يتكلف الزخرف والتزويق. كي لا يبقى عذر لمعتذر بعدم التفهم للعبارات المطولة المعقدة.

هذا، إلى أن من يقرأ هذه الصفحات بتأمل وإمعان يتبين له أنها تهدف أول ما تهدف إلى الأخذ والعمل بمبادىء الإسلام وتعاليمه، وإذا اهتمت بالتشيع فإنما تهتم به لأنه من الإسلام في الصميم بنص القرآن الكريم، والسنة النبوية، بل هو ركن من أركانه برواية الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري. وبالتالي، فإني من الذين يؤمنون أن المستقبل للحب والاخاء الإنساني، وأن روح التعصب آخذة بالزوال يوماً بعد يوم، حتى لا يبقى لها عين ولا أثر ـ إن شاء الله ـ وعندها لايجد الانتهازيون وتجار الطائفية مجالاً للدس والتخريب.

والله سبحانه المسؤول أن يستعملنا في مرضاته إنه أرحم الراحمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

التشيّع:

هل التشيع فكرة ابتدعها الشيعة من أنفسهم، ثم طبعوها بطابع الدين، وصبغوها بالإسلام تمويهاً ورياءً لغايات سياسية. لا تمت إلى الإسلام بسبب قريب أو بعيد، أو أن التشيع عقيدة إسلامية، جاءت من عند الله، وبلغها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، تماماً كوجوب الصوم والصلاة، والحج والزكاة؟

وبكلمة هل الإسلام أصل للتشيع، أو أن أصل التشيع أجنبي عن الإسلام؟ وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل نمهد بما يلي:

أسباب المعرفة:

مهما اختلف المفكرون في أسباب المعرفة، وأنها التجربة أو العقل أو الحدس فإنهم متفقون كلمة واحدة على أن السبب الوحيد لمعرفة آراء الغير ومعتقداته هي أقواله وتصريحاته ... فإذا أردنا أن نعرف ما تدين وتعتقد به طائفة من الطوائف الدينية، ونتحدث عن عقيدتها فعلينا أن نسند الحديث إلى أقوالها بالذات، إلى كتب العقائد المعتبرة عندها، ولا يسوغ بحال الاعتماد على قول كاتب أو مؤلف بعيد عنها ديناً وعقيدة، لأن هذا البعيد قد يكون جاهلاً متطفلاً، فيحرّف الواقع عن غير قصد، أو حاقداً متحاملاً، فيفتري بقصد التنكيل والتشهير، أو خائناً مستأجراً فيكذب ويدس بقصد التفرقة وإيقاظ الفتنة ... بل لا يجوز الاعتماد على أقوال راوٍ أو كاتب من أبناء الطائفة نفسها إذا لم تجتمع كلمتها على الثقة بمعرفته وعلمه، فإن الكثيرين ممن كتبوا عن طائفتهم وعقائدها قد تجافوا عن الواقع، وخبطوا خبط عشواء، ورفض الكبار من علماء الطائفة أقوالهم، وصرّحوا بضعفها وعدم الاعتماد عليها.

وكذا لا يصح الاعتماد على العادات والتقاليد المتبعة عند العوام، لأن الكثير منها لا يقرّه الدين الذي ينتمون إليه، حتى ولو أيدها وساندها شيوخ يتسمون بسمة الدين، وأوضح مثال على ذلك ما يفعله بعض عوام الشيعة في بعض مدن العراق، وإيران وفي بلدة النبطية في جنوب لبنان من لبس الأكفان، وضرب الرؤوس والجباه بالسيوف في اليوم العاشر من محرم، فإن هذه البدعة المشينة حدثت في عصر متأخر عن عصر الأئمة، وعصر كبار العلماء من الشيعة، وقد

أحدثها لأنفسهم أهل الجهالة دون أن يأذن بها إمام أو عالم كبير، وأيدها شيوخ السوء، لغاية الربح والتجارة... وسكت عنها من سكت خوف الإهانة والضرر أو فوات المنفعة والمصلحة، ولم يجرأ على مجابهتها ومحاربتها أحد في أيامنا إلاّ قليل من العلماء، وفي طليعتهم المرحوم السيد محسن الأمين العاملي الذي ألف رسالة خاصة في تحريمها وبدعتها، وأسمى الرسالة «التنزيه لأعمال الشبيه»، وقاومه من أجلها أهل الخداع والأطماع.

كتب العقائد عند الشيعة:

وكتب العقائد عن الشيعة كثيرة، ومطبوعة تتداولها الأيدي، وتعرض للبيع في مكتبات العراق، وإيران، نذكر منها على سبيل المثال: أوائل المقالات، والنكت الاعتقادية للشيخ المفيد، والشافي للشريف المرتضى، والعقائد للشيخ الصدوق، وشرح التجريد، وكشف الفوائد للعلامة الحلي، والجزء الأول من أعيان الشيعة ونقض الوشيعة للسيد محسن الأمين، وأصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والفصول المهمة والمراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين، ودلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر.

وبالتالي، نكرر ـ هنا ـ ما قلناه أكثر من مرة في ردودنا ومؤلفاتنا، وما أعلنه المعتمد عليهم من علمائنا، أن الشيعة لا يقرون ولا يعترفون بشيء مما قيل عن عقيدتهم، إذا لم تتفق مع ما جاء في الكتب المعتبرة عندهم، سواء أكان القائل مستشرقاً أو عربياً، سنياً أو شيعياً، متقدماً أو متأخراً.

معنىٰ التشيع :

لم يكن للعرب وحدة سياسية قبل الإسلام، فكل قبيلة تحكم نفسها، وكل مدينة لا تعرف لغيرها سلطاناً عليها، وبعد الإسلام أوجد النبي سلطة عامة خضع لها جميع العرب، ومارس هو السلطة بكافة معانيها: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، فكان يبين الأحكام والحلال والحرام، ويقود الجيش، ويخابر الملوك، ويعقد المعاهدات، ويقضي بين الناس، ويقيم الحدود، وقد ربط القرآن الكريم هذه السلطات بشخص الرسول، ففي الآية ٦ من سورة الأحزاب: ﴿**النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ وفي الآية ٣٦ من السورة نفسها: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾، وفي الآية ٧ من سورة الحشر: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ وغيرها كثير.

واتفق المسلمون بكلمة واحدة علىٰ أن السلطة الزمنية والدينية التي كانت للرسول تعطىٰ لخليفته، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل يعين الخليفة بالنص عليه من النبي، أو يترك الأمر فيه إلىٰ اختيار الأمة؟

قال الشيعة: إن الخليفة يتعين بالنص لا بالانتخاب، أي أن الله سبحانه يأمر النبي أن يبلغ المسلمين بأنه قد اختار (فلاناً) خليفة بعده، وأن عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا، وقد صدر هذا النص بالفعل من النبي علىٰ علي بن أبي طالب.

هذا هو التشيع، وهكذا ابتدأ ونشأ دون أن يُضاف إليه أي شيء آخر... أما المغالاة في علي وصفاته أو تكفير خصومه السياسيين وما إلىٰ ذاك فلا يمت إلىٰ التشيع بسبب ... والذي يدلنا علىٰ أنه لفظ علم علىٰ من يؤمن بأن علياً هو الخليفة

بنص النبي ما قاله فقهاء الإمامية في كتب التشريع من أنه إذا أوصىٰ رجل بمال للشيعة، أو وقف عقاراً عليهم يعطىٰ لمن قدم علياً في الإمامة علىٰ غيره بعد النبي، ولا يعطىٰ للمغالين (كتاب المسالك للشهيد الثاني ج ١ باب الوقف)[١].

وبالتالي: إن التشيع في حقيقته وجوهره يتلخص بهذه الكلمة، وهي الإيمان بأن الإمام المنصوص عليه يتولىٰ الحكم، ويحكم بإرادة الله لا بإرادة الناس، وقد أنكر السنة عليهم ذلك، وبالغوا في الإنكار، حتىٰ قال بعض المؤلفين: إن هذه العقيدة نزعة فارسية استقاها الشيعة من الفرس ... .

ونجيب بأنها إسلامية بحت، لا شائبة فيها لغير الإسلام، وقد أُخذت من كتاب الله وسنة نبيه، كما يظهر من الأدلة الآتية، وإذا أخذ الشيعة هذه النزعة من الفرس، فمن أين أخذ عثمان بن عفان قوله ـ حين طلب إليه أن يتخلىٰ عن الخلافة ـ «ما كنت لأخلع قميصاً قمصنيه الله». وقال أيضاً: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحب من أن أنزع سربالاً سربلنيه الله».

يجوز أن تكون الخلافة قميصاً بل سربالاً من الله لعثمان، ولا يجوز أن تكون حقاً إلهياً لعلي. ثم أي فرق بين قول عثمان هذا، وقول الشيعة بأن الخلافة منصب إلهي أمرها بيد الله لا بيد الناس؟ ... ولماذا كان قول الشيعة نزعة أجنبية، وقول عثمان نزعة إسلامية؟...

---

١ ـ [مسالك الأفهام، للشهيد الثاني: ج ٥ / ص ٣٤٠ كتاب الوقوف والصدقات].

من أدلة الشيعة :

استدل الشيعة إلىٰ أن الخلافة تكون بالنص لا بالانتخاب بأدلة:

منها: أن الخليفة يحكم باسم الله لا باسم الشعب، فيجب والحال هذه، أن يُختار من الله بلسان نبيه، لا من الشعب بطريق الانتخاب.

ومنها: قوله تعالىٰ في الآية ٦٨ من سورة القصص: ﴿**وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة**﴾. فالله سبحانه حصر الاختيار به، ونفاه عن جميع الناس (دلائل الصدق ج ٣ ص ٢١ طبعة ١٩٥٣ م).

ومنها: أن الأكثرية غير معصومة عن الخطأ، فمن الجائز أن تختار رجلاً لا تتوافر فيه صفات الإمام من العلم والخلق، فتعم الفوضىٰ والفساد وقد نص القرآن علىٰ سقوط رأي الأكثرية في الآية ١١٦ من سورة الأنعام: ﴿**وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله**﴾. وفي الآية ١٠٣ من سورة المائدة: ﴿**وأكثرهم لا يعقلون**﴾. وفي الآية ٧٠ من سورة المؤمنون: ﴿**وأكثرهم للحق كارهون**﴾. وغيرها من الآيات (كتاب فدك للصدر ص ١١٣ طبعة ١٩٥٥ م . وج ٤ من كتاب الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ص ١٠٩ طبعة سنة ١٣٧٦ هـ) .

وجاء في الحديث النبوي أن محمداً صلى الله عليه وآله يرىٰ يوم القيامة أكثر أمته تدخل النار، وحين يسأل عن السبب يقال له: إنهم ارتدوا بعدك علىٰ أدبارهم القهقرىٰ (كتاب الجمع بين الصحيحين الحديث ٢٦٧).

وأهل السنة الذين قالوا: إن الخليفة يكون بالانتخاب لا بالنص يعترفون بأن الأكثرية قد تخطىء، وتختار غير الكفوء، لكن بعضهم قال: إذا انحرف الخليفة، عزلناه، وأتينا بالأصلح ... وأعلن أبو بكر من علىٰ المنبر قائلاً: «إذا استقمت

فأعينوني، وإذا زغت قوّموني».

وأجاب الشيعة عن ذلك بأن وظيفة الإمام أن يقوّم المعوج من رعيته، فإذا قومته الرعية انعكست الآية، وأصبح محكوماً، والرعية هي الحاكمة، قال الشاعر الشيعي[1]:

وقالوا رسول الله ما اختار بعده
إماماً ولكنا لأنفسنا اخترنا

أقمنا إماماً إن أقام على الهدى
أطعنا وإن ضل الهداية قوّمنا

فقلنا إذن أنتم إمام إمامكم
بحمدٍ من الرحمن تهتم وما تهنا

ولكننا اخترنا الذي اختار ربنا
لنا يوم خم ما اعتدينا ولا حلنا

يسخر الشاعر من قولهم: إنهم يطيعون الإمام إن استقام، ويقوّمونه إن اعوج، ويرد عليهم بأنهم أصبحوا هم الإمام، وهو المأموم.

١ ـ [في كتاب الكنى والألقاب، للشيخ عباس القمي: ج ٢ / ص ٤٥٥: هو سفيان بن مصعب العبدي الشاعر الكوفي، روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يا معشر الشيعة علموا أولادكم شعر العبدي فإنّه على دين الله.
علماً أنّ هذه القصيدة ذكرها بن شهرآشوب في كتابه مناقب آل أبي طالب: ج ١ / ص ٢٢٢].

أصل التشيع:

من الذي جاء بالتشيع، وحمل الناس عليه؟ وهل يرجع إلىٰ أصل من أصول الإسلام، ومصدر من مصادره كآية من كتاب الله، أو رواية من السنة النبوية؟

وقد أجاب الشيعة عن ذلك إجابة حاسمة وواضحة، وأثبتوا بالأرقام من أقوال أهل السنة، وكتبهم الصحاح أن النبي هو الذي بعث عقيدة التشيع، وأوجدها، ودعا إلىٰ حب علي وولائه، وأول من أطلق لفظ الشيعة علىٰ أتباعه ومريديه، ولولاه لم يكن للشيعة والتشيع عين ولا أثر.

قال العلامة الحلي في كتاب «نهج الحق»: ذكر الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، والثعالبي في تفسيره أنه لما نزلت الآية ٢١٤ من سورة الشعراء: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ جمع النبي من أهل بيته ثلاثين، فأكلوا، وشربوا، ثم قال لهم: من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون خليفتي، ومعي في الجنة؟ قال علي: أنا فقال له: أنت.

ونقل الشيخ محمد حسن المظفر في كتاب دلائل الصدق ج ٢ ص ٢٣٣ عن كتاب كنز العمال ج ٦ ص ٣٩٧ أن النبي قال لعشيرته: قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني علىٰ أمري هذا؟ قال علي: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ النبي برقبته، وقال: إن هذا أخي، ووصيي، وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لولدك علي.

وبهذه المناسبة ننقل ما ذكره الأديب المصري عبد الرحمن الشرقاوي في كتاب «محمد رسول الحرية» قال في ص ٨٠ الطبعة الأولىٰ:

«ورأىٰ محمد أن يجمع أسرته من بني عبد المطلب، ويدعوهم إلىٰ الإيمان بما جاء به، فليس أحب إليه من عشيرته، وأولم لهم في بيته، وبدأ يتكلم وبدأوا كلهم يسمعون لمحمد، وهو يحدثهم عما جاء به، ولكن أحداً لم يستجب إليه إلاّ علي بن أبي طالب، هو وحده الذي انتفض يؤكد أنه سينصر محمداً بسيفه. وضحك من الاستخفاف بعض الكبار، فقد كان علي هذا أصغر الحاضرين، كان إذ ذاك مايزال فتىً صغير السن، تتقدم به سنه إلىٰ أول الشباب، ولكن محمداً لم يستخف بحماسة علي، فقد قام إليه، فعانقه وبكىٰ».

وقال الأميني في الجزء الأول من كتاب «الغدير» ص ٩ طبعة ١٣٧٢ هـ: بعد أن رجع النبي من حجة الوداع، وهي الحجة التي لم يلبث بعدها إلاّ قليلاً، ووصل إلىٰ غدير خم جمع الناس، وخطبهم وقال فيما قال:

إن الله مولاي، وأنا مولىٰ المؤمنين، وأنا أولىٰ بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه يقولها ثلاث مرات، ثم قال: «**اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**»[1].

ثم ذكر الأميني من رواة هذا الحديث ١٢٠ صحابياً، و ٨٤ تابعياً، أما طبقات رواته من أئمة الحديث وأساتذته فقد بلغوا ٣٦٠ وبلغ المؤلفون في حديث الغدير من السنة والشيعة ٢٦ مؤلفاً.

وقد اعتبر الشيعة حديث الغدير هذا نصاً بخلافة علي بعد النبي، ومن هنا اهتموا به هذا الاهتمام البالغ، وأهل السنة يعترفون بصحة هذا الحديث، ويقولون بصدوره عن النبي، ولكنهم أوّلوا الولاء بالحب والإخلاص، لا بالحكم والسلطان،

---

١ ـ [الغدير، للعلامة عبد الحسين الأميني: ج ١ / ص ١١ واقعة الغدير].

فحديث «من كنت مولاه فعلي مولاه» أشبه عندهم بحديث «يا علي لا يحبك إلاّ مؤمن، ولا يبغضك إلاّ منافق»[1] وغيره من الأحاديث الدالة على مكانة أهل البيت وعلو شأنهم، والحب وعلو الشأن شيء، والنص على الخلافة شيء آخر.

وأجاب الشيعة عن ذلك بأن قول النبي أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه يدل بصراحة ووضوح على أن نفس ولاية النبي الدينية والدنيوية هي بعينها قد جعلها النبي لعلي بعده، إذ جعل علياً نظير نفسه في أنه أولى بهم من أنفسهم، ولا شيء سوى ذلك، ولو كان للفظ المولى ألف معنى ومعنى.

لفظ الشيعة :

وكما أثبت الشيعة من كتب السنة أن النبي هو الذي بعث عقيدة التشيع ودعا إليها أثبتوا أيضاً من طرق السنة أن النبي أول من أطلق لفظ الشيعة على من أحب علياً وتابعه، قال الشيخ محمد حسين المظفر في كتاب «تاريخ الشيعة» ص ٥ طبع النجف:

جاء في كتاب الصواعق المحرقة لابن حجر وفي كتاب النهاية لابن الأثير أن النبي قال: «**يا علي إنك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين**»[2].

---

١ ـ [عوالي اللئالي العزيزية، لابن أبي جمهور الاحسائي: ج ٢ / ص ١٠٢ / ٢٧٩].

٢ ـ [أنظر ينابيع المودة لذوي القربى، للقندوزي: ج ٢ / ص ٤٤٥ / ٢٢٦، ما موجود فيه: وأخرج الطبراني: إنّ علياً أتي يوم البصرة بذهب وفضة فقال: يا بيضاء ويا صفراء غري غيري، غري أهل الشام [غدا] إذا ظهروا [عليك] فشق قوله ذلك على الناس [فذكر ذلك له، فأذن في الناس، فدخلوا عليه] فسألوه عن ذلك فقال علي: إنّ خليلي (ص) قال: يا علي إنّك ستقدم وشيعتك راضين مرضيين ويقدم على الله أعداؤك غضابا مقمحين، ثم جمع علي يده ⟸

وجاء في الدر المنثور للسيوطي أن النبي قال: إن هذا ـ وأشار إلىٰ علي ـ وشيعته لهم فائزون يوم القيامة».

ثم قال صاحب «تاريخ الشيعة»: فكانت الدعوة إلىٰ التشيع لعلي من محمد تمشي منه جنباً لجنب مع الدعوة إلىٰ شهادة لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

وبهذا يتبين معنا أن المصدر الأول والأخير للشيعة والتشيع هو النبي دون سواه، فإن كان التشيع هو السبب لتمزيق المسلمين وتفريق كلمتهم كما زعم بعض السنة فالمسؤول عن ذلك هو النبي وحده دون سواه.

⇐ إلىٰ عنقه يريهم الاقماح.
وانظر الصواعق المحرقة: ص ١٥٤ الباب الحادي عشر، الفصل الأول للطبراني ؛ ومجمع الزوائد: ج ٩ / ص ١٣١ ؛ وكنز العمال: ج ١٥ / ص ١٣٧ / ٣٩٨ باب فضائل علي عليه السلام ط ٢].

التشيّع في ثلاث مراحل

نستطيع أن نقسم الدعوة إلى التشيع باعتبار الأدلة التي كان يعتمدها الدعاة إلى ثلاثة أدوار: ويبدأ الدور الأول بوفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وينتهي بانتهاء العصر الأموي، ويبدأ الثاني بعهد الإمام الصادق، أي بأول العهد العباسي، ويمتد إلى عصر الشيخ المفيد المتوفي سنة ٤١٣ هـ، وينتهي هذا الدور بالعلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) الذي وضع أجوبة الشبهات ونقضها بشتى أنواعها في وضعها النهائي، ولم يدع فيها زيادة لمن جاء بعده، ونذكر من كل دور أفراداً ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ كان لهم الأثر البالغ في بث التشيع ونشره.

الدور الأول:

إن انتشار الإسلام وامتداده إلى شرق الأرض وغربها لا يستند إلى الفتوحات الإسلامية، وقوة المسلمين فحسب وإنما يستند أولاً وقبل كل شيء إلى مبادئه الإنسانية، وشريعته السهلة السمحة، ولولاها لم يكتب له النجاح والبقاء، حتى اليوم، وإلى آخر يوم، وكذلك مبدأ التشيع فإنه مدين في نجاحه واستمراره إلى كتاب الله وسنة الرسول، لا إلى هيئة من الهيئات، أو فرد من الأفراد، فمن دعا إليه تسلح بكتاب الله وسنة نبيه، ومن اعتنقه اعتنقه طاعة لله ورسوله.

ومن هنا اعتمد دعاة التشيع أول ما اعتمدوا على ماجاء في كتاب الله

سبحانه بحق علي خاصة، كقوله تعالىٰ: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾[١].

وغيرها من الآيات التي ذكرناها في كتابي «علي والقرآن» واعتمدوا علىٰ ما نزل في أهل البيت عامة، كآية التطهير، وآية المودة، وآية المباهلة، وعلىٰ الأحاديث النبوية، كحديث الغدير، وحديث المنزلة، وحديث مدينة العلم، وحديث المؤاخاة، وما إليه، وإذا تعدوا الآيات والأحاديث فإلىٰ فضائل الإمام، كزهده، وعلمه، وشجاعته، وسبقه إلىٰ الإسلام، وجهاده، وتصلبه في جانب الله.

وكانت مظاهر التشيع في هذا الدور غاية في الوضوح، غاية في البساطة، فلا عيد غدير، ولا شهادة أن علياً ولي الله في الأذان، لا شيء سوىٰ الإيمان بأن الخلافة بعد الرسول حق إلهي لعلي بن أبي طالب، وكان أول من أعلن هذا الحق ودعا إليه السيدة فاطمة أم الحسنين أعلنته في خطبتها الأولىٰ بالمسجد الجامع، وفي خطبتها الثانية ببيتها علىٰ نساء المهاجرين والأنصار، وقد أبنّا ذلك في كتاب مع «بطلة كربلاء» وقلنا: إن الغاية الأولىٰ من كلتا الخطبتين أن تعلن للأجيال حق بعلها في خلافة أبيها، وأن المطالبة بفدك كانت وسيلة لهذه الغاية.

أجل، منذ اليوم الأول لفاجعة كربلاء، والشيعة يتوافدون إلىٰ زيارة قبر الحسين، ويقيمون المآتم الحسينية، وإن لم تكن علىٰ الشكل الذي عليه الآن، وأول من زار الضريح المقدس الصحابي المعروف جابر بن عبد الله الأنصاري، مع جماعة من الشيعة، وأول من رثاه أبو باهل الجمحي، قال كرد علي في الجزء السادس، من كتاب «خطط الشام» ص ٢٥٦ طبعة ١٩٢٨ م :

«تجتمع الشيعة في أيام عاشوراء، فتقيم المآتم علىٰ الحسين بن علي شهيد

---

١ ـ سورة المائدة الآية ٥٥.

كربلاء عليه السلام، وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة، وأول من رثاه أبو باهل الجمحي بقصيدة يقول فيها:

تبيت النشاوىٰ من أمية نوماً ... وبالطف قتلىٰ ما ينام حميمها

والظاهر من سيرة ديك الجن الحمصي في كتاب «الأغاني» أن هذه الاجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه، ثم أن بني بويه أيام دولتهم عنوا بها مزيد العناية، ولا تزال إلىٰ اليوم تقام في جميع أقطار الشيعة، وليست هي من الفروض، كما يتوهم، بل يستحبونها، لأنها تصدر عن ولاء ومحبة. وقد تطرف بعض العجم، فأبدعوا فيها بدعاً يمقتها الله والناس، من ضرب أنفسهم بالمدىٰ، وإسالة الدماء علىٰ أثوابهم، وعمل ما يسمونه الشبيه، وقد مقته العلماء من الشيعة، ولم تذعن لهم به العامة في كثير من البلدان التي استحكمت فيها هذه العادة.

ومن الدعاة الأول للتشيع جميع بني هاشم، وعلىٰ رأسهم العباس عم الرسول، وكثير من الأصحاب، وقد ذكرنا أسماءهم فيما سبق، وكان أشهرهم وأكثرهم حماساً أربعة: سلمان، وأبو ذر، وعمار، والمقداد، فقد أولوا الدعاء لعلي اهتماماً بالغاً، وعناية خاصة، ونظروا إلىٰ خلافته كركن من أركان الإسلام، وشرط لقوة المسلمين واجتماع شملهم، وتوحيد كلمتهم، ولم يشكوا لحظة في أن انصرافها عن علي إلىٰ غيره مخالفة صريحة لنصوص الكتاب والسنة، ومعصية لله ورسوله.

الدور الثاني:

يبدأ الدور الثاني بعصر الإمام جعفر الصادق، ونعني به آخر الدولة الأموية، حيث دبَّ فيها الضعف، وأول دولة العباسيين، حيث تنفس الشيعة الصعداء، بعد الأيام السود التي عاشوها مع الأمويين، وأصبحوا علىٰ شيء من الحرية والأمن علىٰ أرواحهم وأموالهم، وأتيح لأئمة أهل البيت أن ينشروا تعاليمهم في هذه الفرصة والفرجة. فرواها الألوف، وتقبلها الملايين إلىٰ أن قام المنصور، فوضع في طريقها العراقيل، وعاد الأمر أشد وأسوأ مما كان في عهد الأمويين إبان قوتهم وعظمتهم.

ازدحم الرواة والعلماء ـ في هذه الفترة ـ حول الإمام الصادق، وقصده الناس من كل قطر ينهلون من معينه، ويأخذون عنه شتىٰ العلوم والمعارف، قال السيد محسن الأمين في ترجمته «أعيان الشيعة» ج ٤:

«ولد الإمام الصادق سنة ٨٠ هـ، وتوفي سنة ١٤٨ هـ، فمدة حياته ٦٨ سنة، أدرك فيها هشام بن عبد الملك إلىٰ آخر دولة بني أمية، وأدرك من دولة بني العباس السفاح وعشر سنين من ملك المنصور.

ومن مميزات هذا العصر انتشار العلوم الإسلامية فيه من التفسير والفقه والحديث وعلم الكلام والجدل والأنساب، والشعر والأدب والكتابة والتاريخ والنجوم وغيرها.

وكان الإمام الصادق أشهر أهل زمانه علماً وفضلاً، قال مالك بن أنس إمام المذهب المالكي:

«ما رأت عين ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد علماً وعبادة وورعاً، وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، جم الفوائد»[١].

وكان من نتيجة هذه الفترة، ومرافقتها لتلك الحركات الفكرية أن عرف المذهب صافياً على حقيقته في العقائد والتفسير، والأخلاق والفقه وأصوله، وأخذ التشيع معناه ومجراه في إطاره العلمي أصولاً وفروعاً. وقد كان المذهب في أشد الحاجة إلى هذا المتنفّس والمنطلق الذي صادف وجود الإمام، إذ لو أمكنت الفرصة ولم يوجد الإمام، أو وجد ولم تكن الفرصة ممكنة، أو تحقق الأمران ولم تكن تلك الحركات الفكرية لم يكن لنا هذا التراث الضخم في شتى العلوم الإسلامية خصوصاً الفقه، بل لم يكن هذا التقارب بين الشيعة والسنة في أصول الدين ومبادىء التشريع، فالفضل في استقلال المذهب وتركيزه، كما هو الآن يعود للإمام الصادق بعد أن أسعفته الظروف، ومهدت له السبيل، ومن هنا أطلق على الشيعة لفظ الجعفريين، وعلى فقههم الفقه الجعفري.

وبالتالي: فإن مذهب أهل البيت تبلور واتخذ صورته واضحة جلية، وثبتت أركانه ودعائمه في عهد الإمام الصادق، وأصبح للشيعة فقههم المستقل.

الدور الثالث :

أما الدور الثالث فهو دور الدفاع ورد العاديات، ويبتدىء بالشيخ المفيد وتلميذه الشريف المرتضى، وينتهي بالحلي، وليس من شك أن الأئمة الأطهار

---

١ ـ [أنظر فضائل الأشهر الثلاثة للشيخ الصدوق: ص ٣٨ / ١٦، وانظر مناقب ابن شهرآشوب: ج ٣ / ص ٣٩٦، وانظر الخلاف، للشيخ الطوسي: ج ١ / ص ٣٣].

وأصحابهم كهشام بن الحكم وغيره قد ذبوا ودافعوا ولكن قصدهم الأول كان إلىٰ تحديد المذهب، وإظهاره علىٰ حقيقته، وتمييزه عن غيره، ودعمه بالحجج والبراهين.

ويجب أن نكون علىٰ علم اليقين بأن هذا التقسيم لا يمس التشيع في حقيقته وجوهره، لأنه هو هو في جميع المراحل والأدوار لا تبديل فيه ولا تعديل، وإنما هو ـ أي التقسيم ـ باعتبار خصائص العصر الذي مر به التشيع، وعناية الدعاة والرواد بهذه الخصائص، تماماً كما هو الشأن بالقياس إلىٰ موقف علماء الفرق الإسلامية من التيارات الأجنبية، والعلوم الدخيلة حينذاك.

فرق الشيعة

مرحلتان:

ونستخلص مما تقدم أن العقيدة أو النظرية تمر ـ غالباً ـ في مرحلتين:

الأولى: مرحلة تسليم الجميع بها دون خلاف ونزاع.

والثانية: مرحلة الخلافات وتعدد الفرق ضمن الإطار المبدئي. وقد مر التشيع بالمرحلتين.

ابتدأت الأولى في عهد الرسول، واستمرت طوال عهد الخلفاء الثلاثة، وابتداء الثانية باستشهاد الحسين عليه السلام، كما ستعلم، والقاسم المشترك الذي يشمل المرحلتين كلتيهما، ويدخل فيه جميع الفرق الشيعية الباقية منها والبائدة هو الإيمان بأن منصب الخلافة حق لعلي بنص النبي، مع العلم بأن المغالين ليسوا من الشيعة والتشيع في شيء، لأن أساس التشيع هو الإسلام، ومن أعطى صفة الألوهية أو النبوة بعد محمد لإنسان، أي إنسان فهو ليس بمسلم، فضلاً عن أنه غير شيعي، وعليه فإن تقسيم الشيعة إلى فرق يجب أن يرتكز على الإيمان بهذا النص دون الإرتقاء بعلي أو أحد أبنائه إلى مرتبة الألوهية أو النبوة، وبهذا يتبين خطأ الذين جعلوا شخص علي وأبنائه ـ على الإطلاق ـ أساساً لتقسيم الشيعة وتعددهم إلى فرق، دون أن يميزوا بين مقالة المغالين وغير المغالين.

فرق الشيعة :

أنهىٰ بعض المؤلفين فرق الشيعة إلىٰ ثلاثين، وآخر إلىٰ ما يزيد عن هـذا العدد بقليل أو كثير، زاعماً أن المغالين من الشيعة، وأن الثلاثة والأربعة يشكلون فرقة مستقلة، وثالث نسب الغلو والكفر لكل من تشيع لأهل البيت، ورابع خلط بين الفرق البائدة والباقية، وخامس لم يميز بين الشيعيين، والشيوعيين ... إلىٰ آخر هذه الجهالات والعمايات التي لاقينا منها أنواع المصاعب والمتاعب، وألجأتنا إلىٰ الكلام والخوض فيما يحسن السكوت والاغضاء عنه.

ونحن بعد أن فسرنا التشيع بأنه الإيمان بوجود النص من النبي علىٰ علي بالخلافة مع عدم المغالاة فيه، ولا في أحد أبنائه، وقلنا إن تقسيم فـرق الشـيعة وتعددها يجب أن يرتكز علىٰ هذا الأساس، بعد أن قلنا هذا ينحصر الخلاف بين فرقهم في عدد الأئمة وأعيانهم فقط، لا في أصل النص، ولا في نفي الغلو. ومن هذه الفرق:

الكيسانية :

وجدت هذه الفرقة بعد استشهاد الحسين في كربلاء، وبها يبتدىء تعدد فرق الشيعة، حيث قالت بإمامة علي والحسن والحسين، ثـم مـحمد بـن عـلي المعروف بابن الحنفية، وقال غيرها بإمامة علي بن الحسين، ونفت الإمامة عن ابن الحنفية، فحصل التعدد، ويزعم الكيسانية أن محمداً هذا هو المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وأنه حي لم يمت، ولا يموت، حتىٰ يظهر الحق.

وقال الشيخ المفيد المتوفي سنة ٤١٣ هـ في كتاب «العيون والمحاسن»: «ولا بقية للكيسانية جملة، وقد انقرضوا، حتىٰ لا يعرف منهم في هذا الزمان أحد».

الناووسية :

وهم أصحاب عبد الله بن ناووس، قالوا بإمامة الستة: علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق، وزعموا أن الصادق هو الإمام المنتظر، وأنه حي لا يموت، حتىٰ يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وقد بادت هذه الفرقة، ولا يوجد منها أحد.

الإسماعيلية :

قالوا بأئمة الستة المذكورين، وأن السابع هو إسماعيل بن جعفر الصادق، وليس موسىٰ الكاظم كما يقول غيرهم، وهم ثلاث فرق: الأولىٰ قالت: إن الصادق مات قبل ولده إسماعيل. والثانية قالت: إن إسماعيل مات قبل أبيه الصادق، ولكنه قبل موته نص علىٰ ولده محمد بن إسماعيل، وهؤلاء هم القرامطة. الثالثة قالت: إن إسماعيل مات قبل أبيه، ولكن الذي نص علىٰ إمامة ولده محمد هو جده الصادق، لا أبيه إسماعيل. والإسماعيلية باقون إلىٰ اليوم، وأكثرهم في باكستان، وقليل منهم في الحجاز وسورية واليمن والهند وإفريقيا، ويقارب عدد الجميع المليون كما قيل، ولا يدخل فيهم أتباع «آغا خان».

الفطحية :

قال هؤلاء: إن الإمامة لم تنتقل من الصادق إلىٰ ولده إسماعيل، ولا إلىٰ ولده موسىٰ الكاظم، بل إلىٰ ولده الأكبر، وهو عبد الله الأفطح، ولقب بالأفطح، لأنه أفطح الراس، أي ذو رأس عريض، وهم من الفرق البائدة، ولا يوجد منهم أحد.

الواقفية :

وهم الذين قالوا بثمانية أئمة: علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسىٰ الكاظم وعلي الرضا ووقفوا عنده، ولم يتجاوزوا إلىٰ غيره، وزعموا أن الرضا هو المهدي المنتظر، وهم من الفرق البائدة.

الاثنا عشرية :

وهم القائلون بإمامة علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسىٰ الكاظم وعلي الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري والمهدي المنتظر. وهم أكثر فرق الشيعة، ومنتشرون اليوم وقبل اليوم في شرق الأرض وغربها، وفيهم العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمون والفلاسفة وأصحاب الحديث والتفسير.

الزيدية :

ليس لدي مصادر كافية للزيدية، كي أرجع إليها، لذا اعتمدت في حديثي عنهم على مصادر السنّة، والاثني عشرية.

قال صاحب «المواقف» من السنّة ج ٨ ص ٣٩١: الزيدية ثلاث فرق:

الأولى: الجارودية أصحاب أبي الجارود، قالوا بالنص على علي وصفاً لا تسمية، أي أن النبي لم يذكر علياً باسمه حين نص عليه، وإنما ذكره بصفاته، وقالوا: إن خلافة الثلاثة الأولى باطلة، وأن الإمامة بعد علي لولده الحسن، ثم للحسين، ثم هي شورى بين المسلمين على أن تكون في أولاد فاطمة.

الثانية: السليمانية أصحاب سليمان بن جرير، وأنكر هؤلاء النص من الأصل وصفاً وتسمية، وقالوا: إن الإمامة شورى وأن إمامة أبي بكر وعمر صحيحة، وإمامة عثمان باطلة.

الثالثة: البتيرية أصحاب بتير الثومي، قالوا بمقالة السليمانية، ولكنهم توقفوا في إمامة عثمان، فلم يقولوا بصحتها، ولا ببطلانها.

ثم قال شارح المواقف، الشريف الجرجاني: هذي هي فرق الزيدية في زماننا، وأكثرهم مقلدون يرجعون في الأصول إلى الاعتزال، وفي الفروع إلى مذهب أبي حنيفة إلاّ في مسائل قليلة.

وقال الخواجا نصير الدين الطوسي في كتاب «قواعد العقائد»:

قال الزيدية بإمامة علي والحسن والحسين، ولم يقولوا بإمامة زين العابدين، لأنه لم يقم بالسيف، وقالوا بإمامة ولده زيد، لأنه ثار على الباطل، وهم لا

يشترطون العصمة بالإمام، ويجوز عندهم قيام إمامين في بقعتين متباعدتين، وكل من جمع خمسة شروط فهو إمام: ١ ـ أن يكون من ولد فاطمة بنت الرسول من غير فرق بين ولد الحسن وولد الحسين. ٢ ـ أن يكون عالماً بالشريعة. ٣ ـ أن يكون زاهداً. ٤ ـ أن يكون شجاعاً. ٥ ـ أن يدعو إلى دين الله بالسيف.

دول الشيعة :

أشرنا في مطاوي ما تقدم إلى أن الفتوح الإسلامية كان القصد الأول منها السيطرة، وامتداد السلطان، وإيجاد أرض للمسلمين يعيشون فيها أغنى من أرضهم، وتربة أخصب من تربتهم، وأن انتشار الإسلام يستند قبل كل شيء إلى تعاليمه ومبادئه الإنسانية، وإذا كان للدولة من تأثير فهو التمهيد والتيسير، حيث لا يعيش معتنقوا الدين الجديد في قلق وخوف من أجل دينهم وعقيدتهم، اللهم إلاّ إذا اعتنقوا مذهب التشيع، وأعلنوا الولاء لعلي وأهل بيته، بخاصة في عهد الأمويين.

حاول الأمويون القضاء على التشيع كلية، وأراد العباسيون أن يحدوا من نموه وانتشاره بعد العجز واليأس عن استئصاله ثم انتهوا إلى تدميره، ولكنه نما وازدهر، رغم كل هذه المصائب، ثم مضى الزمن، وقامت هنا وهناك دول للشيعة على عكس ما يعتقد الكثير من أن الشيعة لم يحكموا في تاريخهم قط، منها دولة الأدارسة في المغرب ودولة العلويين في الديلم، والبويهيين في العراق وغيرها، والحمدانيين في سورية، وحكم آل عمار في طرابلس الشام، والفاطميين في مصر، والصفويين في إيران.

وسنشير فيما يلي إلى كل واحدة من هذه الدول، بالقدر الذي يجعل

القارىء على علم بمكان هذه الدول في التاريخ.

دولة الأدارسة:

لما تم الأمر للإمام إدريس اتخذ جيشاً كثيفاً من وجوه البربر الأشداء، وخرج غازياً بلاد تامسنا، وبلاد تادلا، ففتح المعاقل والحصون، وكان أكثر أهل هذه البلاد على دين اليهودية والنصرانية، فأسلم جميعهم على يده.

ثم رجع إلى عاصمته «ولية» واستراح برهة، ثم استأنف الغزو على من بقي من قبائل البربر على غير دين الإسلام، وكانوا متحصنين في المعاقل والجبال المنيعة، فلم يزل يجاهدهم، ويستنزلهم من معاقلهم، حتى دخلوا في الإسلام.

وقفل راجعاً إلى مقره ريثما استراح جيشه، ثم كرّ غازياً على تلمسان، فخرج إليه صاحبها مستأمناً ومبايعاً، فأمنه إدريس، وقبل بيعته، ودخل المدينة، وبنى فيها مسجداً متقناً، وأمر بعمل منبر نصبه فيه، وكتب عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وذلك في صفر سنة ١٩٤ هـ» قال ابن خلدون: «واسم إدريس مخطوط في صفحة المنبر لهذا العهد».

«ظل الأدارسة الشيعة قابضين على ما ملكوه من سنة ١٩٤ هـ إلى سنة ٢٤٠ هـ أي مائة وست وأربعون سنة مقيمين في بلاد المغرب أي تونس والجزائر ومراكش التي هي مدينة لهم بجليل الأعمال، فأسسوا مدينة فاس التي أضحى مسجدها مقدساً لدى جميع الأهالي المجاورين، ونال شهرة عظيمة من زمن قليل، واشتملت مدينة فاس على مدارس ومكتبات تساوقت هي والحركة العلمية التي حمل لواءها بنو العباس في المشرق، وغدت مستودعاً تجارياً واسعاً بين

عرب أسبانيا وعرب إفريقيا».

دولة العلويين:

في سنة ٢٥٠ هـ ظهر في طبرستان في بلاد فارس الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وبايعه الناس وأسس دولة العلويين.

وقتل سنة ٣٠٤ هـ الاطروش أحد حكام دولة العلويين، فقام بعده صهره الحسن بن القاسم العلوي، وقتل سنة ٣١٦ هـ وبه انتهت الدولة العلوية التي استمرت ٦٧ سنة، وبسببها أسلمت وتشيعت بلاد الديلم.

دولة البويهيين:

أول ملوك بني بويه الشيعة هو علي بن بويه الملقب بعماد الدولة ابتداء سلطانه في شيراز في بلاد إيران عام ٣٢١ هـ ثم امتدّ حكم دولة البويهيين إلى كل إيران والعراق وجزء من تركيا وغيرها من بلاد بني العباس، وآخر ملوك البويهيين هو أبو نصر الملقب بالملك الرحيم وبه انتهى حكم الدولة البويهية الشيعية سنة ٤٧٤ هـ والذي امتد ١٥٣ سنة.

الدولة الصفوية:

أول ملوك الصفويين هو إسماعيل بن حيدر بن جنيد بن صفي الدين الذي

ينتهي نسبه إلى الإمام موسى الكاظم عليه السلام.

وإسماعيل هذا قاد جيشاً ضخماً سنة ٩٠٥ هـ وكان عمره ١٤ سنة فوحّد إيران سنة ٩٠٩ هـ وفي سنة ٩١٢ هـ سيطر على بلاد الأناضول وفي سنة ٩١٤ هـ دخل إلى بغداد وسيطر على العراق وقد امتد سلطان الشاه إسماعيل حتى بلاد الأفغان.

الشاه عباس حكم ٩١٤ هـ، نشر مذهب الشيعة الاثني عشرية في أنحاء إيران والعراق، زار كربلاء وبات ليلة كاملة منكباً على قبر الحسين عليه السلام وأمر بصنع الصندوق المذهّب للقبر الشريف وبناء الحضرة الشريفة، وأمر الشاه عباس على أن يؤذن بحيّ على خير العمل في جميع بلاد إيران ونقش على النقود اسم الله محمد علي، وتعاقب في الحكم بعد عباس الشاه طهماسب، ثم الشاه عباس سنة ٩٩٦ هـ ثم تعاقب على الحكم أبناء الشاه عباس وليس فيهم من يستأهل الذكر سوى الشاه صفي ثم ولده الثاني الشاه عباس الثاني إلى أن انتهى حكم الدولة الصفوية الشيعية عام ١١٤٨ هـ، وكانت قد تأسست عام ٩٠٥ وامتدت إلى ٢٧١ سنة.

دولة الفاطميين

الخلفاء الفاطميون، نسبهم ومذهبهم:

لمن ينتسب الخلفاء الفاطميون؟ وما هو مذهبهم؟

ينتسب هؤلاء إلى جدهم علي بن أبي طالب وإلى جدهم المباشر الملقب بالمهدي، أول خلفائهم ببلاد المغرب، وهو عبيد الله بن محمد بن جعفر بن

محمد بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق.

وهم من فرقة الإسماعيلية، إحدى فرق الشيعة، والإسماعيلية يوافقون الإمامية الإثني عشرية في سوق الإمامة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الإمام جعفر الصادق، ثم يعدلون بها عن الإمام موسى الكاظم إلى أخيه إسماعيل، ثم إلى ابنه محمد، ثم إلى ابنه جعفر بن محمد الملقب بالحبيب، ثم إلى عبيد الله الملقب بالمهدي أول خلفاء الفاطميين، ثم إلى ابنه العزيز، ثم ابنه الظاهر، إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم خامس خلفائهم بمصر، وهنا يفترق الإسماعيلية إلى فرقتين: إحداهما تقول: إن الإمامة انتقلت من المستنصر إلى ابنه المستعلي، وأخرى تقول: إنها انتقلت إلى ابنه نزار.

اصطدم عبد الله المهدي بدولة الأدارسة، وساهم إلى حد كبير في إزالتها، كما اصطدم مع الأمويين في الأندلس، وأزال دولة الأغالبة كلية، وخضع له المغرب الأقصى، وتونس، ودخلت القبائل بكاملها في طاعته، واستقر له الملك ٢٩٦ هـ.

ورأى المهدي أن يبني حاضرة في مكان متوسط يتخذها حصناً يعتصم به عند الحاجة، ويوجه منه هجماته إلى الخارجين عليه، فبنى مدينة أسماها المهدية تقع على بعد ستين ميلاً جنوبي القيروان، يحيط بها البحر من ثلاث جهات، وبعد أن انتهى من بنائها أنشأ مدينة أخرى بجوارها أسماها زويلة، نسبة إلى إحدى قبائل بلاد المغرب، ومات سنة ٣٢٢ هـ، وقام بالأمر بعده ابنه أبو القاسم محمد الملقب بالقائم بأمر الله. وتعاقب على الخلافة المنصور ومنه إلى الخليفة المعز الذي أزال سلطان الأخشيديين والعباسيين عن مصر سنة ٣٥٨ هـ، وأصبحت هذه البلاد ولاية تابعة للدولة الفاطمية التي امتدت من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، ونافست الدولة الفاطمية الشيعية بغداد حاضرة الدولة العباسية

السنية المتداعية، وكان لتلك المنافسة أبعد الأثر في الحضارة الإسلامية. (تاريخ الدولة الفاطمية لحسن إبراهيم ص ١٤٧ طبعة سنة ١٩٥٨ م).

الجامع الأزهر ومذهب التشيع :

وفي سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس مدينة القاهرة التي لا تزال إلىٰ اليوم، وبعد إكمالها اتخذها عاصمة للدولة الجديدة، ورأىٰ جوهر أن لا يفاجيء السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الشيعي، خشية أن يثير حفيظتهم، فبنىٰ الجامع الأزهر، وعقدت فيه حلقات الدرس، وكانت تركز اهتمامها علىٰ نشر المذهب الشيعي بين الناس.

ومنع جوهر من لبس السواد شعار العباسيين، وزاد في الخطبة: «اللهم صلِّ علىٰ محمد المصطفىٰ، وعلىٰ علي المرتضىٰ، وفاطمة البتول، والحسن والحسين سبطي الرسول» كما أمر أن يؤذن في جميع المساجد بحي علىٰ خير العمل، واستمرت شعائر التشيع، والتدريس في الأزهر علىٰ المذهب الشيعي، حتىٰ جاء صلاح الدين الأيوبي، فقضىٰ علىٰ الخلافة الفاطمية، ومذهب التشيع، وكل ما يمت إليه بصلة. وتعاقب علىٰ الخلافة بعد المعز، العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله، الظاهر، المستنصر، المستعلي، الآمر، الحافظ الظافر، الفائز، وآخر الخلفاء الفاطميين كان العاضد وعمره ١١ سنة فخلفه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ وانتهت الدولة الفاطمية التي استمرت من ٢٩٦ هـ إلىٰ ٥٦٧ هـ أي ٢٧١ سنة.

الدولة الحمدانية :

حمدان هذا هو جد الأمراء الحمدانيين الشيعة، وكان على جانب من الثراء، ورب قبيلة، تنظر إليه بقية القبائل بالتجلة والاحترام، وكان أميراً على قلعة ماردين القريبة من الموصل من قبل العباسيين، ثم أعلن الاستقلال عنهم سنة ٢٨١ هـ، وكان ذلك في خلافة المعتضد، ودارت بين حمدان والخليفة العباسي معارك كانت الغلبة فيها على حمدان.

ناصر الدولة بن أبي الهيجاء بن حمدان حكم الموصل سنة ٣١٧ هـ، بيد من حديد حتى أن فرض سطوته على بغداد وعلى الخليفة العباسي الضعيف «المتقي».

سيف الدولة أمير حلب وطد حكمه في حلب شمال سوريا وأجزاء شاسعة من تركيا وحارب الروم وانتصر عليهم انتصارات باهرة وفي سنة ٣٥٤ هـ ضرب سيف الدولة دنانير جديدة كتب عليها «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فاطمة الزهراء الحسن والحسين عليهم السلام» .. وبعد سيف الدولة حكم ابنه أبو المعالي الملقب بسعد الدولة ثم ابنه أبو الفضائل الملقب بسعيد الدولة الذي مات سنة ٣٩٢ هـ، وبه انتهى حكم الحمدانيين الشيعة الذي امتد من سنة ٢٨١ هـ وإلى سنة ٣٩٢ هـ، أي ١١١ سنة.

طرابلس وبنو عمار :

بنو عمار شيعة، وأصلهم من المغرب؛ جاؤوا منها إلى مصر مع الفاطميين،

وتولوا الإمارة والقضاء في طرابلس الشام من قبل الحاكم الفاطمي، وبقيت بأيديهم نحواً من ٨٠ سنة، حتىٰ انتزعها منهم الصليبيون سنة ٥٠٢ هـ، وكان أهلها في ذلك العصر شيعة اثني عشرية.

قال المستشرق آدم متز في الجزء الأول من «الحضارة الإسلامية»: وإذا كان ناصر خسرو قد وجد أهل طرابلس في عام ٤٢٨ هـ شيعة فقد جاء ذلك من أن بني عمار كانوا هناك علىٰ مذهب التشيع».

أما المؤسس لإمارة بني عمار في طرابلس فهو أبو طالب أمين الدولة بن عمار أعلن نفسه حاكماً علىٰ المدينة حين توفي الحاكم الفاطمي، وأنشأ مكتبة تحوي مائة ألف مجلد، واستمال طلاب العلم إلىٰ عاصمته، فكان عمله هذا شبيهاً بما قام به سيف الدولة في حلب، وكان من جملة من قصد مكتبته أبو العلاء المعري، وهكذا بلغت طرابلس أثناء حكم بني عمار الذروة في الشهرة العلمية، وفي الازدهار الاقتصادي.

ومن علماء الشيعة الطرابلسيين القاضي الشيخ عبد العزيز بن البراج، تلميذ السيد المرتضىٰ والشيخ الطوسي، وله مؤلفات جليلة، منها المهذب، والموجز والكامل والجوهر وعماد المحتاج، ثم انعدم التشيع من طرابلس، بسبب الضغط والاضطهاد، ويوجد في نواحيها اليوم بعض القرىٰ الشيعية.

شعار عليّ سيف ومعول

كان الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يمارسون الحياة ويكافحون كسائر الناس، فكان منهم التاجر والفلاح والعامل والراعي والحطاب وصاحب الصنعة، وما كانوا يعتمدون على الفيء وكفى.

وكان الإمام قبل الخلافة، وبعدها يحيي الأرض الموات بكدّ اليمين وعرق الجبين، ويستعمرها بالحرث والزرع والغرس والسقي بيده الشريفة. قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

«قد علم كل أحد أنّ علياً عليه السلام استخرج عيوناً بكدّ يده في المدينة وينبع وسويعة، وأحيا بها مواتاً كثيراً، ثم أخرجها عن ملكه، وتصدّق بها على المسلمين، ولم يمت وشيء منها في ملكه».

وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر: «قُتل علي، ولا مال احتجبه، ولا دنياً أصابها».

لقد عمل عليّ في الأرض من أجل الجائعين تماماً كما جاهد بالسيف في سبيل الله والدّين، وإذا كان شعار الإشتراكيين (المطرقة والمنجل) فإنّ شعار عليّ عليه السلام (السيف والمعول) هذا للمعوزين، وذاك للمعتدين على أقوات العباد وأرزاقهم، وكلاهما بمنزلة سواء عند الله وفي منطق الحياة وتقدّمها ..

وغريبة الغرائب أن شيعة عليّ يكثرون الكلام والتأليف في فضائله ومناقبه،

ويجهلون أو يتجاهلون عمله ونضاله في الأرض من أجل الإنتاج ومنافع الناس، ويركزون همّهم واهتمامهم على النصوص والأقوال .. ولا سرّ ـ فيما نعتقد ـ إلاّ لأنّهم أو الكثير منهم يستهلكون ولا ينتجون، وفي الوقت نفسه يتطلّعون بشوق إلى المديح والثناء مكافأة على الكسل والإسترخاء.

من هم أهل البيت ؟

ليس الغرض من هذا الفصل أن نبيّن مكانة أهل البيت وعظمتهم عند الله سبحانه، بل غرضنا أولاً وبالذات أن نعرف من هم المقصودون بهذه الكلمة؟

والذي انتهينا إليه بعد التتبع والتأمل أنّ المقصودين عرفاً بكلمة أهل بيت النبيﷺ هم أُسرته وعشيرته الأقربون، فلقد دأب الناس منذ القديم وإلىٰ يومهم هذا أن يستعملوا كلمة أهل البيت في هذا المعنىٰ ...

أجل إن الأئمة الأطهار أشهر وأكمل المصاديق .

أما المقصودون شرعاً من هذه الكلمة فهم فاطمة والأئمة الأطهار، ودليلنا علىٰ ذلك آية التطهير ٣٣ الأحزاب، وحديث الثقلين:

أما آية التطهير فإنّها تعني علياً وفاطمة والحسن والحسين بدليل آية المباهلة ٦١ آل عمران، وأغرب ما قرأت في التناقضات أنّ بعض السنة يقولون: إن المراد من «نساءنا» فاطمة لا أزواج النبيﷺ وفي الوقت نفسه يقولون: آية التطهير ٢٢ من الأحزاب نزلت في نساء النبي .. فأين وجه الجمع؟! نستدل بهذا، وبما جاء في سبب نزول آية التطهير في كتب الحديث والمناقب والتفسير، وهو أنها قد نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين.

ومن كتب الحديث التي أثبتت ذلك صحيح مسلم والترمذي، ومستدرك الصحيحين، ومسند أحمد، وخصائص النسائي، والرياض النضرة، وكنز العمال،

ومسند أبي داوود، والاستيعاب، وأسد الغابة، ومشكل الآثار، ومجمع الزوائد، ذكر هذه الكتب الفيروز آبادي في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة.

وأما كتب التفاسير فمنها الدرّ المنثور للسيوطي عند تفسيره ﴿**وأمُرْ أهلَكَ بالصلاةِ**﴾[1] وتفسير الطبري والأندلسي والحافظ وغيرهم كثير حتىٰ ابن تيمية في كتاب المنتقىٰ.

وقال صاحب المنار عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كُلٌّ من الصالحين**﴾[2]. قال ما نصه بالحرف الواحد: «أقول في الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعاً: إنّ ابني هذا سيد ـ يعني الحسن ـ ولفظ ابني لا يجري عند العرب علىٰ أولاد البنات، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعاً: «وكل ولد آدم فإنّ عصبتهم لأبيهم خلا أولاد فاطمة فإنّي أنا أبوهم وعصبتهم». وقد جرىٰ الناس علىٰ هذا، فيقولون في أولاد فاطمة أولاد رسول الله (ص) وأبناؤه وعترته وأهل بيته».

ومعنىٰ هذا القول من صاحب المنار أنّ ولد فاطمة ليسوا أبناء رسول الله لغة، ولكنّهم أبناؤه شرعاً لقوله ﷺ: «**أنا أبوهم وعصبتهم**»، وأيضاً هم أبناء رسول الله عرفاً لأنّ طريقة الناس جرت علىٰ القول: إنّ أولاد فاطمة هم أولاد رسول الله وأبناؤه وعترته وأهل بيته.

هذا هو المراد بكلمة أهل البيت في آية التطهير، أما المقصودون بها في حديث الثقلين فهم ـ علىٰ ما فهمناه من المساواة بينهم وبين القرآن في وجوب التمسك ـ فاطمة والأئمة الإثنا عشر الذين أشار إليهم النبي ﷺ بقوله: «إنّ هذا

---

١ ـ [سورة طه، الآية ١٣٢].
٢ ـ [سورة الأنعام الآية ٨٥].

الأمر لا ينقضي حتىٰ يمضي فيهم إثنا عشر خليفة، كلهم من قريش».

رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة والترمذي ج ٢ ص ٣٥ طبعة ١٢٩٢ هـ، والبخاري كتاب الأحكام، ومستدرك الصحيحين ج ٤ ص ٥٠١ طبعة ١٣٢٤ هـ، ومسند أحمد ج ٥ ص ٨٦ طبعة ١٣١٣ هـ، وكنز العمال ج ٦ ص ٢٠١ طبعة ١٣١٢ هـ، كما في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة.

هذا حديث الأئمة الاثني عشر، أما حديث الثقلين فقد جاء في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي بن أبي طالب، وفي الترمذي ج ٢ ص ٣٠٨ ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٠٩، ومسند أحمد ج ٣ ص ١٧، وحلية الأولياء ج ٩ ص ٦٤ طبعة ١٣٥١ هـ وكنز العمال ج ١ ص ٩٦، ومجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ١٦٤ طبعة ١٣٥٢ هـ والصواعق المحرقة ص ٧٥ طبعة ١٣١٢ هـ أيضاً كما في كتاب فضائل الخمسة.

وبهذا يتبين معنا أن السنّة والشيعة متفقون علىٰ أنّ الخلافة لابد منها، وأنّها في قريش دون غيرهم، وأنّ عدد الأئمة إثنا عشر إماماً، ولكنّ السنّة يختلفون مع الشيعة في أمرين:

الأول: في حصر الخلافة بالهاشميين، وبصورة أخص بعلي وبنيه.

الأمر الثاني: في تعيين الأئمة الإثني عشر بأسمائهم وأنسابهم وعلىٰ هذا تكون فكرة الأئمة الإثني عشر من حيث هي: إسلامية، لا سنيّة فقط ولا شيعية فقط، وإنما الخلاف في التطبيق.

أما السبب لتسمية الفرقة الإثني عشرية بهذا الاسم مع أنّ السنّة يؤمنون بالأئمة الإثني عشر فهو أنّ هذه الفرقة قد أجمعت علىٰ تعيين الـ الاثني عشر بأسمائهم وأعيانهم، واختلف السنّة في ذلك فمنهم من قال: الـ الاثني عشر لم

يخلقوا بعد وسيخلقون ويملكون بعد ظهور المهدي المنتظر ووفاته، ومنهم من قال: إنّ المراد بالـ الاثني عشر إماماً غير أصحاب الرسول لأنّ حكم أصحابه يرتبط بحكمه.

إذن كلّ الأئمة الإثني عشر من بني أُميّة ما عدا عثمان ومروان بن الحكم لأنهما صحابيان، وعليه يكون أول الأئمة الذين عناهم النبي ﷺ: يزيد بن معاوية، ثم ابنه معاوية، ثم عبد الملك بن مروان، وأولاده الأربعة: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام، ثم عمر بن عبد العزيز، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وأخوه إبراهيم ومروان الحمار هذا ما يعتقد به قسم من السنة.

ومن السنة من قال: هم أبو بكر، وعمر وعثمان، وعلي، ومعاوية ويزيد بن معاوية، وعبد الملك، وأولاده الأربعة، وعمر بن عبد العزيز.

ومنهم من قال: المراد وجود الـ الاثني عشر إماماً مدة الإسلام حتىٰ يوم القيامة، وإن لم تتوال أيامهم (فتح الباري في شرح صحيح البخاري للعسقلاني ج ١٣ ص ١٨٣ وما بعدها طبعة سنة ١٣٠١ هـ).

وتسأل: لقد فهمنا أنّ الإثني عشرية آمنوا بإمامة علي للنصوص التي دلت علىٰ إمامته كتاباً وسنّة، وفهمنا أيضاً أنّهم آمنوا بإمامة الحسن والحسين لقول جدهم الرسول ﷺ: «ولداي هذان إمامان قاما أم قعدا»[١] .. أما إيمانهم بإمامة التسعة من ذرية الحسين فلم نعرف له مصدراً؟

الجواب: بعد أن ثبت النص علىٰ إمامة علي والحسن والحسين وعصمتهم ثبت عند الإثني عشرية أيضاً أنّ الحسين عليه السلام نص علىٰ ولده زين العابدين وهكذا نص الإمام السابق علىٰ الإمام اللاحق حتىٰ الإمام الثاني عشر، وعليه ينتهي

---

١ ـ [مناقب آل أبي طالب، لابن شهرآشوب: ج ٣ / ص ١٤١].

النص إلىٰ الرسول الأعظم ﷺ بالنظر إلىٰ أنّه هو الذي نص علىٰ الأئمة الأول.

هذا ما ثبت عند الشيعةالإمامية عن نبيهم الكريم، وإذا سألنا أي عالم من علماء السنّة، وقلنا له: هل يجوز لأحد أن يخالف نصّاً يعتقد صدوره عن النبي لا لشيء إلاّ لأنه لم يثبت عند غيره؟ وأنّه هل يحرم العمل بالنص إلاّ إذا ثبت عند جميع الفرق والطوائف، إذا وجهنا إليه هذا السؤال أجاب بلا تردد: كلا، وألف كلا .. وإذن علام الطعن والانتقاد.

وقد روىٰ السيد عفيفي في كتابه «حياة الإمام أبي حنيفة» روىٰ عن السيوطي عن علماء السنة: أنّ النبي ﷺ بشر بالإمام مالك في حديث: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم بالمدينة .. وبشر بالإمام الشافعي في حديث: لا تسبوا قريشاً فإنّ عالمها يملأ الأرض علماً .. وبشر بالإمام أبي حنيفة في حديث لو كان العلم معلّقاً عند الثريا لتناوله رجال من فارس.

وجاء في تفسير روح البيان أنّ نصف الثمانية المقصودين بقوله تعالىٰ: **﴿ويحمل عرش ربك فوْقَهُمْ يومَئِذٍ ثمانِيَةٌ﴾**[1] هم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد.

فهل يجوز للسني أن يؤمن ويعتقد بأنّ النبي نص علىٰ إمامة المذاهب السنّية، وأنّ الله سبحانه نص علىٰ أنهم من حملة العرش يوم القيامة؟

هل يجوز هذا للسني، ولا يجوز للشيعي أن يعتقد بإمامة الأئمة الأطهار؟ وأنّ النبي ﷺ نص علىٰ بعضهم مباشرة، وعلىٰ البعض الآخر بالواسطة؟

وخير ما نختم به هذا الفصل قول أبي حيّان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط عند قوله تعالى: **﴿إنّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ**

---

١ ـ [سورة الحاقة، الآية ١٧].

الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[١]. قال الأندلسي: «ذكر النقاش أن هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب .. ومن غريب الكلام ما أنشدنا الإمام اللغوي رضا الدين أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري لزبينا بن إسحق النصراني الرسغي»:

عديّ وتيم لا أحاول ذكرهم بسوء ولكنّي محب لهاشم

وما تعتريني في عليّ ورهطه إذا ذكروا في الله لومة لائم

يقولون ما بال النصارى تحبهم؟ وأهل النهى من أعرب وأعاجم؟

فقلت لهم إنّي لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

محنة أهل البيت :

تحدّث أصحاب التاريخ والسير عن محن آل البيت وأطالوا الحديث، ووضع الشيعة فيها كتباً مستقلة سموا الكثير منها بأسماء تدل عليها، «كاسم مثير الأحزان»، «ونفس المهموم»، «والدمعة الساكبة»، «ولواعج الأشجان»، «ورياض المصائب»، «واللهوف»، «ومقاتل الطالبيين»، وما إلى ذلك، وتكاد تتفق كلمة الباحثين القدامى والمتأخرين على أن الأمويين إنما نكلوا بآل البيت أخذاً بثارات بدر وأحد، لأن محمداً وعلياً قتلا في هاتين الحربين شيوخ الأمويين وساداتهم. ويستشهدون على ذلك بما تمثل به يزيد بن معاوية، عندما قتل الحسين، ووضع رأسه بين يديه وقال[٢]:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

---

١ ـ سورة مريم الآية ٩٦.

٢ ـ [أنظر الأمالي، للشيخ الصدوق: ص ٢٣١ ؛ والأخبار الطوال لابن قتيبة الدينوري: ص ٢٦٧].

لأهـــلّوا واســـتهلّوا فـــرحاً ثـم قـالوا: يـا يـزيد لا تشـلْ

وليس ببعيد أن يتذكر يزيد الحفائظ والحروب القديمة بين محمد، جدّ الحسين، وجدّه أبي سفيان، وبين علي أبي الحسين وأبيه معاوية، وأن ينطق بكلمة التشفّي والحقد. ولكن الباعث الأول على الفجيعة هو أن أهل البيت أرادوا الحكم ليكملوا رسالة محمد ﷺ ويطبّقوا تعاليم الإسلام، أما أخصامهم بنوا سفيان أرادوا الحكم للتسلّط والمجد، وللثراء والفساد.

ويعلم القاصي والداني أن عهد بني أمية كان بمجمله ـ باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ـ عهد التهتك والانحلال والعودة إلى أخلاق الجاهلية .. وأما حكم بني العباس فهو أسوأ من حكم الأمويين بكثير.

أين هؤلاء جميعاً من حكم الرسول الأعظم ﷺ؟ أين هؤلاء من سيرة وأخلاق أهل البيت؟ وأين هؤلاء من حكم الخلفاء الراشدين؟ من حكم عمر وعلي؟

إن دولة الإسلام وتعاليم الإسلام شيء، ودولة أمية وبني العباس دولتا البغي والظلم والفساد شيء آخر.

فقد ظهرت آثار هذه المحن في العقيدة، والسياسة، والأدب، والتقاليد، وما زالت تفعل فعلها إلى اليوم، ولم يتح لمحن آل البيت، فيما أعلم، من درسها درساً موضوعياً، ولا يمكن شرحها وبيان أسبابها ونتائجها في مقامنا هذا، وعلى أي الأحوال، فإن محن آل البيت وهي الناس جميعاً، ابتدأت منذ تغيّر نظام الحكم عند المسلمين.

كان الحكم في عهد الرسول الأعظم يقوم على مبدأ أن كل شيء لله، فالمال مال الله، والجند جند الله، ومعنى هذا أن الناس جميعاً متساوون في الحقوق، لأن

الله للجميع وبعده بأمد قصير تغير هذا النظام، وأصبح كل شيء للحاكم. فالمال مال الحاكم، والجند جند الحاكم، والناس كلهم عبيد الحاكم.

قال معاوية بن أبي سفيان: «الأرض لله، وأنا خليفة الله. فما أخذت فلي، وما تركته للناس فبالفضل مني».

وعلى هذا المبدأ وهب مصر لعمرو بن العاص مكافأة له على جهاده وبلائه ضد الإمام علي. وكان جند يزيد في وقعة الحرة يجبرون الناس على أن يبايعوا يزيد، على أنهم عبيد قِنٌّ له، وينقشون أكف المبايعين علامة الاسترقاق، ومن أبى عن هذه البيعة ضربت عنقه.

من هذا النظام اللاإسلامي وحده تولدت محن آل البيت وغير آل البيت، وإن كان نصيبهم منها أكبر وأفظع.

ولابد من التساؤل: لماذا ذعر الناس لمحن آل البيت وتحدّثوا فيها وأطالوا الحديث أكثر من غيرها؟ ويمكننا الجواب بأن محنهم كانت أقسى المحن جميعاً، وبأنها في نظر المسلمين هي محنة الإسلام نفسه. فقد أوصى الرسول وبالغ في الوصاية بأهل بيته، وساواهم بكتاب الله، وشبّههم بسفينة نوح، واعتبر التعدي عليهم تعدياً عليه بالذات، وهذا السبب يرجع إلى الدين، ولا شيء يوازي احترام العقيدة الدينية وتقديسها عند المسلمين وبخاصة في ذاك العهد.

وهناك أسباب سياسية لتوالي المحن على آل البيت من الحكام، وإذاعتها بين الجماهير أكثر من غيرها.

لما يئس المسلمون من إصلاح الحاكم الظالم تمنوا أن يدبر شؤونهم إمام عادل ناصح لله ورسوله، وفي آل البيت خير من توافرت فيه هذه الصفات، بل كان من المسلمين حزب قوي منتشر في أقطار الأرض يدين بالتشيع لهم، ويرى أن

الخلافة حق خصه الله بعلي وبنيه. وقد أعلن الشيعة هذا المبدأ في أشعارهم، واتخذوه أساساً لتعاليمهم، وعملوا علىٰ بثه في الجهر والخفاء، ولم يتركوا فرصة تمر إلاّ عدّوا مناقب آل البيت ومثالب من غصبهم هذا الحق، فرأىٰ الحكام في آل البيت وشيعتهم خطراً كبيراً علىٰ سلامة الدولة وأمنها أكثر من غيرهم فخصّوهم بالقسط الأوفر من المحن، ونكّلوا بهم بقسوة تفوق كل قسوة. وقد رأىٰ الناس في هذه المحن مورداً خصباً للتشهير بالحاكم وإثارة الجماهير، ولا شيء كالخطوب والمآسي تستدعي عطف الناس، وتثير اشفاقهم ورحمتهم، وكلنا يعرف كيف استغلّ معاوية قميص عثمان لتأليب أهل الشام علىٰ عليّ. فالشيعة أذاعوا تلك المحن وبكوا واستبكوا الناس وفاء لأئمتهم، ولبثّ الدعوة لهم ونشر مبادئهم. وأذاعها كل ناقم ومعارض للأنظمة السياسية الجائرة تبريراً لنقمته ومعارضته، ودعماً لأقواله وحجته تظلّم الشعب لآل البيت، وفي الوقت نفسه عبّر بمحنهم عن ثورة علىٰ الفساد.

إن محن آل البيت هي محن الشعب، ومحنه محنهم، وقد أعرب عن آلامه بما ألمّ بهم، لإثارة العواطف، لأنّ من أساء إليهم فبالأحرىٰ أن يسيء إلىٰ غيرهم، ولأنهم المجموعة الكريمة الطيبة التي يرىٰ فيها الشعب مثاله الأعلىٰ ويتمنىٰ أن تقوده هي، أو من يماثلها في الصفات والمؤهلات وإلاّ فإن الثورة علىٰ النظام الجائر محتّمة لا محالة.

الشيعة وذكرى الحسين عليه السلام

لماذا يهتم الشيعة الإمامية هذا الإهتمام البالغ بذكر الإمام الحسين، ويعلنون عليه الحداد، ويقيمون له التعازي عشرة أيام متوالية من كلّ عام؟! هل الحسين أعظم وأكرم على الله من جدّه محمد وأبيه عليّ (ص)، وإذا كان الحسين إماماً فإنّ جدّه خاتم الرسل والأنبياء، وأباه سيّد الأئمة والأوصياء؟ لماذا لا يحيي الشيعة ذكرى النبي والوصي كما يفعلون ويذكرون ولده الشهيد؟!

الجواب: إنّ الشيعة لا يفضّلون أحداً على الرسول العظيم، إنّه اشرف الخلق دون استثناء، ويفضّلون علياً على الناس باستثناء الرسول، فقد ثبت عندهم أن علياً قال مفاخراً: «**أنا خاصف النعل**» أي مصلح حذاء الرسول. وقال: «**كنا إذا حمي الوطيس لذنا برسول الله**»[1].

أجل، إنّ الشيعة الإمامية يعتقدون أنّ محمداً لا يوازيه عند الله ملك مقرّب، ولا نبي مرسل، وأنّ علياً خليفته من بعده، وخير أهله وأصحابه، وإقامة عزاء الحسين في كلّ عام مظهر لهذه العقيدة، وعمل مجسّم لها، وتتضح هذه الحقيقة بعد معرفة الأسرار التالية:

١ ـ تزوّج الرسول الأعظم، وهو ابن ٢٥ سنة، وقبض وله ٦٣ سنة، وبقي بعد خديجة دون زواج سنة واحدة، ثم تزوّج بعدها الكثيرات، وجمع في آن واحد بين

---

١ ـ [الغدير للأميني: ج ٧ / ص ٢٠٩ (كلمة الاسكافي في رد الجاحظ)، عن الإمام علي عليه السلام قال: كنا إذا اشتد البأس وحمى الوطيس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولذنا به].

تسع، وامتدت حياته الزوجية ٣٧ سنة، ورزق من خديجة ذكرين: القاسم وعبد الله، وهما الطيّب والطّاهر، ماتا صغيرين، وأربع بنات: زينب وأُم كلثوم ورقية وفاطمة، أسلمن وتزوّجن وتوفين في حياته ما عدا فاطمة، وولدت له مارية القبطية إبراهيم، واختاره الله، وهو ابن سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام، فانحصر نسل الرسول بفاطمة وولديها من عليّ الحسن والحسين، فهم أهله الذين ضمّهم وإياه «كساء» واحد وبيت واحد.

وقد كان هؤلاء الأربعة بعد الرسول سلوة وعزاء للمسلمين عن فقده، وإن عظم الخطب، لأنّ البيت الذي كان يأويه ما زال مأهولاً بمن يحب عامراً بأهله وأبنائه. وماتت فاطمة بعد أبيها بـ ٧٢ يوماً، فبقي بيت النبي مزيناً ومضيئاً بعلي والحسن والحسين، ثم قتل علي فظل الحسنان، وكان حب المسلمين لهما لا يعادله شيء إلاّ الحب والإخلاص لنبيّهم الكريم، لأنهما البقية الباقية من نسله وأهل بيته، وبعد أن ذهب الحسن إلى ربه لم يبق من أهل البيت إلاّ الحسين، فتمثلوا جميعاً في شخصه، فكان حبّ المسلمين له حباً لأهل البيت أجمعين، للنبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين تماماً كما لو كان لك خمسة أولاد، وفقدت منهم أربعة، وبقي واحد، فإنه يأخذ سهم الجميع، وتوازي منزلته من قلبك منزلتهم مجتمعين. وبهذا نجد تفسير قول سيّدة الطف زينب، وهي تندب أخاها الحسين يوم العاشر من المحرَّم: «**اليوم مات جدّي رسول الله، اليوم ماتت أمي فاطمة، اليوم قتل أبي عليّ، اليوم سم أخي الحسن**»[1].

ونجد تفسير ما قاله الإمام الحسين لجيش يزيد حين صمّموا على قتله:

---

١ - [مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني: ص ٧٥، وفيه: قالت السيدة زينب عليها السلام: «اليوم مات جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأمي فاطمة الزهراء وأبي علي وأخي الحسن»].

«فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم ولا في غيركم»[١].

وإذا أُقفل بيت الرسول بقتل ولده الحسين، ولم يبق من أهله أحد كان، والحال هذه، إستشهاده إستشهاداً لأهل البيت جميعاً، وإحياء ذكراه إحياءاً لذكرى الجميع.

٢ ـ إنّ وقعة الطف كانت وما زالت أبرز وأظهر مأساة عرفها التاريخ على الإطلاق، فلم تكن حرباً وقتالاً بالمعروف للحرب والقتال، وإنّما كانت مجزرة دامية لآل بيت الرسول كباراً وصغاراً، فلقد أحاطت بهم كثرة غاشمة باغية من كل جانب، ومنعوا عنهم الطعام والشراب أياماً، وحين أشرف آل رسول الرحمة على الهلاك من الجوع والعطش انهالوا عليهم رمياً بالسهام ورشقاً بالحجارة وضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح، وبعد أن سقط الجميع صرعى قطعوا الرؤوس، ووطؤوا الجثث بحوافر الخيل مقبلين ومدبرين، وبقروا بطون الأطفال، وأضرموا النار في الأخبية على النساء.

إذن فجدير بمن والى وشايع نبيه الأعظم وأهل بيته أن يحزن لحزنهم، وأن ينسى كل فجيعة ورزية إلاّ ما حلّ بهم من الرزايا والفجائع معدّداً مناقبهم ومساوىء أعدائهم ما دام حياً.

حيث نكث يزيد ثغر الحسين بالقضيب قال له رسول قيصر المسيحي: «إنّ عندنا في بعض الجزائر كنيسة فيها حافر حمار عيسى عليه السلام نحج إليه كل عام من الأقطار وننذر إليه النذور ونعظّمه كما تعظمّون كعبتكم فأشهد أنكم على باطل»[٢]. لقد شاء الله وقدّر أن تكون حادثة كربلاء أعظم وأخلد من كل حادثة

---

١ ـ [الإرشاد، للشيخ المفيد: ج ٢ / ص ٩٨].

٢ ـ [تم تصحيح النص وفقاً لكتاب ينابيع المودة لذوي القربى، للقندوزي: ج ٣ / ص ٢٩].

عرفها التاريخ، كما أنها أفجع وأوجع مأساة مرّت وتمر علىٰ وجه الأرض.

٣ ـ إن إحياء بطولة الحسين وجهاده ومبدئه إحياء للحق والخير والحرية، والتضحية من أجلها بالنفس والأهل والأصحاب، وإحتجاج صارخ علىٰ الحاكم الظالم وأعوانه، وعلىٰ كل مسرف يعبث بمقدّرات الشعوب، ويغرق في لهوه وملذاته، وينطلق مع شهواته ومآثمه كيزيد وأعوان يزيد.

أراد ابن معاوية من التنكيل بأهل البيت أن يطفىء نور الله، وأن تكون الكلمة العليا للفساد والاستبداد، وظنّ أنه انتصر وتمّ له ما أراد بقتل الحسين، ولكنّ انتصاره كان زائفاً وإلىٰ أمد، فسرعان ما زالت دولة الأُمويين، وظلّت ذكريات كربلاء ومبادىء الحسين حيّة إلىٰ يوم يبعثون، وقد جابهت السيدة زينب يزيد بهذه الحقيقة حيث قالت من كلام تخاطبه فيه:

«أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأُسارىٰ أنّ بنا علىٰ الله هواناً، وبك عليه كرامة.. فمهلاً مهلاً .. فوالله ما فريت إلاّ جلدك، وما حززت إلاّ لحمك .. ولأن اتخذتنا مغنماً لتجدنّ وشيكاً مغرماً حين لا تجد إلاّ ما قدّمت يداك .. فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا يرحض عنك عارها، وهل رأيك إلاّ فند، وأيامك إلاّ عدد، وجمعك إلاّ بدد؟!».

وصدقت نبوءة السيدة العظيمة، فقد سقط يزيد وخلفاء يزيد الواحد بعد الآخر، وانهارت دولة الأمويين بعد مصرع الحسين بنصف قرن، وظلّ المسلمون يلعنون يزيد، ويحتفلون بذكرىٰ الإمام الشهيد، يحتفلون يوم مقتله ويوم مولده من كل سنة، فهذه مصر تحتشد فيها الحشود وتنصب السرادقات، وترتفع دقّات الدفوف وإيقاع الطبول، وتمتلىء بالبهجة أصوات المطربين والمنشدين لمولد

الإمام الحسين ومولد أخته بطلة كربلاء. فليس الشيعة وحدهم يهتمون ويحتفلون بذكرىٰ الحسين، بل المسلمون عجماً وعرباً في كل مكان، وإذا اختلفت الأساليب، وتعدّدت المظاهر فالجوهر واحد.

لقد مضىٰ علىٰ قتل الحسين ١٣١٨ عاماً، وما زال الشيعة يتذكرون ويذكرون هذا الماضي البعيد، ويمجدونه، ليستخلصوا منه الثورة علىٰ الظلم. نحن الشيعة ثوريون بعقيدتنا وتعاليمنا نتفاءل بالثورات التحررية، ونستبشر الخير بها، ونحس بعطف عميق نحوها ونحو شهدائها، فإذا كرّمنا الحسين فإنّما نكرّمه بصفته الباعث الأكبر للثورات، والمعلّم الأول للثائرين من أجل الحق. نحن لا نعبد الأفراد، بل نقدّس المبادیء لأننا مسلمون وقبل كل شيء، والحسين يمثل مبادیء جدّه الرسول خير تمثيل، ومن أجلها قتل هو وأهله وأصحابه، وسُبيت نساؤه وأطفاله، ومن أجله يفرح المسلمون السنة يوم مولد الحسين، فيصفّقون ويغنّون ويرقصون، لأنه اليوم الذي ابتهج فيه نبي الرحمة والعدالة، ويحزن المسلمون الشيعة يوم قتله، فيبكون ويندبون ويلبسون الحداد لأنه يوم حزن وكآبة عليه وعلىٰ جميع المسلمين، وينشدون مع الشريف الرضي:

لو رسول الله يحيا بعده ... قعد اليوم عليه للعزا

يفرح أولئك بالمولد، ويحزن هؤلاء للمقتل، وهدف الجميع واحد، هو الطاعة والولاء والتقرب من خاتم الأنبياء، وكلاً وعد الله الحسنىٰ.

ذكرىٰ عاشوراء

«بعض العادات التي لا تزال متبعة لا يقرها الدين...»
إحياء ذكرىٰ الحسين حث الناس علىٰ اتباع خطواته

الحسين رمز الجهاد والشرف والفضيلة :

لماذا يحيون ذكرىٰ الحسين في كل سنة عشرة أيام من شهر محرم؟

إن الحسين عند شيعته والعارفين بأهدافه ومقاصده ليس اسماً لشخص فحسب، وإنما هو رمز عميق الدلالة، رمز للبطولة والإنسانية والأمل، وعنوان للدين والشريعة، والفداء والتضحية في سبيل الحق والعدالة، كما أن يزيد رمز للفساد والاستبداد، والتهتك والرذيلة، وحيثما كان ويكون الفساد والفوضىٰ وانتهاك الحرمات وإراقة الدماء البريئة والخلاعة والفجور وسلب الحقوق والطغيان، فثم اسم يزيد وأعمال يزيد. وحيثما كان ويكون الثبات والإخلاص والبسالة والفضيلة والشرف فثم اسم الحسين ومبادىء الحسين، وهذا ما عناه الشاعر من قوله:

كأنَّ كلّ مكان كربلاء لدىٰ عيني وكل زمان يوم عاشورا

ثم إن هذه المجالس التي تجمع الألوف المؤلفة، كلها تستغل للتوجيه إلىٰ الحق وبث روح الحسين فيصعد الخطيب إلىٰ المنبر ويتناول موضوعاً هو من

صميم الحياة ويبحثه بحثاً مفصلاً ويبين الأهداف والمرامي التي يجب أن تحقق وليلة البارحة «أمس الأول» كنت في مجلس بالغبيري وهو المعروف بـحسينية آل الخنساء، وفيه لا أقل من خمسة عشر ألف نسمة، فصعدت المنبر وبينت أننا، نحن الشيعة في لبنان، قوة للحق وللعدالة، وبصفة أخص، قوة للدفاع عن لبنان وكيان لبنان وأننا نحن، علىٰ صعيد وطني نعمل كلبنانيين ونضحي من أجل لبنان بالأنفس والعيال والأموال وأننا قوة علىٰ الظلم والعدوان، تماماً كما كان الحسين بن علي الذي نحيي ذكراه.

وقلت أيضاً في ما قلت: إننا ضد الطائفية بمعنىٰ الاستغلال، ولكن هناك جماعة يتسترون باسم الطائفية للاتجار بها. وقسمت الإنسان إلىٰ طيب وخبيث ولم أقسمه إلىٰ مسلم ومسيحي أو سني وشيعي وحثثت الأغنياء وأهل الأموال علىٰ البذل والعطاء وقلت يجب التنافس الطائفي في هذا الميدان فإذا بنىٰ مسيحي كنيسة أو ميتماً أو مصحاً في سبيل الخير فليقتد به المسلم ويبني جامعاً أو ميتماً أو مستشفى فلنتنافس علىٰ بناء لبنان وإظهاره بمظهر لائق بحريته وثقافته وبتاريخه كما بينت معنىٰ الدين وأنه قوة من داخل الإنسان تخاطبه بلغة الوجدان وتقول له: ليست المادة هي كل شيء ولا هي تفرض نفسها علىٰ كل شيء بل وراء هذه المادة قوة عليا تدعو إلىٰ التعاون والتآخي في سبيل الإنسان ورفع حياته ومستواه في شتىٰ نواحيها، وأن هذه المثل العليا لا تتجنس بعنصرية ولا بطائفية، فكل من فعل الخير هو قريب من الله سبحانه من أي طائفة كان أو يكون.

هجوم علىٰ بعض العادات :

وهذه العادات التي لا تزال جارية حتىٰ الآن من تمثيل واقعة كربلاء وما ينجم عنها من إصابات، فما رأي سماحتكم بها؟

إن العادات والتقاليد المتبعة عند العوام لا يصح أن تكون مصدراً للعقيدة لأن الكثير منها لا يقره الدين الذي ينتمون إليه حتىٰ ولو أيدها وساندها شيوخ يتسمون بسمة الدين ومنها ما يفعله بعض عوام الشيعة في لبنان والعراق وإيران من لبس الأكفان وضرب الرؤوس والجباه بالسيوف في اليوم العاشر من محرم. فإن هذه العادة المشينة بدعة في الدين والمذهب وقد أحدثها لأنفسهم أهل الجهالة دون أن يأذن بها إمام أو عالم كبير كما هو الشأن في كل دين ومذهب حيث توجد به عادات لا تقرها العقيدة التي ينتسبون إليها ويسكت عنها من يسكت خوف الإهانة والضرر ولم يجرأ علىٰ مجابهتها ومحاربتها أحد في أيامنا إلاّ قليل من العلماء وفي طليعتهم المرحوم السيد محسن الأمين العاملي الذي ألف رسالة خاصة في تحريم هذه العادة وبدعتها وأسمىٰ الرسالة «التنزيه لأعمال الشبيه» والذي أعتقده أنها ستزول بمر الأيام.

جريدة الصفاء ١١ ايار [١٩٦٥ م]

هل الشيعة الاثنا عشرية باطنيون ؟

نشر الأديب المصري الدكتور مصطفىٰ محمود علىٰ التوالي ١٣ مقالاً في مجلة «صباح الخير» تكلم فيها عن إعجاز القرآن وقصة الخلق[1]، وبعض الموضوعات الغيبية، ثم جمع المقالات في كتاب أسماه «محاولة لفهم عصري للقرآن» وطبع ووزع في الشهر الثالث أو الرابع من سنة ١٩٧٠ م ، وفي مقال «رب واحد ودين واحد» عد المؤلف الشيعة الإثني عشرية مع الفرق الباطنية، وأنهم تماماً كالبابية والخوارج يفسرون القرآن تفسيراً باطنياً، فكتبت إليه بأن الإثني عشرية أبعد الناس عن هذه البدع والضلالات، وأن كتبهم تشهد بذلك، وهي في متناول كل يد، وأرشدته إلىٰ بعضها، وإلىٰ ما قاله شيوخ الأزهر المنصفين عن الشيعة الإمامية كالمرحوم الشيخ شلتوت، وغيرهم ممن نشروا في مجلة «الإسلام» التي تصدر في القاهرة عن «دار التقريب».

وفي مساء ١٥ ـ ٤ ـ ١٩٧٠ م ارتفع صوت الهاتف، وإذا بالدكتور مصطفىٰ محمود يكلمني من بيروت .. واجتمعنا لأول مرة، وتحدثنا عن كتابه «الله والإنسان»، وردي عليه بكتاب «الله والعقل» .. ثم موعدٌ ولقاء ببيتي في اليوم التالي، وكان حديثنا عن الإسلام والباطنية، فقال الأديب المصري فيما قال: «إن بعض الشيعة يفسرون مرج البحرين يلتقيان بعلي وفاطمة».

قلت له: هل من العدل والمنطق أن تُدان طائفة تبلغ عشرات الملايين بقول

---

١ ـ وأجاد في تصوير إعجاز الموسيقىٰ الباطنية في القرآن.

واحد منها لا يمثل إلاّ نفسه؟ وهل من الضروري إذا فسر الشيخ آية قرآنية تفسيراً باطنياً أن تكون طائفته تدين بالتفسير الباطني للقرآن، وإذا فسر أديب مصري بيتاً من الشعر تفسيراً رمزياً أن يكون جميع الشعراء وكل من يفسر الشعر في مصر رمزيين، وأن للشيعة الاثني عشرية كتباً في العقائد تسالموا عليها وأجمعوا على الأخذ بها، كأوائل المقالات للشيخ المفيد، وقواعد العقائد لنصير الدين الطوسي، وشرحه للعلامة الحلي، وما جاء في شرح التجريد من التوحيد وصفات الله والقضاء والقدر والنبوة والإمامة والمعاد.

وكانت تظهر أمامي ـ وأنا أبحث وأنقب في المصادر ـ تفاسير باطنية لشيوخ من السنة، فأهملها لأنها لا تلتقي مع تفسيري وغايتي في شيء. وحين احتج الدكتور بمرج البحرين فكرت طويلاً لعلي أتذكر تفسيراً واحداً من تلك التفاسير لأنقض به قول الدكتور، فخذلتني الذاكرة وأنا في أشد الحاجة إلى مؤازرتها .. ثم انتقلنا إلى موضوع آخر.. ومن الصدف أني كنت أفسر سورة الفتح حين جرى النقاش بيننا، وفي اليوم التالي وصلت بالتفسير إلى قوله تعالى: ﴿**كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه**﴾[1] وإذا بي أقرأ في تفسير روح البيان لإسماعيل حقي والتسهيل للحافظ ابن أحمد الكتبي وهما من أهل السنة، قرأت فيهما ما نصه بالحرف: «كزرع أخرج شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي». فانتقل بي هذا التفسير الباطني إلى ما قرأته منذ زمان في كتاب حياة الإمام أبي حنيفة للسيد عفيفي أن السيوطي قال:

«ذكر العلماء أن النبي (ص) بشّر بالإمام مالك في حديث: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم بالمدينة»[2]

---

١ ـ [سورة الفتح، الآية ٢٩].

٢ ـ [أنظر مواهب الجليل للحطاب الرعيني: ج ١ / ص ٣٥ ؛ وانظر ما رواه الأكابر عن ⟸

وبشّر بالإمام الشافعي في حديث: «لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً»[١] وبشّر بالإمام أبي حنيفة في حديث: «لو كان العلم معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس»[٢].

وفي الحال اتصلت هاتفياً بالدكتور مصطفىٰ محمود، وقرأت له تفسير الكتبي وحقي، وقلت له: هل تجيزني أن أنسب هذا التفسير إلىٰ جميع السنة وأجعلهم والبابيين سواء كما فعلت أنت ونسبت الاثني عشرية إلىٰ ما نسبت لا لشيء إلاّ لأن واحداً منهم قال ما قال؟ فما زاد في الجواب شيئاً علىٰ قوله: «تمام، تمام، تمام».

⟸ مالك، تأليف محمد بن مخلد المروزي: ص ٥٩].

١ ـ [أنظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ٥١ / ص ٣٢٦].

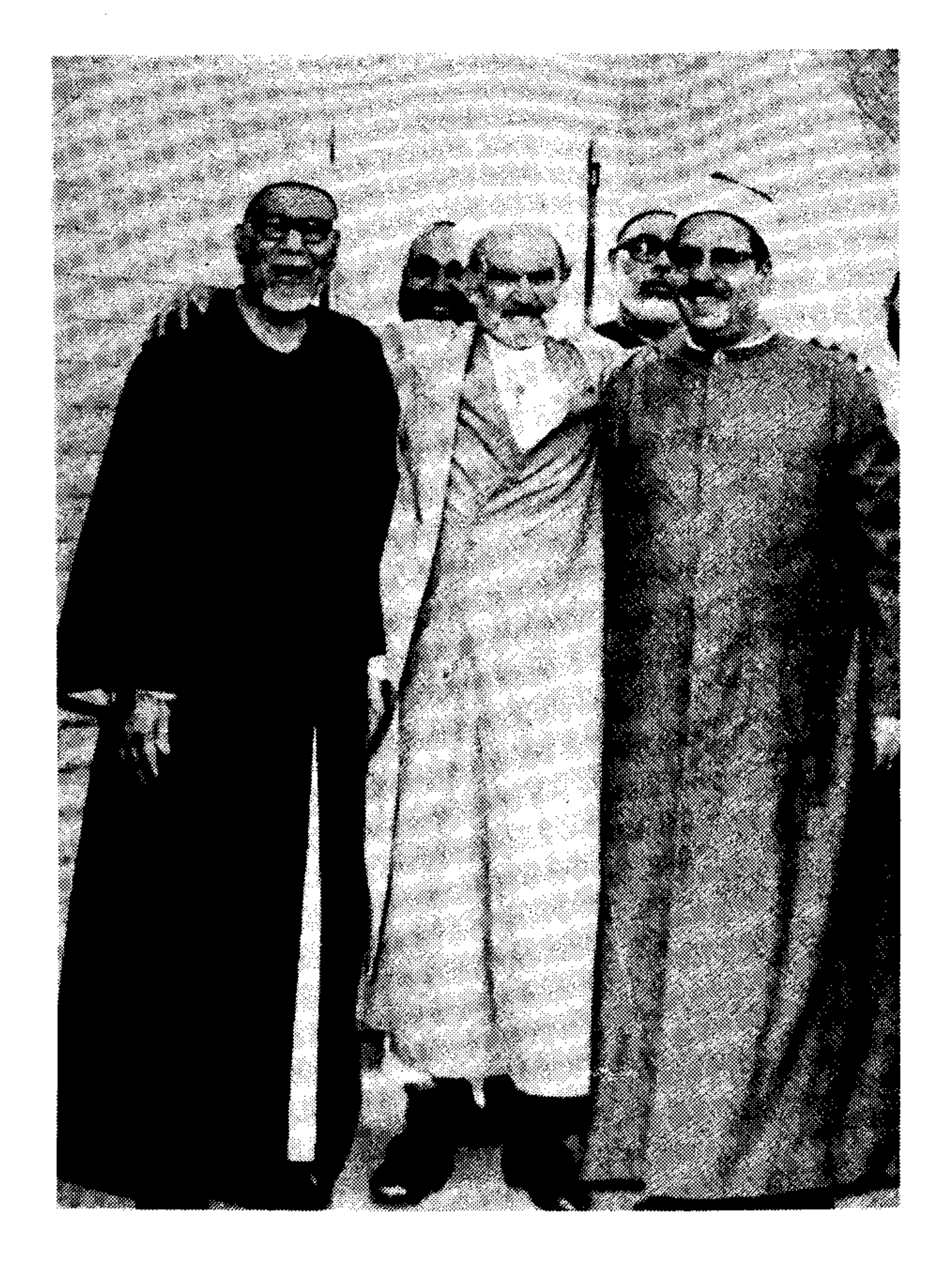
٢ ـ [أنظر سبل الهدىٰ والرشاد للصالحي الشامي: ج ١٠ / ص ١١٦، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].



الفصل السابع :

دعاة الدين





الشيخ محمد جواد مغنية في الوسط يضم إليه شيخ الأزهر محمد الفحام إلى اليسار، والشيخ أحمد الشرباصي عميد الأزهر إلى اليمين الصورة أخذت في قم إيران في ١٢ / ٧ / ١٩٧١ م



أخطأت وأيضاً سوف أخطئ

يستطيع عالم الطبيعة أن يتنبأ بحدوث ظاهرة معينة من ظواهرها، كالخسوف والكسوف وتقلبات الجو إذا ما أحاط علماً بالأسباب والعوامل التي تتحكم بتلك الظاهرة .. وهو يصدق في نبوءته دائماً أو غالباً، لأن احتمال الخلاف ممكن في كل شيء إلاّ في إرادته تعالى .. ولكن هل تسري هذه الحقيقة على الإنسان وسلوكه بحيث نستطيع أن نتنبأ بمستقبله أو بما سيحدث منه إذا أدركنا ميوله ودوافعه، وأن نصدق في نبوءتنا دائماً أو غالباً كما هو الشأن في التنبؤ عن ظواهر الطبيعة؟

الجواب:

أجل، لأن الإنسان جزء من الطبيعة، ولكن الصعوبة في إدراك دخيلته وما يعتمل فيها مما له أثر بالغ في تصرفاته وأفعاله، لأن العوامل النفسية يمكن إخفاؤها بالتمويه والتزوير، أما الطبيعة العمياء فلا تعرف النفاق والرياء.

والذي يهون الأمر أن الأحكام في الحياة الدنيا أجريت على الظاهر حتى يثبت العكس، أما الباطن فلله .. ومع هذا يجدر بالحكيم أن يحذر العواقب، ولا يغتر بالظواهر من الوهلة الأولى، بخاصة إذا استولى الفساد على الزمان وأهله .. وأعترف أني تسرعت وأخطأت في ثقتي بأفراد من المعممين، واندفعت معهم

اعتقاداً مني أنهم من أهل المبادىء لبادرة تومىء إلىٰ خير .. ثم تكشفوا مع الأيام واستبانت الحقائق. والحمد لله.

والخطأ ـ بالنسبة إلىٰ غير المعصوم ـ أشبه بالقضاء والقدر إلاّ أن يعتزل الناس كلية .. وقد يكون الخطأ في الاعتزال .. علىٰ أن خطأي في أولئك كان من وحي حبي للدين وأهله وطموحي لإعلاء شأنه وكلمته .. وقلت لمعمم: أنا معك مدافعاً ومناصراً ما كثر بك الصائمون والمصلون وإلاّ فأنا هنا. قال: هذا إنذار، قلت: أجل، وقد أعذر من أنذر .. هذه حقيقة لا ريب فيها، ولا يهمني أن ينكرها أو يتجاهلها ما دامت كذلك في نفسه.

وفي ذات يوم أثنيت علىٰ واحد ممن خدعني بكواذبه فقال لي من جرب الأمور وخبرها: مهلاً إن بعض الناس يبنون متجراً باسم معبد أو معهد .. وسوف تندم علىٰ ثنائك هذا، فقلت له: إن الخطأ في حسن الظن أحبّ إليّ من الصواب في سوء الظن. قال: هذا كلام شعري، إن الخطأ لا يتجزأ .. قلت له: إني إذا أيّدت أحد فإني غير طامع ولا راغب في شيء منه ولا من غيره، وإذا حاربته فإني أيضاً غير راغب في شيء منه ولا من غيره.

إذا اعتقدت بإنسان الإخلاص فإني أيّدته لوجه الله والحق وإذا بان لي العكس فأحاربه لوجه الله والحق، هدفي في الحالتين واحد. وبعد أمد قصير تبين خطأي فيما أثنيت، وصدقه في فراسته ... ومن المؤكد أني سأخطىء في حسن ظني مرة رابعة أو عاشرة، ولكن خطأي في هذا الظن لا يستوجب لوماً ولا عقاباً إذا لم يستحق المدح والثواب، لأني دائماً مع قلبي وصدق سريرتي والله سبحانه يعامل عباده بصدق السرائر وطيب الضمائر.

الألقاب والمعممين

جنة الأساطير:

أنا أكره الألقاب وأشعر بنوع من الكراهية الصارمة لمن يحبها ويتهالك عليها، وأراه شيئاً غريباً ومنفصلاً عن واقعه، وكل إنسان ينفر بفطرته ممن يخرج عن الإعتدال إلىٰ التطرف في أي شيء كان. إن معرفة النفس وتقديرها بما تستحق هي الخطوة الأولىٰ في طريق النجاح وانسجام المرء مع نفسه وواقعه.

ومن أعطى نفسه فضائل ليست فيها فقد عاش في جنة الأساطير تماماً كذلك الطفل المدلل الذي سأل أباه أن ينزل القمر من كبد السماء ليلعب به «فطبولا»[1] أو كهذا الشيخ الذي كتب بالخط الطويل العريض علىٰ ما جمع وطبع «تصنيف فلك الفقاهة، سلطان قلم التحقيق والنباهة، شيخ الطائفة، وقدوة مجتهدي الفرقة المحقة، نائب الإمام، وباب الأحكام، غياث المسلمين وحجة الإسلام، آية الله في الأنام الفقيه المخالف لهواه الخ». قطب وفلك وسلطان وغياث وباب وآية ونائب وحجة .. ولا مدلول وراء ذلك إلاّ الأحلام ومضغ الكلام!

ولا أدري كيف وصف هذا الشيخ نفسه بالعلو والشموخ أو رضي به ـ علىٰ فرض أنه من غيره ـ وهو مخالف لهواه وزاه في الرفعة والجاه؟ ولهذا الشيخ المغرق في المتاهات أكثر من شبيه. ويا للأسف.

---

١ ـ [يقصد الشيخ المؤلف لعبة كرة القدم].

المصفقون والمنافقون:

إن مكانة الإنسان وشخصيته تنبع من ذاته ومواهبه لا من الأزياء والألقاب، ولكن الذي يشعر بالنقص في نفسه قد يخيل إليه أن الكلمات والألقاب تسد ما فيه من فراغ، بعض الصغار يعاني من أوهام العظمة، فيتزيّا بالعديد من الأزياء الفارغة كتلك المرأة تحاول التدليل على مكانتها بما تحمله من جواهر، أو ذاك التافه يتصور نفسه من الخالدين، فيفقد طبيعته كإنسان، وقد تصفق له النظارة وتهلل، ولكن كلما زاد عدد المصفقين والهاتفين زاد عدد المداحين والمنافقين وراء الكواليس.

العرب والألقاب:

كان أكثر العرب قبل الإسلام أهل بادية يعيشون حياة بدائية قبلية. ومع ذلك كانوا أهل ذكاء ونباهة، وكانت معارفهم ثماراً لأذهانهم وقرائحهم النقية الصافية. ومن باب المثال نذكر من شعر زهير بن أبي سلمى هذين البيتين:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلاّ صورة اللحم والدم

وكانوا بطبيعتهم يمجدون الإباء وعزة النفس، ويرفضون الخضوع والهوان، ولذا قلما تجد في أقوالهم عبارات التفخيم وشارات التعقيم حتى للملوك

والرؤساء، وإذا نبغ فيهم شاعر قالوا: شاعر بني فلان أو النابغة الذبياني أو الجعدي منسوباً إلىٰ قومه وقبيلته، ثم تسربت عادة التعظيم إلىٰ العرب من الأعاجم كما تومىء هذه الرواية: «دخل رسول الله ﷺ السوق فاشترىٰ سراويل، ولما وثب البائع إلىٰ يده يقبلها جذبها النبي وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك إنما أنا رجل منكم»[1]. وكان يكره أن يقام له ويقول: **«لا تفعلوا فعل الأعاجم»**[2].

لا ألقاب طبقية في الإسلام:

يرفض الإسلام الطبقية وألقابها، وكان النبي ﷺ يكرهها كما أشرنا، ويؤكد أنه بشر مثل الناس، وعبد من عباد الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يعلم الغيب، وأنه ابن امرأة كانت تأكل القديد، وأنه يجوع ويعطش ويمرض وينام، وما هو بوكيل ولا بمسيطر علىٰ أحد، أما حق الولاية له فهي في طاعة الله ودينه وشريعته، في الحق وصالح الفرد والجماعة، واشتهر عنه وعن أهل بيته عليهم السلام: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**[3].

وفي كتاب دراسات في حضارة الإسلام للمستشرق الانكليزي هاملتون جب استاذ اللغة العربية في اكسفورد، ترجمة احسان عباس ورفيقيه ص ٦ طبعة سنة ١٩٦٤ م : «كانت التعاليم الأخلاقية التي جاء بها محمد ﷺ ترسيخاً لمعنىٰ الأخوة بين أفراد الجماعة الإسلامية. وأنهم سواسية من حيث القيمة الشخصية

---

١ ـ [الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ، للقاضي عياض: ج ١ / ص ١٣٣].
٢ ـ [المعجم الكبير، للطبراني: ج ٨ / ص ٢٧٩، وفيه: «لا تفعلوا كما تفعل الأعاجم»].
٣ ـ [من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج ٤ / ص ٢٥٧ / ٨].

دون نظر إلىٰ وظائفهم وثرواتهم ومكانتهم .. وقد تم ذلك كله علىٰ أساس الخضوع العلني لإله واحد».

وقال في ص ٢٧٠: «يرفض الإسلام وجود وسطاء بين الله والإنسان، ويضع كل الناس أمام الله دون أية واسطة».

وما يخدعون إلّا أنفسهم:

يوم كان للعالم الإسلامي حول وقوة وعلم وحضارة، كان للألقاب حدّ محدود لا يتعدّاه، فالخليفة وأمير المؤمنين لقب لرئيس الدولة الكبرىٰ، والفقيه أو العالم لقب العارف بدين الله وشريعته، ولما تفتتت قوة المسلمين إلىٰ دويلات وإمارات، واضمحلت الحضارة الإسلامية وساد الجهل والتخلف ـ كثرت الألقاب الفارغة في الأوساط السياسية والدينية، وتسمىٰ أمير القطر والناحية بالمنتصر والناصر والقادر والمقتدر والمظفر والظافر حتىٰ قال الشاعر الساخر:

ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأطلق لقب علامة وإمام وآية الله وحجة الإسلام علىٰ كل ذي جبة وعمة بلا مراعاة النظير حتىٰ اختلط الحابل بالنابل. وتدنس الطاهر النقي ورخص العالم التقي .. يضاف إلىٰ ذلك الصاق تهمة الخيانة والعمالة ببعض المتسمين باسم الدين الذين يحرّفون أحكامه لمصلحة أعداء الله والإنسانية! وهذا أعظم ما رزىء به الإسلام والمسلمون.

من هو العالِم ؟

أولاً: إن العالم بدين الله وشريعته ينوب عن المعصوم في الشؤون الدينية، والدين فوق الجميع، وعليه فكل منصب يمتّ إلى الدين بسبب فهو فوق المناصب مجتمعة، وجاء عن نبي الهدى ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء وأمناؤهم»** والنبوة لا تكون بالانتخاب ولا بمرسوم من ملك أو رئيس جمهورية فكذلك منصب العالم بدين الله. ومرسومه الوحيد صفاته ومؤهلاته لهذا المنصب، فهي التي تنص عليه وتنتخبه.

ثانياً: إن منصب العالم الجامع للشروط لا تناله يد الجعل والعزل، ولا يسقط بالاسقاط، لأنه طبيعي إلٰهي، وتوظيف العالم بمرسوم حكومي يعني أن هذا المنصب بيد الحاكم واختياره تماماً كالتوظيف في أية دائرة من الدوائر الحكومية .. وهذا خلاف الفرض، بالإضافة إلى أنه امتهان للدين وأهله.

ثالثاً: إن العلم بدين الله إنما يطلب للآخرة لا للدنيا، ولله لا للإتجار به وكسب المناصب، فإذا فتحت أبواب الوظائف لأهل العمائم كثر الدخلاء والأدعياء، كما هو الشأن في عصرنا، ولحق الأصيل دنس الدخيل، وذهبت هيبة الدين من النفوس، واستخف به أهل السفه والجهالة.

مهزلة المهازل:

في القديم .. لم يطلق لفظ علامة على رجل الدين إلاّ بعد أن يبلغ القمة في العلوم، ويفوق علماء عصره على الإطلاق، أما اليوم في هذا الزمن الرديء يُطلق لفظ «علامة» على كل معمم دونما استثناء، و «حجة الإسلام» على كل طالب غرّ، و «إمام» و «آية الله» على كل فارغ ومتزمت، و «مجتهد أكبر» على كل مدّعٍ، و «صاحب السماحة» و «صاحب الفضيلة» على كل جاهل وسخيف.

قال السيد محسن الأمين في الجزء ٣٣ من «أعيان الشيعة»: «كثر في هذا العصر إطلاق لقب علّامة على كل أحد، حتى أطلقه بعض المؤلفين في العراق على رجل عامي لا حظّ له بشيء من العلم».

وإن دلت هذه الفوضى على شيء فإنما تدلّ على كثرة الدخلاء والأدعياء الذين دنّسوا العلم، ولوثوا الأخلاق. وأساؤوا إلى الدين وأهله وعبثوا بقيمه ومقدّساته.

من هو المرجع ؟

في الفقرة السابقة أشرنا إلىٰ منصب العالم بوجه عام، وفي هذه الفقرة نشير إلىٰ منصب المرجعية والمرجع بوجه خاص. والذي عليه الشيعة قديماً وحديثاً أنهم يرفضون رفضاً باتاً أن يخضع هذا المنصب وصاحبه لأية فئة أو جهة أو سلطة، وأي إنسان كائناً من كان، ويتركون المؤمن وثقته بمن يرجع إليه في أمور دينية علىٰ أن يتحمل تبعة إرادته واختياره تماماً كما هو الشأن في الإيمان بالله .. وتلك هي من أخص خصائص المذهب الجعفري، والمصدر قوله تعالىٰ لنبيه الكريم صلى الله عليه وآله: **﴿أفأنت تكره الناس حتىٰ يكونوا مؤمنين﴾**[1].

وتسأل من هو الشخص الذي ينبغي للمؤمن أن يثق به، ويرجع إليه في أمور دينه؟ وما هو الطريق إلىٰ معرفته؟

صحيح أن الله سبحانه ترك أمر الإيمان به والتعبد له إلىٰ حرية الإنسان، ولكن بعد أن أقام له الدليل علىٰ وجوده، كما قال عز من قائل: **﴿إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾**[2].. **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق﴾**[3].

ونجد الجواب عن هذا السؤال في قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أما من**

---

١ ـ سورة يونس الآية ٩٩.

٢ ـ سورة الإنسان الآية ٣.

٣ ـ سورة فصلت الآية ٥٣.

كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فعلىٰ العوام أن يقلدوه»[١]. ومعنىٰ هذا أن عظمة المرجع الأعلىٰ لا تكمن في علمه بقدر ما هي في صلابته ومقدرته علىٰ مجابهة المغريات، وكبح الشهوات.

وقال فقهاء الشيعة: تثبت هذه الأوصاف بما فيها الرسوخ في العلم ـ بواحد من ثلاثة: الحس والتجربة، أو شهادة العدول من أهل الخبرة، أو الشياع المفيد للعلم .. وهذا الطريق الثالث هو المعول عليه في الغالب، فإن الكثرة الكاثرة من الشيعة لا يثقون إلاّ بمن حسنت سيرته، وقويت شخصيته، وعرفوا صبره واستمراره في التعلُّم والتعليم دهراً طويلاً حتىٰ تخرّج عليه العديد من الفضلاء والمجتهدين، واشتهر بالتقوىٰ والزهد والمروءة علىٰ أن تسير شهرته علىٰ هونٍ خطوة فخطوة، ولبنة فلبنة .. والشهرة التي تأتي مسرعة كالطوفان يضعون حولها أكثر من علامة استفهام.

أما نفقات المرجعية والدخل لمنصبها فمن الأخماس والزكوات والأوقاف والتبرعات يقبضها المرجع ويوزعها علىٰ الطلاب والمعوزين، من مال الله وفي سبيل الله، ومعنىٰ هذا أن المرجع الأعلىٰ يمثل دور الجابي والموزع في آن واحد، وأجره علىٰ الله .. أجل، يسوغ له أن يتناول منه بمقدار الكفاف لسد الحاجة الشخصية .. هذا ما تفرضه الأصول والقواعد، ومن أغمض عينيه عنها وجب العدول عنه إلىٰ غيره بالاجماع وضرورة المذهب.

---

١ ـ [الاحتجاج، لأبي منصور الطبرسي: ج ٢ / ص ٥١١ / ٣٣٧].

مهمة رجل الدين

كل منا يريد أن تخدعه نفسه، ولا يجيز لأحد أن يخدعه، ويود من صميم قلبه أن يكون واقعياً في جميع أموره وشؤونه ... ولكن كيف تتحقق هذه الأمنية لمن سيّره الجهل والغرور، والهوىٰ والأنانية ولا يرىٰ إلاّ نفسه ومشاكله، وهمومه وأولاده.

إن السبيل الوحيد إلىٰ هذه الأمنية أن ينقد الإنسان ذاته، ويصحح أخطاءه، وينظر إلىٰ الحقيقة والجوهر، لا إلىٰ الشكل والمظهر، فلا تخدعه الألقاب والكلمات البراقة، كسماحة الشيخ، وسيادة المطران، وعطوفة الرئيس ودولة الرئيس، وما إلىٰ هذه مما تداولتها ألسن المتكلمين، وأقلام الكاتبين.

لقد تهافت الكثيرون علىٰ الألقاب الدينية والزمنية، وعملوا لها بكل سبيل، وادعاها الدخيل قبل الأصيل، حتىٰ التبست الحقيقة علىٰ أهل الظاهر، ولم يميزوا بين الدعيّ وغير الدعيّ، ولا بين معاوية وعلي، ولا وسيلة للخلاص من دنس الدخلاء والأدعياء إلاّ أن ينتشر الوعي، ويعرف الناس كل الناس معاني الكلمات التي ينطقونها، ويسمعونها، ويحددون مفاهيمها أو تحدد لهم تحديداً صحيحاً دقيقاً.

وبديهة أن معنىٰ لفظ الشيخ والخوري، ومن إليهما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين، ولا ينفصل عنه بحال، وعلىٰ أساسه يوصف ويعرف، والدين كما هو في حقيقته ليس عمة ولا قلنسوة، ولا صليباً ولا هلالاً، وإنما هو قوة عليا منزهة عن

الجهل والهوىٰ. تخاطب الإنسان وتقول له صراحة: ليست المادة كل شيء، ولا تفرض نفسها علىٰ كل شيء .. إنها مجرد فصل من كتاب ضلّ من لا يعرف غيره، كما ضلّ من لا يعرفه .. إن وراء هذه المادة العمياء الصماء الحق الذي يعلو علىٰ كل شيء، والخير الذي دونه كل شيء، والجمال الذي يخشع له كل شيء.

هذا هو الدين كما نزل علىٰ الأنبياء، وكما صدع به النقباء حق وخير ليبلغوا به غاية الناس لا غاياتهم، ويحتجوا به للصالح العام لا لشهواتهم.

ومن خلال هذا التعريف تعرف من هو رجل الدين، وما هي مهمته ووظيفته؟ .. إنه مثال الحق والخير، والداعي إلىٰ الحق والخير باسم الإنسانية لا بدافع الطائفية، إن رجل الدين ذو قلب كبير، وصدر طاهر سليم لا يعرف الحقد والتعصب، إنه ظل الله في أرضه، ومنتدب من قبله، ليؤدي الأمانة التي عرضها الله علىٰ السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها من قامر وغامر بلبس هذا الثوب الشريف، وحسبه هيناً، وهو عند الله عظيم.

أجل، إنه شريف وعظيم، لأنه رمز لرسالة الله القدسية، وأقسم لو أدىٰ هذه الرسالة بأمانة وإخلاص لاستقىٰ الغمام بوجهه، ونزلت الرحمة من السماء بدعائه، وارتفع البلاء والوباء من الأرض ببركته وأقسم أيضاً أني لا أفهم كيف انتسب إلىٰ الدين وأهله، وهو لا يضرب بسهم في إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

إن الدين يرضىٰ منك أن لا تكذب ولا تخون، ولاترائي .. وأن تفعل الواجبات، وتدع المحرمات ملتزماً ذلك في سرك وعلانيتك .. ولا يرضىٰ ذلك أبداً من رجل الدين، وإنما يطلب منه أن لا يكذب، ويحارب الكاذبين، وأن لا يخون، ويحارب الخائنين، وأن لا يرائي، ويحارب المرائين، وأن لا يتعصب، ويحارب المتعصبين، يطلب منه أن ينظر إلىٰ كل شيء من خلال الفطرة الصافية النقية، والعقل النير النزيه، ولا يقسم الناس علىٰ أساس طائفي أو إقليمي أو

عنصري، بل على أساس الطيب والخبيث، والمخلص والخائن، والمحق والمبطل، فيبارك الطيب المخلص، ويبشره، ويخوف الخائن المبطل وينذره، وفي الوقت نفسه يعمل على الألفة والأخوة وجمع الشمل ما استطاع إليه سبيلاً.

الشيخ أبو زهرة :

هذه حقيقة نطق بها الشيخ أبو زهرة، وفي كتابه «الإمام جعفر الصادق» أمثلة كثيرة لعلمه وإنصافه، كما أن فيه موارد للنقد والنظر، وإني لأعترف له وللشيخ شلتوت رئيس الأزهر والشيخ المدني عميد كلية الفقه بمزايا حميدة على كثير من شيوخ الأزهر، أمثال الحفناوي صاحب كتاب «أبو سفيان» ومحب الدين الخطيب منفذ «الخطوط العريضة» وغيره من الذين كفروا الشيعة، إطلاقاً، وتحدثوا عنهم بروح الدس والعداء، حتى جعلونا نغض الطرف عن كل خطيئة ارتكبوها، إلاّ تكفيرهم للشيعة واتهامهم لهم بالخروج عن دين الإسلام.

إن موقف الخطيب من الشيعة، ومن إليه لا يمت إلى العلم والدين بسبب، أما موقف الشيخ أبي زهرة فهو موقف مذهبي يشوبه ـ كما هو المعتاد ـ شيء من التعصب الذي يباعد بين الأخوين، إلاّ أنه لا يبلغ مرحلة التكفير، والحمد لله. هذا، إلى أن الشيخ أبا زهرة لم يرض في كتابه جماعة من السنّة، كما أنه لم يرض الكثير من الشيعة.

في سنة ١٩٦٠ م اجتمعت بالشيخ أبي زهرة في دمشق، حيث اشتركنا معاً في مهرجان الغزالي، وكنت أنا ممثلاً للبنان وقضينا وقتاً ممتعاً وتحدثنا طويلاً فقال لي فيما قال: حين ألفت كتاب «الإمام الصادق» كنت على علم اليقين بأنه سيغضب السنة والشيعة معاً، لأني لم أقل ما يريد أولئك، ولا كل ما يريد هؤلاء.

فقلت له: نحن نرحب بكل نقد من أية جهة أتى، على شريطة أن يكون بدافع الإخلاص، متحرراً من رواسب الماضي ومخلفاته. ولا أخفي القارىء أني شعرت بالتقدير لشخصه، رغم أني لا أوافقه على كثير من آرائه، وكنت ـ قبل أن نلتقي ـ انتقدته في بعض مؤلفاته، ورددت عليه بمقال مطول ومفصل، وكان حين يقدمني لمعارفه يقول: هذا الذي رد علي وانتقدني.

وبالختام يكفي أن نتذكر ما كتبته الأقلام المأجورة عن الشيعة والتشيع لنكبر ونقدر الشيخ أبا زهرة في كتابه «الإمام الصادق».

مع شلتوت شيخ الأزهر:

ترجع معرفتي بشيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت إلى سنة ١٩٤٩ م حين ناقشت فتواه بجواز طمر الهدي وحرقه على صفحات رسالة الإسلام، ثم جرت بيننا كتابات ومراسلات، وقرأ لي، وقرأت له.

اجتمعت بالشيخ شلتوت في داره سنة ١٩٦٣ م فأهل ورحب، واستقبلني أفضل استقبال، وحين قدم لنا شراب الليمون، أبى إلا أن نشرب معاً من كأس واحد، فكان يشرب قليلاً، ويناولني الكأس، فأشرب من سؤره .. وجرى بيننا حديث الشيعة والتشيع، فأثنى وأطنب، وقال فيما قال: إن الشيعة هم الذين أسسوا الأزهر، وبقي أمداً غير قصير تدرس فيه علومهم ومذهبهم، ثم أعرض القائمون عليه عن هذا المذهب، فحرموا من نوره الساطع، وفوائده الجمة.

ومما قلته له: إن مكانتكم عند علماء الشيعة كبيرة وسامية، وقد تظنون أنتم، أو يظن غيركم أن السبب هو فتواكم بجواز التعبد بمذهب التشيع، والحقيقة أن العارفين من علمائنا ينظرون إلى فتواكم هذه، على أنها مجرد نظر واجتهاد، ولو

أفتيتم بالعكس لقالوا: هكذا أدىٰ نظره واجتهاده، قياساً علىٰ أنفسهم، وعملاً بمبدأ الاجتهاد الذي لم يقفلوا دونه الأبواب والنوافذ .. أجل، إن فتواكم هذه تنبىء عن الجرأة، وعدم المبالاة بلوم اللائمين في الحق والعدل، إن علماء الشيعة يحترمونكم، لخدماتكم الدينية، ونصحكم للإسلام، وأنهم مع كل من يناصر الدين، وينصح له كائناً من كان.

وأن من عقيدتنا نحن الشيعة أن الخلافة لعلي بعد النبي صلى الله عليه وآله. ولكن من عقيدتنا أيضاً أن لا نثير أي خلاف يضر بالإسلام، سواء أكان حول هذا المبدأ، أو غيره، تماماً كما فعل أمير المؤمنين مع الخليفة الأول، وقال: لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين. فالتفت الشيخ إلىٰ الحاضرين، وقال: إن السنة لا يعرفون هذه الحقيقة، ويجهلون نصح الشيعة للإسلام ونبيه.

ثم حدثني عن جرأته بعد أن قلت له: إن فتواكم تنبىء عن الإقدام والجرأة قال: في سنة ١٩٢٦ م أصدر المفتي الأكبر بمصر فتوىً تخالف الدين، فتصديت له، ورددت عليه في الصحف والأندية، فأحالوني علىٰ التأديب والمحاكمة، وجاء في قرار الإحالة يجب أن يؤدب «شلتوت»، حتىٰ لا يجرأ بعد ذلك الصغار علىٰ الكبار، فقلت في الدفاع: إن شلتوتاً ليس بأصغر من المرأة التي اعترضت علىٰ عمر بن الخطاب، ولا المفتي بأكبر من عمر.

فقلت معقباً: يقولون: إن لدىٰ الغرب صواريخ وقنابل ذرية، وما دروا أن لدينا نحن أهل الحق والإسلام قنابل وصواريخ أعظم أثراً، وأشد خطراً علىٰ الباطل، ولكنها تحتاج إلىٰ خبراء فنيين، كالشيخ شلتوت، تماماً كما يحتاج إطلاق الصواريخ، وإلقاء القنابل إلىٰ أهل الاختصاص فبان عليه السرور لهذا التشبيه.

وبعد، فإن أيامي في القاهرة، وإن كانت قصيرة وقليلة في عددها، فإنها كثيرة وكبيرة في أثرها، فلقد أرشدتني إلىٰ الكثير مما كنت أجهل، كما أنها وطدت العلاقة بيني وبين عدد من فضلاء الأزهر ورجاله، والله سبحانه المسؤول أن يكون

لهذه الرحلة أحسن النتائج والثمرات .. وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الحاكم والإمام:

قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» وهو يترجم للفقيه الإمام أبي يوسف: إن هارون الرشيد أحب جارية عيسى بن جعفر، فسأله هبتها أو بيعها فأبى وقال: حلفت بالطلاق والعتاق وصدقة جميع ما أملك إن بعتها أو وهبتها، فطلب الرشيد من أبي يوسف أن يوجد له حلاً شرعياً لهذه المعضلة. فقال أبو يوسف لعيسى هبه نصفها وبعه نصفها، ولا حنث في ذلك، لأنك ما بعتها كلها، ولا وهبتها كلها!

ففعل عيسى، وحُملت الجارية إلى الرشيد، وهو في مجلسه، فقال الرشيد لأبي يوسف بقيت واحدة، قال الإمام أبو يوسف ما هي؟ قال الخليفة: إنها جارية ولابد أن تستبرىء بحيضة، وإذا لم أبت معها ليلي هذا خرجت نفسي. فقال أبو يوسف: أعتقها فتصبح حرة، واعقد عليها بعد العتق فإن الحرة لا تستبرىء، فأعتقها الرشيد، وعقد له عليها أبو يوسف، وقبض مائتي ألف.

كل هذا العبث في الدين، وأكثر من هذا كان يحدث في المجتمع الإسلامي وما زال حتى يومنا هذا، والهدف من هذه البدع والتحايل على الدين تكييفه طبقاً لأهواء الأنظمة وأغراض السلطان.

تحليل الحرام وتحريم الحلال:

في سنة ١٩٢٧ م اجتمع علماء الوهابية، وحرّموا الرسم واللغات الأجنبية

والجغرافيا التي تقول بدوران الأرض وكرويتها مع أنّ الأرض مسطحة وساكنة، واللغة ذريعة للوقوف على عقائد الكفّار، والرسم تصوير وهو محرم أنكره علماء السلف، وتصدّىٰ لهم عالم قدير وطلبهم إلىٰ النقاش فرفضوا قائلين: لقد نهىٰ الشرع عن الجدال.

وتحريم الحلال بلا شبهة تماماً كتحليل الحرام، كلّ منهما سبب موجب للكفر والإلحاد، إنّ التشريع لله وحده، وما لأحد منه شيء حتىٰ الأنبياء والرسل، وأوامره تعالىٰ في التحريم أقل من القليل بالنسبة إلىٰ ما أباح وأحلّ كيلا يوقع عباده في العسر والحرج. ومن آياته: ﴿قُلْ مَنْ حرَّم زِينَةَ اللهِ الّتي أخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرزْقِ﴾[1]. ومنها: ﴿قُلْ أرَأَيْتُمْ ما أنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحلالاً قُلِ ءالله أذِنَ لَكُم أمْ عَلىٰ اللهِ تَفْتَرُونَ﴾[2].

مع الأردية الفضفاضة:

نشرت من قبل في جريدة جبل عامل طرفاً من تجاربي وردودي علىٰ أصحاب الأردية الفضفاضة الذين يزعمون بأن مهمتهم تنحصر في سبيل الله والدين، يدعون هذا، وهم يستوردون في الخفاء من مكاتب الاستخبارات التفرقة والضغينة والبغضاء، يبثونها بين الطوائف والفئات.

وعرف بأن البعض لم يكن به من علة إلاّ إرث التعصب عن بيته وبيئته، وأنه قال ما قال عن جهل وغباء، ولكنه التقىٰ في النتيجة مع الخائنين والمستغلين من حيث لا يحس ولا يريد.

---

١ ـ سورة الأعراف الآية ٣٢.

٢ ـ سورة يونس الآية ٥٩.

ويمكنني الآن أن أقص عليك أكثر من تجربة مع هؤلاء وأولئك لم أنشرها من قبل في صحيفة أو كتاب مما نشرت، وأتمنىٰ أن أصل مع الجميع إلىٰ نهاية، وأن يسد هذا الباب إلىٰ الأبد.

بعض الشيوخ:

في شهر المحرم من سنة ١٣٨٤ هـ وقف شيخ من مصر في مدرسة المقاصد ببيروت، وألقىٰ درساً علىٰ تلاميذها في إحياء ذكرىٰ سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام في الأيام العشر، وأنها بدعة، حتىٰ استبان للجميع بأن الدس علىٰ الشيعة هو الغاية الأولىٰ، أما العلم والتعليم فطريق ووسيلة.

وما أن علمت، حتىٰ اتصلت بسفير الجمهورية العربية المتحدة، وقلت له في ما قلت لقد مضىٰ علىٰ السنة والشيعة في هذا البلد الوادع أكثر من ألف سنة، وهم في أتم الوئام والوفاق، وقد حاول الاستعمار أكثر من مرة أن يشتت ويفرق ما بين الأخوين، فآب بخفي حنين، ويحاول الشيخ فلان أن يقوم بنفس الدور، وأخشىٰ أن يقول قائل: إنه يفعل ما يفعل بوحي من الجمهورية العربية المتحدة.

فإن تداركتم الأمر، وإلاّ أوقفناه علىٰ حده.

قال السفير: أسأل وأتحقق، فإن ثبت عليه أرسلته في أول طائرة تطير إلىٰ بلده.

قلت له: لم أشتر كلاماً من أحد، لأني ما بعته قط لأحد.

قال بمرونة السياسي المحنك: أشكر هذا الشيخ الذي أسمعني صوتك.

قلت: أجل، إنك تسمعه حين يكون الحق والتعاون علىٰ الخير.

قال: الآن يجري معه التحقيق.

قلت: يجب أن أشاهد وأرىٰ التحقيق بنفسي.

قال: أجل.

وبعد أن تركت سماعة الهاتف بـ ٥ دقائق رن جرسه، ودعيت إلىٰ مكتب البعثة الثقافية، فحضرت، وأُحضر الشيخ، وأجاب بعد السؤال بأن حفلات عاشوراء تفرق بين المسلمين.

قلت بكل هدوء: كلا يا شيخ، إنها تجمع المؤمنين، وتوحّد قلوبهم وكلمتهم علىٰ مناصرة الحق الذي استشهد الحسين من أجله.

قال: لقد قتل عثمان شهيداً، فلماذا لا تفعلون له ما تفعلونه للحسين؟

وقلت: إلىٰ متىٰ تحملون قميص عثمان؟

إنك تريد أن تمثل دور معاوية ولست هناك، وما نحن عنك بعاجزين، ولو شئنا لأمطرنا السماء عليك دماء، ألا تعلم أن دم الحسين هو دم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما عثمان من ذاك في شيء، وأنه قتل بتهمة المحاباة والانحراف عن الحق والعدل، وأن الحسين استشهد في سبيل الحق والعدالة.

وكان رئيس البعثة يستمع ولا يتكلم، فالتفت إليه، وقلت: قل للسفير: إن مغنية سجل قولك بأنك ترسل هذا إلىٰ بلده في أول طائرة إن ثبت عليه، وقد اعترف، وما بعد الاعتراف من دليل، وهنا، رجع الشيخ المسكين إلىٰ ربه، واعتذر عن ذنبه، فقلت له: نحن علىٰ مبدأ أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي يقوىٰ إن رأىٰ القوة، ويرحم إن رأىٰ اللين، فتب إلىٰ الله سبحانه، وإياك أن تعود واعتذر في الصف الذي قلت فيه ما قلت .. وهكذا كان .. وعفا الله عما سلف.

شيخ آخر:

هذا شيخ (منا) لا يعرف سوىٰ معدته وجيبه ولا وزن لسواهما في واقعه وحقيقته، فهما وحدهما مقياس الحق والدين عنده، وميزان العقل والعلم، ولكنه يبرر ويفسر جميع أقواله وأفعاله بالدين والشرع، ويقول ـ من حيث يشعر، أو لا يشعر ـ هذا ما أدىٰ إليه ظني، وكل ما أدىٰ إليه ظني، فهو حكم الله في حقي، فهذا حكم الله في حقي، وتكليفي الشرعي من ربي ... فيزعم أن أقواله وأفعاله كلها بوحي الدين والشريعة، وما هي في واقعها إلاّ من إملاء الشيطان، ومعدته وجيبه التي لا قعر لها ولا قرار.

قلب لا يفقه:

نشير إلىٰ أن المرأة إذا كانت مولعة بإظهار زينتها وجمالها، وتجسيم أنوثتها بكل أسلوب فإن كثيراً من الرجال مولعون بإظهار شخصيتهم وإلصاق الشهرة بهم، ولو كذباً وخداعاً، وإذا كانت المرأة تحقد وتحسد من ينافسها في الزينة والجمال فإن الرجال المولعين بالشهرة أكثر حسداً، وأشد حقداً علىٰ من له اسم يذكر .. في سنة ١٩٥٧ م نشر كاتب مصري كلمة يسخر فيها من فتوىٰ شيوخ الأزهر بتحريم لبس «المايو»[1] للمرأة، وقال فيما قال: إن الإسلام بريء من هذه الفتوىٰ .. فنشرت كلمة في الرد عليه، وأثبت أن شيوخ الأزهر نطقوا بكلمة الإسلام والقرآن، واستشهدت بآية: ﴿**ولا يبدين زينتهن**﴾[2].

---

١ ـ لباس البحر الفاضح.

٢ ـ [سورة النور، الآية ٣١].

وبعد أيام صادف أن زرت شيخاً مع أحد الزملاء، ولما استقر بنا الجلوس أقبل عليَّ الشيخ وقال: كيف تحلل لبس «المايو» وترد على شيوخ الأزهر الذين أفتوا بتحريمه؟

قلت: بالعكس، أيدت فتوى الشيوخ، وفندت رأي من رد عليهم.

قال: كلا، وقد احتفظت بالصحيفة التي نشرت فيها كلمتك لإجابتك بها.

قلت: هاتها .. فقام مسرعاً، وجاء بالصحيفة وشرع يقرأ بحماس كالظافر المنتصر.

قلت: ماذا رأيت؟ .. فبهت وأسقط في يده .. وحضر هذا المشهد ـ ولله الحمد ـ رفيقي السيد وشيخ من أقارب الشيخ ـ بالمناسبة ما زال الشاهدان من الأحياء، نحن الآن في صيف سنة ١٩٦٩ م.

ولا أجد تفسيراً لإقدام هذا الشيخ على تكذيب نفسه بنفسه إلاّ أنه ـ غفر الله له ـ كان يتمنى لي العثرات واللعنات، فأخذ يبحث بالسراج والفتيلة ـ كما يقول العامليون ـ ليشيعها ويذيعها، ولما قرأ اسمي في الصحيفة تحرك حقده الكامن المكبوت، وطغى حبه للتشهير بي على بصره وبصيرته، فأراه البياض سواداً، والحق باطلاً .. ولا بدع فإن البغض تماماً كالحب يعمي ويُصم، وصدق الله العظيم: **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولٰئك كالأنعام بل هم أضل أولٰئك هم الغافلون﴾**[1].

وما ذكرت هذا الحديث شاكياً أو متبرماً .. كلا، فقد علمتني التجارب أن لا أبالي بالكواذب، ولكن أملاه عليَّ القلم، ولم يدع لي سبيلاً للاختيار، وهذا شأنه معي كلما انصرفت إليه.

---

١ ـ [سورة الأعراف، الآية ١٧٩].

باسم الإسلام والمسيحية

باسم الإسلام انعقد مؤتمر في مصر، وآخر في الحجاز .. وباسم المسيحية انعقد مؤتمر الفاتيكان الذي جمع ٢٥٠٠ أسقف، وبلغت تكاليفه أكثر من ٢٠ مليون دولار ... واهتم أكثر من أي شيء بتبرئة اليهود من قتل «الإلٰه» مع اعتراف الجميع بأن الدين المسيحي ينص صراحة علىٰ أن اليهود وأولادهم من بعدهم يتحملون مسؤولية صلبه.

وبعد مؤتمر الفاتيكان انطلقت الدعوة إلىٰ الحلف الإسلامي تجر معها أو وراءها فكرة دمج الكتابين: القرآن والإنجيل في كتاب واحد .. وقبل الجميع انعقد باسم المسيحية مجلس الكنائس العالمي في سالونيك، ثم في نيودلهي، أما نداءات البابا محذراً من تردي الجنس البشري فلا تنقطع .. ولا ندري ماذا يحمل لنا المستقبل من الدعوات والدعايات .. اللهم أجر عبادك وبلادك ..

ومهما تكن تلك الدعوات فإنها لا تكون ولن تكون ـ كما عودتنا ـ لصالح فلسطين، وغيرها من البلاد المنكوبة في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية .. نحن نفهم الدين علىٰ أساس أن يحب الإنسان لغيره ما يحبه لنفسه، لا علىٰ أساس التحالف مع فئة ضد أخرىٰ.

دمج القرآن والانجيل :

ومن أجل هذا، وغير هذا تثير التكتلات والدعوات في أذهاننا أكثر من سؤال بخاصة التفكير والدعوة إلى دمج القرآن والانجيل، وضمهما معاً بين دفتين .. فهل هذا تحالف إسلامي مسيحي من نوع جديد متطور؟.. أو هو فيلم «عصري» يصور الترادف بين اللفظتين، والاتحاد بين المعنيين، أو الكتابين؟ .. أو لا هذا، ولا ذاك وإنما هو تيسير وتسهيل لأن يعتنق الإنسان الإسلام والمسيحية معاً، ويصير مسلماً ومسيحياً في وقت واحد؟ أو أن صاحب الفكرة يحاول أن يظهر عبقريته الفذة، فقدّم للناس آخر ما توصل إليه العلم في عصر الذرة والفضاء؟ .. أو أنه لم يكن جاداً، وإنما أرادها أن تكون نكتة سنة ١٩٦٦ م ، وعلى افتراض أنه جاد، فعلى حساب من يكون هذا الدمج على حساب الإسلام أو المسيحية؟

وسؤال أخير: هل من مسلم حقاً يرضى بهذا الزواج؟

لقد فهمت وأدركت الغرض من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، بل ألفت أنا كتاباً في فقه المذاهب الخمسة ... وفي العام الماضي تشكلت لجنة برئاسة شيخ الأزهر، لتضع موسوعة في الفقه على المذاهب الثمانية، لقد فهمت الغرض من الجمع بين فقه المذاهب الإسلامية، وأنه يحمل شارة التقريب بينها، والتوحيد بين أصولها ومصادرها، وأنه السبيل للنهوض بهذا الفقه، ونشره في الآفاق، والتعريف بكنوزه ومنافعه.. لقد فهمت هذا وأدركته، أما الجمع بين القرآن والإنجيل فلم أعرف له وجهاً يغريني به .. إن المسلمين لم يجمعوا بين كتاب الله، وسنة نبيه في كتاب واحد، مع العلم بأنها بيان له وتفسير، فهل يرضون بالجمع بين القرآن والإنجيل؟

ونصيحة لله أن ينطلق أرباب الأهداف في غير هذا الميدان ..

أقول هذا، وأنا أول المؤمنين بالوئام بين الناس بعامة، وبين المسلمين والمسيحيين بخاصة وبالوحدة الوطنية في لبنان بوجه أخص، وإيماني بهذا هو الذي دعاني إلى هذه الإيماءة. فإني أعرف الناس بما يترتب على الدمج من عواقب، وأقلها أن يفسر تفسيراً يوغر الصدور، ويثير الاتهامات ... أليس هذا احتمالاً ممكناً ومعقولاً، وموجباً للاحتياط؟

هيئة الأمم المتدينة في نيويورك ومعهد الدراسات الدينية في بيروت

منذ أمد غير بعيد زارني رجل أميركي، اسمه «جفرسون استمند» وعرّف نفسه بأنه ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية من أجل الإنسانية .. ومركزها الرئيسي في الولايات المتحدة. ورغم أني لم أفهم أي معنى لهذه الطلاسم والكليات، وكيف تمثل القوى الروحية على الرغم من ذلك سَكَتُّ وأصغيت لحديثه عسى أن أجد فيه التفسير والبيان ..

فابتدأ قائلاً: إن أعضاء المنظمة العالمية للقوى الروحية الإنسانية تحاول إيجاد هيئة من رجالات وقادة الأديان كافة على غرار الأمم المتحدة مهمتها البحث في القوى الروحية والأخلاقية للإنسانية ... فما رأيك أن تكون في هذه الهيئة وأحد مسؤوليها.

قلت: إن مشكلة الإنسان اليوم هي تسابق الكتلتين القويتين إلى التسلح، وتخصيص المليارات والمقدرات لأسلحة الخراب والدمار بالجملة، والناس تموت جوعاً بالملايين في الهند وغير الهند، فلماذا لا تهتمون بذلك، وتحددون مسؤولية الإنسان اتجاه أخيه الإنسان، وتحملون القوي على أن يعاون أخاه الضعيف، ويأخذ بيده، ويساعده على حل مشاكله بدل أن يمطره بالقنابل والصواريخ؟ .. مع العلم بأن الهدف الأول للأديان هو سعادة الإنسان، ومراعاة

الصالح العام، والقضاء على الحروب الكبيرة والصغيرة بشتى أشكالها وألوانها. وأنا على استعداد لأن أساهم في كل حركة تعكس الدين على حقيقته.

قال: ألم تحضر المؤتمر الإسلامي في الحجاز؟

قلت: كلا، أنا لا أعترف بهذا النوع من المؤتمرات التي تشكر تركيا صديقة إسرائيل، وساعدها الأيمن. وقد فهمت من سؤاله أنه أراد أن يقول: لماذا لم تتعرض المؤتمرات الإسلامية لذلك؟

وصاغ الجواب بصورة هذا السؤال، ثم قلت له:

وأين المقر الدائم لهيئة الأمم المتدينة؟

قال: الولايات المتحدة.

قلت: إن للأمم المتحدة ميزانية مالية ضخمة تقوم بها الدول الممثلة فيها، ومن تقوم بنفقات هيئة الأمم المتدينة؟

قال: نجمع لها التبرعات من «المحسنين».

قلت: إذن، تكون عرضة للمساومة، وللتزايد، وأداة طيعة لمن يدفع أكثر من غيره .. فسكت، ولم يجد الجواب .. ثم قلت له: هل اجتمعت بغيري من علماء الشيعة؟

قال: ابتدأت بك، وغرضي أن أفاتحك بإنشاء هيئة الأمم المتدينة، ومعهد ببيروت للدراسات الدينية، فهل «تشترك بهذا المعهد»؟

قلت: إذا اطلعت على منهجه وأهدافه أبديت فيه رأيي.

قال: سأذهب إلى النجف لمقابلة السيد الحكيم، وأرجو أن تزودني بكتاب منك إليه فكتبت إن لدى الناقل بعض الأفكار، منها إنشاء هيئة متدينة، ويريد أن

يعرضها على سماحتكم فالمرجو استقباله بما هو «أهل» فأخذ الكتاب شاكراً.

وبالأمس جاءني كتاب مطول من السيد جفرسون استمند باللغة الانكليزية قال فيه:

«إن تجاربي تغيرت منذ رأيتك، واجتمعت بك، وقد اتصلت في الشرق الأوسط وافريقيا بالكبار من الروحانيين، أما الجواب الذي سمعته منك فقد ألهب مشاعري، ولدي الآن حوالات مالية لمراحل إنشاء معهد أبحاث العالم الواسع الذي سيخضع لقوانين الولايات المتحدة لأن ذلك ضروري للحصول على مال وهبات وعطايا من أجل التعاون، وسأرسل لك بياناً عن مراحله وأرجوك أن تتصل بي، كما إني سأتصل بك، وفي الحقيقة أن سروري عظيم بمقابلتك».

جفرسون استمند ٢٠ أيلول ١٩٦٨ م

والحقيقة أني لم أتصل بالسيد جفرسون استمند وما زلت أحتفظ برسالته في درج الوثائق والمستندات.

وفي الحقيقة أيضاً إني لم أفهم معنى لأبحاث العالم الواسع، كما أني لم أفهم وأهضم ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية، ولكني أعلم علم اليقين أن أرباب الأهداف لا يكتفون بالمؤتمر الإسلامي، ومؤتمر الفاتيكان، ومجلس الكنائس، وإنما يريدون أن يوجدوا هيئة الأمم المتدينة لتطهر الإنسان من دنس الخطايا والذنوب، وما الخطايا والذنوب في مفهومهم إلاّ دفاع الإنسان عن حريته وكرامته، وحياته ومعيشته، والوقوف في وجه المستعمرين والمستغلين أما الحسنات وعلو الدرجات فلا يكون ولن يكون إلاّ بالحفاظ على القديم والتقليد التي تعود بنا إلى حياة القرون الأولى حيث الجوع والجهل، والذل والعبودية، وهذي هي بالذات القوى الروحية والأخلاقية للإنسانية.

وحتىٰ نأمن التورط في هذه القوىٰ يتحتم علينا اليقظة والتحفظ، والنظر إلىٰ أمثال هذه الدعوات والتحركات بريبة وحذر .. حتىٰ مع افتراض حسن النية والقصد من هذه التحركات .. وأن هيئة الأمم المتدينة تجمع وتنفع ومعهد أبحاث العالم الواسع سديد ومفيد ... حتىٰ مع هذا الافتراض فإن هناك ما هو أهم وأعظم ..

المدارس القرآنية :

نحن اليوم أحوج إلىٰ مدارس قرآنية بعد أن اختفىٰ القرآن، وتعاليم القرآن من الفراغ، وإلىٰ حشد القوىٰ والتضحية بالعنعنات والذاتيات من أجل الدين، لقد رأينا بالعين، ولمسنا باليد مظاهر الاستخفاف بالإسلام في أبنائنا، وتمردهم علىٰ أوامره وأوامرنا، ولا سر لهذا الاستخفاف والتمرد إلاّ تنشئة الجيل في المدارس علىٰ الأعراض والابتعاد عن كل ما يمت إلىٰ الدين بصلة.

لقد آن لنا أن نتعلم من الغير الذي عمل وصبر وصمد، ولم يستسلم للظروف والمصادفات وبلغ الغاية التي أرادها، وباركها كل مخلص لله ولدينه .. فهذي المدارس الدينية ومعاهده في بغداد والكاظمية تشع بنور الدين والإسلام، وتغرس في نفوس طلابها وروادها تعاليم القرآن ومبادئه إلىٰ جانب المعارف الزمنية واللغة الأجنبية، إنها الشجرة الطيبة التي أينعت ثمارها النافعة، وآتت أكلها علىٰ خير ما يرام، لقد زرت هذه المدارس في العام الماضي ١٣٨٤ هـ فرأيت بين أطفالها من الوعي الديني ما لم أعرف مثله في الكثير من الكبار، وتمنيت لو انتشرت وعمت المدن والأرياف.

إن قلب الطفل تربة طيبة وخصبة تقبل كل ما يغرس فيها، وينمو بسرعة،

فإذا نحن أهملناها استغلها عدو الدين، وانتزع منا ما هو أغلى من الأرواح والأموال .. وهنا يكمن الخطر الجسيم، ولا وسيلة للخلاص منه إلاّ بتعميم المدارس القرآنية التي تغرس في النفوس حب الخير، لا حب الوظيفة، وتعاليم الأئمة الأطهار لا تعاليم الملحدين والاستعمار، ومن أجل هذا أسجل تقديري وإكباري للسيدين: المسؤولين عن هذه المدارس، ولكل من سار ويسير على هذا الطريق القويم، وإن غضب الكسالى والمرجفون.

مع مستشرق

ولي تجارب كثيرة مع المستشرقين، ولكنها علمية، ولله الحمد، أشرت إلىٰ شيء منها في مجلة العرفان عدد تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ م، ولكن مرت بي تجربة مع بعضهم غريبة في بابها، بل هي وحيدة فيما أظن.

في صباح ١٥ / ٧ / ١٩٦٣ م زارني في بيتي مستشرقان: أحدهما إيطالي، واسمه (الاب روبير فوكا) والثاني بلجيكي، واسمه (الأب لفريد هافنيث) ويحسن الأول النطق بالعربية أكثر من الثاني، فقال لي فيما قال: قرأنا كتبك، وأعجبنا بها، ولكن رأيناك تتكلم عما وراء الطبيعة، ولا تتعرض لآراء المسيحيين وحملنا ذلك منك علىٰ عدم وجود المصادر لديك، وقد أتيناك بطرف منها، لترجع إليها وتنقل عنها حين تؤلف وتنشر، ثم ذكر الكتب التي صحبها معه.

قلت: أنا لا أكتب في مقارنة الأديان وتاريخها، وكل اهتمامي أن أوضح الفكرة بأسلوب يستسيغه شيء. ثم أدخلت الاثنين إلىٰ غرفتي الخاصة، وأريتهما الكتب التي أرادا تقديمها إلي في الديانة المسيحية، وأخرىٰ في موضوع التصوف المسيحي، وحياة السيد المسيح عليه السلام وتعاليمه وفي أغسطين، والأناجيل الأربعة، وغيرها، وحدثتهما عن بعض ما تحويه، فنظر كل إلىٰ الآخر نظرة الدهشة، وتكلما بما لم أفهم.

ثم سألني الاب (روبير): أين سكرتيرك؟ فنحب التعرف عليه؟

قلت: لا سكرتير ولا سكرتيرة لدي، فكل شيء أتعاطاه بنفسي، حتىٰ تهيئة

الحاجات الخارجية، فاستغربا كيف أنتج هذا الانتاج بدون معين.

ثم أريتهما اللمعة الدمشقية والقوانين، وما في صفحاتهما من الحواشي المستديرة والمكعبة، كما أريتهما بعض الصفحات من المدارك التي تبدأ الكتابة فيها من الزاوية العليا بخط يشبه دبيب النمل، فأخذهما التعجب والاستغراب، حتى كأنهما اكتشفا أبعد الآثار.

وبعد أيام جاءني كتاب هذا نصه بالحرف:

«فضيلة السيد الشيخ محمد جواد مغنية، ألف سلام وسلام من طرف الاب روبير فوكا. أما بعد فقد حظيت بمعرفتكم، بل بالزيارة في منزلكم مع رفيقي الاب الفريد، وطالما رغبنا في أن نعيد ونتشرف، لولا الظروف، واعلم أيها الشيخ أني طالعت بعض تآليفكم الغراء، واقتنيتها، وسررت في قراءتها، لحرصك على الاستشهاد بدليل العقل السليم، في أكثر المواضع، ويجب علينا نحن وإياكم رجال الدين البحث إكراماً للحقيقة، ولذا أسألكم عن موضوع يخصنا ويخصكم:

أولاً: ما هو موقف الإسلام الرسمي من صحة الإنجيل المتداول اليوم؟

ثانياً: ما هي الأدلة العقلية على بطلانه، مع أن القرآن صريح بالاعتراف به؟

فإذا تيسر لكم أيها الشيخ العالم أن تضعوا كتاباً في هذا الموضوع فلله الحمد، وإلاّ اكتفينا وقتياً برسم صفحتين، أو ثلاث، هذا مرغوبي أيها الشيخ، فأرجو أن لا تردني فيما طلبت، وأن تتفضل بالجواب من غير تسويف، وتراني شاكراً لك، وداعياً بالخير بدء وختاماً وتفضل بقبول أطيب سلام واحترام.

بيروت ٤ / ٣ / ١٩٦٤ م

الاب روبير فوكا

كلية الحكمة للموارنة

وليس من شك أن هذا الكتاب يثير أسئلة عديدة تتطلب أجوبة صريحة... مبشر بالمسيحية والإنجيل، يطلب من شيخ مسلم أن يرد على الإنجيل في كتاب، أو صفحتين، على الأقل، ويرجوه في ذلك، ويلح في الطلب ... إن وراء ذلك لسر، أي سر .. وعلى أية حال، فإن مجرد طلب الرد على الإنجيل هو رد عليه بالذات ولا أكتم القارىء أني ترددت أولاً في الجواب، ثم أجبت بما يلي:

تناولت كتابكم، وأقول مخلصاً: إني لا أود الخوض في هذا الموضوع، وما إليه، ومهما يكن، فإن لأي مسلم أن يجيب: ولماذا لا يؤمن المسيحيون بالقرآن، وما هو اعتراضهم عليه؟ وهكذا ندخل في جدال عقيم لا نهاية له، على أن هناك كتباً كثيرة مطبوعة ومنتشرة أبدى فيها المسلمون الملاحظات والأدلة التي طلبتموها، بخاصة المجلد الثاني من الرحلة المدرسية، ولو كان لدي نسخة منه لأرسلته إليكم.

والقرآن الذي اعترف بالمسيح أراد به المسيح الذي خلق من تراب، تماماً كما خلق آدم، حيث جاء في سورة آل عمران الآية ٥٩: **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾**.

واعترف بالانجيل الذي بشر بنبوة محمد، كما نطقت الآية ٦ من سورة الصف: **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾**.

ولا يجوز بحكم العقل والمنطق أن نحتج ببعض القرآن، ونترك البعض، فإما أن نأخذ به جملة، وإما أن ندعه كذلك، كما صرحت الآية ٨٥ من البقرة: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾**.

أقول هذا وأنا على يقين أن الأفضل لكم ولنا بصفتنا من أهل الدين أن نتعاون على تأدية رسالة المسيح وأخيه محمد، ونعمل على تحقيق أهدافها من

النضال ضد الظلم والاحتكار، وضد الاستعمار وتفريق الكلمة.

وبعد أمد جاءني من الاب (فوكا) كتاب طويل الاذيال عريض الأكمام، قال فيه:

كيف لا تريد البحث والنظر، وأنت الرجل الذي وهب حياته منذ صباه للدرس والتبيين والإعلان بروح الإخلاص على طرق علمية، وسبل عقلية .. وإني استلذذت بقراءة بعض تآليفك النفيسة التي بها اجتهدت لإثبات الإيمان بوجود الله، وحقيقة تنزيله، وإرساله الأنبياء، فإني رضيت بذلك، وأوجه إليك التهاني، أما معضلات الخلاف الجوهري بين المسيحية والإسلام فلماذا لا تريد أن تمد لها يد الاهتمام؟

وقلت أيها الشيخ المبارك: إن الأجدر بنا أن نشترك ونتعاون على الأعمال الخيرية والاجتماعية عوضاً من أن نخوض في المجادلات والمناقشات فنقول:

نحن لا نتغاضى عن تلك الأعمال إلاّ أن البحث عن الله أفضل يفوق تلك الأعمال فضلاً.

وكذلك رأيت في رسالتك صورة الضجر والاستبعاد من المجادلات والخصومات التي كثيراً ما تدمر عوضاً من أن تبني وتعمر، والحق معك، ولكني قصدت البحث السليم ومطلوبي يدور حول الإنجيل هل هو جدير بالثقة؟

هل هو كلام الله؟ وما هو الدليل على أنه ليس كذلك؟».

٣ / ١ / ١٩٦٤م

الاب روبير فوكا

أرأيت إلى هذا التناقض والتهافت؟ .. مبشر بالمسيحية يطلب من شيخ

مسلم أن يرد ويطعن بالإنجيل في لبنان بلد الطوائف والوظائف، والأناجيل والمصاحف، ثم يقول: (قصدي البحث السليم)! وماذا يعني هذا؟ إنه يعني ـ كما أفهم ـ أن تكون لبنان قبرص ثانية.

ولا شيء أحب إليّ من الحوار بين الأفكار والتحاليل الدقيقة والنظرات العلمية، فلقد عشت لها حياتي كلها منذ أربعين عاماً ... إني أحبها، وأخلص لها، ولكن على أساس النزاهة والتجرد للحق والواقع، لا بدافع من التعصب، وبثّ النعرات، وإثارة الخلافات وما أنا والإنجيل والتوراة؟ بل ما لي وللتابعي والجبهان والحفناوي والخطيب والوهابية، وفلان وعلتان؟ إذا لم يمسوا عقيدتي ومدرستي وعقيدة آبائي وأجدادي، وعقيدة طائفتي التي أقدسها، وأموت عليها وأحيا، وأضحي في سبيلها بالنفس والمال والأهل.

بصرف النظر عن قبرص، ومعها الكونغو أيضاً .. فإني أربأ بنفسي وعلمي وعقلي أن أنظر نظرة ضيقة، أو تقليدية غير متحررة بعد أن عشت مع الكتاب هذا العمر الطويل بل أربأ بنفسي أن تقف مع المتعصبين والمقلدين لأن التعصب يقف حائلاً دون الحقيقة، والتقليد يقفل باب الابداع والالهام .. ولكن لا أقف أبداً مكتوف الأيدي، وأنا أنظر إلى من يدس ويفتري علينا، ويحاول أن يهدم الجسور، ويقيم العراقيل بيننا وبين الذين يشهدون كما نشهد بالوحدانية لله، وبالرسالة لمحمد بن عبد الله، ويقدسون الكتاب الذي نقدس، ويحجون إلى البيت الذي نحج إليه، ويصلون إلى القبلة التي نصلي إليها ..

إن الدين والعلم والعقل يحتم عليّ وعلى كل ذي لب أن يضرب على يد من يرشق بالسهام، ويبث الخصام.

فكيف أرمي بيدي الإنجيل وغير الإنجيل؟! ... إن هذا لا يكون ولن يكون أبداً.

وبعد، فما أحوجنا إلىٰ وحدة الكلمة، وألفة القلوب، والنظرة الإنسانية الشاملة، ورفض المنازعات الدينية، والكليشات الموروثة، والتقليد المتحجر، والتعصب المرير ...

الإسلام والمبشرون بالمسيحية :

يحاول بعض المبشرين المسيحيين .. جهد المستطيع أن ينصّروا المسلم، فإن استعصىٰ عليهم حاولوا تضليله وتشكيكه في الإسلام، مكتفين أن يكون لا دينياً .. ولكنهم بهذا يسيؤون إلىٰ أنفسهم، من حيث لا يشعرون، لأن ضعف الإسلام كدين يوجه إلىٰ الإيمان بوجود مدبّر حكيم وراء هذا الكون ـ يعني انهزام جميع الأديان ورؤوسها الذين يسيرون في هذا الاتجاه، ومنهم القائمون علىٰ الديانة المسيحية .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**وما يضلون إلاّ أنفسهم ومايشعرون**﴾[1].

وعلىٰ أية حال، فإن الإسلام ومبادئه أقوىٰ من أن تهزمه الديانة المسيحية وغيرها من الديانات، فلقد دخل في دين الإسلام أفواج من الوثنيين وأهل الكتاب عن رضىً واقتناع، وفيهم العلماء والمتنورون، وما عرفنا واعياً واحداً ترك الإسلام بعد أن اعتنقه وعرف حقيقته.

قال الكونت الفرنسي هنري دي كاستري في كتاب «الإسلام سوانح وخواطر» فصل «الإسلام في الجزائر»، قال ما نصه بالحرف: «لقد شاهدنا الإسلام يبرهن علىٰ قوته وحياته باكتساب الوثنيين في افريقيا، وتجنيدهم تحت راية القرآن .. وليس من أهل الإسلام من يمرق عنه إلىٰ غيره.. ومن الصعب علىٰ أحد

---

١ ـ [سورة آل عمران، الآية ٦٩].

المسيحيين أن يُنصّر مسلماً، والسبب هو إعجاب المسلم كل الاعجاب بكونه من الموحدين».

وبالنسبة أشير إلىٰ هذه النادرة الطريفة: في العشرة الثالثة من هـذا القـرن، أعني القرن العشرين ذهب جماعة من المبشرين المسيحيين إلىٰ مدينة العمارة بالعراق؛ وجميع أهلها شيعة مسلمون، ذهبوا إلىٰ هذه المدينة بقصد تحويل أهلها أو البعض منهم إلىٰ النصرانية، وأنشأوا لهذه الغاية مدرسة ومستوصفاً في المدينة، وبثوا الدعايات، وأقاموا الحفلات، وبذلوا الأموال الطائلة .. وكان خطيبهم يعتلي المنبر، ويعدد، ويردد معجزات السيد المسيح عليه السلام .. ولكن كلما ذكر معجزة صاح المسلمون بأعلىٰ أصواتهم: صلوات الله علىٰ محمد وآل بيت محمد .. ولما تكرر ذلك مرات ومرات، ولم تجدهم الأموال والمدرسة والمستوصف نـفعاً يـئسوا وعادوا من حيث أتوا خائبين خاسرين.

افتراء بعض المستشرقين علىٰ الإسلام:

يوجد بين المستشرقين أفراد متعصبون مضللون، كما يوجد فيهم عـلماء طيبون منصفون، أشتغل أولئك النفر باللغة العربية، لغاية الدس والتجسس، وإلقاء الفتنة والشقاق بين المسلمين، وللطعن في الإسلام، وتشكيك الشباب في دينهم وعقائدهم. كل ذلك خدمة للاستعمار والمستثمرين. ونحن لا نخشىٰ علىٰ ديننا من مستشرق أو متحذلق، بل ولا من الإنس والجن، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، لأن نور الله لا يطفأ بالأفواه والأقوال، وحصنه أمنع من أن ينال منه المبطلون.

فإذا ذكرنا طرفاً من أقوالهم فإنما نذكره للتفكيه والتسلية لا للجواب والرد، وليعرف القراء مدىٰ الجهل الذي بلغه أعداء الإسلام، وأنهم إذا حاولوا الطعن فيه،

والتبشير ضده لا يجدون وسيلة إلاّ التحريف والتزييف وإلاّ الكذب والافتراء.

قال أدولف فيزمار: «كان محمد يحمل الناس بالقوة والقهر على الإيمان برسالته بدليل الآية ٩٩ من سورة يونس: ﴿**أفأنت تكره الناس حتىٰ يكونوا مؤمنين**﴾»[١].

لقد عكس هذا المستشرق معنىٰ الآية، وقلبه رأساً علىٰ عقب، فإن الله سبحانه أراد بها تسلية نبيه، والتخفيف عنه بعد أن رأىٰ منه التحسر والحرص علىٰ إيمانهم بالله، فهي أشبه بقوله تعالىٰ مخاطباً الرسول الأعظم: ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾[٢].

وقال الاب لامنس اليسوعي: إذا وافق حديث من أحاديث الرسول بعض آي القرآن يحكم بأن الحديث موضوع، وأنه دس علىٰ النبي!!

وهذا هو الدس بعينه، فقد اتفقت كلمة المذاهب الإسلامية علىٰ أن أحاديث الرسول بيان وتفسير للقرآن، وأن من جملة الشروط لصحة الحديث والعمل به أن لا يصادم كتاب الله.

وقال المستشرق نولدكه: إن أوائل السور في القرآن مثل «الم» ونحوها دخيل علىٰ القرآن وقد وضعت للإشارة إلىٰ أسماء بعض الصحابة الذين كان عندهم نسخ من سور قرآنية، فالسين من «طسم» إشارة إلىٰ سعد بن أبي وقاص، والميم في «الم» إشارة إلىٰ المغيرة بن شعبة، والهاء من «كهيعص» إشارة إلىٰ أبي هريرة، والنون من سورة «ن والقلم» إشارة إلىٰ عثمان بن عفان[٣] وهكذا.

---

١ ـ كتاب التبشير والاستعمار للدكتورين عمر فروخ ومصطفىٰ خالدي.
٢ ـ [سورة فاطر، الآية ٨].
٣ ـ كتاب «مع الله» للشيخ محمد الغزالي.

ومستشرق آخر، وهو الفريد جيوم أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن الف كتاباً اسماه «الإسلام» جاء فيه «أن محمداً في شبابه كان يقدم القرابين للات والعزىٰ»[١] ويدل علىٰ كذب هذا القول ما تواتر من أن محمداً لم يعترف بصنم منذ طفولته، «فقد جاء في قصة بحيرا الراهب أنه قال لمحمد ذات يوم، وقبل أن يبلغ سن الرجال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزىٰ إلاّ أخبرتني «بكذا» فقال له محمد: لا تسألني باللات والعزىٰ فوالله ما بغضت شيئاً بغضهما»[٢]. «وكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء فقال له الرجل: احلف باللات والعزىٰ، فقال له: ما حلفت بهما قط، وإني أعرض عنهما»[٣].

باحث عن الحقيقة:

مستشرق من ألمانيا الغربية، اسمه «كونتر ردمان» يتعاطىٰ في بلاده مهنة المحاماة، حائز علىٰ شهادة الدكتوراه في الحقوق، وكانت أطروحته لهذه الشهادة في التشريع الكنسي ويعكف الآن علىٰ كتابة أطروحة أخرىٰ في القياس، ليحصل علىٰ شهادة الدكتوراه الثانية من كلية الفلسفة، قسم الاستشراق بجامعة كولونيا، ويتكلم العربية بصعوبة، ويفهمها بيسر.

زارني في بيتي ببيروت مساء ١٠ / ١٠ / ١٩٦٤ م ثم أعاد الزيارة في صباح اليوم الثاني، وأطال المكث، أما الغاية التي زارني من أجلها فهي ـكما حدثني ـ أنه رأىٰ الغربيين حين يتكلمون عن الشريعة الإسلامية يقفون عند المذاهب الأربعة،

---

١ ـ رسالة الإسلام العدد الرابع السنة العاشرة.

٢ ـ [سيرة النبي ﷺ لابن هشام الحميري: ج ١ / ص ١١٧].

٣ ـ [تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر: ج ٣ / ص ١٥].

ويتجاهلون فقه الشيعة إلاّ المتعة، وإذا تجاوزوا إلىٰ غيرها قالوا: إن الشيعة يجيزون بيع أم الولد، ويقنتون في الصلاة، ولا يمسحون علىٰ الخفين في الوضوء، كما فعل «شخت» في كتابه الشريعة الإسلامية.

وقال لي الدكتور «كونتر» فيما قال: لقد رأيت أن أطروحتي في القياس تكون ناقصة غير وافية إذا أهملت وتجاهلت أقوال الشيعة وآراءهم، فذهبت إلىٰ النجف الأشرف في شهر أيلول من هذه السنة، ولا هدف لي إلاّ المعرفة والاطلاع، ومكثت فيها أسبوعين، واتصلت بزمرة من علمائها، وبحثت معهم في موضوع الأطروحة، وأرشدوني إلىٰ بعض المصادر، ورجحوا لي الاتصال بك، وأنني قصدتك لهذه الغاية، فاحترمته ورحبت به بعد أن تبينت أنه يبحث عن الحقيقة، ويطلب المعرفة مجرداً عن كل غاية.

فشرحت له القياس مفصلاً، وبكل وضوح، وذكرت رأي الشيعة بدقة وأمانة، وتفهمه بيسر، منها الفرق بين السارق والغاصب في الحكم، وأن الأول تقطع يده دون الثاني، مع العلم بأن كلاً منهما قد اعتدىٰ وأخذ المال بغير حق، فكنت قبل أن أذكر له هذا الفرق أسأله عن حكم السارق والغاصب في التشريع الألماني، وبعد أن يبين الفرق عندهم أشرح له الحقيقة عندنا، وهكذا سرت به علىٰ هذه السبيل، واستعملت معه هذا الأسلوب، حتىٰ اطمأن قلبي إلىٰ أنه بلغ ما أردت وأراد.

ولاحظت أنه كان قد فهم بعض الأحكام الشرعية خطأ .. من ذلك أنه كان يعتقد أن المرأة إذا حاضت في شهر رمضان يجب عليها أن تصوم، وتترك الصلاة، فأفهمته أنه يجب عليها ترك الصوم والصلاة معاً، وأنه لا فرق بينهما من حيث الأداء، وإنما الفرق في القضاء فقط، حيث يجب أن تقضي الصوم دون الصلاة، فاغتبط بهذا التنبيه والتصحيح.

إن من يتحرىٰ الحقيقة يطلبها في مظانها، ويشد الرحال إليها أينما كانت وتكون، إن الشيعة الإمامية ليسوا من الطوائف الباطنية، وعقيدتهم وفقههم وفلسفتهم ليست من الغيبيات وكتبهم في متناول كل يد، وعلماؤهم في كل مكان، والطريق إليهم واضح، فإذا تجاهلهم كاتب كسلاً، أو تحاملاً يكون الذنب ذنبه هو لا ذنبهم.

منذ ثلاث سنوات زارني مستشرق فرنسي، وقال: إني وضعت كتاباً في التناسخ، وأريد أن أذكر فيه رأي الشيعة، وقصدتك لمعرفة الحقيقة، وحين ذكرت له أقوالهم في إبطال التناسخ وفساده استغرب، وقال: إن صدر المتألهين الشيرازي يقول بالتناسخ، وينسبه إلىٰ الشيعة .. فقلت: كلا، أما منشأ اشتباهك فهو أن من علمائنا من يقول استناداً إلىٰ ظواهر بعض الأخبار أن المجرم يحشر يوم القيامة علىٰ هيئة بعض الحيوانات والحشرات عقاباً له علىٰ جريمته، فالمتكبر يحشر علىٰ صورة نملة تداس بالأقدام جزاء علىٰ علوه وشموخه، والمراوغ علىٰ هيئة الثعلب، والمؤذي علىٰ صورة الأفعىٰ، وهذا شيء، وتناسخ الأرواح في الدنيا شيء آخر.

ثم أرشدته إلىٰ المصادر المعتبرة، وقال لي: أريد الذهاب إلىٰ النجف الأشرف لهذه الغاية، وطلب مني أن أزوده برسائل وتوصيات، ففعلت، وسافر إلىٰ النجف، وبقي فيها أسبوعين، ورحب به العلماء، وهيأوا له ما أراد، وكان مسروراً، وأرسل إلي كتاباً من النجف يشكرني فيه، ويذكر علماء النجف وطلابها بكل خير، ويصفهم بالخلق الكريم، والعلم الغزير.

وبعد، فإن الغرض من هذه الإشارة أن أضرب مثلاً من هذا المستشرق، ومن الدكتور «كونتر» علىٰ أن من أراد معرفة ما عند الشيعة يمكنه الوصول إليها متىٰ شاء، وأن من جهل أو تحامل فهو وحده المسؤول عن تعديه وتجنيه، أو عن إهماله وتقصيره في طلب العلم والمعرفة.

الفصل الثامن :

خواطر وأفكار



العلاقات الزوجية

في سنة ١٩٥٢ م جاءني أربعة طلاب وثماني طالبات، كانوا يدرسون في إحدىٰ جامعات بيروت، وكان هؤلاء في صف واحد، فقال لهم أحد الأساتذة، وهو يلقي الدرس: إن الإسلام يبيح للرجل أن يضرب زوجته، وقد نطق القرآن بذلك، فتصدىٰ له طالب مسلم، وأنكر عليه، وأيد الأستاذ عدد من الطلاب والطالبات، وكثر بينهم الأخذ والرد، فقال التلميذ المعترض: هلموا معي إلىٰ الشيخ مغنية نسأله، فإن لم يكن عنده ما يقنع فأنا معكم، فأَتوا إلي وقصوا علي ما حدث.

قلت جاء في القرآن الكريم: **﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾**[١]. لقد جعل الله سبحانه حقوقاً للزوج علىٰ زوجته، فإن نشزت وتمردت علىٰ الحق نصحها الزوج بالحسنىٰ والكلام الطيب، فإن أبت إلاّ العناد ضربها ضرباً غير مبرح، ولا سبيل عليها إن استقامت علىٰ الطريقة المثلىٰ، بل إن الاسلام حرم ضرب الحيوان بدون سبب موجب.

لقد حدد القرآن نوع الصلة الزوجية بالمودة والرحمة، واعتبر الزوجة قطعة من نفس الزوج: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾**[٢]، **﴿وقد أفضىٰ بعضكم إلىٰ بعض وأخذن**

---

١ ـ سورة النساء الآية ٣٤.

٢ ـ [سورة الروم، الآية ٢١].

منكم ميثاقاً غليظاً﴾[١] .. **﴿وعاشروهن بالمعروف﴾**[٢] .. **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾**[٣]. وفي الحديث: «**الزوجة ريحانة وليست بقهرمانة**»[٤] .. «**استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان**»[٥].

ثم قلت للشابات: لستن من المعنيات بهذه الآية، لأنكن مهذبات متعلمات، تقمن بالحقوق الزوجية والوطنية على أكمل الوجوه، ولا تدعن مجالاً للزوج أن يعاقب أو يعاتب. إن المعنيات بالآية الزوجات اللاتي لا يؤثر فيهن النصح والهجر، ولقد شاهدت بنفسي حين كنت في قرى الشعب كيف تتمرد الزوجة الجاهلة على زوجها وجيرانها ولا يؤثر فيها ترغيب ولا ترهيب.

الدكتور سبوك:

هذا، إلى أن من علماء النفس والتربية كالدكتور المشهور بنجامين سبوك وغيره يرون ضرب الأطفال أمراً ضرورياً في تربيتهم، والكثير من النساء والرجال هم في عقول الأطفال، ولا يختلفون عنهم إلاّ في الشكل وكم كان لدرّة عمر من فوائد في ردع الباطل وزجر السارقين.

---

١ ـ [سورة النساء، الآية ٢١].

٢ ـ [سورة النساء، الآية ١٩].

٣ ـ سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

٤ ـ [فروع الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ / ص ٥١٦ باب إكرام الزوجة / ح ٣، وفيه: عن الإمام علي عليه السلام: «المرأة ريحانة وليست بقهرمانة»].

٥ ـ [عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الاحسائي: ج ١ / ص ٢٥٥ / ١٦، وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنّهن عندكم عواني»].

الزواج مبادلة روح بروح:

﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾. حدد الله سبحانه عقد الزواج بألفاظ ذكرها في كتابه العزيز، أوجب الوقوف عندها، والتعهد بها تماماً كألفاظ العبادة، وأضفى على عقد الزواج من القداسة ما أبعده عن كل العقود، كعقد البيع والإجارة، وما إليها، لأن البيع مبادلة مال بمال، أما الزواج فمبادلة روح بروح، وعقده عقد رحمة ومودة، لا عقد تمليك للجسم بدلاً عن المال.

وقال الفقهاء: إن عقد الزواج أقرب إلى العبادات منه إلى عقود المعاملات والمعاوضات، ومن أجل هذا يجرونه على اسم الله، وكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ .. وقال الشيخ محمود شلتوت: «إذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد في القرآن الكريم إلاّ تعبيراً عما بين الله وعباده من موجبات التوحيد، والتزام الأحكام، وعما بين الدولة من الشؤون العامة الخطيرة علمنا مقدار المكانة التي سما القرآن بعقد الزواج إليها، وإذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق «بالغليظ» لم يرد في موضوع من مواضعه إلاّ في عقد الزواج تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التي رفع القرآن إليها هذه الرابطة السامية عن كل ما أطلق عليه كلمة ميثاق».

هل الزوجة شريكة الحياة؟

الزوجة شريكة الزوج في حياته المادية طعاماً وشراباً وفراشاً، ما في ذلك ريب، ولكنّ هذه المشاركة بمجردّها لا توجب الإنسجام والالتحام في الروح والإرادة، ولا تستدعي تبادل الحب والثقة، بل قد تكون سبباً للتعب والشغب، قال

سبحانه: ﴿**إنّ مِنْ أزواجِكُمْ وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم**﴾[١].

إن علاقة الزوجة بالزوج من حيث هي أشبه بعلاقة الجار بالجار والشريك بشريكه في المتجر والعقار لا تغيّر الطباع ولا تمزج أرواحاً بأرواح ... أبداً لا سبيل إلىٰ التآلف والتعاطف بين الزوجين وغير الزوجين إلاّ علىٰ أساس قول الرسول الأعظم ﷺ: «**الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فما تَعارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، ومَا تَناكَرَ مِنْها اخْتَلَفَ**»[٢].

وقد يُظنّ أن الرجل المتعلّم لا يستطيع العيش مع زوجة جاهلة وبالعكس، وأنّ من شروط الهناء والصفاء بين الزوجين أن يكونا متشاكلين أو متقاربين وعياً أو جهلاً! والواقع يُكذّب هذا الظن، فكم من عالم طابت له الحياة مع زوجة جاهلة، وتجرّع ألف غصّة وغصّة مع زوجة مثقّفة ومتعلّمة .. إنّ العبرة بالخُلق والطبع لا بالثقافة والعلم، أجل إنّ العلم يُقرّب بين الآراء ووجهة النظر، ولكنّ هذا شيء، والسعادة الزوجية شيء آخر.

ومن جملة ما قرأت في هذا الموضوع انّ أعرابياً قال لزوجته التي لم تقنع بالميسور: أنا أسير نحو القناعة، وأنت تسيرين نحو الجشع والطمع، ويجب أن يكون كل من الزوجين علىٰ مثال الآخر تماماً كزوجين من الأحذية ومصراعي الباب، وهل رأيت ذئبة اقترنت بأسد؟

فصاحت الزوجة في وجهه وقالت: دعني من ترّهاتك وخزعبلاتك يا من بيته أوهىٰ من بيت العنكبوت أتتحدّث حديث القناعة وأنت تصارع الكلاب علىٰ

---

١ ـ سورة التغابن الآية ١٤.

٢ ـ [من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق: ج ٤ / ص ٢٥٧ باب النوادر، آخر أبواب الكتاب /ح ٨، وفيه: من ألفاظ رسول الله ﷺ الموجزة التي لم يسبق إليها. تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].

العظام؟ لا تنظر إليّ باحتقار، وتتوثّب عليّ كالذئب الأحمق وإلاّ أخبرتك بحقيقتك وما في عروقك.

فقال الزوج: هل أنت امرأة أم أنت مصدر الآلام والأحزان؟ إن الغضب حملك على سبّي وشتمي، لقد أُصيب رأسك بالدوار، فرأيت الدنيا تدور، ولا شيء يدور سواك .. وا أسفاه! .. إنّك لا تفهمين لتعرفي روحي ومكنون قلبي، إن الله خلق المسك لأهل الإحساس وليس لفاقد حاسّة الشم .. فإمّا أن تسكتي، وإما أسكت أنا، وتركت منزلي إلىٰ غير رجعة.

ولما رأت الجدّ منه أخذت تبكي، والبكاء قوّة النساء، وجاءته من طريق آخر، من إحساسه وعاطفته وقالت له: أنا تراب لقدميك، إنّ كياني لك والحكم حكمك، وحبّذا لو متّ قبلك، إنّ خُلُقك الكريم شفيعي إليك، فلترأف بي يا من طبعه أحلىٰ من العسل.

وعندئذ ذاب الرجل، وندم حتىٰ كأنّه الظالم والمعتدي وقال لها: أنت روحي، وأنا المسيء فاغفري وارحميني.

وهكذا ينهار الرجل، ويفقد كل ما يملك من قوّة ورجولة أمام عاطفة المرأة حتىٰ ولو كانت رياءً ونفاقاً، ولا بدع فإنّ المرأة شهوة الرجل، قال سبحانه: **﴿زُيِّنَ للناس حُبّ الشهواتِ من النساء﴾**[1]. والإنسان صريع الشهوات وأسير الرغبات.

قال جلال الدين الروميّ ما معناه إن الرجل يغلب المرأة في الظاهر كالماء يطفىء النار، ولكن النار تجعل الماء يغلي حين ينحصر في القدر، وهكذا الرجل تأسره المرأة وتقهره إذا أصبح سجين هواه ومناه.

١ ـ سورة آل عمران الآية ١٤.

الحب :

الحب فضيلة، بل أصل الفضائل كلها، لأنه المنهج المرسوم لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، ومعنىٰ حب الفرد للآخر، أن يحب له ما يحبه لنفسه ويبغض ما يبغضه لنفسه، ولا معنىٰ لحب البشر بعضهم بعضاً إلاّ الاخوة والمساواة والتكافل والتضامن، وبه تستقيم الحياة، ويعيش الفرد والجماعة والشعوب في دعة وأمان، وفي الحديث الشريف: «لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا»[١]، «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلىٰ الله من أحسن لعياله»[٢].

وهل للحياة من معنىً وللإيمان من وزن بلا حب، ومن هنا كانت هدفاً ومثلاً أعلىٰ في كل دين وشريعة وكل مذهب وفلسفة «إن الله خلق الإنسان ليحب» وليس هذا بغريب، فإن المظالم والمآسي مصدرها البغض والكراهية والغرائز الشريرة عند الإنسان، وعلىٰ النقيض فإن الحيوان لا يعرف حقداً ولا حسداً ولا ضغينة وانتقاماً وإذا قتل وافترس فإنه يفعل ذلك بدافع من حاجته الضرورية التي تساعده علىٰ الحياة والبقاء، ومتىٰ شبع فلا شيء يدفعه إلىٰ القتل والعدوان، وبهذا يكون الوحش بريئاً حتىٰ وهو يلتهم فريسته، وهو أفضل من الإنسان الذي لا ينتهي لؤمه وظلمه وعدوانه إلىٰ حد ...

---

١ ـ [رسائل الشهيد الثاني، للشهيد الثاني: ص ٣١٠، وفيه: «لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا ولن تؤمنوا حتىٰ تحابوا».
وكتاب مسند زيد بن علي لزيد بن علي: ص ٣٩٠، وفيه: «لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا»].

٢ ـ [كشف الخفاء للعجلوني: ج ١ / ص ٣٨٠، وفيه: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب الناس إلىٰ الله تعالىٰ من أحسن إلىٰ عياله»].

كان الإمام زين العابدين عليه السلام يتضرّع إلى الله سبحانه أن يبدّل بغض الحاسدين له بالمودة، وتهمة الصالحين له بالثقة به، وعداوة القرابة بالحب، وعقوق الأولاد بالطاعة، وخذلان الأقربين بالمناصرة، وحب المداراة بحب الموالاة والخوف بالأمان.

السعادة :

يرى بعض المؤلفين أن السعادة تتم للإنسان إذا توافرت له هذه الأركان الأربعة: الصحة، والكرامة، والحياة الزوجية الهانئة، والمال.

هذا الرأي قد نظر إلى السعادة من خلال ذاتية الفرد وحاجته، وتجاهل الواقع ... وإلاّ فأين الشعور بمشاكل العالم، وآلام الناس ومآسي البشر؟ وأين الخوف من الوقوع في الأخطاء؟ ومن سوء العاقبة والمصير؟ إلى ما لا نهاية من الهموم التي تتكدس وتتراكم على القلب.

والحق أن السعادة المطلقة في كل شيء وسائر الأحوال لم تتحقق لإنسان .. وأحسب أنها لن تتحقق إلاّ في غير هذه الحياة .. أما السعادة نسبياً وآنياً فقد مرت بكل إنسان ولو في عهد طفولته، ومن المفيد أن نوضح السعادة النسبية بالبيان التالي:

إن للاستمتاع بالحياة مظاهر شتى، منها التمتع بالربيع والأشجار، والشلالات والأنهار، ومنها تذوق الشعر والفن، ومنها الاطمئنان والخلود إلى الزوجة والصديق، ومنها التلذذ بالحديث والمطالعة، إلى غير ذلك من المتع واللذائذ الروحية.

ومن مظاهر المتع المادية النساء والمال والبنون، أما الخيل والأنعام

والحرث فتدخل في المال، لأنها من جملة أقسامه وأفراده، تماماً كالذهب والفضة، ولكن هذه اللذائذ والرغائب بشتى مظاهرها لا تحقق السعادة المطلقة للإنسان، لأن الدنيا لا تصفو لأحد من جميع الجهات فإن كان في يسر من العيش شكا الأمراض والأسقام، وإن جمع بين الصحة والثراء شكا من بيته أو أرحامه؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**وإن جانب منها اعذوذب واحلولى أمرَّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً، إلاّ أرهقته من نوائبها تعباً**»(١).

أما السعادة النسبية، أي في حال دون حال، فلا يخلو منها إنسان. وخير مثال يوضح هذه السعادة ما قرأته في بعض الكتب، قال صاحب الكتاب(٢): «خرجت عائلة إلى النزهة، فيها نساء وأطفال، وعم وخال، وأب وجد .. ولما بلغوا جميعاً المتنزه تقلب طفل على العشب، ونضد آخر عنقوداً من الاقحوان، وصنعت الأم شطيرة وسندويش، ونهش العم تفاحة ذات ماء، وأدار الخال اسطوانة على الحاكي، وتمدد الأب على الثرى، يتطلع إلى قطيع من الغنم، واستغرق الجد في تدخين غليونه».

إن كل واحد من هؤلاء استشعر الغبطة من نفسه، ولكن في هذا الحال، لا في سائر الأحوال، لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا توجد هذه السعادة إلاّ في الحياة الآخرة .. ولأجل هذا قال عز من قائل بعد ذكر النساء والبنين والأموال: **﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾**(٣).

---

١ - [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ٧ / ص ٢٢٦ خطبة ١١٠].
٢ - كتاب صيني يشرح فلسفة كونفوشيوس.
٣ - [سورة آل عمران، الآية ١٥].

رأيي في اللغة العربية

إن في اللغة العربية مرونة لا يعادلها شيء:

أولاً: نجد لكل كاتب أسلوب يختص به، فمن أسلوب طه حسين إلىٰ أسلوب التابعي، ومن أسلوب جبران إلىٰ أسلوب المنفلوطي، ومن شعر امرىء القيس إلىٰ شعر عنترة ومن البحتري إلىٰ المتنبي.

ثانياً: إن اللغة العربية تبلغ درجة من الوضوح، بحيث تفهم كاللغة الشعبية، والمعنىٰ الواحد تستطيع صياغته بكلمات وعبارات لا يفهمها إلاّ الخاصة، وتستطيع صياغة ـ المعنىٰ نفسه بعبارات يفهمها الجهّال.

ثالثاً: إن اللغة العربية تنقل معها إلىٰ القارىء أحاسيس الكاتب وشعوره، فهذه الفكرة بالذات يكتبها كاتب بشعور ملتهب، فإذا قرأها القارىء التهب شعوره كالكاتب، ويكتبها آخر بجمود ودون إحساس، فيقرأها القارىء كذلك بنفس الجمود وبلا إحساس.

وكنت أقرأ عبارة معقّدة وثقيلة في كتاب، وبعد سنوات أقرأها منقولة بين هلالين في كتاب آخر وإذ أراها في هذا الوسط غير ما رأيتها أولاً لأن الكاتب قدير وبليغ.

لابد من الاتصال بأفكار الغرب بطريق أو بآخر، ولا مفر إطلاقاً لأي مثقف أو واعي إلاّ أن يتصل بالثقافة الغربية ولو عن طريق المتصلين بالغرب كأمين

الريحاني وزكي نجيب محمود وطه حسين وأمثالهم أو عن طريق مجلة عالم الفكر الكويتية الآن والفكر المعاصر من قبل وغيرهما.

ما يكتب ...

كتب إليّ رجل يطلب أن أكتب بعصمة الأنبياء، وآخر أن أضع كتاباً بالزعماء، وثالث طلب مني أن أرد على أحد الشعراء لأنه قال إن المتنبي مجهول الأب ورابع في السفور، وخامس أن أشرح خطبة الزهراء، وكتب أحدهم يسألني عن أموال المسلمين في العالم والشيعة بوجه خاص ...؟

ومن طريف ما جاءني كتاب يفتتحه صاحبه بهذه العبارة «سبحان بهرت جواهر حكمته العقول، مرج البحرين يلتقيان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان سماحة العلامة المجتهد الحجة .. الخ الخ ... محمد جواد مغنية». وآخر طلب مني رسمي وألحّ، فأرسلته له، فكتب إليّ مرّة ثانية يقول: «كنا مستغرقين ومندهشين ونحن نتأمل الصورة وقد لاح ظهور التعب في وجهكم مما لاقيتموه من الملحدين والمتعصبين الخ الخ ...».

وجاءني مرّة كتاب بواسطة عبد الله اليافي رئيس الوزراء في لبنان يهددني الكاتب بالقتل ويقول: «سنريح منك العالم الإسلامي» وآخر كتب يشتمني ويقول: «يا شيوعي، يا ناصبي، يا رافضي، أنت تقول علي أولى بخلافة النبي ...».

وقرأت شخصياً في ملفي بالسفارة السعودية في بيروت أني أتكلم على

الصحابي الجليل معاوية .. وأغرب الكتب التي كانت تضايقني هي التي تطلب مني أن أدفع ظلامات الملوك والجائرين. وربما بلغت صفحاتها السبعة أو الثمانية بالقطع الكبير. وجاءني مرّة رسالة مديح من القطيف تستغرق قراءتها ساعتين على الأقل، حتى كأنه لا عمل لي أبداً.

تأتيني رسائل من أفراد في البلاد العربية تمدح عبقريتي وتثني على جهادي، والنتيجة أن صاحب الرسالة يطلب مؤلفاتي مجاناً، وكأني أزرعها في أرضي كالبصل ويطلب أهل القرية ورقة منها أو رأساً، يطلبها السائل على أن أرسلها وأدفع أجرة البريد مع العلم بأني لا أكلف أحد شيئاً.

وكم أخجلني أفراد من كثرة الإلحاح فاشتريت لهم من مالي الخاص وأهديتهم، ولاحظت من بعض الشيوخ عندما طلب وألحّ علي فلما أهديته رماه ولم يقرأ منه شيئاً.

وإذا اضطررت لعدم الإجابة أو لم أر سبباً للجواب يرسل إليّ بعضهم ثانية وربما ثالثة لماذا لم تجب، وكأنه لم يفهم أن عدم الجواب في هذا الباب جواب.

إن كتبي معروضة للبيع في المكاتب ومن رغب فيها فهي في متناول يده، وإني أعرف في نفسي إذا أردت كتاباً بذلت في سبيله الغالي، حتى ولو كلفني شراؤه ترك القوت، وقد طلبت كتباً كثيرة في الأقطار الأخرى، ومرة اضطررت أن أتكلم بالتلفون، إلى القاهرة ليرسل إليّ كتاب محمد والحرية للشرقاوي.

متفرقات

المرأة تجعل من زوجها الشاب عجوزاً، ومن العجوز شاباً، وأعوذ بالله من امرأة السوء والولد العاق.

زوجة الفلاح هي الزوجة الوحيدة التي تشارك زوجها في حياته كلها ويشاركها الزوج في جميع حياتها، زوجة الفلاح هي المرأة الوحيدة في الشرق التي تعمل وتنتج كالرجل وتتحمل مسؤولياتها الكاملة في الحياة، ويا حبذا لو أن كل الزوجات في مختلف طبقات المجتمع تنتج وتعمل كالرجل وتشارك في تقدم الأمة ورفعة شأنها.

في ذات يوم كنت في سيارة للركاب، وكنت جالساً على المقعد الأمامي، وغلامان لا يتجاوز كل منهما ١٧ سنة من العمر على المقعد الخلفي، فسمعت أحدهما يقول للآخر: هنيئاً لك أبوك غني عنده أموال وأملاك كثيرة فقال زميله: ولكن «هذا اللعين ما كان يموت». وعندها قلت في نفسي: لسرٌ ما يربي الغربيون الكلاب ويألفونها أكثر من الأبناء.

في ٢ نيسان ١٩٦٦ م كنت في شتورة على عادتي ولما غابت الشمس حملت كتبي وقصدت الفندق إذا بسيارة خصوصية تقف ويقول لي سائقها بأدب جمّ: هل من خدمة؟ قلت: شكراً قال إلى أين؟ قلت: إلى الفندق. قال: تفضل، وكنت متضايقاً من حمل الكتب، ولما فتحت الباب قال: أنا ذاهب نزول وليس طريقي إلى الفندق.

قلت: مع السلامة. قال الله يسلمك ومشىٰ فضحكت وقلت: يجب أن يمر بالإنسان مثل هذه التجربة الغريبة.

لبنان بلد العجائب، يرتقي الإنسان فيه ويقبض الألوف لا لشيء إلاّ لأنه ماروني، سني أو شيعي أو درزي، وأيضاً في لبنان يُسحق الإنسان ويُقتل لا لشيء إلاّ لأنه ماروني، سني أو شيعي أو درزي. لا أظن أنه يوجد في العالم كله وطن عجيب غريب كهذا الوطن ...

قرأت مرّة أن أجهزة الاعلام في أميركا تعلن عن قمصان ومناشف وثياب داخلية للكلاب بعد الاستحمام.

عجبت ممن يحب الظهور ويسلك له كل سبيل، حتىٰ ولو أضرّ به وبالناس أجمعين.

عجبت ممن لا يسمع منك وأنت المحب لأنك تخالف هواه، ويسمع من عدو لأنه يوافق هواه.

أحب الخير لكل الناس حتىٰ لأعدائي وأتمنىٰ أن يكون كل إنسان عالماً وثرياً من صميم قلبي.

أحب العلم وأتشاغل به من نوع كان ويكون.

من تجاربي أمور ثلاثة:

أولاً: إني تعلمت أن لا أهتم بمن لا يأتي إلي ولا أفكر به علىٰ الإطلاق حتىٰ ولو اعتاد زيارتي.

ثانياً: لا أهتم بمن يسبني ويفتري عليّ الكذب لأني لا أستطيع أن أقفل فمه عن الكلام؛ وكلامه يذهب مع الريح ولا أثر له علىٰ ديني أو صحتي أو رزقي.

ثالثاً: لا أهتم بمن يدعي ما ليس فيه ولا أفكر في ذلك فقد ادعىٰ فرعون الربوبية، ثم ماذا ...، وأيضاً لا أستطيع أنا أو غيري أن نردع ونمنع، ولا ضير بذلك علي.

الجدل:

دلتني التجارب أن الجدل لا يسوغ بحال إلاّ إذا توقع كل من المتناظرين الخطأ في تفكيره ووطن نفسه علىٰ التسليم بالحق متىٰ ظهرت دلائله، أما من يعتقد سلفاً بصوابه وخطأ نظيره فلا تجادله إطلاقاً لأن في ذلك مضيعة للوقت.

قال لي يوماً قائل: إنك مدحت في كتابك عمر بن عبد العزيز مع أنه لم يتنازل عن الخلافة، قلت علىٰ كل حال لم أنكر ضرورة من ضرورات الدين ولو تنازل عمر بن عبد العزيز لما وصل الحق إلىٰ أهله علىٰ أية حال.

أما الشباب الحزبي فإن لم توافقه علىٰ مبادئه وكان غير شيوعي فأنت شيوعي، وإن كان شيوعياً فأنت رجعي وإذا خالفته في رأيه فأنت عميل، مع العلم بأن الوطني باستطاعته أن يخلص لبلده ويخدمه دون الانخراط في حزب من هذه الأحزاب ...

جاءني رجل مرة يقول: إن بعض المؤلفين وضع كتاباً في فضل عائشة فيجب أن ترد عليه، قلت: ألست أنت مؤمناً؟ قال: بلىٰ قلت: هي أمك.

عرفت أشخاصاً يرون الشيء بالحس والعيان ويدركونه بالفعل والمنطق ومع ذلك يأبون إلاّ أن يفسروا الأمور بما يرغبون وبما تقضيه مصالحهم.

إن السكوت عن الهدي إلىٰ الدين أشد خطراً من الدعاية إلىٰ الفساد، يجب

أن نتجرد عن كل مسحة حزبية ومذهبية، وننصح الناس، ونرشد الأمة إلى الدين، وندعو إلى التسامح ونحارب التعصب، ونضحي بكل غال وعزيز في سبيل الوطن والإنسان، وإلاّ فأن حكم التاريخ علينا سيكون قاسياً.

أصدّق كل الناس للوهلة الأولى ثم أنتبه أن فيهم الكاذب والصادق ولكن بعد فوات الأوان.

العِمّة واللحية يبعثان على الغرور، فإذا لبس أحدهم ثوب العلماء، بعث هذا اللباس بنفسه الغرور والكبرياء والتعاظم من حيث لا يشعر.

داء بعض الشيوخ، أنهم بموجب مهنتهم، لابد أن يرشدوا وأن يعلموا الناس ويقولوا لهم إتقوا الله، وهم في الوقت نفسه كسائر الناس، يسيرون مع أهوائهم وأطماعهم، فتتضاعف جريمتهم.

التفكير وترتيب الأقيسة المنطقية، وتنظيم القضايا العقلية مهنة وصنعة تماماً كسائر المهن، يجلس الشيخ على مقعده ويفكر في موضوعه ويرتب الفكرات ثم يقول هذا جائز وهذا محال، دون أن يمت هذا القول إلى واقع الحياة بصلة، لأنه يخلق لنفسه عالماً ووجوداً لا وجود له ويستمر في الدوران في عالمه الوهمي.

قال المطران امبروز ومز أسقف جنوب أفريقيا في ١٦ / ٨ / ١٩٥٨ م جريدة التايمس اللندنية: «يتحول في كل شهر ألفان أو ثلاثة آلاف افريقي عن دينهم إلى الإسلام، لأن الإسلام أداة فعالة للقضاء على العنصرية».

أجل إن الإسلام خطر كبير على العنصرية والصهيونية والرأسمالية والشيوعية، على الظلم والاستعمار والمستعمرين أعداء العدالة والحرية.

لا خطر على الإسلام من الشيوعية لأن الشيوعية تناقض الإسلام فكراً

وعاطفة وفي النهاية العقيدتان لا يلتقيان. إن الإسلام هو الخطر على الشيوعية وسيثبت التاريخ قريباً صدق هذه الحقيقة.

شعار علي لا أداهن في ديني وشعار خصومه إنّ لله جنوداً من عسل.

كل ما ينفع خير وكل ما يضرّ شرّ وجوداً كان أو عدماً هذا هو الدين.

في الأسبوع الذي اختاره الله إليه، خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله إلى الناس فخطبهم قائلاً: «أيها الناس من شتمت عرضه فهذا عرضي، ومن ضربت ظهره فهذا ظهري، ومن أخذت ماله فهذا مالي»[1] يا للعظمة والجلال!! صاحب القوة والسلطان يدعو البر والفاجر والخبيث والطيب إلى الانتصاف منه. يريد سيد العظماء وخاتم الأنبياء بهذا الموقف أن يعطي درساً للجبابرة وأصحاب القوة والسلطان بأفعاله قبل أقواله. وبعد ... هل يتّعظ بفعل وقول الرسول الأعظم، حملة السلاح في لبنان.

---

١ ـ [أنظر الأحاديث الطوال، للطبراني: ص ١٠٦ ؛ وانظر تاريخ مدينة دمشق: ج ٤٨ / ص ٣٢٣].

الفصل التاسع :

رحلات





في احضان الطبيعة التي احبها



في مشهد الإمام الرضا عليه السلام

في مساء اليوم الأخير من رمضان المبارك من عام ١٣٨٢ هـ، ١٩٦٣ م، طرت من بيروت إلىٰ إيران دون أن أعلم أحداً من الأهل والأصدقاء قاصداً زيارة الإمام الرضا عليه السلام التي كنت أتشوق إليها من سنوات وسنوات.

وبعد ليلتين ويوم كامل طرت من طهران إلىٰ خراسان مشهد الإمام الرضا عليه السلام، واستغرقت المسافة ساعتين، وما أن دخلت خراسان، حتىٰ شعرت بأني خلقت خلقاً جديداً، كإنسان تلقىٰ العفو بعد أن حكم عليه بالإعدام، وأيقن بالموت، أو منطلق من سجن، قضىٰ فيه سنوات تحت الأرض، أما سبب هذه الفرحة المفاجئة، وهذا الابتهاج اللاشعوري فلم أفكر به، أو ألتفت إليه آنذاك .. وقد خيل إليّ الآن، وأنا أكتب هذه الكلمات إنه الإحساس بشرف التوفيق والهداية إلىٰ زيارة مقام الإمام الرضا عليه السلام.

مشهد:

وبعد، فإن الحديث عن مشهد الإمام الرضا عليه السلام طويل مشعب الأطراف، فقد تقدم هذا البلد العظيم الأمين الصفوف، واحتل الصدارة مدىٰ الأجيال، وسجلات التاريخ حافلة بأسماء الشخصيات الخراسانية، كالخواجة نصير الدين الطوسي، والإمام الغزالي، والمحقق الخراساني صاحب الكفاية، ومن إليهم، وما

زال، حتىٰ اليوم يعمل علىٰ نشر العلم وخدمة الدين، ويأتي بأطيب الثمار وأنفعها، ولكن بصمت وهدوء، فإن فيه من علماء الدين ألفين ومائتين، وتأتي مشهد في الدرجة الثانية من قم بإيران، وتشاركها والنجف الأشرف في كل ما لهما من خصائص وامتيازات ... وإلىٰ جانب هذا توجد المدارس والمعاهد والكليات الحديثة، وفيها الألوف من الأساتذة والطلاب.

ومن دواعي الأسف أن يكون لمشهد هذه المكانة، ثم لا تحتل محلها اللائق بين الشعوب من الشهرة، حتىٰ عند الشيعة أنفسهم، وأن لا تجد من يعرف بها وبحقيقتها حتىٰ من أبنائها.

ومن هنا كان العدد الخاص من العرفان بمقام الإمام الرضا عليه السلام كتاب الساعة، فقد نوه بخطورة هذا البلد، وآثاره الجليلة، ولفت الأنظار إلىٰ رجاله وأبطاله، وكأن العناية الإلهية قد حملت المغفور له الشيخ أحمد عارف الزين إلىٰ هذه الأرض الطيبة، لينتقل منها إلىٰ رضوان ربه، ثم حملت ولده إليها لزيارة مقام الإمام، وقبر أبيه ليقدم للأجيال صورة حية قوية عن عظمة المشهد ومن فيه وما فيه.

شيخ بهائي:

كنت أذهب إلىٰ الحضرة الشريفة مرة في النهار، والثانية في الليل، وبعد الزيارة والصلاة أجلس منفرداً في بعض الزوايا، وكانت تتوارد علي في هذه الجلسة أفكار وصور لا تمت إلىٰ عالمنا هذا بسبب قريب أو بعيد، وذات مرة، وأنا قابع في زاويتي رآني شيخ إيراني، فجلس إلىٰ جانبي. وقال: من أي البلاد؟ قلت: من جبل عامل. فقال: به به ـ أي بخ بخ ـ شيخ بهائي رحمه الله. وكان إذا مر به زائر

يقول له: تعال تعال، وانظر هذا الشيخ فإنه من بلد شيخ بهائي[١].

فقلت في نفسي: إذا سئلت بعدها فلن أذكر جبل عامل، لأني هربت إلى الله من الناس ومن نفسي وميولها، ومن كل شيء، هربت إليه سبحانه خائفاً راجياً أن يرحم ويغفر، وتوسلت إليه بكل سبيل، حتى بالعفو والصفح عمن أساء إليّ، ونالني منه أذىً، وانتهك مني حرمة، عسى أن يكون ذلك صدقة مقبولة، وعوضاً عن منّه تعالى وعفوه وكرمه، أما من أدركته مني إساءة، ولحقته مني ظلامة فقد توسلت إليه عزوجل أن يرضيه عني من فضله، ويفيه حقه من خزائنه، ويخلصني من جميع ما علي من ديون وغرامات له وللناس، وما ذاك على الله بعزيز .. والذي جرأني على هذا الطلب شعوري بأني لاجيء في أرض الإمام عليه السلام مستجير بحرمه الشريف.

وفي اليوم الثاني احتجت إلى ركوب التاكسي، وما أن تحركت خطوات، حتى سألني السائق عن بلدي؟ فقلت: لبنان، فقال: به به .. شيخ بهاء.. فدمعت عيناي من غير شعور وأدركت للحين أن الفضل في احترام الإيرانيين للعامليين مدى الأجيال يعود إلى هذا العظيم .. ولكني فكرت ملياً: ما هو السر لتعظيم هذا الشيخ وخلوده، حتى يعظم ويكرم كل من ينتسب إلى بلده وأرضه؟ .. هل هو علمه وكشكوله ومخلاته؟ كلا، فكم عالم كتب وألف، ولم يكن له ما كان لهذا العظيم من القداسة والخلود، إذن لا سر إلاّ تعلم لله، وعمل لله وحده لا للشهرة، ولا لمنافعه ومنافع أبنائه.

---

١ ـ هو الشيخ بهاء الدين العاملي هاجر من جبل عامل إلى إيران في القرن التاسع هجري وتوفي فيها ودفن في صحن الإمام الرضا عليه السلام وكان يقيم في إصفهان عاصمة الدولة الصفوية يومذاك وله فيها آثار خارقة تدل على تضلعه في مختلف العلوم والصناعات لم تزل حتى يومنا هذا موضع تقدير وإكبار، وله شعر ومؤلفات مشهورة منها (كشكول البهائي) وهو غير البهاء صاحب البدعة البهائية.

لبنان بلد الخبز والحرية :

وكنت إني توجهت في طهران، وخراسان: في الحضرة المقدسة، والأوتيل، والمكتبة، والسيارة، والحانوت، في المجالس العامة والخاصة، وعرفت أني غريب من لبنان يوجه إلي هذا السؤال، وأظن أن الإيرانيين يوجهونه لكل غريب، وهو: هل تستطيعون التعبير عن أفكاركم بحرية؟ وهل يجد العامل والكاسب السبيل إلى الحياة الطيبة له ولأولاده؟ وهل تعيشون في أمن وهدوء؟

وكنت أجيب بأن كل لبناني يتمتع عندنا بالحرية الكاملة، ويعبر عن أفكاره متى شاء، وأين أراد في الصحف وفي المحافل، ومن على المنابر، حتى الأكراد الذين يعيشون في لبنان ولا يحملون هوية لبنانية يعيشون بتمام الحرية، وربما امتاز لبنان بأنه ليس للحكومة فيه صحيفة تخصها وتبرز أعمالها مهما كانت وتكون، وإنها تستمد قوتها من البرلمان فقط، لا من الصحف وما إليها.

هذه لمحة خاطفة، ومجمل سريع لذكريات الليالي الخمس التي قضيتها في مشهد الإمام الثامن عليه السلام ولو انتقلت بالقارىء من شعور إلى شعور، ومن صورة إلى صورة، ومن لفتات النفس إلى وحي الضمير والعقل، من بداية هذه الرحلة الروحية إلى نهايتها لطال القول، واستغرق كتاباً لا مقالاً أو مقالين.

والله سبحانه المسؤول أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، وأهل مشهد الأكرمين.

في القاهرة

بعد أن انتهيت من بعض مؤلفاتي شعرت بضيق الصدر، وشيء من الاعياء ورأيتني بحاجة إلىٰ الراحة، وترك القراءة والقلم إلىٰ حين، تماماً كما يحتاج المريض إلىٰ العلاج، ولكن ماذا أصنع إذا لم أكتب، ولم أقرأ؟ هل ألهو برسم الألواح، أو نظم الأشعار؟ ولست رساماً ولا شاعراً .. فلم يبق إلاّ أن أجلس لوحدي غارقاً في بحر من التأملات والتخيلات .. وهذا أسوأ عاقبة من الجهد والاعياء.

إما أن يكتب إنسان، أي إنسان في عزلة، أو يقرأ ويفكر في عزلة، دون أن يجد من يتجاوب معه في أفكاره وشعوره، أو يسكن إليه من أتعابه وأوصابه، أمّا هذا فلابد أن يصيبه العناء والاعياء، مهما كانت الدوافع والمغريات، والصلاة والسلام علىٰ من قال: «إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم»[1].

وقد ابتغيت سبيل الفرار من الملل، فلم أجده بلبنان، فعزمت علىٰ السفر إلىٰ القاهرة، واخترتها لأسباب، منها أني لم أزرها من قبل، ومنها أني أستطيع فيها العزلة والتنكر الذي أحبه وأهواه .. وقررت أن أمكث فيها ١١ يوماً، أتنكر في ثمانية أو تسعة، وأعلم الأصدقاء بمكاني فيما بقي، وطرت إليها من بيروت مساء ١١ / ١٠ / ١٩٦٣ م ، واستغرقت المسافة حوالي ساعة.

---

١ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٨ / ص ٢٤٦ باب الحكم والمواعظ برقم ٨٩].

مسجد الإمام الحسين :

ركبت التاكسي من المطار إلىٰ الفندق، وفي الصباح الباكر ذهبت إلىٰ مسجد الإمام الحسين عليه السلام، وقد بلغ الغاية في العلو والسعة طولاً وعرضاً، وفي الحائط الجنوبي باب من الساج مُحلّىٰ بخطوط من الفضة، يؤدي إلىٰ غرفة كبيرة في وسطها قفص من النحاس، تعلوه قبة ضخمة، والناس يطوفون بالقفص، يقبلونه، ويتضرعون إلىٰ الله بالدعاء، يسألونه قضاء الحاجات، وما أن دخلت هذه الغرفة، حتىٰ اهتزت أعصابي هيبة ورهبة، مع علمي بأن الحسين عليه السلام مدفون في كربلاء، لا في القاهرة، ولكن مجرد اسم الحسين يلهب النفوس، ويفعل فيها فعل السحر.

وقد دمعت عيناي، وأنا أنظر عجوزاً قابضة علىٰ القفص بكلتا يديها، وتقول: هو وديعتك يا ابن رسول الله .. فظننت أن لها ولداً مريضاً أو غائباً.

ورأيت رجلاً كهلاً واقفاً اتجاه القفص، ويشير إليه، ويحده بنظراته، ويخاطبه بصوت خافت، ثم يقف بين لحظة وأخرىٰ علىٰ أصابع قدميه.

ورأيت طفلة لا تتجاوز الثامنة من عمرها تقبل القفص، وتدعو بحماسة الأطفال وبراءتهم.

وعلىٰ الاجمال فإن الصورة التي شاهدتها في القاهرة لا تختلف في شيء عما كنت أراه في كربلاء من الشيعة، إنها واحدة، لأن المصدر واحد، وهو اعتصام المسلمين كافة بالآل الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام، والتقرب إلىٰ الله ورسوله بحبهم وولائهم.

وبجانب الغرفة التي فيها القفص مسجد خاص بالنساء يجتمعن فيه بعد الزيارة للدعاء، وتلاوة القرآن، وقد رأيت بينهن الكثيرات من الشابات، تماماً كما

هي الحال في كربلاء والنجف.

ولما ذهبت إلىٰ المقام المنسوب إلىٰ السيدة زينب رأيت الناس يقبلون الأعتاب والأبواب، ويطوفون حول القفص، تماماً كما يفعلون عند المقام المنسوب إلىٰ أخيها، ورأيتهم يتزاحمون ويتسابقون إلىٰ وضع أيديهم علىٰ اسمها الشريف المكتوب علىٰ القفص، ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم، تماماً كما يفعل حجاج بيت الله الحرام بالحجر الأسود.

وغريبة الغرائب أن بعض الكتاب من أبناء السنة يهاجمون الشيعة، لأنهم يزورون، ويتبركون بمقامات أهل البيت، وينسون أو يتناسون ما يفعله أبناء طائفتهم في المقام المنسوب إلىٰ الحسين، والمقام المنسوب إلىٰ السيدة زينب، مع العلم بأن ما يفعله الشيعة بكربلاء والنجف هو عين ما يفعله السنة بالقاهرة.

الأزهر:

ذهبت من مسجد الحسين إلىٰ الجامع الأزهر، وهو قريب منه، لا فاصل بينهما إلاّ عرض الطريق، وكنت قد تخيلت الأزهر عظيماً في علوه وسعته، وأنه يغص بالعلماء وحلقات الدرس، فوجدته دون ما تخيلت بكثير، حتىٰ شككت وساءلت نفسي: هل أنا في الجامع الأزهر؟

ومهما يكن، فقد رأيت شيخاً مسناً، وأمامه أفريقي أسود متكىء علىٰ إحدىٰ يديه ماداً رجليه، والشيخ يلقي عليه درساً في حروف الجر، ويقول: يدخل حرف الجر علىٰ الظاهر، كأقسم بالله، وعلىٰ المضمر كأقسم بك، وشيخاً آخر يدرس شاباً افريقياً في المذي والوذي، ويقول: إنهما ينقضان الوضوء، ولا يوجبان الغسل، كما هي حال الجنابة. ودخل وقت العصر، وأنا في الجامع،

فأقيمت صلاة الجماعة، وبعد أن انتهىٰ الإمام تقدمت منه، وقلت: المرجو أن تعطيني صورة عن الأزهر.

فقال: الكعبة واحدة، والأزهر واحد.

قلت له: والله واحد .. فأصبح لدينا أقانيم ثلاثة: الله والكعبة والأزهر، كما يقول النصارىٰ.

فقال: كلا، أولئك يقولون: الرغيف والقرش والبطيخ شيء واحد، وهذا لا يكون ولن يكون أبداً.

ثم قلت له: أتعرف شيئاً عن الشيعة؟

قال: هم زائغون.

قلت: ومن أين عرفت أنهم زائغون.

قال: هكذا يقال.

قلت: وأنا أقول: إنك زائغ، فهل تأخذ بقولي؟

ففتح كفيه، وقال: اقرأ الفاتحة .. فقرأتها معه، ومضىٰ لسبيله .. وتنقلت في الأروقة المحاطة بالجامع التي كان يسكنها الطلاب الغرباء، فرأيتها قد هجرت وتركت للعصافير والدراويش .. فسألت: أين الطلاب؟ فقيل لي: أما الدراسة ففي جامعة الأزهر، وهي قريبة من الجامع، وأما الطلاب الغرباء فقد بنيت لهم مدينة خاصة تدعىٰ مدينة البعوث .. فذهبت إلىٰ الجامعة، وتنقلت في كلياتها الثلاث: كلية أصول الدين، وكلية اللغة العربية، وكلية الشريعة، وحاولت أن أحضر الدرس في صفوف هذه الكلية، ولكن الدراسة فيها لم تكن قد انتظمت بعد.

وفي اليوم التالي ذهبت إلىٰ مدينة البعوث وهي بنايات عديدة، كل واحدة

منها من أربعة أدوار، وفي طرفها مسجد حديث، وفيها دكان حلاق، وآخر سمان، وثالث لماسح الأحذية، ويحيط بالمجموع سور، له باب يقف عليه شرطي، وبالقرب منها مدرسة كبيرة ثانوية، وقد أنشئت المدينة والمدرسة للطلاب الغرباء الذين يقصدون الأزهر للدراسة، ودخلت إحدىٰ الغرف فعددت بها ٢٦ سريراً لـ ٢٦ طالباً.

وسألت بعض الطلاب، فقال: نحن هنا نبلغ الألوف، وأكثرنا من افريقيا، كالصومال، ونيجيريا، ودكر، وليبيا، والجزائر، والمغرب، وفينا من اليمن والجزيرة العربية، وأندونيسيا وغيرها، وفي المدينة مطبخ للعموم، يتناول الطالب منه ثلاث وجبات في اليوم، ويتقاضىٰ من ٥ جنيهات إلىٰ ١٥ حسب رتبته، وبعد أن ينهي الدراسة الثانوية يدخل في إحدىٰ كليات الأزهر .. وقد بنيت مدينة البعوث بدلاً عن الأروقة التي كان يقيم فيها الغرباء.

وزرت جامعة القاهرة، وجامعة عين شمس، وما عرفت أحداً باسمي، وما عرفني أحد، ولله الحمد، وقال لي أستاذ في كلية الآداب: هل أنت إيراني؟ قلت: لا. قال: عراقي. قلت: لبناني، فأهل ورحب، وأثنىٰ علىٰ لبنان وأهله .. ثم قال: أتعرف عبد الجواد مغنية؟ يقصد محمد جواد. قلت: نعم، قال: كيف هو؟ قلت: بخير. قال: إنه رجل طيب وفاهم، قلت: وما أدراك به؟ قال: عرفته من آثاره، وأخذ يتحدث عنها، قلت: بارك الله بك وبه .. وقد سررت، وأنا أستمع لقارئي دون أن يعرفني بالذات.

حديقة الحيوانات:

وذهبت إلىٰ حديقة الحيوانات، ورأيت فيها الفيل وخرطومه الطويل، ونابيه

الناتئين، وأذنيه الواسعتين، ورأيت الزرافة، فتذكرت شارح الألفية، وتمثيله لتعدد المبتدأ بقوله: الزرافة يداها أطول من رجليها، ورأيت فرس البحر الذي يلتهم عيدان القش، وكأنها مهلبيّة، وذا القرن الواحد، والنعامة التي هي بين الطيور كالجمل بين الحيوانات، إلىٰ غير ذلك، وما أن رأيت الأسد، حتىٰ شعرت بحسرة شديدة عليه، إنه يجد الطعام والشراب في سجنه، ولكنه لا يجد فطرته وطبيعته التي يجدها في الغاب حراً طليقاً.

دار الكتب:

وزرت دار الكتب المصرية، وهي بناية كبيرة، فيها قاعة واسعة للمطالعة، وأخرىٰ للفهرست، وجناح خاص للموظفين، وغرف عديدة ملأىٰ من الكتب المتنوعة، ومنها مخطوطات يعود تاريخها إلىٰ القرن الأول الهجري، وأخرىٰ إلىٰ القرن الثاني، وبينها مصحف من رق غزال، جاء في آخره «خط الإمام جعفر الصادق».

ورأيت فيها الكثير من كتب الشيعة في الفقه، كقواعد العلامة، والجواهر، والمسالك، والحدائق، والمكاسب، ومختلف الشيعة، والتذكرة وغيرها، وفيها من كتب الحديث الكتب الأربعة، والوسائل، وعلل الشرائع، وفيها كتاب البحار للمجلسي، وبعض كتب الأصول، وغير ذلك.

وقال لي موظف في الدار: لماذا تبحث عن كتب هؤلاء؟ قلت: ولماذا هذا السؤال؟ قال: إنهم يفضلون علياً علىٰ محمد، ويقولون: إن الله أنزل سوراً بعد النبي علىٰ علي، فقلت له: لا يحضرني شيء لجوابك إلاّ أنك لا تفهم.. قال: أنا عرفت ذلك ممن يعلم ويفهم، قلت: سل شيخ الإسلام عندكم الشيخ شلتوت، لتعرف

أنك، ومن قال لك ذلك أجهل الناس بالشيعة.

للاستطلاع:

بقيت تسعة أيام متنكراً، لا أعلم أحداً باسمي ومكاني، وإذا صادف، وسألني سائل أقول: لبناني، ولا أزيد .. واللبناني محترم في مصر، وفي كل بلد في الشرق والغرب، فلبنان على صغر حجمه كبير وعظيم في طبيعته وتاريخه، وفي صلاته وتفاعله مع العالم ثقافة وسياسة وتجارة، فكلمة لبنان أو لبناني تعبر عند القريب والبعيد عن الفن والجمال، وعن الحرية والوعي، والتقدم والحضارة، ويعلم الجميع أن عملية التطور في البلاد العربية انطلقت أول ما انطلقت من لبنان، وأنه كان المدرسة الأولى لكل بلد عربي بخاصة مصر، ويشهد بهذه الحقيقة المقتطف، والاهرام، والهلال، فإنها مصدر النهضة بمصر، وهي لبنانية حسباً ونسباً.

كنت أجوب الشوارع، وفي ذات يوم استأجرت قارباً صغيراً النهار بكامله، وانتقلت به من جزيرة إلى جزيرة في القناطر الخيرية، وغيرها، وطلبت من صاحب القارب أن يهيىء الغداء من سمك النيل الطازج، ففعل، وتغذيت في القارب، وهو يسير في اتجاه معاكس لمجرى النيل.

وكنت أرى على طول مجاري الماء، والجزر التي تحيط بها من كل جانب، أرى الحدائق التي يتيه فيها العقل، ويشرد منها اللب، فالأرض خضراء تحكي الحياة وسرها، والأزهار تتفتح عن البهجة والسرور، والأشجار تداعب أغصانها النسمات الرقيقة الناعمة، والطيور تغرد وترقص، ولا تفكر في حاضر ولا مستقبل، والسماء صافية كقلوب الأطفال، والنيل يسير بهدوء وتوئدة .. رأيت هذا فقلت:

صدق من قال: ليس بالإمكان أبدع مما كان ..

قلت: إني كنت أتنقل من شارع إلىٰ شارع، ولا دافع لي إلاّ المعرفة، وحب الاطلاع، وكنت أرىٰ التناقض والتنافر بين الأحياء، فبينا تقوم البنايات الشاهقة والحدائق الغناء في شارع ٢٦ يوليو، وتعرض أفخر الملابس، وأحدث الأزياء تجد في الشوارع الأخرىٰ المتفرعة عنه، كحارة ندىٰ، وشارع الخطري أزقة ضيقة، وبيوتاً قديمة متداعية، وأوساخاً متراكمة، وأوحالاً، وروائح كريهة، وأسراباً من الرجال، والنساء والأطفال حفاة وشبه عراة.

زيارة شيخ الأزهر:

وفي اليوم الأخير من زيارتي لمصر اتصلت هاتفياً بشيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت، وأعلمته بأني قادم لزيارته للتوّ .. أفرحته المفاجأة وأصرّ عليّ أن أبقىٰ في الفندق لأنه قادم لزيارتي للتوّ .. فاستحلفته أن لا يفعل .. فأذعن ..

واجتمعت بالشيخ شلتوت بداره وتفاصيل هذا الاجتماع يطالعه القارىء في الفصل السابع من هذا الكتاب «دعاة الدين» تحت عنوان «مع شيخ الأزهر».

رحلة الحج

مقتطفات من كتابي «هذه هي الوهابية»

نشر ١٩٦٤ م

مع الطائفين والعاكفين :

مكثت بمكة ١٩ يوماً، وكنت أذهب مساء كل يوم إلى الحرم، ما عدا اليوم التاسع من ذي الحجة، فإذا رأيت جماعة مقبلين على البيت للطواف خلطت بهم نفسي، وفعلت ما يفعلون، ورددت ما يقولون، وكنت أتقصد الاختلاط بالافريقيين السود، لما لمسته فيهم من الصفاء والاخلاص وأحسسته معهم من التوجه والانقطاع، وقد طفت مرات، ولكن لم تهتز مشاعري للدرجة التي كانت تهتز، وأنا أطوف مع هؤلاء السود.

وذات مساء رأيت حزمة من اليمنيين قد تلاصقوا، وأخذ بعضهم بعضد بعض، واندفعوا كالسيل لا يلوون على شيء، فوضعت يدي بعنق الأخير منهم، فلم يلتفت إليّ، وأخذت أطوف معهم، وأركض وأقفز، كما يركضون ويقفزون، وأردد معهم: «حج حج يا حاج حج».

وفي مساء ١٢ ذي الحجة شاهدت في زاوية من زوايا البيت مجموعة من المصريين نساءً ورجالاً يصفقون بهدوء ويرددون الأناشيد بمدح الرسول وآله (ص)، وهم فرحون مستبشرون كأنهم في عرس، وإلى جانبهم رجل يصلي،

وآخر يتلو القرآن، وثالث يتضرع ويبكي، فقلت بكىٰ هذا خوفاً من عـقاب الله، وغنىٰ هؤلاء وصفقوا أملاً بثواب الله، والكل سواء في رحمته، مـا دامت قـلوب الجميع عامرة بالتدين والإيمان بجلاله وعظمته، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الذي قال: إن الطرق إلىٰ الله بعدد أنفاس الخلائق.

مع علماء الوهابية

كلية الشريعة :

قلت لعميد كلية الشريعة أحمد علي أسد الله: كانت المدارس من قبل، بخاصة الدينية منها أشبه بالزوايا، وتكيات الدراويش، وهذا البناء الضخم يتفق تماماً في مظهره وفنه مع العصر الحديث وحضارته، فاسأل الله أن يكون التعليم بروحه وأهدافه كذلك، وأن يُبرز الشريعة الإسلامية بأسلوب يحببها إلى الجميع، وأن تجنب التلاميذ روح التعصب والبغضاء بين المسلمين، ولا يكفر بعد اليوم بعضهم بعضاً، فإنهم أحوج الناس إلى الألفة والتقارب.

وقال العميد: الحق أن التعصب موجود، ولكن لا من طرف واحد، بل من الجميع، وقد خفّت حدته كثيراً عن ذي قبل ـ مثلاً ـ كان النجدي إذا رأى في الكعبة حليق الذقن ينتهره، ويصيح به، وربما أخرجه منها، أما اليوم فيدعه وشأنه، ومع ذلك فإن بعض الحجاج يجسمون الأمور أكثر من حقيقتها، ويوقعونا في مشاكل تافهة، يمكن تحملها والإغضاء عنها، لو حسنت النية، من ذلك أن رجلاً من الجزائر جاء معتمراً في شهر رمضان من هذه السنة، وصادف، وهو واقف في حجر إسماعيل أن شخصاً أراد أن يسجد، فلم ير موضعاً لشدة الزحام، فنحى الرجل الجزائري بيده، وهنا ثارت ثورة الجزائري، وظن أن الشخص وهابي، وهو ليس وهابياً، وصاح بأعلى صوته لقد أهنتم الإسلام ونبي الإسلام، وهدمتم قبور أهل بيته، وفعلتم الأفاعيل، واجتمعت عليه الجموع، وهو ينادي ويصيح بالشتم

والسباب، وأخذت مسألته دوراً كبيراً، واضطررنا أن نقف مع الجزائري، ومع ذلك بلغت الحال حدها الأقصىٰ من التضخيم والتجسيم.

قلت أولىٰ بكليتكم هذه أن تسير في طريق التعقل والتسامح، وتثور علىٰ التعصب البغيض، وتتجه إلىٰ العمل علىٰ التقريب بين المذاهب الإسلامية، وتطلع علىٰ كتب الجميع وتنشر الحقائق، وإذا كانت الكلية تعلم الفقه فإن الفقه الإسلامي لا ينحصر بالمذاهب الأربعة، بل يعمّ فقه المذاهب بكاملها، وفضل الشريعة إنما يظهر في أقوال المذاهب مجتمعة، لا في قول مذهب دون مذهب، كما أن حديث الرسول الأعظم(ص) لا ينحصر بأحاديث الصحاح الستة، بل يشمل كل حديث ثبت عنه، سواء أكان في الصحاح أم لم يكن.

فوعد بأن يعمل لما فيه خير الإسلام والمسلمين، وقد اكتشفت من أسلوبه وأفكاره أنه عارف ومتزن.

الشؤون الدينية :

... قال لي المدير العام الشيخ محمد بن عبد الله ـ نحن ندين النشء علىٰ عقيدة الإسلام وأخلاقه وننظر في الكتب التي تدرس هذه المادة، ونشرف علىٰ سير أساتذتها ونشاطهم.

قلت: هذا حسن، ولكن المهم هو الأسلوب، وصواب الفكرة، وإبراز الدين بصورة تسير مع الحياة، حتىٰ يرغب فيه الصغير والكبير، ولا شيء يقف في طريق الغاية المنشودة من الدين كالتعصب، فأرجو أن لا تذهلوا عن هذه الحقيقة، وقبل أن أنهي حديثي التفت أحد الحضور، واسمه الشيخ علي معجل، وهو مفتش في هذه الإدارة، التفت إلىٰ المدير، وطلب إليه أن يدع له الجواب، كأنه يريد النـزال

والقتال، ويسأل رئيسه الإذن بالمبارزة، وقال لي: ما تعني بالتعصب؟

قلت: إن المسلمين إخوان على دين واحد والاختلافات التي بينهم ليست جوهرية، وقد عنيت بترك التعصب أن تكفر أنت ولا غيرك من نطق وآمن بكلمة التوحيد، كما هو المعروف والمشهور عن الوهابيين أنهم يكفرون غيرهم، لا لشيء إلاّ لأنه غير وهابي.

والتوحيد حده معروف، وهو الإيمان بالجنان، والاقرار باللسان، والعمل بالأركان، والأركان هي الصوم والصلاة، والحج والزكاة، وكل المسلمين يصومون ويصلون، ويحجون ويزكون.

قال: هناك شيء آخر.

فأومأ إليه المدير بالسكوت، فسكت، وتمنيت لو تركه في حديثه، لأعرف ماذا يريد من الشيء الآخر؟ وأعرفه مكانه من العلم والمنطق .. وأظن أنه قصد بالشيء الآخر تعمير القبور وزيارتها والصلاة عندها.. ومهما يكن، فسيأتي الحديث عنها مفصلاً.

ثم قام المدير من مكانه، وجلس إلى جانبي، وقال بالحرف، وبكل تواضع: إن ما تقوله هو الحق، أجل، نحن اخوان، ويشهد الله أننا نكره التعصب والمتعصبين، ولكن الدعايات هي التي تلفق وتختلق.

إمام الجمعة والجماعة:

ذهبت إلى الشيخ، عبد الله خياط، إمام الجماعة والجمعة وخطيبها في الحرم الشريف، ومستشار وزارة المعارف، وابتدأته بقولي المكرور: أنا حاج من لبنان،

وإذا كان من فوائد الحج وبركاته التعرف بين المسلمين، فأولىٰ أن نتعرف ونعرف أعيان هذا البلد الأمين، وقد زرت وتعرفت علىٰ رئيس القضاء الشيخ سليمان بن عبيد، وعميد كلية الشريعة الاستاذ أحمد علي، ومدير التفتيش الديني الشيخ محمد بن عبد الله، وسررت بمقابلة هذا المدير كثيراً .. قلت هذا، وانتظرت، ليعلق بالايجاب أو السلب، ولكنه بقي صامتاً، فاستأنفت الكلام.

قلت: إن للإسلام إمكانات وقوىٰ عظيمة، وعلىٰ المخلصين أن يستغلوها لتحسين العلاقات الاجتماعية النافعة للمسلمين.

قال: إن الصلاة عامود الدين إذا قبلت قبل ما سواها، وإن ردت رد ما سواها.

قلت: هذا حديث صحيح، ولكن له مقام آخر.

قال: كل حديث غير حديث الصلاة لا يجدي.

قلت: وهل هناك طائفة تنتمي إلىٰ الإسلام، وتترك الصلاة؟

قال: الشباب الشباب لا يصلون، ثم أفاض بالكلام عن تهاون الشباب بالصلاة .. هذا، مع العلم بأن هذا الرجل حين يقف للصلاة في الكعبة يغصّ الحرم والمسعىٰ علىٰ سعتهما بالمصلين، ويمتلىء الشارع والسوق المحيط بهما بالمؤتمين، وأكثرهم من الشباب.

قلت: وأي مانع من اتحاد المسلمين، وعملهم يداً واحدة لحمل الشباب علىٰ الصلاة؟

قال: أبداً إلاّ الصلاة أولاً، والاتحاد ثانياً.

قلت: يا شيخ إن للإسلام أعداء يكيدون له عن طريق الدس، وحمل بعض المسلمين علىٰ تكفير بعض، لينالوا منهم ما يبتغون، فعلينا أن نتنبه لأهدافهم

ودسائسهم، ولما رأيت لا جدوىٰ من الحديث معه، تركته وخرجت.

ومن غرائب المناسبات أني، وأنا في طريقي إلىٰ هذا الشيخ سمعت سائق التكسي يترنم بأبيات من قصيدة الفرزدق بمدح الإمام زين العابدين «هذا الذي تعرف البطحاء وطأته» فقلت له: لمن هذا الشعر؟ قال: لرسول الله، قلت: وبمن قاله؟ قال: برسول الله. قلت: وهل يمدح رسول الله نفسه؟ قال: أنا لا أفهم شيئاً من هذا، وإنما قصدي الغناء والتسلية.

في المدينة المنورة :

بعد الانتهاء من الحج ومناسكه سافرت إلىٰ المدينة المنورة ووصلت إليها يوم الثلاثاء ١٦ ذي الحجة ٢٨ نيسان سنة ١٩٦٤ م ، وكان البيت الذي نزلت فيه قريباً من البقيع، لذا ابتدأت بزيارة قبور أئمة البقيع عليهم السلام، والبقيع قطعة واسعة من الأرض مسورة بحائط رفيع، وله باب يقف عليه شرطي، يمنع النساء من الدخول، ويأذن للرجال، وفي هذه البقعة المباركة المقدسة دفن الإمام الحسن، والإمام زين العابدين، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق، وكثير من الصحابة والصلحاء، وكان علىٰ قبور الأئمة الأربعة بناء تعلوه قبة، فهدمه الوهابيون سنة ١٣٤٣ هـ حين انتزعوا الحجاز من الشريف حسين، واستولوا عليه.

ولم يحجموا عن هدم الحرم النبوي إلاّ بعد أن ثارت ثائرة المسلمين عليهم، وقامت الدنيا علىٰ رؤوسهم، ولم تقعد، وإلاّ بعد أن تأكد لهم أن المسلمين لا يدعون وهابياً علىٰ وجه الأرض، لو مسوا القبر الشريف بسوء .. وقد سمعت خطيبهم يخطب في حضرة الرسول، ويقول بحرقة وحسرة: «كان علينا أن نمنع الناس عن هذا المكان، ولكن ماذا نصنع، وقد غلب علىٰ أمرنا» ورغم أن مكانة

أهل البيت هي مكانة جدهم بالذات، وحقهم هو حقه على كل مسلم إلاّ أن اهتمام الشيعة وتمسكهم بهذا الحق، وإبرازهم لهذه المكانة وخصائصها وآثارها حمل غيرهم من المسلمين أن يتجاهلوا، ويغضوا الطرف عن جريمة الوهابيين، وما فعلوه بقبور الآل الكرام.

دخلت البقيع، فرأيت الألوف يحيطون بقبور الأئمة، يزورون ويدعون ويتضرعون ويبكون، أما النساء فيقفن وراء الحائط، يزرن متجهات إلى البقيع.

ولم أستطع المكوث في البقيع، بعد أن رأيت ما رأيت من آثار الظلم والجور على أهل البيت الذين أشادوا صرح الدين، وأعلوا كلمة الحق .. لم أستطع التأخير رغم تشوقي وتلهفي، وأي فرق بين أن أرى آثار الوهابيين في البقيع، وبين أن أرى ما فعل الأمويون والعباسيون بأهل البيت؟

إن الذي قوى من عزيمة الوهابيين على الهدم، ومحاولة الاعفاء على الرسم، هو تصورهم وتخيلهم أن الدافع والمحرك الأول هو الإخلاص للوحدانية، والقضاء على الوثنية.

والمعروف أن الوهابية تدين بعدم البناء على القبور منذ وجودها، حيث لا ذهب أسود، ولا أبيض، ولا فولاذ ولا زنك ولا حديد.

هذا صحيح، وصحيح أيضاً أن من يستأثر على الناس بما يحتاج إليه هو عدو طبيعي لمن لا يرى لنفسه شيئاً تحتاجه الناس، أراد ذلك، أو لم يرد.

ومهما يكن، فإن استطاع الوهابيون أن يزيلوا الأحجار عن قبور الأئمة الأطهار، فإنهم أضعف من أن يزيلوا ذرة من الحب والولاء للرسول وآله، أو يمحوا كلمة واحدة من كلامهم، وحكماً من أحكامهم، فلقد دلتنا التجارب المتتالية عبر التاريخ أن عظمة أهل البيت ترتبط بإرادة الله، لأنه هو الذي اصطفاهم

واختار محمداً ﷺ منهم لما اختار وأراد.

العبادة والأحجار:

إن الأحجار ليست بشيء في ذاتها عند الشيعة، ولا صلة لها بالعبادة، ولا بالولاء .. وما هي إلاّ علامات ودلائل على المكان، تماماً كالمآذن، والسر هو التدين بولاء أهل البيت، لأنهم قتلوا وشردوا وظلموا في سبيل الحق، أما قلق الشيعة لهدم قبور أئمتهم فلأنه امتداد لذلك الظلم، هذي هي الحقيقة، أما عبادة الأحجار، أو عبادة صاحب القبر فكلام فارغ لا مدلول له ولا أثر عند الشيعة، بل هذه العبادة شرك في عقيدتهم، ولا يورثون فاعلها، ولا يخالطونه في مأكل أو مشرب .. وبالاختصار أن الشيعة يدينون بالعدل وأهله، وكلما قويت شوكة الظالمين، وتفاقم ظلمهم في أي زمان أو مكان كلما ازدادوا تجاوباً وانسجاماً مع أهل الحق والعدل.

وبالتالي، فإن الشيعة، وهم ملايين الملايين لا يسمحون للوهابية فعلتهم إلاّ أن يدعوا لهم الحرية الكاملة في إعادة البناء، وهي حق مشروع لهم، ولكل مسلم آمن بالله وكتابه، وبالنبي وسنته، وهذه الحرية هي السبيل الوحيد لجمع الشمل، وتوحيد الكلمة، والقضاء على الأحقاد والأضغان التي يثيرها منظر الهدم والتخريب.

إلى الحرم النبوي:

وقصدت الحرم النبوي الشريف، وبغير شعور رأيتني أقبل الباب عند

الدخول، ثم أهجم على القبر الزكي ألثمه باكياً شاكياً إلى الله وإلى صاحب القبر ما حل بأهله أحياءً وأمواتاً .. وأشكر تلك الصدفة، حيث لم تدع أحداً ينتبه إلي، أجل، سمعت قائلاً يصيح: لا لا، فتنحيت عن القبر خشية أن يحدث ما لا أحب، وبعد أن زرت، ودعوت شققت طريقي بين الأمواج البشرية المتدافعة إلى الروضة بين قبر النبي ومنبره، حيث يكثر الزحام فيها، والتسابق إليها، تماماً كما هي الحال عند الحجر الأسود.

ودخل الغدير، وأنا في طيبة مهبط الوحي والتنزيل، وحيث بيت علي وفاطمة الذي ولد فيه ودرج الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .. ورغب إليّ التقي النبيل العلامة الشيخ محمد علي العمْري عالم النخاولة أن ألقي محاضرة بهذه المناسبة في الحسينية مساء ١٨ من ذي الحجة، فلبيت مغتبطاً وكيف أرفض، أو أتردد في أمر عشت من أجله وأوقفت له عمري كله، وغص المكان بالناس في داخله وخارجه، يستمعون بكل مشاعرهم، يخيم عليهم جلال اليوم، وعظمة صاحبه، يجمعهم عقل واحد، وقلب واحد يتدفق بالحب والولاء للغدير وصاحب الغدير.

مع رئيس القضاة:

وذهبت في اليوم الثاني إلى المحكمة الشرعية بالمدينة المنورة، وفيها جميع قضاتها وهم خمسة، وعليهم رئيس، كما هي الحال بمكة المكرمة، دخلت غرفة أحدهم، وجلست على بعض مقاعدها، فنظر إليّ القاضي، وقال: هل من حاجة؟ قلت له: هل أنت قاض؟ قال: نعم، ونائب الرئيس. سألته عن اسمه؟ قال: عبد المجيد بن حسن.

قلت: هل تسمح بالاطلاع على سجل الأحكام، فإني أحب أن أقارن بينها وبين الأحكام في لبنان؟

قال: هل أنت قاضٍ؟

قلت: أجل.

قال: في المحاكم الحنفية، أو الجعفرية؟

قلت: أنا جعفري. وشرعت بالحديث عن الإسلام والمسلمين، وبأي شيء يؤكدون أنفسهم، ويطورون قواهم اجتماعياً، وسياسياً .. وكان يردد قول طيب طيب، ولا يزيد، وحين هممت بوداعه قال: إلى أين؟ قلت: إلى الرئيس الشيخ بن عبد العزيز بن صالح، فأرسل معي شرطياً أرشدني إلى غرفته، فتحت الباب، ودخلت، فأهل ورحب.

وابتدأت الحديث بهذا السؤال: كيف تفسرون قول الرسول ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة»؟

قال: اختلافهم في الفروع، لا في الأصول.

قلت: إذن جميع الطوائف الإسلامية من أمة محمد، لأن الأصول هي الإيمان بالله، والرسول، واليوم الآخر، والكل يؤمنون بذلك دون استثناء.

قال: وهناك أصل آخر.

قلت: ما هو؟

قال: خلافة أبي بكر، وأنها حق له بعد الرسول بلا فاصل.

قلت: الخلافة من الأصول؟!

قال: نعم.

قلت: لقد نفىٰ السنة عنهم هذا القول، ونسبوه إلىٰ الشيعة الإمامية، وأنكروه عليهم.

قال: أجمع أهل السنة علىٰ أن خلافة أبي بكر من الأصول، وأصرّ.

قلت: لا يثبت أصل من أصول الدين إلاّ ببديهة العقل، أو بنص الكتاب نصاً صريحاً، أو بسنة تكون بقوة القرآن ثبوتاً، وبدلالة لا إله إلاّ الله وضوحاً، أما أخبار الآحاد فليست بشيء في باب الأصول، وإن كانت حجة في الفروع.

قال: هذا صحيح، وقد تواتر عن الرسول أنه قال: يأبىٰ الله ورسوله إلاّ أبا بكر.

قلت: كيف يكون هذا متواتراً، ولم يروه الشيخان البخاري ومسلم ولا احتج به أبو بكر، ولا عمر، ولا أحد يوم السقيفة حين رأىٰ الأنصار أنهم أولىٰ من أبي بكر بالخلافة، فشرع يتكلم عن الحديث وأقسامه، ثم أكد مصراً علىٰ تواتره، وأنه لم يخالف في ذلك إلاّ الشيعة، ولما لم أجد وسيلة لإقناعه قلت له: هل من شرط صحة الحديث أن يثبت عند الجميع، أو عند من يعمل به فقط؟ قال: بل عند من يعمل به.

قلت: هذا الحديث لم يثبت عند الشيعة لا بطريق التواتر، ولا بطريق الآحاد، ولذا لم تكن خلافة أبي بكر عندهم من الأصول، ولا من الفروع.

وبعد أرىٰ لزاماً أن تُهدىٰ بعض كتب الشيعة لعلماء الوهابية، ومكتباتهم العامة بمكة والمدينة والرياض، ولأساتذة المعاهد والكليات، حتىٰ يعرف الوهابيون وغيرهم أن الشيعة مسلمون، لا يكفّرون أحداً من اخوانهم السنة ولا أي

مسلم كان لا يلتقي معهم في الفروع ... هذا وقد علمت أن أربعة من مؤلفاتي موجودة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ولكن هذا غير كاف.

في البحرين

دعيت إلىٰ البحرين لإلقاء محاضرات بمناسبة شهر رمضان المبارك من سنة ١٣٨٦ هـ ، فاستجبت للدعوة، لأن لدي أشياء وأشياء كتبتها وأذعتها، وأريد تثبيتها في النفوس .. وما زال لديّ الكثير مما يجب أن يقال: وكلها أو جلها تدور حول الدين والإنسان أفراحه وأتراحه ... ولهذا السبب استجبت للدعوة مع علمي بأن علي أن أحبس أنفاسي هناك ضمن إطار لا يجوز لي أن أتعداه بحال.

وإذا لم يكن في مقدوري أن أضع ابن الخليج أمام حقائق العصر بكاملها، فإن مشاكلنا نحن العرب والمسلمين كافة كثيرة ومتشعبة، فإذا انسد باب الكلام في إحداها فإن غيره مفتوح لكل من أراد الدخول، ولا عذر أبداً للراقد الجامد .. ومن الذي يستطيع أن يمنعك من القول: إن قوىٰ الطبيعة وخيراتها يجب أن تسخر لخير الإنسان وهنائه، لا لشره وفنائه، وإن الأديان السماوية شرعت لإطفاء حرائق الجهل والظلم، والحقد والجشع؟ . وإن الدين لا يقاس بالتنهدات والآهات، ولا بالدموع والصرخات، ولا بضرب السلاسل والقامات، وإنما الدين الصحيح هو الذي يحول ضعف المتدين إلىٰ قوة، ويهيئه لحياة أفضل وأكمل في شتىٰ الميادين، تماماً كما تقدم العرب والمسلمون بفضل الإسلام، وجعلهم أعزة مكرمين بعد أن كانوا أذلة خاسئين.

لبيت الدعوة إلىٰ البحرين، وأقلعت بي الطائرة من مطار بيروت في ٣٠ / ١٢ / ١٩٦٦ م ، وحطت في المطار، وكان في انتظاري بالمطار ثلة من

المؤمنين، وفي الليلة التالية ابتدأت بما سافرت من أجله، وارتجلت عشر محاضرات في حسينية آل العريض الكرام أصحاب الدعوة في عشر ليال متوالية، وكان عدد المستمعين يزداد ليلة فليلة.

وجاء وفود من القرى يدعونني لإلقاء محاضرات عندهم بعد رمضان، ولم أستطع تلبية الجميع بالنظر لضيق الوقت، ولا رفض الجميع لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فجعلت الأفضلية لمن سبقت دعوته، وهكذا كان، فألقيت في اليوم التالي للعيد محاضرة في قرية الدير، وبعده محاضرة في قرية السنابس، فكان مجموع ما ألقيته من المحاضرات ١٢ محاضرة خلال إقامتي في البحرين.

مكثت هناك ١٨ يوماً بلياليها، وكنت أحس أن كل شيء يستقبلني بحرارة، ويبتسم لي بإخلاص، وكل إنسان ينظر إلي بقلبه لا بعينه .. وابن البحرين ـ كما عرفته ـ لا يفتعل ولا يتصنع، فهو على فطرته التي فطره الله عليها من الصفاء، وعلى إيمانه وتواضعه البعيد من شوائب الرياء إلاّ من شذ وندر، والشاذ النادر لا يقاس عليه، على أن هذا الانحراف النادر لم يأت من البحرين بالذات، وإنما تلقاه غر من أستاذه الغربي الذي لقنه الإلحاد، والحقد على الإسلام ونبي الإسلام، وهذا الببغاء أولى الناس بالشفقة والرثاء، لأنه مصاب بأخبث الأمراض وأخطرها، وألف الصلاة والسلام على أمير المؤمنين، حيث قال:

«ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب»[1].

ومهما يكن، فإن هذا الإيمان في البحرين إن هو إلاّ امتداد لتاريخها، فلقد كان هذا البلد، وما زال المنبت الخصب لكبار العلماء، والمعين العذب الذي لا

---

١ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٩ / ص ٣٣٧. باب الحكم والمواعظ برقم ٣٩٥].

ينضب من الحس الديني، فلقد أسلم أهله للنبي صلى الله عليه وآله، وأذعنوا للحق طوعاً بالمكاتبة، كما أنهم من أسبق الناس إلىٰ مذهب التشيع والولاء لأهل البيت عليهم السلام.

ولو وجد مؤرخ قدير يكشف الطبيعة الدينية في أهله، ويبرزها بتسلسل تاريخي منظم منذ صدر الإسلام، حتىٰ اليوم لجاءت في كتاب ضخم كثير الفوائد والمنافع.

وأثار انتباهي كثرة المساجد والنوادي الحسينية وإقامة الشعائر الدينية في المدن والقرىٰ، فلا تكاد تمر في حي أو زقاق إلاّ وجد أكثر من مسجد، وأكثر من ناد يجتمع فيه المستمعون بإصغاء وخشوع للمعزي والخطيب ... وهذه النوادي هي المصدر الأول لقوة الشيعة والتشيع هناك، ولو تسنىٰ لهذا التراث الضخم رجال من ذوي الوعي والإخلاص لاتخذوا منه حافزاً لتوحيد كلمة المسلمين، جميعاً، والانطلاق بهم إلىٰ الأمام.

وليس من شك أن منبر الحسين عليه السلام قد أقيم لبيان الغاية التي من أجلها استشهد الحسين، لا لبيان كيف استشهد ... إن أنظار المستمعين أو أكثرهم تتجه لهذه الغاية حين يقصدون المجالس والمآتم الحسينية، فلقد مل الناس من الكليشات الجامدة المتحجرة، واتجهت أنظارهم إلىٰ الجديد المفيد .. قيل لي عن كبير من تجار البحرين كان يلازم مجالسي، ولا ينقطع عنها إلاّ لعذر، وقد حدثت بينه وبيني علاقة المودة والصداقة، قيل: إنه كان يقاطع المُجالس الحسينية من قبل، وكذلك بعض الشباب، ولما سألت هذا التاجر الصديق عن السبب قال: أنا أعتقد أن منبر الحسين عليه السلام يملك الطاقات الكبرىٰ التي تفتح أمام المسلمين آفاق المستقبل، وتسير بهم مع ركب الحياة، ولكنه لا يستخدم في هذا السبيل، فتركته آسفاً لعدم التجاوب بيني وبين من يرتقون عليه.

والسنة والشيعة في البحرين علىٰ وفاق تام، يتعاونون في جميع المجالات

الاقتصادية والسياسية والثقافية، والقضايا العربية .. وقد حاول أصحاب الأهداف أن يفرقوا كلمتهم، ويباعدوا فيما بينهم، فخاب مسعاهم، وازداد الطرفان بحبل الله تمسكاً.

ويحضر السنة المجالس والمآتم التي يقيمها الشيعة لسيد الشهداء وفي اليوم التاسع والعاشر من المحرم تعطل الدوائر الرسمية، وتقفل الأسواق، ويتوقف الجميع عن العمل حداداً، على السبط الشهيدعليه السلام. والفضل في ذلك يعود إلىٰ العلماء والعقلاء من الطرفين.

والبحرين كلها شعلة من الحماس للعلم، والإقبال علىٰ التعلم، فأنّىٰ اتجهت تجد مدارس الذكور والإناث، وكم كانت دهشتي عظيمة لمنظر الطالبات حين ينصرفن من المدرسة، والشوارع تغص بأسرابهن، وكل طالبة من أصغر صغيرة إلىٰ أكبر كبيرة تخفي شعرها بعباءة سوداء تتدلىٰ من قمة الرأس إلىٰ أخمص القدم ... وتدعها مفتوحة، للهواء، كعصفورة لا تطوي جناحيها أبداً .. وقد التقيت بهن أكثر من مرة، ولكن في الطريق الواسع، ولله الحمد.

منذ أمد قريب، لا أتذكره علىٰ التحديد، قرر الأزهر قبول الإناث .. ويدرسن الآن فيه العلوم الدينية، وهن سافرات.

وبعد، فإن في أهل البحرين من صدق النية ويقظة الضمير، وصحة الإيمان وغيرها من القوىٰ ما لا يعرف قدرها وأهميتها إلاّ بالتجربة والاختبار الشخصي الصرف .. وأسجل شكري لمن أتاح لي فرصة التعرف بنفسي علىٰ هذه القوىٰ التي حاولت جهدي أن أحسن السفارة لديها مبلغاً ومؤدياً أمانة الله ورسوله وأهل بيته الأطهار (ص) .. **﴿قل هذه سبيلي ادعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة أنا ومن**

اتبعني﴾[1]. كما أسجل شكري مع الاحترام لكل من لمست منه العطف واللطف، بخاصة إخواني العلماء الأفاضل الذين أولوني من التقدير والعناية ما لم أرني أهلاً لبعضه. وأراهم أهلاً لأكثر منه.

---

١ ـ [سورة يوسف، الآية ١٠٨].

الفصل العاشر :

محنة
العرب والمسلمين

ما السبب؟ .. ما الهدف .. ؟

أذكر للقارىء هذه الحادثة ولكن باختصار:

زارني في منزلي بعد ظهر يوم مشمس من أيام كانون الثاني ١٩٥٣ م، أحد كبار الدبلوماسيين الأميركيين في السفارة الأميركية في بيروت، وكان برفقته اثنان آخران أحدهما مترجم.

وبعد المجاملات والرسميات، والسؤال عن الصحة والأحوال، واغداق الابتسامات الرقيقة المصطنعة، التي غمرنا بها سعادة الدبلوماسي الأميركي، سألته مباشرة عما يريد.

قال ـ باسم السفير الأميركي في لبنان أدعو سماحتكم إلىٰ زيارة الأسطول السادس الراسي في مياه بيروت حيث تلتقي مع سعادة السفير علىٰ ظهر حاملة الطائرات، ولقد أُخِذت التدابير اللازمة لاستقبالكم، بما يليق بشخصكم الكريم وبمركزكم الكبير.

ـ أخذتني المفاجأة لبرهة، لأنني لم أكن أتوقع شيئاً من هذا القبيل، مع علمي أن الأميركان لن يزوروني قربة لله تعالىٰ، لكنني ظننت أن الزيارة محض دبلوماسية لمجرد التعارف والبروتوكول ..

وأجبته بروية ـ ما هو سبب هذه الدعوة؟ وما هو الهدف من هذه الزيارة؟

قال مردداً ـ ندعوكم لزيارة الأسطول، حيث سيجري استقبالكم ولقاؤكم

مع السفير الذي يرغب في محادثتكم والتعرف عليكم.

لقد رأيت أن أنهي الزيارة لما وصلنا بالحوار إلىٰ طريق مسدود.

قلت بهدوء ـ آسف لا أستطيع قبول هذه الدعوة، وعذراً لذلك.

قال ـ لماذا ترفض يا سماحة الشيخ؟ هل يوجد شيء علىٰ غير ما يرام؟ قال ذلك ببراءة الذئب وقد غابت الابتسامة عن وجهه.

قلت بحدة ـ اسمع يا هذا، إن أميركا ألد عدوة للإسلام والأمة العربية، أميركا أوجدت إسرائيل، وقتلت شعبنا في فلسطين وشرّدته من دياره، إن دماء أبنائنا ما زالت تنزف في دير ياسين وعلىٰ أرض فلسطين، وأخوتنا يقتلون بسلاح أميركا الذي تغدقه علىٰ إسرائيل . إن أميركا هي قوة إسرائيل وما هـذه إلاّ مـخلب فـي يدها .. وبعد هذا تدعوني إلىٰ زيارة الأسطول السادس .. هل تظن أني .. وقاطعني الأميركي محتجاً بصوت ملحوظ:

ـ لا، لا، نحن لسنا أعداء الإسلام هذا غير صحيح، نحن لا نفرّق بين عرب ويهود ...

وقاطعته بدوري منفعلاً .. وهو يصرّ علىٰ الكلام .. وصَـمُت المـترجـم .. ووقفت منهياً المقابلة .. وخرج الدبلوماسي الأمريكي ورفيقيه دون أن ينسىٰ أن يقول لي وهو عند الباب .

ـ شكراً جزيلاً لضيافتكم.

هذا عربيٌ عزيز!

رجل من موطني هذا وقف وقفة عزة وكرامة وإباء لن ننساها له. إنـه مـن

رجال الدين الكبار ..

لقد زاره وفد من السفارة الأميركية يوم كان الاسطول الأميركي في بيروت من نحو أسبوعين، ودعاه إلىٰ زيارة حاملة الطائرات «روزفلت» وقال له:

ـ إن التدابير اتخذت لاستقبال سماحة الأستاذ، استقبالاً يليق بمركزه الكبير، ومن هذه التدابير سيارة خاصة فخمة.

ـ وقال رجل الدين:

أما السيارة ... فلا حاجة لنا بها ... فالمدينة ملأىٰ بالسيارات وأما الزيارة فنرفض أن نقوم بها، لأن اخواننا وأبناءنا في فلسطين إنما يقتلون بالسلاح المجرم الذي تغدقه أميركا علىٰ إسرائيل.

ووقف سماحته منهياً المقابلة ...

ـ أيها المواطن الكبير، لقد برهنت أننا لم نفقد الخميرة الطيبة، الأصيلة ... ألا بارك الله فيك وليت الكثير من «الكبار» ما لك من جرأة وتبصر ووطنية وإباء!

المحرر في ١٦ ـ ١١ ـ ١٩٥٣ م

لم يدل الشيخ محمد جواد مغنية بأي حديث لوسائل الاعلام عن زيارة الدبلوماسي الأميركي، ولكن الصحف اللبنانية عرفت ذلك بطرقها الخاصة، ونشرت جريدة المحرر أعلاه هذا الخبر التعليق.

الناشر

الوحدة العربية

في نظرة الدكتور فيليب حتي

تعقد الولايات المتحدة في واشنطن مؤتمراً سنوياً لدراسة العالم الإسلامي، وهو في واقع الأمر وحقيقته دراسة عميقة للنفط، والمواد الطبيعية في بلاد العرب والإسلام، ووضع خطط حربية جهنمية لحماية مصلحتها الاستعمارية.

وقد ألقىٰ الدكتور فيليب حتي رئيس دائرة اللغات والآداب الشرقية بجامعة برنستون في المؤتمر الذي أقيم سنة ١٩٥١ م محاضرة بعنوان ـ الاتجاه الحديث في الإسلام ـ ونقل هذه المحاضرة إلىٰ اللغة العربية مع سبع محاضرات أخرىٰ الدكتور اسحق الحسيني وأخرجها في كتاب مستقل، أسماه ـ الإسلام في نظر الغرب ـ.

فرق الدكتور حتي في محاضرته بين الوحدة الإسلامية والعربية بقوله: وفي حين تحاول الوحدة العربية أن تجعل اللغة والثقافة الوحدة المشتركة، فإن الوحدة الإسلامية تجعل الدين هو الوحدة المشتركة فالوحدة الإسلامية تنظر إلىٰ الوراء، والوحدة العربية تنظر إلىٰ الأمام.

ولا أدري ماذا يقصد الدكتور من وراء قوله هذا! إن العرب والمسلمين في أي أرض كانوا تجمعهم آمال واحدة وأهداف مشتركة، فتاريخهم ومقدساتهم

وثقافتهم واحدة، هذي فلسطين يحافظ عليها المسلمون والعرب على السواء، ويضحون في سبيلها بنفوسهم وأموالهم وقد رأينا مندوب الباكستان في الأمم المتحدة كيف يناضل ويدافع عنها ضد إسرائيل، حتى بلغت به الحماسة حداً لم يبلغه أي مندوب عربي، وهذي مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ وهما عربيتان يشدّ المسلمون إليهما الرحال في كل عام من أقاصي المعمورة، وهذا القرآن الكريم كتاب الله المقدس عند جميع المسلمين وهذي الأحاديث النبوية مصدر التشريع عندهم لغتها عربية، ونبي المسلمين وأصحابه وخلفاؤه الراشدون عرب.

إن الإسلام نتيجة لنهضة عربية ولدت وترعرعت في أحضان العرب. وإذا صح أن يسمى هذا الجزء من الأرض بالمملكة السعودية، وذاك بالمملكة الهاشمية، لأن الحاكم سعودي أو هاشمي. أفلا تكون تلك المقدسات التي لها أعظم الأثر في تاريخ العرب والمسلمين، وفي حياتهم السياسية والاجتماعية سبباً كافياً لوجود وحدة عربية إسلامية تجمع العرب والمسلمين معاً! إن الوحدة الإسلامية ليست نقيضاً للوحدة العربية، ولا تسير في اتجاه معاكس لها، بل كل منهما جزء متمم للآخر.

ولا أدري من أين استنتج الدكتور حتي أن الوحدة الإسلامية تمثل الرجعية، أمن قول نبي الإسلام: إني بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، أم من هذه الآية القرآنية التي لم تفرق بين دين ودين، وفئة وفئة، وشرقي وغربي: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارىٰ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[1]. أم لأن المسلمين يسلمون بجميع الأديان، ويصدقون كل نبي مصلح، ولا يفرقون بين أحد منهم، قال الله تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**

---

١ ـ [سورة المائدة، الآية ٦٩].

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[١].

أعتذر لدعاة الطائفية في لبنان من الاستشهاد بالآيتين، فقد ساقني الموضوع إليهما مرغماً.

إن الإسلام لا يمثل الرجعية في مبدأ من مبادئه، ولا في حكم من أحكامه، وإنما يمثل الرجعية والبربرية من تعدىٰ علىٰ حريات الشعوب الآمنة، وسيطر علىٰ أقواتها بالقوة والجبر تارة، وبالاحتكار والتدليس أخرىٰ، وبالخيانة والفتن أحياناً، لتفتك بالمناضلين والأحرار في العالم.

أما الإسلام فهو دين الرحمة والإنسانية، وكفىٰ بقول الله شهيداً: **﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾**[٢].

إن الإسلام عربي نسباً ولغة، وإنساني مبدأ وعقيدة، وعالمي موطناً وهوية.

جريدة الهدف ٢٢ ايار ١٩٥٣ م

---

١ ـ [سورة البقرة، الآية ١٣٦].

٢ ـ [سورة الأنبياء، الآية ١٠٧].

أعداء القومية العربية[١]

ليس للقومية العربية معنىً مستقل بذاته عن العرب وأرضهم وثقافتهم ودينهم وتراثهم واقتصادهم. وقد فسرت بتفاسير شتىٰ، ويمكن إرجاعها إلىٰ مصدر واحد، وهو نزوع العرب إلىٰ المحافظة علىٰ كيانها وتراثهم وإثبات شخصيتهم في شتىٰ ميادين الحياة. إذن فقومية العرب لا تختلف في معناها عن أية قومية أخرىٰ، وهي بمعناها الشامل أشبه برغبة العائلة الواحدة في أن يعيش أفرادها مع بعضهم البعض في هدوء ورخاء، ومع غيرهم في وئام وسلام.

وعلىٰ هذا فكل من غرس شجرة في أرض الوطن العربي، أو علم طفلاً من أبنائه، أو داوىٰ مريضاً، أو رسم لوحة فنية، أو كتب مقالاً أحيا فيه أثراً نافعاً من تراثه، أو بنىٰ فيه كوخاً، أو شق طريقاً، أو أنشأ مصنعاً، أو قضىٰ علىٰ جريمة، كل هذه وما إليها مما يرفع من حياة العرب مادياً أو ثقافياً أو صحياً أو سياسياً في أي بلد من بلادهم، فهو عمل من أجل القومية العربية وقوتها وتدعيمها، وكل محاولة تقف ضد جهادهم في هذه السبيل فهو محاولة تهدف إلىٰ إضعاف القومية العربية والقضاء عليها.

وإذا عرفنا هذه الحقيقة، وأدركنا أنها المحك والمقياس استطعنا أن نعرف الأعداء بأسمائهم وسيمائهم، وأنهم الذين أوجدوا إسرائيل واستمروا في تأييدها وتزويدها بالمال والسلاح، والذين وقفوا ضد أماني الجزائريين في الأمم

---

١ ـ جريدة نداء الوطن ١٥ / ١ / ١٩٥٨ م.

المتحدة، وأعانوا الفرنسيين عليهم من قريب أو بعيد، والذين اغتصبوا أرض الخليج، واستعبدوا أهله بالنار والحديد، والذين تآمروا على سوريا ومصر والعراق، وساندوا الطغمة الفاسدة في الأردن ولبنان وتونس، والذين عملوا، وما زالوا يعملون لتفتيت كلمة العرب ووحدتهم وتضامنهم، وأنشأوا الإذاعة السرية ضد القومية العربية، وبذلوا الأموال للعملاء والصحافة المأجورة ومثيري الفتن ونافثي السموم، والذين يقفون حجر عثرة في طريق الصناعات الوطنية والاصلاحات الزراعية واللغة العربية، والذين لا يريدون أرض العرب إلاّ قاعدة لجيوشهم، ومطاراً لطائراتهم، ونهباً لشركاتهم، وسوقاً لمنتجاتهم ووكراً لدسائسهم.

إن هؤلاء ومن والاهم وسعى سعيهم هم الأعداء الألداء لكل ما يمت إلى العرب بسبب، أما غير الأعداء فهم الذين لا يعتدون على أرض العرب ومقدراتهم، ولا يتدخلون في شأن من شؤونهم، ولا يعترضون سبيلهم في شيء مما يريدون، ولا يريد العرب إلاّ ما تريده كل الشعوب من الحرية والحياد والسلام والبناء للحاضر والمستقبل.

وغريب قول البعض بأن الغرب لا يفهم الأماني العربية، ولو فهمها على حقيقتها لعدل وبدل من سياسته، إن هذا القول لا يخلو من الخداع والمغالطة، وهل أماني العرب طلاسم وألغاز؟! وهل تختلف عن أماني البلاد والقوميات ورغبتها في الحرية والسلام والتقدم والرخاء حتى يجهلها الغرب؟! كلا، إن الغربيين يعرفون أمانيهم، ولكن يتجاهلون الحق، وهم يعلمون، لأن الحق يتنافى مع أطماعهم وأهدافهم.

ومهما يكن، فإن يقظة القومية العربية أصبحت كالشمس لا يمكن أن يجهلها أو يتجاهلها إنسان، وإن ثورتها على الاستعمار يعرفها الغرب قبل الشرق،

وإن انتصاراتها علىٰ المعتدين وعملائهم تدور علىٰ كل لسان.

لقد انتقلت القومية من نصر إلىٰ نصر حتىٰ أصبح لها مقام مرموق في السياسة العالمية، وحتىٰ أصبحت جزءاً من تاريخ العالم الحديث. وانتقل الاستعمار، والحمد لله، من هزيمة إلىٰ هزيمة حتىٰ وصل إلىٰ مراحل الاحتضار، وعبثاً يحاول الصمود أمام القوميات، أما الخطوط التي يرسمها «الآن» لإشاعة الأكاذيب وافتعال التفرقة بين البلاد العربية فهي كسائر مصائده ومكائده مقضي عليها بالفشل والخذلان ﴿**ويقولون متىٰ هو قل عسىٰ أن يكون قريباً**﴾[1].. صدق الله العظيم.

نحن ومشروع أيزنهاور[2]:

بالأمس أراد ايزنهاور أن يحمينا بمشروعه من روسيا، واليوم يريد حمايتنا من الجمهورية العربية المتحدة، أي أنه يريد أن يحمينا من أنفسنا، وفي نفس الوقت تقتل إسرائيل وفرنسا عرب الجزائر وفلسطين بسلاح أمريكا، ويُقتل اللبنانيون الآن برصاصها ودباباتها وطائراتها!

ونتساءل: هل قتلنا برصاص أمريكا جائز، وقتلنا برصاص روسيا محرم؟!

أمريكا تسلح إسرائيل وعصابة الكتائب وحلف بغداد، لقتل الأحرار والقضاء علىٰ روح الاستقلال، فإذا تسلحنا من روسيا أو من المريخ لنحمي أنفسنا ونرد العدوان استنكرت أمريكا، وقامت قيامتها، ولماذا؟! لأنها تريدنا ضعافاً عزلاً نمد رقابنا للذبح خاضعين مستسلمين.

---

١ ـ سورة الاسراء، الآية ٥١.

٢ ـ جريدة التليغراف ١ / ٥ / ١٩٥٨ م.

قال ايزنهاور: إن في الشرق فراغاً يجب أن يسد وهو تعبير ثانٍ للقول بأن في الشرق الأوسط عبيداً يحتاجون إلىٰ سيد، علىٰ شريطة أن لا يكون هذا السيد روسيا ولا عربياً لأن سيادة الروسي تساوي في خطرها وضررها سيادة البلاد واستقلالها، وهذا ما لا تقوم له السموات والأرض.

إن مشروع ايزنهاور لا يريد عدلاً، ولا سلاماً، ولا خيراً، إنه يريد حماية الاستعمار وضمان إسرائيل، ولو أراد العدل لقدم لعرب فلسطين أملاً في الحياة، ولو أراد السلام لأعاد الجيوش المحتلة إلىٰ مواطنها الأولىٰ، ولو أراد الخير لأعطىٰ كل شعب حريته في تقرير مصيره، ولو أراد الإنسانية لبني مشروعه علىٰ تصفية الاستعمار.

إن مشروع ايزنهاور لا يهدف إلاّ إلىٰ القضاء علىٰ الأحرار حتىٰ لا يرتفع لهم صوت، يهدف المشروع إلىٰ حماية الدعارة وتزوير الانتخابات والعفو عن المجرمين وإطلاق أيديهم في الفساد، وإلىٰ اتخاذ الخونة أداة للتآمر.

لقد اعترف ايزنهاور بأن روسيا لا تحتاج كأوروبا لقناة السويس ولا لبترول الشرق الأوسط ولا لأسواقه، ولكن روسيا تريد أن تصبغ العالم بالصبغة الشيوعية، وأمريكا حريصة كل الحرص علىٰ القيم الروحية والمثل العليا التي أمر بها الإسلام والمسيحية، فلمكة والقدس قداستهما وكرامتهما، وعلىٰ أمريكا أن تحافظ عليهما. هكذا قال ايزنهاور! وشهد له حسين والسعيد والرفاعي وشمعون والصلح.

ونقول نحن: إن الشيوعية إلحاد أحمر، والاستعمار إلحاد أبيض، والإسلام والمسيحية ينكران الإلحادين معاً.

وبعد هذا القول نسأل ايزنهاور: من الذي اعتدىٰ علىٰ فلسطين والجزائر

وعمان، الشيوعية أو الاستعمار؟! ومن الذي قتل الأحرار في الأردن والعراق وعمان، وملأ بهم السجون وشردهم من بلادهم، الروس أو الانكليز؟! ومن الذي أحدث الانشقاق بين العرب، حلف وارسوا أو حلف بغداد؟! ومن الذي أوجد الفتنة في لبنان، وروى أرضها بدماء الأطفال والنساء، وجرأ الصلح على إحالة كبار العلماء على المجلس التأديبي خريتشوف أو دلس؟! وهذا الإلحاد الديني المنتشر في الشرق والانحلال الخلقي والاجتماعي، وهذا الفسوق والفجور هل جاء من موسكوا أو بكين أو من باريس ولندن وواشنطن؟! ومن اعتدى على بورسعيد، ومن تآمر على سورية؟ فرنسا والانكليز وأميركا أم الصين والاتحاد السوفياتي؟

أنصف العرب والمسلمين من نفسك ومن دلسك يا ايزنهاور، دعهم وشأنهم فهم وحدهم الذين يحافظون على مثلهم العليا، وهم وحدهم الذين يكافحون المبادىء الهدامة، وهم وحدهم يقضون على الاستعمار.

نحن نعلم يا مستر ايزنهاور أنك حين تقول القيم الروحية والمثل العليا فإنك تقصد البترول والمطامع الاستعمارية، وإذا قلت المبادىء الهدامة فإنك تريد الحرية والاستقلال.

قل ما شئت أن تقول، وافعل ما بدا لك أن تفعل، فسنلقنك الدرس الذي تفهمه، سنثبت لك أننا أباة أحرار.

لا يا مستر ايزنهاور، لا خوف على الإسلام والمسلمين، ولا المسيحية والمسيحيين، ولا العرب والعروبة من الشيوعية، إنها غريبة عنهم فكراً وعاطفة، إنهم بعيدون عنها، إنهم لا يخافون من الشيوعية، ولا من الفاشية يا مستر ايزنهاور، بل لا يخافون مؤامرتك ودسائسك، بل ولا سلاحك الذي صنعته لقتل الأحرار في فلسطين والجزائر والعراق والأردن ولبنان وعمان وفي كل مكان.

إن العرب يعلمون حق العلم أن مشروعك يا مستر ايزنهاور أخطر مليون مرة من الشيوعية، ومن غزو انكلترا وفرنسا لمصر، إنه أخطر من كل شيء، إنه الموت الأحمر، لأنك قلت: هو إعلان للسلام مع أنه في حقيقته وواقعه بؤرة الدس والمؤامرة، وسبب الخراب والدمار، ومصدر الفتنة والشقاق. لولا مبدؤك يا ايزنهاور لما ارتكبت حكومة لبنان القتل والبطش والتنكيل بقيادة شمعون وأمثاله العملاء.

لذلك دفنا مشروعك يا ايزنهاور كما دفنا من قبل حلف بغداد، وسنبقى أحراراً حياديين لا مع الشرق ولا مع الغرب نضحي بالحياة رخيصة في سبيل استقلالنا وحيادنا، وشعارنا الوحيد إما الموت وإما الحرية.

٥ حزيران ١٩٦٧م:

أسجل للتاريخ أن هذا اليوم المشؤوم له جرح عميق في قلبي العليل..[١] لن يدمله شيء حتى الموت، لأنّه سوف يدخل معي إلى القبر ويرافق جسمي وهو يتحول إلى تراب، والتراب إلى نبات .. وإني أشفق سلفاً وأرحم ذاك الحيوان المسكين الذي يأكل ما ينبت على القبر الذي أنا فيه، أرحمه لأنّ جرح ٥ حزيران لابد أن ينعكس عليه.

إنّ الجرح لا يدمله شيء إلاّ شيئاً واحداً، هو أن يمحى كل أثر من الوجود للولايات المتحدة الأميركية لأنّها حاربتنا بإسرائيل وليست إسرائيل التي حاربتنا .. إن هذه الولايات المتحدة لم تقاتلنا وجهاً لوجه كما فعلت وتفعل في فيتنام ...

---

١ ـ يشير المؤلف إلى قلبه المريض فعلاً والذي قضى بسببه سنة ١٩٧٩ م. وهذا المقال كتب في اليوم السابع من حزيران ١٩٦٧ م. الناشر

ولكن دماغ أميركا كان في المعركة وإسرائيل اليد المنفذة. لقد صوّرت الأقمار الأميركية بكل دقة قواعد العرب الجوّية والبرية ومواقعهم وتجمعاتهم وكل شبر يمرّ به جندي عربي ـ واستغلت أعلى مستوياتها التقنية وعبأت أدق خبراتها العسكرية، وبعد دراستها للوضع وضعت التصاميم وأعطت الإشارة لإسرائيل لتقوم بالتنفيذ.

كان أسطول وجيش أميركا بتصرف إسرائيل، وأعطت الصهاينة المال والسلاح والطيارين الأكفاء .. وتعهّدت علناً لإسرائيل أن تتدخل لردع العرب إذا كانت الغلبة لهم، وساندت العدوان بشكل سافر ووقح في الأمم المتحدة ومجلس الأمن. هذا هو موقف الولايات المتحدة من العرب وإسرائيل.

أما موقف روسيا من العرب في هذا اليوم الأسود فهو بلاشك أحسن من موقف جميع الدول الأجنبية ... إنها سلّحت العرب ما في ذلك ريب، وقطعت علاقتها السياسية مع إسرائيل، ودافعت عنا في الأمم المتحدة ومجلس الأمن وفي إذاعتها وصحفها، وأدانت أميركا علناً. ولكن هذا كله ورغم فوائده لا يساوي عشر مساندة أميركا لإسرائيل .. فلا نعلم أن الأقمار الروسية صوّرت المواقع الإسرائيلية ولكننا نعلم أنّ الاسطول السوفيتي لم يتدخل في المعركة لصالح العرب كما فعلت السفينة «ليبرتي» في خدمة إسرائيل، ونعلم أيضاً أن تقنية روسيا وخبراتها العسكرية لم تشترك فعلاً في الدفاع عن العرب كما أنّها لم تتعهد لردع إسرائيل بالقوة عن العدوان كما تعهدت الولايات المتحدة لإسرائيل.

أيضاً ظلّت العلاقة متينة بين الإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بعد العدوان كما كانت قبل العدوان، وليس من شك أنّ هذا يعجب إسرائيل ويجعلها تشعر بالسعادة.

إنّ كلاً من موقف أميركا وروسيا واضح جداً .. الولايات المتحدة لم تدافع

عن إسرائيل بالذات، وإنما دافعت بإسرائيل عن مصالحها الستراتيجية في الشرق الأوسط. أما الاتحاد السوفياتي لم تبلغ مصالحه الستراتيجية في الشرق الحد الذي بلغته مصالح أميركا ..

وبكلمة .. إن موقف كلٍّ منهما ينسجم مع مصالحه، أو مع مقدار مصالحه.. هذا منطق الواقع، ومن تعدّاه فإنّه يقيس بمقياس التبعية للغير أو بمقياس مبني على خطأ التحليل والتفكير.

التعايش السلمي:

يهدف الداعون إلىٰ التعايش السلمي ـ فيما يهدفون إليه ـ أن تحل الخلافات بين المتخاصمين بالمؤتمرات والمفاوضات .. ولكن قد علمتنا التجارب أن المنطق السليم، والمحاجة بالحسنىٰ لا تجدي شيئاً مع أرباب الامتيازات والمنافع الشخصية .. فمحال أن يتنازل أهل الأطماع عن أطماعهم إلاّ بوسائل الضغط والقوة .. إن التعايش السلمي يحتاج إلىٰ عقل متفتح، وخلق كريم .. وأي خلق كريم عند من لا يؤمن إلاّ بالتعدي علىٰ حقوق الآخرين، وإلاّ بالاحتكار والاستثمار .. وأية حجة تقنع أهل الطمع والجشع!

يقال: إن كلاً من الكتلتين: الشرقية والغربية، تدعو إلىٰ التعايش السلمي فيما بينهما، وفي الوقت نفسه تتسلح كل منهما، وتتحصن خوفاً من الأخرىٰ ... إن أقل ما يفرضه هذا التعايش أن تتفقا معاً علىٰ التسليم فعلاً لا قولاً بما قامت عليه الأدلة والبراهين، تماماً، كما يتفق المتناظران ويسلمان بما توافرت الأدلة علىٰ ثبوته .. وقد ثبت بالفطرة وبديهة العقل أن لكل شعب الحقّ الكامل في تقرير مصيره، لا يسوغ لأحد أن يتدخل في شأن من شؤونه، فأين العمل بهذا المبدأ؟

إن التفاوض بالطرق السليمة، والرضوخ للحق لا يتحقق على وجهه الأكمل إلاّ إذا كانت جميع الأطراف المعنية متساوية في العدل والحرية ومؤمنة بالحق لوجه الحق .. ومحال أن يهتدي إلى خير، ويرجى منه الخير مَنْ لا يؤمن إلاّ بذاته، ولا يهتم إلاّ بمنافعه ولا يعترف بوجود الآخرين وبعد هذا كيف يتعايش العرب المغلوبون مع أميركا وإسرائيل الغالبين المعتدين.

المصلحة القومية عند الدول العظمى:

قبل هزيمة ٥ حزيران كنت أقول مع الذين آمنوا بأن عالم اليوم ينقسم إلى كتلتين: شرقية وغربية، تقف كل منهما موقفاً مضاداً لموقف الأخرى، وبعد الخامس من حزيران تبين لي أن هذا التقسيم في غير محله، لأن من شرط التقسيم أن يكون بين الطرفين تضاد، بحيث لا يتوارد الاثنان على شيء واحد، ولا تضاد كلي بين الدول الشرقية التي تسمي نفسها بالاشتراكية، وبين الدول الغربية الاستعمارية.

إذن ليس هناك كتلة شرقية، كانت أو غربية كمبدأ يُعمل به على حال، وإنما تقدم الدول أو تحجم ـ شرقية كانت أو غربية ـ بوحي من مصالحها القومية، أما المبادىء فما هي منها في شيء .. إن صاحب المبدأ هو الذي يضحي بنفسه من أجله، أما من لا يعمل إلاّ بوحي من منفعته الخاصة فهو نفعي، لا مبدئي.

والصحيح أن عالم اليوم ينقسم إلى معسكر استعماري يرى أن أية ثورة وطنية تقوم في بقعة من الأرض فهي ضربة موجهة إليه بالذات .. وإلى حركات تهدف إلى التقدم والتحرر من كل ما فيه شائبة الاستعمار والاستغلال، وهذان الطرفان أو المبدءان قد توافر فيهما شرط التقسيم، لأن التضاد بين الاستعمار

والتحرر منه تضاد ذاتي لا يمكن بحال التصالح بينهما، ولا التخفيف من حدة أحدهما ضد الآخر إلاّ إذا تخلص من طبيعته.

وقد نادت الكتلة الشرقية بالتعايش السلمي مع الكتلة الغربية الاستعمارية باعتراف الشرقية نفسها، ووقعت معها العديد من المعاهدات بصفة جادة ورسمية .. إذن فأين التقسيم؟ وما هو المبرر له مع هذا الوئام والانسجام؟

وقد يقول قائل: إن هذه المعاهدات تضمن الأمن والسلام.

أجل، إنها تضمن سلام روسيا وأمريكا فقط، أما الشعوب الأخرىٰ فهي في قلق وخوف أن يصيبها ما أصاب الكونغو وأنغولا والدومينيكان وفلسطين وفيتنام.

لقد أدرك الاستعمار الجديد أن حياته رهن باستمرار الحروب الصغيرة، وأن السلام الشامل الكامل معناه القضاء عليه، والحروب الصغيرة في مفهومه هي التي تتيح لمعامل انتاج السلاح بصورة مستمرة، وتمكنه من ضرب الحركات التحررية في كل بلد أعزل، وفرض إرادته عليه، أما الذي يضاهيه أو يفوقه في السلاح فيجب الابتعاد عنه، وعدم الاصطدام به وجهاً لوجه، ولكي يتحكم الاستعمار الجديد بالشعوب الضعيفة ويضرب الحركات الوطنية دون معارض ومنازع قبل بالتعايش السلمي مع الذي يخاف من قوته وسلاحه، وهذا ما حصل بالفعل، فلقد مارست أمريكا أعنف المعارك «الصغيرة» ضد الشعوب العزلاء، ونكلت بحركات التحرر في ظل التعايش السلمي مع روسيا آمنة مطمئنة.

العرب وروسيا:

قلت: إن التضاد والصراع إنما هو بين الاستعمار، وحركات التحرر ضد الاستعمار، وليس بين الكتلة الشرقية والغربية، وتقوم الآن الولايات المتحدة بدور القائد للاستعمار الجديد، وتمارس هذه القيادة عملياً، وتطبقها بكل دقة، أما حركات التحرر في العالم كله فإنها حتى الآن لا تجد من يقودها بجد وإخلاص، كما وجدت الامبريالية في الولايات المتحدة الأمينة.

وتسأل: والاتحاد السوفيتي وتضحياته.

الجواب: إن الاتحاد السوفيتي مؤيد ومساعد لحركات التحرر، وليس بقائد، والفرق بعيد بين الاثنين .. إن القائد هو الذي يقود المعركة ويخوضها إليه بالذات، وهذا ينطبق على أمريكا بالنسبة إلى الاستعمار ولا ينطبق على روسيا بالنسبة إلى القوى الثورية، إن روسيا تدافع عن الشعوب المناضلة، وتقف معها في الأمم المتحدة، وتمدها بالسلاح والخبراء، ولكن المساعدة والتأييد شيء، والقيادة شيء آخر.

أما السبب الذي ألزم أمريكا بقيادة الاستعمار يزيد الانتاج الأمريكي، ويضاعف ثروة أصحاب الملايين في «وول ستريت» أما الحركات الوطنية فلا تزيد الانتاج الروسي شيئاً، وإذا ساعدها الروس، وأيدوها فإنهم لا يفعلون ذلك لله، وإنما يفعلونه خوفاً أن يمتد النفوذ الأمريكي إلى المعسكر الاشتراكي نفسه، ومهما ارتفعت درجة الحرارة فيهم بسبب هذا الخوف فإنها لن تبلغ مبلغ الحرص على زيادة الأنتاج، وتضخم الثروات.

ومن هنا دافعت أمريكا عن إسرائيل قاعدتها الاستعمارية دفاعاً لا حدّ له

ولا نهاية، وأيدت روسيا العرب بمقدار محدود.

وبكلمة إن موقف كل من الدولتين في حرب الشرق الأوسط تفسيره مصلحتها القومية، وليس الحق والعدل والقيم الإنسانية.

وأياً كان الأمر فإن موقف الاتحاد السوفيتي من العرب كان وما زال موقفاً مشكوراً بالنسبة إلىٰ موقف أمريكا وانكلترا في أزمة الشرق الأوسط، بل سد بعض الثغرات الهامة التي تركها يوم ٥ حزيران ولولا الروس لم يكن لدىٰ العرب شيء من الأسلحة الدفاعية ولما وجدت الحركات الوطنية ناصراً، له ثقله وأثره، أقول هذا مع العلم أن خلاص العرب بيدهم، لا بيد الروس ولا غير الروس، وأن طريق هذا الخلاص ينحصر بالصمود والاستماتة في سبيل حقهم المشروع.

إن الإنسان ليطغىٰ أن رآه استغنىٰ:

تسأل: لماذا تقف الولايات المتحدة بكل ما لديها من قوة إلىٰ جانب الصهيونية وإسرائيل، وتهلل وتكبر لكل خائن وعميل؟ وهل من عاقل يسأل: لماذا يسمع الإنسان بأذنيه، وينظر بعينيه، ويمشي علىٰ رجليه؟

إن أعجب العجب أن لا تبارك الولايات المتحدة، وهذا وضعها ونظامها وديدنها وديدنتها، كل عدوان وطغيان، بل وتحث عليه، بل وتشترك فيه بكلها وثقلها. ولا أجد مظهراً لهذه الآية الكريمة: ﴿**إن الإنسان ليطغىٰ أن رآه استغنىٰ**﴾[1] أطغىٰ وأجلىٰ من الولايات المتحدة، وما من شك في هذا فلنقرأ تاريخها في حروب الشرق الأقصىٰ وفي اليابان وفيتنام.

---

١ ـ [سورة العلق، الآية ٦ ـ ٧].

ومعذرة أيها القارىء، فإني أكتب هذه الكلمات في صيف سنة ١٩٧٧ م وأهل بلدي وديني ومذهبي يشردون من جنوب لبنان نساءً وأطفالاً بمئات الألوف هرباً من النار وبعد هلاك الأموال وخراب الديار، والسبب الأول الصهيونية والولايات المتحدة. وقديماً قيل: «وما المسبب لو لم ينجح السبب».

إله إسرائيل ... صهيوني:

الحديث عن الفلسفة اليهودية والعنصرية الصهيونية، يتسع لأكثر من مجلد .. ونكتفي هنا بكلمة موجزة عن إله إسرائيل وحقيقته ومهمته كما هو في الديانة اليهودية، لأن فلسفتها وجميع تعاليمها ترتكز على طبيعة هذا الإله وصفاته.

ومجمل القول فيه ـ كما هو عند إسرائيل ـ أنه أعجب من أن يتصوره عقل، إنه صهيوني يعادي الإنسانية يأمر بالدمار وحرق القرى والمدن بمن فيها حتى الأطفال .. ما عدا الذهب والفضة والنحاس والحديد، لأن هذه الأموال للإله الرأسمالي الأكبر .. وأيضاً هذا الإله عنصري قبلي على غرار أصنام بعض القبائل في الجاهلية .. ولا يعنيه من أمر الخلق إلاّ حلّ مشكلات اليهود، ومن أجل ذلك سخر لهم الكون بمن فيه من إنسان غير اليهودي وما فيه من كائنات وأنعام.

وتورد التوراة فيما تورد عن هذا الامتياز في سفر يشوع الاصحاح ٦ فقرة ٢٤ خطاباً مع بني إسرائيل: «أحرقوا المدينة مع كل ما بها .. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها في خزانة بيت الرب» .

وفي سفر التثنية الاصحاح ١٤: «قد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق الشعوب على وجه الأرض».

وفي سفر العدد الاصحاح ٣١ فقرة ١٢: «خذوا كل الغنيمة وكل النهب من

الناس والبهائم».

وفوق ذلك أن الله تصارع مع يعقوب الليل بطوله فعجز عنه، بل عجز عن التخلص والفرار منه، وبالتالي لم يجد الرب بداً من الرجاء والتوسل إلى يعقوب كي يمنّ عليه بالإطلاق، فقال له مستعطفاً: «أطلقني لقد طلع الفجر، فقال له يعقوب: لا أطلقك إن لم تباركني .. فباركه الرب، وسماه إسرائيل[1] ومعنى إسرائيل في العبرية القوة ضد الله، كما نقل العارفون بهذه اللغة.

تشير هذه الفلسفة أو هذه الخرافة أن اليهودي لا غالب له حتى الله يعجز عنه !. وقد جاء هذا المعنى في القرآن الكريم بنص أبين وأوضح في الآية ٦٤ من المائدة: **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾** .. وفي الآية ١٨١ من آل عمران: **﴿قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾**.

---

١ ـ التوراة سفر التكوين الاصحاح ٣٢ فقرة ٢٢ ـ ٢٩.

العالم العربي والإسلامي في عهد إسرائيل

عدد المسلمين وموقعهم:

يضم العالم من المسلمين أكثر من مليار إنسان: يوجد أغلبهم في آسيا وأفريقيا، ويملك المسلمون وبخاصة العرب ثروة في جوف الأرض تجعلهم أغنى من عليها، وأهم ما ظهر منها حتى الآن البترول، ولعل ما يكشف القناع عنه غداً أو بعد غد أهمّ وأعظم، أما موقع البلاد الإسلامية والعربية من العالم فهو موقع القلب والحزام والمفصل بين القارات الخمس.

الداء في الرأس لا في الجسد:

مليار مسلم، وأكثر من ٣٢دولة إسلامية، وثروة اشبه «بخاتم لبيك السحري» ولولاها لم يكن العالم الحضاري الحديث ممكناً، ولا صعدت الولايات المتحدة إلى القمر، كل هذه القدرات والإمكانات ولا أثر للمسلمين على أيّ مستوىً يُذكر!. اللهم إلاّ مؤتمرات وصرخات لا شيء وراءها إلاّ الشماتة والفضيحة.

وأيّ عار على العرب والمسلمين أشدّ وأعظم من هوانهم على إسرائيل؟.. أبداً كلما عقدوا مؤتمراً تمادت إسرائيل، في الغي والتوسع، وكلما رفعوا صوتاً

استهانت بهم وبكل حق وشرعية، ولا سرّ إلاّ الأوضاع الفاسدة السائدة في كل بلد إسلامي، وقطر عربي .. أمراء وسلاطين، ومشايخ ومشعوذون، وولاء وتبعيّة، وجهل ورجعية، وخلاف وصراع فيما بينهم أشدّ مما بينهم وبين إسرائيل، وكل حاكم وقائد يتخذ منها ميداناً للمزايدة والمداورة، وساحة للمداهنة والمناورة.

أما حرب تشرين فإنها لا تعني شيئاً إلاّ أن العرب قادرون على النصر وغسل العار لو شاءوا وصبروا صبر الأحرار، ولكن أبىٰ من أبىٰ إلاّ سياسة الخطوة خطوة إلىٰ المذلّة والاستسلام، وهنا يكمن الداء، وإنه في الرأس لا في الجسد، في القيادة لا في الشعب المقود.

حول حرب تشرين :

بعد حرب تشرين ١٩٧٣ م بأمد قصير جمعتني الصدفة وبعض الأساتذة فسألني: كيف رأيت حرب تشرين؟

قلت: لا أُغالي في نتائجها كما فعل من أفرط وتوهم، ولا أُقلل من أهميتها في جهة واحدة، وهي أنّ كثيراً من الناس تصوروا أن الإنسان الفيتنامي معجزة أو لغز من طبيعة أبعد ما تكون عن طبيعة إنسان القرن العشرين، وعذرهم في هذا الوهم والتصور أن القنابل الإميركية الجهنمية كانت تفجر في الفيتنامي المحارب القوة والحياة بدلاً من الموت خوفاً أو الاستسلام، وكلما اشتد القصف وتضاعف ازداد الفيتناميون ثباتاً وصلابة. أفقر وأضعف شعب يتحدىٰ أغنىٰ وأقوىٰ دولة في العالم عسكرياً واقتصادياً وتقدماً في أسلحة الدمار والإبادة ويقهرها وينتصر عليها! .. إذن هناك سرّ وعصاً سحرية!

ولكن الجندي العربي هتك هذا السرّ، وأحرق العصا الساحرة حين عبر

القناة وحطّم خطّ بارليف بساعات، وأثبت للعالم أنّ الإنسان واحد بطبعه فيتنامياً كان أم غير فيتناميّ أسود أو أبيض أو أصفر، وأنّ مسألة النصر والثبات في الجهاد هي مسألة القائد وإخلاصه وذكائه، وشجاعته وخططه.

ولا عارف منصف يشك في أن الجيوش العربية لولا وقف القتال لاحتلت تل أبيب مهما كانت التضحيات .. ولو أن الحرب ضدّ أمريكا حرام محرّم على المؤمنين والطيبين؟

الدول الإسلامية وإسرائيل :

ولإسرائيل أمتن الصداقات وأطيب العلاقات مع العديد من الدول الإسلامية، وتتخذ منها وسيلة للعمل ضد العرب على جميع المستويات وقد استأجرت إسرائيل أو استغفلت بعض القادة المسلمين لمؤازرتها على الضلال وحرب الإسلام ومقدساته، فقد أعلن بكل وقاحة رئيس من رؤساء الوفود الإسلامية في المؤتمر: «إننا جئنا من أجل المسجد الأقصى، وليس من أجل إسرائيل».

وتقوم إسرائيل في بعض الدول الإسلامية بأعمال لا تخطر على بال، وتبدأ نشاطها بمكتب اقتصادي، ثم بوكالات للشركات وتستمر في التغلغل حتى تصل إلى أهدافها كاملة، وتساعدها في ذلك أمريكا وبريطانيا وكثير من الدول الغربية.

فمتى نواجه هذه الحقيقة مواجهة واعية حاسمة، ونتخلّص من الخونة والسماسرة؟ . إنّ التاريخ لا يتحرك تلقائياً إلى الأمام، وكم له من نكسات على أيدي الذين يصدّون عن الحق ويبغونها عوجاً؟ ولا سبيل إطلاقاً لتقدم الإسلام والمسلمين إلاّ بإرادة الإنسان فهي التي تسيّره إلى الوراء أو الأمام.

إسرائيل والقرآن:

﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1]. وصف سبحانه القرآن بأنه عزيز وأنه لا يأتيه الباطل، ومعنىٰ عزيز أنه القاهر الغالب بحججه الواضحة وبراهينه القاطعة.

إن إسرائيل طبعت ألوف النسخ من القرآن، وشوهت بعض الآيات، منها الآية ٨٥ من سورة آل عمران: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه﴾** والتي صارت في قرآن إسرائيل: (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً يقبل منه) وقد حدث هذا سنة ١٩٦٨ م، فجمع الأزهر هذه النسخ ومنعها من الانتشار، ولكن إسرائيل عادت ثانية وزوّرت سنة ١٩٦٩ م آيات أخرىٰ منها: **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا﴾**[2] فغيرت إسرائيل كلمة لُعنوا إلىٰ كلمة «آمنوا» وصارت في نسخة القرآن الذي زوّرته إسرائيل (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم وآمنوا بما قالوا) وغمرت بهذه النسخ أسواق لبنان ومعظم البلاد العربية وماليزيا وباكستان والهند وأندونيسيا وغينيا وساحل العاج وإيران .. وفي هذا اليوم بالذات ٢٥ ـ ٢ ـ ١٩٧٠ م نشرت جريدة «النهار» البيروتية أن تزوير القرآن الكريم وتحريفه وتعديله تمّ في ألمانيا الغربية في مطبعة «كولونيا ـ دويتس».

ولم تقف إسرائيل في حربها للإسلام والمسلمين والشعب العربي عند هذا الحد .. فأذاعت القرآن من إذاعتها محرفاً، وأيضاً صممت إسرائيل «راديوهات» لا تلتقط إلاّ إذاعتها التي تحرف القرآن وباعتها بأبخس الأثمان .. فعلت إسرائيل هذا

---

١ ـ [سورة فصلت، الآية ٤١ ـ ٤٢].

٢ ـ سورة المائدة الآية ٦٤.

وأكثر من هذا تطبيقاً للمبدأ الصهيوني الذي أعلنه أحد زعماء الصهاينة بقوله: «يجب أن نتخذ القرآن سلاحاً مشهراً ضد الإسلام والعرب لنقضي عليه».

نذكر هذا كمثل للحرب التي تشنها إسرائيل على الإسلام والأمة العربية عسى أن يعتبر به بعض الملوك والرؤساء وبعض الشيوخ أيضاً الذين يتسمون باسم الإسلام، ويعملون في الخفاء لصالح إسرائيل ومن يساندها.. وطريف قول بعض الشيوخ المزيفين: إن إسرائيل أحسن من غيرها لأنها تذيع القرآن من إذاعتها .. أجل، يا شيخ إنها تذيعه بل وتطبعه وتنشره أيضاً، ولكن مزيفاً ومحرفاً لتقضي على الإسلام وعلى الشعب العربي تماماً كما يفعل بعض المعمَّمين المزيفين.

لا قيادة ولا قائد في العالم الإسلامي:

بمناسبة مشاريع الاستيطان الصهيوني في الأرض العربية، وضم القدس الإسلامية وتحويل الحرم الإبراهيمي إلى كنيس صهيوني.

الحقيقة أن المسلمين اليوم أشبه بقطعان من الغنم غاب راعيها حيث لا قيادة عامة ولا قائد تعطى له الكلمة باسم العالم الإسلامي بكامله.

أجل، يوجد في العراق أو إيران أكثر من مرجع ديني للشيعة يبين لأتباعه ومقلديه حلال الله وحرامه، ولكن لا أثر له وتأثير في أية حادثة أو كارثة يعانيها الإسلام والمسلمون في بقاع الأرض وأطرافها، أما شيخ الأزهر و«الإمام الأكبر» فهو موظف يعين بمرسوم من رئيس الدولة، وينحى بمرسوم، ولا يقول إلاّ ما يقال له خيفة على منصبه، وأيضاً يوجد في البلاد الإسلامية منظمات طائفية، ومؤسسات إقليمية تعقد اجتماعاتها، وتذيع منشوراتها، ولكن لا تشمل إلاّ نفسها، وبعض منها لا يحمل شعار الدين إلاّ ليمتص غضب المحرومين، ويدعهم نظام

القلة من أرباب الملايين.

لقد انتهبت إسرائيل وطناً عربياً بكامله، وأضافت إليه ما أضافت لتحقق حدوداً أوسع، وحرقت المسجد الأقصىٰ، وتعمل علىٰ تهويد الحرم الإبراهيمي بعد تهويد القدس، وما يأتي أدهىٰ وأمر، والعالم الإسلامي ككل غائب ولا يؤوب.

ومنذ ست سنوات انعقد مؤتمر القمة الإسلامي بمناسبة إحراق المسجد الأقصىٰ، ولكنه انقلب علىٰ عقبيه. وخلف وراءه الفضيحة والشماتة، بكل عربي ومسلم، وكان بعض الحاضرين تقدم باقتراح متواضع بأن تقطع الدول الإسلامية علاقاتها بإسرائيل فرفض الإقتراح ... وحتىٰ اليوم تقوم بين إسرائيل وبعض الدول الإسلامية أطيب العلاقات ويا للعار ...

وبالأمس القريب انعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية في جدة. وانفض بلا شيء يحفظ ماء الوجه .. بل إن هذا المؤتمر أبدىٰ ارتياحه لجهود اللجنة التي كان مؤتمر بنغازي قد ألفها للوصول إلىٰ اتفاق مرض بين حكومة الفيلبين والثوار المسلمين، هناك، ثم قرأت كلمة من عبد الباقي أبو بكر قائد الثورة في الفيلبين جاء فيها: «إن الرد العملي علىٰ نداء المؤتمر في بنغازي وتشكيل اللجنة هو أن قتلت حكومة الفيلبين أكثر من ٤٠ ألف مسلم».

ولو كان في العالم الإسلامي قيادة عامة وصالحة لوضعت حداً لمن يبتزّ الإسلام، ويستغل شعاره لمطامع أعداء الإنسان والأديان.

وما دمنا أبعد الناس عن روح الإسلام بكل ما به من معنىً، ولا موقع بيننا لقيادة إسلامية شاملة ـ فعلينا أن ننسجم مع الواقع وأنفسنا وندع الحديث عن الإسلام والمؤتمرات والمؤسسات باسمه رياء أو حياء.

أبعد هذا يقال: «أين هي المؤسسات والمؤتمرات الإسلامية لكي تدافع

عن حرمة الحرم الإبراهيمي؟». أبداً لا شيء في العالم الإسلامي إلاّ التمزيق والشقاق والتبعية والطاعة لعدو الله والإنسان باسم الدين والوطنية .. وإذا ارتفع صوت الحق من مسلم مخلص رجمه العملاء والأدعياء بالتهم الكاذبة، ورشقوا إيمانه وصفاءه بالبهتان والإفتراء. ولا يزيده ذلك إلاّ إيماناً وجهاداً ضد المزيفين والمضللين: **﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾**[1].

---

١ ـ [سورة التوبة، الآية ١٢٣].

البابا والصهيونية

يعرف القاصي والداني على أن الدين المسيحي ينص صراحة على أن اليهود وأولادهم من بعدهم يتحملون مسؤولية صلب «الإله» .. ومع ذلك فإن بابا روما بذل جهد المستميت عام ١٩٦٥ م لتبرئة يهود الجيل الحالي والأجيال السابقة من تبعة صلب المسيح، وعقد من أجل ذلك أربعة مؤتمرات، واصطدم مع الكنيسة الشرقية، وبلغت تكاليف المؤتمرات ٢٠ مليون دولار، والهدف الأول والأخير سياسي بحت، وهو تقوية «دولة إسرائيل» وتدعيم مركزها في فلسطين، وسياستها في العالم .. وعلى الأصح تقوية الامبريالية، وتدعيم قواعدها في الشرق بعامة، والبلاد العربية بخاصة .. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الدين عند بعضهم، مطيّة للصهيونية، وإلاّ كيف نفسّر تصرف بابا روما من تبرئة اليهود من دم المسيح؟ ولقد نص الإنجيل على ذلك صراحة حينما قالت اليهود إن دم المسيح يقع علينا وعلى أبنائنا من بعدنا، وهل يريد بابا روما أن يخترع ديناً جديداً غير دينه الذي أدان اليهود على صلبهم للمسيح؟ أم أن هذا البابا يهودي يلبس ثوب المسيحية؟

رب التوراة ورب الانجيل :

وهذه الديانة السفّاكة الأفّاكة نابعة من الطبيعة الصهيونية وفلسفتها، ولا صلة لها إطلاقاً بأي وحي أو علم أو عقل وضمير .. فقد روى الإسرائيليون أنفسهم أن

التوراة المتداولة الآن هي من صنع أحبار اليهود بعد عودتهم من الأسر البابلي إلى أرض كنعان (أنظر الرحلة المدرسية للشيخ جواد البلاغي، وإظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي، وفلسفة التوحيد والولاية لمحمد جواد مغنية فصل أهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم، وموسوعة لاروس، ورسالة لسيجموند فرويد» وذكرنا المصدرين الأخيرين رواية لا دراية.

ولا أدري: كيف جمع المسيحيون بين الإيمان برب التوراة (أي إله إسرائيل السفاح الضاري) والإيمان برب الإنجيل وهو أرحم الراحمين.

مبادىء وأهداف مشتركة:

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن هذا الاخاء واللقاء بين الصهيونية والولايات المتحدة ـ ليس من باب الصدفة، بل من باب المشاركة والالتحام في المبدأ والهدف والنظام، وقد ظهرت هذه الحقيقة بوضوح على لسان بيغن رئيس وزراء إسرائيل الحالي بعد زيارته للولايات المتحدة واجتماعه برئيس جمهوريتها كارتر حين سأله مراسل صحفي عن نتيجة الاجتماع، فأجاب بقوله: «إننا نؤمن بحقائق مقدسة مشتركة، وذلك ما قربنا ووفق بيننا من أول نظرة».

وبعد إن الفلسفة اليهودية الصهيونية الضارية، لا نهاية لها ما دامت نصوص التوراة ثابتة على أمرها بالخراب والدمار والسلب والنهب .. وعلى أساس هذا النص ضم بالأمس القريب رئيس وزراء إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة إلى دولة إسرائيل، وقال بصراحة ووقاحة: «من التوراة ننطلق وإلى التوراة نعود». وتقول التوراة: إن الله أعطى الأرض للشعب اليهودي.

قطط وكلاب صهيون

تعمل الصهيونية جاهدة على التشكيك بالقيم الإنسانية، وبكل دعوة تقوم على الصدق والعدل، وتنكر الزور والبغي، وتساوي بين الناس في الحقوق والواجبات .. ذلك بأن لليهود ـ بوجه العموم ـ عقيدة عنصرية تعتبر أنهم شعب الله المختار، وأن غيرهم من الناس مسخر لخدمتهم ومصالحهم، وأن لليهودي كل الحق أن يمتلك أي إنسان في الشرق والغرب، ويفعل به ما يشاء تماماً كما يمتلك الحيوان .. وعلى هذا نصّت التوراة بوضوح وصراحة في سفر التثنية الإصحاح السابع، وسفر العدد الإصحاح ٣١.

أما كتاب التلمود فيقول: «نحن شعب الله المختار نحتاج إلى نوعين من الحيوان، نوع أعجم كالدواب والأنعام والطير، ونوع الحيوان الإنساني وهم سائر الأمم من الشرق والغرب».

ولما كان القرآن والإنجيل حرباً على هذه الوحشية الكاسرة، وعلى كل عنصرية ـ قرر اليهود قتل عيسى ومحمد .. ولما عجزوا عن اغتيال رسول الله بالسم والقضاء على رسالته دسّوا الأحاديث المكذوبة على لسانه، ثم طبعوا أُلوف النسخ من القرآن بعد أن حرّفوا الكثير من آياته واشتروا بعض المزيفين من أرباب العمائم للتشويه والتضليل باسم الدين.

وحين ظهر أمرهم وافتضح مكرهم سلكوا سبيلاً آخر أدهى وأحكم، اكتشفته وأنا أقرأ جريدة أخبار اليوم المصرية تاريخ ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٢ م ، من

سيطرة ونفوذ على أجهزة الإعلام ـ نشروا في الصحف الغربية التي يمتلكوها أن الكلاب في جزيرة «باربادوس» إذا قاربت الوفاة تذهب إلى مقبرة خاصة لتموت فيها .. حتى كلاب الجزر الأخرى المجاورة تسبح المحيط، وتتجه إلى هذه المقبرة دون معرفة سابقة بها، وتموت هناك كما أحبّت وأرادت.

وأيضاً إن القطط في جزيرة «أوزيل» حين تشعر بدنو الأجل تسرع إلى مقبرة معينة لتموت فيها بهدوء، وأنّ هذه القطط القليلة في هذه الجزيرة تتعايش بسلام مع جيرانها الفئران والتي تعدّ بالآلاف.

إن الفكر الصهيوني العنصري واضح في معاني ومغازي هذه الخزعبلات ولا أظن أنها تنطلي على القارىء الذكي.

تنشر الصهيونية هذه الأباطيل في صحف غربية، وبلغة أجنبية إبعاداً للشبهة، وإحكاماً للخطة، ثم تصل هذه الصحف بطريق أو بآخر إلى الكاتبين ومحرري الصحف في مصر وغير مصر، ويتلقفها بعضهم ويترجمها وينشرها عن قصد أو غير قصد، وهذا ما تريده الصهيونية وتهدف إليه عسى أن يصدق جاهل أو ذاهل فيشك فيما نطق به القرآن وأكده بقوله: ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾[1].

إقرأ الصفحة الأخيرة من جريدة أخبار اليوم المصرية تاريخ ٢١ / ١٠ / ١٩٧٢ م . وقد دأب كاتبها على نشر الشواذ والغرائب التي تفوح منها رائحة تزكم الأنوف ويتصاعد منها دخان يعمي العيون من حيث يريد أو لا يريد.

وأياً كان القصد فنحن نسأل، لماذا اختصّت بهذه المنقبة والفضيلة كلاب باربادوس وقطط أوزيل دون غيرها من القطط والكلاب، ودون العالم كلّه منذ

---

١ ـ [سورة لقمان، الآية ٣٤].

وجد إلىٰ اليوم؟ وقال أهل الاختصاص والعارفون بطبائع الحيوانات: إنها لا تخاف الموت إطلاقاً لأنها لا تشعر به وإنّ الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف أنه سيموت، أما غيره من الحيوانات فإنّه يشعر بذاته كموجود وكفىٰ.

وبعد، فهل نحن في حاجة إلىٰ الحديث عن قطط أوزيل وكلاب باربادوس، أو الحديث عن توحيد الكلمة وإعداد العدة لتحرير أرضنا المحتلة، وعن الضابط الشاب الذي ذهب وحده في تظاهرة إلىٰ مسجد الحسين عليه السلام بالقاهرة؟ وكنت أنتظر وأبحث في الصحف المصرية أن تشير ـ ولو من طرف خفي ـ إلىٰ أن هذا الضابط الشاب إنما اختار مسجد الحسين بالذات لأن هذا الاسم الشريف يرمز إلىٰ التضحية والفداء في سبيل أسمىٰ ما يدافع عنه الإنسان من قيم الحق والعدل والحرية .. فكانت النتيجة هذه المسرحية للقطط والكلاب، وأنها تعلم متىٰ وأين تموت، وإن هذه القطط الخاصة تتعايش مع فيرانها وتموت بأرضها الخاصة، وإن هذه الكلاب النادرة لا تموت إلاّ بأرضها الموعودة.

المال العربي إلى أين ؟

أعطت أميركا لإسرائيل فوق ما ترجوه وتحلم من مال وسلاح لتمكن لها في أرض العرب وديارهم. وحين وقعت الحرب الرابعة، وأشارت كل الدلائل إلى هزيمة إسرائيل طار الصواب من رأس أميركا وجن جنونها، وتحولت بطائراتها إلى جسر هوائي من أحدث الأسلحة بينها وبين تل أبيب .. فغضب العرب غضبة جماعية، وقطعوا النفط عن أميركا، وقالوا لها: جزاء سيئة بمثلها. فسجدنا لله شكراً على ما كنا نعده ونراه أكثر من حلم وخيال.

ولكن بعد أن تضاعفت أسعار النفط، وتكدست أثمانه بالمليارات حملها العرب بالكامل إلى أميركا ومصارفها، وضاعفوا بذلك من قدراتها على تزويد إسرائيل وإمدادها بالمال والسلاح مما زادها عتواً وعدواناً. وكلنا نعلم أن قوة أميركا وإسرائيل هي قوة سلطان البغي والجور في شرق الأرض وغربها، وهل أدل على ذلك مما حدث ويحدث من ظلم ومظالم في فيتنام وروديسيا وجنوب أفريقيا والمستعمرات البرتغالية، وغيرها كثير.

وهكذا أصبح المال العربي ـ من حيث لا يريد أهله وأصحابه ـ سلاحاً يعتدي به على العرب أنفسهم وعلى كل شعب مستضعف في أرض الله وبلاده.

ولا أدري لماذا نسكت عن هذه الحقيقة، ولا نطرحها على بساط البحث حين نعقد المؤتمرات والمجتمعات السياسية والدينية من أجل العمل الموحد لمواجهة العدو المشترك، ولا نشير إليها من قريب أو بعيد فيما نصدر من قرارات،

ونعلن من تصريحات؟ وإذا سكت رجال السياسة لسبب أو لآخر فلماذا نسكت نحن الدعاة إلى الله ودينه. ولا نبين ذلك للناس، ونذكر أصحاب المليارات والعائلات النفطية؟ أليس لنا في كل شهر مؤتمر، وفي كل جمعة ألف خطاب، وفي كل بلد منظمة أو أكثر ترفع شعار الإسلام؟ فلماذا نتجاهل الحقيقة، وأي شيء أهم منها وأعظم؟ وهل التذكير بذلك لا يتفق مع دين الله وشريعته؟.

إن أخطر المظالم وأبعدها أثراً السكوت عن المنكر، وتحلل القائد والمرشد من واجباته والتزاماته. وكنت قد أبرقت لبعض المؤتمرات الإسلامية. وناشدت المؤتمرين أن يبحثوا علاقة العرب والمسلمين مع أميركا في ضوء سلوكها مع إسرائيل، ونشرت ذلك جريدة النهار ١٥ ـ ٩ ـ ١٩٧٢ م. ولكنهم غضوا الأبصار، وختموا على الآذان! ثم تحدثت مفصلاً عن المؤتمرات الدينية في فصل خاص من كتاب الإسلام بنظرة عصرية.

والذي حز في نفسي أن الشيوخ ما صمّوا الآذان عن ندائي لأنه خطأ واشتباه، كيف وقد درسوا في الفقه الإسلامي أن بيع السلاح للعدو حرام محرم وعلى حد الشرك بالله؟ وبالأولى تقوية العدو بالمال يشتري به أنواع السلاح وكل ما يحتاج إليه المحاربون. ولولا المال العربي، وتصديره إلى أميركا ما غرقت إسرائيل بالمساعدات المالية والعسكرية، ولا تسابق المرشحون للبيت الأبيض في إرضاء إسرائيل من أموال النفط العربي، ولا قالت غولداماير: أعطانا نيكسون من المال والسلاح ما يزيد على جميع الرؤساء السابقين.

والآن أعود ثانية إلى هذا الموضوع لأني قرأت في جريدة النهار ٣١ ـ ٨ ـ ١٩٧٤ م:

«من حق المواطن العربي أن يتساءل: كيف يقرض العرب أوربا خمسة مليارات دولار بينما تقترض مصر العربية من أوربا نفسها مائة مليون؟ ولماذا

التساؤل يثير تساؤلاً آخر حول حاجة فورد رئيس الولايات المتحدة ـ كما قالت الموند الفرنسية ـ للمليارات العربية ليتغلب على الأزمة المالية الأميركية، والمليارات العربية تعني فيما تعنيه السندات الأميركية المعروضة على السعودية والكويت، وتتجاوز قيمتها عشرة مليارات دولار».

والغرابة هنا أن العرب ينجدون أصدقاء إسرائيل، ويجودون على مصارفهم بالمليارات، ومصر تستجدي هذه المصارف الموالية للصهيونية، وتطلب القليل من المال العربي لتستعين على مواجهة إسرائيل!.. يا سبحان الله ما هذا التناقض؟ وما هي فلسفته؟ نمد العدو بسلاح الهجوم علينا والفتك بنا. ثم نرجوه ونستجديه بعض الشيء مما جدنا به عليه لنردعه عن عدوانه على أرضنا وديارنا! .. مرة ثانية يا سبحان الله .

وأجاب أحد أتباع أميركا الدكتور شارل مالك عن هذا التناقض في جريدة النهار ١ ـ ٩ ـ ١٩٧٤ م أجاب بأن أميركا حرة، والعرب أيضاً أحرار! .. وهذا الجواب ينسجم تماماً مع منطق العالم الحر الذي يدين به الدكتور والعالم الحر يعني أن الفرد هو الغاية، وليس الناس والمجتمع. وفي ظني ومعرفتي أن هذا التناقض ظاهرة من ظاهرات النظام الجائر، وآثار الأوضاع الفاسدة.

وبعد، فإن الحرب الرابعة مع إسرائيل كانت مثالاً حياً لأمرين مهمين لا ثالث لهما:

الأول: أنها أعادت للإنسان العربي شيئاً من كرامته، ما في ذلك ريب.

الثاني: أنها قضت على خرافة إسرائيل التي لا تجبر ولا تقهر، وعلى الإعتقاد بأن حرب سنة ١٩٦٧ م هي آخر حروب العرب مع إسرائيل، ولا شيء وراء هذين الأمرين على الإطلاق.

فالأوضاع الداخلية في البلاد العربية بقيت كما هي دون تقليم أو تطعيم، بل ازدادت سوءاً كوضع الأمن في لبنان، والتناقضات داخل المقاومة الفلسطينية لم تهدأ ثورتها، أما فك الارتباط في القنيطرة والقناة فما هو بشيء يذكر ما دامت إسرائيل تحتل غزة والقدس وشبراً واحداً من سيناء والجولان والضفة الغربية .. وبالتالي فلا جدوىٰ من حرب خامسة وسادسة إلاّ مع استعمال النفط العربي والمال العربي ضد أميركا بالذات.. اللهم إلاّ إذا تحولت أميركا عن إسرائيل، ولن تتحول عنها حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط.

فكيف بنعمة *الذهب الأسود*؟

﴿**والله جعل لكم مما خلق ظلالاً**﴾[1]. الظلال جمع ظل، وهو الفيء الذي يقي من حر الشمس.

﴿**وجعل لكم من الجبال أكناناً**﴾. الأكنان جمع كن من كهف وثقب، ونحوه مما يقي من حر الشمس، وكل ما يحتاج إليه المرء فهو نعمة إذا وجده حتىٰ فيء الغمامة، والثقب في الجبل.

﴿**وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر**﴾. وهنا حذف تقديره والبرد، وإنما حذف للعلم به ﴿**وسرابيل تقيكم بأسكم**﴾. هذا كناية عن الدرع والمغفر وغير ذلك ﴿**كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون**﴾. والمراد بالإسلام هنا الاستسلام والانقياد للحق والعمل به، والمعنىٰ أنه تعالىٰ أنعم عليهم بالبيوت والاثاث والمتاع والسرابيل والظل وبالكن ليشكروه ويتقوه، ولا يعثوا في الأرض مفسدين.

---

١ ـ [سورة النحل، الآية ٨١].

وإذا امتن سبحانه على عرب الجاهلية بفيء الغمامة والشجرة، وبالثقب في الجبل ونحوه، واعتبر جلت عظمته هذا الظل، وهذا الثقب من إتمام النعمة عليهم وطالبهم لقاء ذلك بالشكر والانقياد للحق، وهددهم إن عصوا وتمردوا، إذا كان الظل نعمة والثقب فضلاً فكيف بالذهب الأسود الذي يتدفق أبحراً في البلاد العربية؟ وكيف بالفئة التي تتحكم به، فتبني بثمنه ناطحات السحاب، وتقتني الجواري والعبيد، وتمتلك لرفاهيتها أسطولاً من الطائرات والسيارات، وتملأ الأرض إسرافاً وفساداً؟

لقد امتن الله على الماضين بالأنعام والخيل والبغال والحمير، وبالبيوت من الحجر والجلد، وبالاثاث من الصوف والوبر والشعر، وبالسرابيل تقي من الحر والبرد، بل امتن عليهم بالظل والثقب، وطالبهم أن يشكروا ويتذكروا، فكيف بالمترفين المنحرفين في هذا العصر الذين يسكنون القصور ويؤثثونها بالملايين، ويكيفون أجواءها كما يشتهون من دفء أو رطوبة، وحولهم خيام اللاجئين والمهجرين وأكواخ المشردين؟ ومع هذا يدعون أنهم مسلمون يؤمنون بالله واليوم الآخر.

الذهب علامة التحقير:

يطيب لي أن أنقل المقطع التالي: يقول توماس مور[١] في كتابه «يوثوبيا»[٢]

«لقد خشي أهل «يوثوبيا» أن ينخدع بعض الناس ببريق الذهب فيأخذون

١ ـ رجل دولة انكليزي في عهد هنري الثامن ومفكّر مسيحي انتهى إلى المقصلة لأنه وقف مع الحق.

٢ ـ تعني الوطن المثالي الطوباوي كما عند افلاطون في جمهوريته، وفي مدينة الفارابي.

في جمعه وتكديسه، فقرروا أن تصاغ من الذهب قيود المجرمين وأغلال المساجين، فعقاب الجريمة الفلانية قرط من ذهب يعلق بالاذن، وعقاب الجريمة الأخرىٰ حلقة من ذهب يخرم بها الأنف، أو عقد يطوق به العنق، أو سوار يدور حول المعصم، وبهذا أنزلوا من قيمة الذهب حتىٰ جعلوه علامة التحقير وموضع السخرية والإزدراء.

ولقد حدث ذات يوم أن بعثت بعض الدول الأجنبية بسفرائها إلىٰ أرض يوثوبيا، وكان هؤلاء السفراء مثقلين من الذهب في أعناقهم وعلىٰ صدورهم ظناً منهم أن ذلك يرفع منزلتهم في أعين اليوثوبيين، ولكن شد ما دهشوا حين رأوا أن الذهب هناك سمة المجرمين ولعبة الأطفال، وحين مر موكب السفراء صاح طفل قائلاً: كم بلغ هؤلاء من الجرائم؟

ودهش أهل يوثوبيا أن يقيس الناس في البلاد الأخرىٰ منزلة الرجل بنسج ردائه، فإن كان الرداء دقيق الغزل كان لابسه شريفاً نبيلاً، وإن كان غليظ الخيوط كان صاحبه من عامة الناس.

وتساءل أهل يوثوبيا قائلين في عجب: أما يدري هؤلاء أن الصوف كان غطاء لجلود الخراف، وأن الخراف بصوف جلودها في منزلة سواء؟ وتندرّ أهل يوثوبيا فيما بينهم بما سمعوه عن سكان البلاد الأخرىٰ من أن الغبي الأبله يمكنه أن يستذل من هم أحكم منه وأعلم وأعقل إذا كان في حوزته كومة من الذهب، فإن تحولت كومة الذهب إلىٰ خادم أصبح فوراً سيداً، والسيد خادماً».

كيان أمريكا

أوهن من بيت العنكبوت

إن الولايات المتحدة الأميركية أطغى دولة في الكرة الأرضية، وأكثرها فساداً واعتداءاً، وما من خائن لأمته ووطنه إلاّ ويجد في أحضانها مقاماً كريماً، وعريناً أميناً، ومع هذا فهي أقوى وأغنى دول العالم على الإطلاق، وكفى شاهداً على ذلك أن دخلها يبلغ ٤٣ ٪ من مجموع الانتاج العالمي مع العلم بأن نسبة سكانها عدداً إلى نسبة سكان العالم هي ٦ ٪ فما هو سبب ذلك؟

الجواب: إن ثراء الولايات المتحدة من الشيطان لا من الرحمن لأن معظمه من السلب والنهب، ويكفي بلايين الدولارات التي تنهبها أمريكا من بترول العرب وإيران، وكذلك سلبها لخيرات أميركا اللاتينية التي تعد بحق مزرعة للولايات المتحدة.

وما يدريك أن الولايات المتحدة وغيرها من الدول الباغية هي في أمن وأمان؟ وأي عاقل يأمن الغوائل؟ وهل دامت الامبراطورية الفارسية، والمكدونية والرومانية بل والبريطانية وغيرها وغيرها حتى تدوم غطرسة الولايات المتحدة ومفاسدها؟ وهذه بشائر الانهيار يتبع بعضها بعضاً، فمن موجات التحرر في العالم كله إلى ثورة الثلاثين مليون زنجي في قلب الولايات المتحدة، إلى التضخم المالي الذي تداويه بالحروب المحدودة، ومن سيطرة الصناعة العسكرية، إلى تلاعب

الصهاينة بالحكام والشيوخ والنواب، ومن امبراطورية المخابرات، إلىٰ القتل والخطف واشعال الحريق، إلىٰ الحشيش والمخدرات، ومن الصراع والعداء مع أكثر أهل القارات الخمس .. إلىٰ ما لا نهاية .. ومستحيل أن يدوم أمنٌ ورخاء لهذا النسيج الغريب العجيب سواء أكان من صنع الولايات المتحدة أم من صنع الشيطان نفسه.

قرأت بتاريخ ١٠ ـ ٧ ـ ١٩٧٠ م نقلاً عن صحف نيويورك: أن الآلاف من الرجال والشبان والمصابين بداء الأُبنة قد تظاهروا عبر شوارع نيويورك يحملون اللافتات مطالبين الحكومة بإصدار قانون يبيح لهم ممارسة الشذوذ الجنسي أسوة بما يباح للنساء من الزواج وبيع أجسامهن بالسوق العمومية .. وفي مجلة النيوزويك تاريخ ١٢ ـ ١٠ ـ ١٩٧٠ م أن القس «توري باري» الشهير باللواط يدعو إلىٰ انتشار اللواط والمساحقة لأنهما لون من الحب الإلهي، وقد انتشرت دعوته هذه، وأصبح لها أتباع كثيرون في أنحاء الولايات المتحدة، وليس من شك أن بين هؤلاء المأبونين من يتولون القيادة وسياسة السلم والحرب، وأمور العلم والعمل في المجتمع الأمريكي .. وعندئذ يصبح كيان الولايات المتحدة أوهىٰ من بيت العنكبوت ... وستذهب أمريكا بإذن الله إلىٰ جهنم وبئس المصير، وإن غداً لناظريه قريب.

سلاحنا القرآن

لا أدري ماذا نعني بالقومية العربية، هل نعني تناحر القبائل في الجاهلية، أم التذابح القائم الآن في لبنان منذ خمس سنوات وأكثر من نظام عربي يشارك في ذبح لبنان والعرب الآخرون يتفرجون عليه. أم نعني بالقومية العربية الحرب بين شطري اليمن، أو القتال بين المغرب والجزائر والصحراء. ربما القومية تعني الحشود العسكرية بين ليبيا ومصر أو العداء المستحكم بين العراق وسوريا بينما إسرائيل تحتل الجولان، أو أن القومية العربية تعني تمزق وتشرذم وتشتت ١٥٠ مليون عربي في عشرين دولة تقطّع أوصالها السدود والحدود.

ألسنا نحن العرب عنوان العار البشري في القرن العشرين؟ وأي فرق بين أن تتحكم بأمتنا العربية الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي وأن نكون أذناب المذلة والاستسلام للأسياد؟ وأي فرق بين أن تطأ إسرائيل بحذائها على أنوفنا واغتصابها لشبر من أرضنا ومقدساتنا؟

وأخيراً هل من أحد في العالم يشك أن العرب لولا محمد بن عبد الله ﷺ ولولا دين الإسلام لما كان لهم كيان وذكر في التاريخ. إن محمداً ﷺ هو بطل العرب الأوحد، لم يأت الزمان بعربي مثله لا في الأولين ولا الآخرين.

ألسنا نحن مسلمي العالم وعرب الشرق الأوسط نملك أخطر سلاح على الإطلاق، ألا وهو القرآن الكريم نذب به عن كياننا وكرامتنا، ولكننا تخلينا عن هذا السلاح، تخلينا عن كلمة الله، عن مبادىء وتعاليم القرآن، وآثرنا الهزيمة لأننا إتبعنا

النظريات المادية من اشتراكية ورأسمالية وغيرهما، ومعظم أصحاب هذه النظريات ومخترعيها من اليهود ويستحيل أن يكون هذا الأمر محض مصادفة.

لا سبيل إلى النصر والخلاص إلاّ بالجهاد والتضامن والتضحيات تحت راية الإسلام، هذه هي الخطة، نفس الخطة التي رسمها سبحانه وتعالى للمجاهدين من أجل الحرية ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾[1]. إن خلاص العرب والمسلمين هو في الرجوع إلى الإسلام الذي يصلح لكل زمان ومكان.

---

١ - [سورة التوبة، الآية ٧٣].

الفصل الحادي عشر :

الصراع في لبنان





ميثاقنـــــا الوطني

صورة كاريكاتورية معبرة، نُشرت في مجلة الصفاء ابان احداث ١٩٥٨ ،وتظهر وحدة الاديان خلال المعركة المتمثلة بالبطريرك المعوشي، والشيخ محمد جواد مغنية، المفتي محمد



الديمقراطية المزيفة

تتكون الأحزاب في بلادنا بقصد أن يفوز كل حزب بالحكم لا لشيء إلاّ ليحكم بأهوائه وأغراضه، ومنافع القيمين عليه، فيعم الفساد والانحلال، أما المبادىء فهي شعارات تلطّخ بها الجدران، وأحاديث صالونات، ويتشدق بها الخطباء في الاحتفالات والمهرجانات.

لكن تتزاحم الأحزاب في البلاد المتقدمة على الحكم، وهي تعلم أنها لن تصل إليه إلاّ عن طريق العمل لمصلحة الشعب، وتضطر إلى تحقيق هذا الهدف كوسيلة للوصول إلى الحكم والبقاء فيه.

أما في بلادنا، يفرض الحزب نفسه على الأمة بالجزمة والكرباج، وإذا جرت الانتخابات يقترع الشعب للشيطان، إما بالإكراه، وإما للمنافع الشخصية عند فئة من الشعب، وإما للدوافع العصبية عن فئة أخرى، هذه هي الديمقراطية المزيفة، والتي هي في الحقيقة قمع وقهر وإرهاب، والتي قضت على كل مظاهر الحرية والتقدم.

أما الديمقراطية في لبنان فهي جعجعة بلا طحين، فما أن تنتهي همروجة الانتخابات حتى يتكرس نظام الطائفية، ويُثبّت نظام الفوضى والفساد واللصوصية، ويعود إلى الحكم ملوك الطوائف وتتسلط عائلات الاقطاع السياسية.

ومع هذا فإن المواطن في لبنان أسعد من غيره في أكثر البلدان، لأنه على

الأقل يبدي رأيه في أمور حياته، ويرفع عند الضرورة عقيرته بالاعتراض والاحتجاج، وهذا أضعف الإيمان.

ويقيني أن هذه الديمقراطية اللبنانية بالذات هي أحد الأسباب الرئيسية في خلق مشكلة لبنان الحالية، لأن هذا النوع من الديمقراطية لا يضمن لجميع اللبنانيين المساواة في الحقوق والواجبات.

لبنانان

الوجه المظلم:

لبنان بلد الفوضىٰ والاضطرابات، ومسرح لليمين واليسار، وسوق للصفقات والسمسرات، ووكر للتجسس والاستخبارات، ومقر المؤامرات وتصفية الحسابات، ومرتع للرذالات و «القبضايات»، ومأوىٰ القبلية ومسكن الطائفية.

لبنان مركز للتهريب وتجارة السلاح. ومتجر بالشعائر وبيع الضمائر، ومزرعة للحشيش والافيون، وبورصة للخوة والرشوة، من فضيحة الليطاني إلىٰ صواريخ الكروتال مروراً بعشرات الفضائح الأخرىٰ التي كلفت الخزينة مئات الملايين من الليرات.

لبنان سوق للعملات والمضاربات، ومن هنا وهناك تتدفق الأموال علىٰ لبنان سراً وعلانية، ومن عجائبه التي لا تعد ولا تحصىٰ أن أكثر الصحف اللبنانية لا تبيع بثمن أوراقها ومع ذلك يمتلك أصحابها ناطحات السحاب.

لبنان يشتري أكثر مما يبيع، وينفق أضعاف ما ينتج، يستورد عدة أضعاف مما يصدّر، ومع هذا، لبنان في انتعاش وازدهار، وهذه الخصائص أدهشت أهل الخبرة والاختصاص.

لقد فهمت وحللت في حياتي معضلات كثيرة، ولكني لم أستوعب كلية

ماهيّة النظام في لبنان، وأغلب الظن أن لا أحد يعرف سر هذا المبدأ بالضبط، لأنّي لم أسمع أو أقرأ بأن أحداً جاء بالجواب الأكيد والرأي السديد، وكل الذي يقال عن الأموال المنظورة وغير المنظورة التي تدخل لبنان، تحليل غير علمي، وغير كاف، لفهم التركيبة الحقيقية لهذا النظام.

الوجه المشع:

لبنان تتعايش فيه الطوائف والأديان، وملتقى الحضارات، وصاحب رسالة في المنطقة، ينعم فيه المواطن بالحرية والديمقراطية، وهو ملاذ للمضطهدين والمظلومين.

ومنبر للفن والفكر والنشر، ونادي للحوار بين مختلف التيارات والأفكار، ومنطلق الخلق والابداع، ومحجّ للفنانين والفلاسفة والأدباء.

لبنان منارة العلم ومخزن الخبرات، وملتقى الجامعات العربية والغربية ومقر للاستشفاء والطبابة، فيه أشهر الأطباء وأهم المستشفيات والعيادات.

لبنان بلد المشاريع العمرانية، والتوظيفات والودائع المالية، بيروت مركز مالي وعالمي مرموق، ومقرّ لعشرات المصارف اللبنانية والعربية والعالمية.

لبنان البلد الأول في الخدمات، ووطن السياحة والاصطياف، والهواء العليل والماء الزلال، والفاكهة اللذيذة، والخضار النضرة، والطبيعة الخلابة.

لبنان بحاجة لحماية، وتطبيق العدالة وتنفيذ القانون، وتثبيت الأمن والاستقرار.

فتنة سنة ١٩٥٨م:

في الخمسينات في هذه القرن، تصدىٰ رئيس جمهورية لبنان كميل شمعون لموجة التحرر العربي وأراد أن يربط لبنان بعجلة الاستعمار والأحلاف الغربية، وفي سنة ١٩٥٨ م حاول شمعون وبعض النواب من أذنابه أن يتلاعبوا بالدستور ليستمر في الحكم بعد انتهاء أمده في الرئاسة، وأقنع بذكائه ودهائه أكثر المسيحيين أو الكثير منهم بأن غرضه الأول في الحكم أن يضمن للطائفة المسيحية امتيازاتها وتفوقها علىٰ سائر الطوائف.

وعارض الوطنيون سياسة شمعون الاستعمارية التعصبية، وما خطرت الطائفية في بال واحد من المعارضين، لأن المتفق عليه أن يكون رئيس الجمهورية ماروني علىٰ أية حال. ولكن الرئيس الطامع إلىٰ التجديد استطاع بخبثه ودهائه أن يضفي علىٰ معارضيه من المسلمين العصبية والطائفية.

وصادفت هذه الأُكذوبة هوىً في نفوس الذين يتاجرون بالشعارات والأديان من المسلمين والمسيحيين، فصفقوا لها وعملوا علىٰ توطيدها بكل سبيل. ووقعت الفتنة ... وهي في ظاهرها طائفية، وفي واقعها سياسية واجتماعية كما أشرنا، واستمرت بضعة أشهر، وذهب ضحيتها العديد من الطرفين ... ثم انتهت دون أن يجدد الرئيس شمعون لأن الأميركيين تخلوا عنه وكانت لهم مصلحة في ذلك آنذاك.

ولكن الفتنة تركت أسوأ الأثر، فقد تغلغلت الطائفية ورسخت في نفوس الكثيرين، وقطف ثمارها الذين لا يظهرون ولا يُذكرون إلاّ عند الفتن والسوءات، والتخريب وقطع الطرقات، وأعني بكلامي هذا حزب الكتائب الماروني ومن لف

لفهم ومن هم على شاكلتهم من أبناء المسلمين.

ولابد لي أن أشير إلى أن السنة والشيعة وقفوا صفاً واحداً في أحداث ١٩٥٨ م، وأقلق هذا التلاحم أميركا وإسرائيل أشد القلق لأنه ضد سياسة الاستعمار القائمة على مبدأ فرّق تسد.

وبعد أن فشلت كل الوسائل التي استعملها كميل شمعون لمجابهة معارضيه، أنزلت أميركا أسطولها السادس في لبنان، وكان بين جنوده أفراد من جيش إسرائيل، كما أشيع آنذاك، وسواء أكان لهذه الشائعة أساس أم لم يكن لا فرق أبداً بين جيش إسرائيل وجيوش الولايات المتحدة.

ولقد كنت في سنة ١٩٥٨ م من أشد معارضي سياسة شمعون الرامية إلى محاربة حركة التحرر العربي، والسير بلبنان في درب الأحلاف الاستعمارية ونشرت في الجرائد، وخطبت في المحافل، وحاضرت في الأندية، منددأ بالتدخل الأجنبي، رافضاً أن يكون لبنان وكراً للمؤامرات ضد أشقائه العرب وخنجراً يطعن في ظهرهم.

ومن يرجع إلى الصحف والمجلات في ذلك الوقت يجد الشاهد والدليل على ما ذكرت، ولا أرى ضرورة لنشر هذه المقالات على هذه الصفحات لأن جميعها تدور حول ما تقدم وقلت.

قدر السنة والشيعة[1]:

لنا أن نصف هذا الاجتماع بأنه على مستوى عال وإن لم يكن بين رؤساء

---

١ ـ راجع الشرح آخر الخطاب.

الدول والحكومات، إن وصف العالي والقمة والذروة إنما يصدق حقيقة إذا عبر عن إرادة الشعب لا عن إرادة أفراد بينهم وبين الشعب من البعد ما بين الطهر والدنس.

إن هذا الحفل يعكس إرادة الألوف، ويعبر عن أمنية كل مخلص، ويؤيده كل طيب في لبنان وغير لبنان، ذلك أنه لا يرمي إلىٰ الكسب والاستغلال، ولا إلىٰ التكتل ضد طائفة من الطوائف أو فئة من الفئات، أو فرد من الأفراد، ولا إلىٰ المجاملة والتقريب المصطنع.

لقد اجتمعنا لنعلن علىٰ الملأ أن كل ما في قلوبنا من غل وحقد فهو وقف علىٰ الصهيونية والاستعمار، وقف علىٰ إسرائيل ومن أوجد إسرائيل، وعلىٰ فرنسا، ومن أعانوا علىٰ الجزائريين، وعلىٰ من اعتدىٰ علىٰ بور سعيد، وتآمر علىٰ سورية، وأضمر لها وللعرب السوء.

نحن لا نفكر تفكيراً موروثاً، ولا تفكيراً خيالياً، إن تفكيرنا منبعث من صميم حياتنا وحاجتنا، ولا طريق لازدهار هذه الحياة إلاّ الوحدة، إن الوحدة يقضي بها الإسلام والعقل وتقضي بها المسيحية والضرورة، وتمليها نفس الظروف التي أملت الوحدة بين مصر وسوريا.

إن الجامع الذي يجمعنا الآن، ونشعر به في قرارة نفوسنا هو نفس الجامع الذي جمع بين جمال والقوتلي، هو الكفاح ضد العدو المشترك الذي من أجله عقد مؤتمر باندونغ، ومؤتمر التضامن الاسيوي الافريقي، وهو الذي يدفعنا إلىٰ الرجوع إلىٰ تاريخنا وتراثنا، وإعلان ما بين الاخوين السنة والشيعة من روابط الدين، وأواصر العقيدة، نعلن هذه الروابط لا لأننا متباعدون، ونريد أن نتقارب، ولا لأننا مختلفون ونريد أن نتفق، وإنما نعلنها تأكيداً للحقد والكراهية للصهيونية والاستعمار وعملائه وأذنابه.

القرآن الكريم:

ولا أريد في موقفي هذا أن أبين الجوامع والفوارق بين السنة والشيعة، إذ هي بين المذهبين تماماً كما هي بين المذاهب الأربعة، ولكني أريد أن أستفتي المصادر التي تستقي منها جميع المذاهب الإسلامية، وأول هذه المصادر وأعظمها القرآن الكريم، وقد حدد الاخوة الدينية في الآية ١١ من سورة التوبة: **﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾**.

قال المفسرون: المراد من التوبة في الآية الكريمة ترك الشرك، ولا ريب أن الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من ضرورات الدين عن كل من السنة والشيعة، وكفىٰ بكتاب الله شاهداً وحاكماً، ونهىٰ القرآن عن موالاة الآباء والاخوان إن اختاروا الكفر علىٰ الإيمان.

جاء في الآية ٢٣ من سورة التوبة: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر علىٰ الإيمان ومن يتولهم منكم فأولٰئك هم الظالمون﴾**. فالأخوة الدينية عند الله سبحانه هي في: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، لا في النسب ولا في التسنن أو التشيع.

سنة الرسول:

وإذا رجعنا إلىٰ سنة الرسول الأعظم وعهد الخلفاء الراشدين، وسيرة الأصحاب والتابعين، وأئمة المذاهب لا نجد أي أثر للتفرقة والانقسام، أو ذكر للفظ سنة وشيعة بمعناهما المعروف اليوم، بل علىٰ العكس نجد الوحدة والألفة

والاخاء.

إذا رجعنا إلى الوقائع والحوادث، وهي أصدق في الدلالة من الكلام والنصوص رأينا السني يقف بجانب الشيعي، والشيعي بجانب السني إذا حاول أجنبي أن يمسه بسوء، ورأينا الاثنين يقفان جنباً إلى جنب يساندان ويدافعان عن أخيهما العربي المسيحي، ورأينا الجميع يقفون كأنهم البنيان المرصوص للدفاع عن الوطن، وأملهم واحد، وعدوهم واحد: ومن هنا كان الكفاح واحداً، فبالأمس ويوم الاعتداء على بور سعيد هب العرب في كل مكان المسلمون والمسيحيون لنصرة مصر، وخرجت النجف، وهي مصدر التشيع تهتف باسم جمال والقومية العربية وتساقطت القتلى وهي تردد يحيا جمال عبد الناصر سيف العرب ودرعهم الحصين.

ونتساءل إذا لم يكن في شيء من القرآن والسنة، وسيرة الخلفاء الراشدين، والأصحاب والتابعين وأيمة المذاهب، إذا لم يكن في شيء من ذلك ما يدل على الفرقة والانقسام فمن أين جاء التعدد؟ وما هو سبب التسنن والتشيع؟

والجواب: أن الأمة الإسلامية بليت بعد الخلفاء الراشدين بالسيطرة المعتدية بحكام الجور والفساد. والحاكم الخائن أينما كان سواء أكان في هذا العصر أم في سالف العصور لا يستطيع أن يحكم إلاّ إذا تعددت الكلمة، وتفرق الشعب شيعاً وأحزاباً وكان الخليفة في السابق يحكم بأسلوب الدين، وكان المعارض يعارضه باسم الدين أيضاً فسعى الحاكم لتفريق المسلمين إلى سنة وشيعة، وتسلل من خلال الثغرات والنعرات إلى السيطرة والحكم، ونصب نفسه حامياً للإسلام، ونكل بالأحرار باسم الهرتقة والزندقة والمروق من الدين كما حدث في فتنة القرآن وغيرها. ولما جاء الاستعمار والنفوذ الأجنبي غذى هذه الروح، وعمل على تقويتها وزاد على أسلافه وشركائه في الجريمة والخيانة فقسم

البلاد العربية إلىٰ دويلات، وأقام بينها الحدود والسدود، قسم أراضينا، وخلق منا الأحزاب المتناحرة، وغذىٰ الطائفية، وأرادنا متنافسين متناحرين يلعن بعضنا بعضاً، يهدم قوتنا، ويمزق أشلاءنا، ويقيم عليها كيانه واستقلاله. ولكن طاش سهمه، وخاب أمله فلقد بعثت فينا محاولته هذه الشعور بوجوب التعاون والتكامل، وجعلت منا قوة هائلة متماسكة لا تحد ولا ترد، فهذه القومية العربية، وتلك صيحاتها الواعية المناضلة ترتفع من أفواه العرب أجمعين مسيحيين ومسلمين سنيين وشيعيين.

أجل، نحن أعداء الطائفية، لأننا ندرك كل الإدراك أنه لا شيء أقوىٰ سلاحاً منها في يد الاستعمار، فكل متعصب مصنع لذخيرته وأسلحته، وكل رجعي ثكنة لجيوشه وقواده، وكل انتهازي صحيفة لترويج أباطيله وأكاذيبه، وكل مغفل أرض خبيثة لدعاياته وأضاليله.

الجاهلية الأولىٰ:

لقد عمل الاستعمار بكل ما استطاع من قوة علىٰ إضعاف الشعوب الإسلامية وبعد أن تم له ما أراد أن يربط بين هذا الضعف وبين الإسلام، ويجعله السبب الأول في تأخر المسلمين. وبديهة أن الدين لا يقوم ولا يقاس بضعف المنتمي إليه، وإنما يقاس بتعاليمه ومبادئه، وبإرشاد الإنسان وتوجيهه.

إن ضعفنا لا يرجع إلىٰ قيمة ديننا كدين، وإنما يرجع إلىٰ عوامل أخرىٰ، كالضغط الأجنبي، النقص في التربية، أو جهل في القوة التي تتمرس علىٰ فهم الدين وغرضه، فإذا أردنا أن نحيي تعاليم الإسلام فعلينا أن نعمل للقضاء علىٰ النفوذ الخارجي، وتصفية التربية ونظمها من كل شائبة، ونعرض الدين عرضاً

سليماً كما كان في عهد الرسول الأعظم حيث لا سنة ولا شيعة، بل إسلام وكفى، **﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[١].

أجل، إن الناس الذين يرددون ما سمعوه من الآباء والامهات في حق الشيعة أو السنة، ويعتقدون أن الحق لهم ومعهم، وأن الباطل من نصيب غيرهم، إن جميع هؤلاء لا يعلمون ولا يعقلون.

إن الله غدا لا يسأل الإنسان: هل أنت سني أو شيعي، إن الإسلام لا يجنس بالتسنن أو التشيع، إن حقيقته هي العدالة والمساواة، وما لونه بهذين اللونين إلاّ السياسة والأهواء، فرقتنا السياسة فيجب أن توحدنا السياسة، يجب أن تكون كلمة التوحيد سبباً لوحدة الكلمة، ومن آيات هذه الوحدة ودلائلها إلغاء لفظ سنّي وشيعي من الهوية، ومتىٰ تمت هذه الخطوة العملية الايجابية أعقبتها خطوة أعم وأشمل بإلغاء الطائفية من الأساس.

إن وحدة سورية ومصر سبيل للوحدة الشاملة الكاملة، وستكون وحدتنا نحن طريقاً لإلغاء الطائفية في لبنان، أو قل الباب مفتوح، وإذا وجدت بعض العراقيل المصطنعة في طريق الوحدة العربية فليس بين وحدة المذهبين أي مانع فلا أسرة مالكة تخشىٰ علىٰ سلطانها، ولا نزاع علىٰ مناطق نفوذ، ولا ارتباط بالأحلاف.

وإذا جاز للذين عاشوا في عصر السلطان عبد الحميد أن يقولوا: هذا سني، وهذا شيعي، فهل يسوغ لنا أن نكرر ما قالوا، ونحن نعيش في عصر عبد الناصر؟ .. لقد تغير كل شيء في الحياة إلاّ هذين اللفظين فما زلنا نحفظهما، ونحتفظ بهما

---

١ ـ [سورة الروم، الآية ٣٠].

ونسجلهما في المحاكم ودوائر الحكومة ومجلس النواب، وأي دليل أدل على الجهل والتأخير من أن يحمل أحدنا في حضره وسفره هوية يراها القريب والبعيد وهي تصفه بخط طويل عريض بالسني أو الشيعي. حقاً إنها سمة تخجل ولا تشرف.

وما لنا لا نستنطق القرآن الكريم، وسنة الرسول، ووقائع التاريخ، لتثبت عدم الفروق بين الاخوين. إن العلة ليست هنا، إنما هي في التعصب والجهل والتقاليد البغيضة، لقد اتحدت مصر وسورية، لأن كلاً منهما متحرر من الاستعمار والاحلاف والقيود، وهذه اليمن السعيدة باستقلالها سائرة في طريق الوحدة، وبتحررنا نحن من كل قيد يأباه الدين والعقل تتحقق الوحدة والألفة والاخاء، وإننا نحمد الله تعالىٰ علىٰ أننا متحررون ومتحدون ولا تعدد إلاّ بالاسم واللفظ، فعلينا أن نحذف لفظ سني وشيعي، ونختصر علىٰ لفظ مسلم وكفىٰ، كما اختصر القطران العربيان علىٰ لفظ الجمهورية العربية المتحدة.

الاستعمار البغيض:

لقد تفرقت كلمة العرب والمسلمين من قبل، وتفسخت قوتهم بفعل السيطرة المعتدية من الداخل والخارج وكدنا نرجع إلىٰ الجاهلية الأولىٰ، لو لم يطلق جمال والقوتلي قمر الجمهورية العربية، أطلق غيرنا قمره الاصطناعي وأطلقنا نحن هذا القمر الالهي العربي الإنساني الذي زلزل الأرض بفرنسا، وقضىٰ علىٰ آمالها في الجزائر، وآمال الصهيونية في فلسطين، وآمال الانكليز في عمان، وعلىٰ الاستعمار في كل بلد عربي، وعما قريب نطلق قمراً ثانياً أكبر حجماً، وأثقل وزناً، وأعظم فائدة. إن قمرنا الثاني سيحقق الحرية والاستقلال لشعوب آسيا وافريقيا، والرخاء والسلام للعالم كله.

وإذا زعم غيرنا أن أمره لا يصلح ولا يتم إلاّ بالاحلاف والقواعد الصاروخية والاستعداد للحرب فإننا نعتقد ونؤمن بأن أمرنا تصلحه الالفة والوحدة، وقد قال النبي العربي منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة: ـ لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح فيه أولها ـ إن الإيمان بالوحدة هو من ديننا وعقيدتنا في الصميم فمن عمل بها ولها فهو منا ونحن منه، ومن تنكر لها فهو من أصحاب السعير، إن مسألة السنة والشيعة في لبنان ليست من المشكلات الدولية، ولا المحلية، كي نجتمع لحلها، فلم يعرف في يوم من الأيام أن السنة والشيعة تنازعا على مبدأ من المبادىء أو منصب من المناصب، أو سار أحدهما في اتجاه يخالف اتجاه الآخر، فالدين واحد هو الإسلام، والسياسة واحدة هي إعزاز القومية العربية، والهدف واحد هو استقلال لبنان ومصلحة لبنان، وإن كان هناك ما يسمى بمشكلة في تعدد المذاهب والمشارب بين القادة والزعماء، لا بين السنة والشيعة، بل بين من يعمل للحرية وصالح العرب وتوحيد كلمتهم، ومن يعمل للكسب باسم الطائفية التي خلفها الاستعمار، وأدخلها في صلب الدستور، ليشتت من شمل المسلمين، ويجعلهم فرقاً متنافرة، ويبعد ما بينهم وبين المسيحيين فلم يجد وسيلة أجدى من الطائفية، فأوجدها، واعتمد عليها، ووضع نفسه، موضع المدافع عنها بعد أن خوّف الشيعي من السني، وخوّف المسيحي من الاثنين، ومن العرب في كل مكان، ولكن خاب أمله، وطال الأمد عليه وعلى أعوانه الذين برزوا للملأ عراة مفضوحين وقضت عليه وعليهم القومية العربية ووحدة مصر وسورية، وحولت آمالهم وآمال الصهاينة إلى حسرات وزفرات.

وبالتالي، علينا نحن رجال الدين أن نعلن على الملأ وفي كل مناسبة أن الإسلام دين واحد، ليس فيه جبهة شيعية أو سنية، وأن العرب أمة واحدة ليس فيها جبهة مسيحية أو إسلامية، لنقطع الطريق على المضللين والعملاء والمتآمرين، وإذا وجب على نواب الشعب أن يقفوا بجانبه، ويحققوا إرادته،

ويصونوا مصالحه، فعلينا نحن الذين نمثل الرسول الأعظم في تبليغ دينه وأحكامه أن نقرب ولا نبعّد، ونبشر ولا ننفّر، أن لا نلقي القنابل الطائفية والمتفجرات العصبية، ونرتكب الحماقات ضد أنفسنا وضد المجتمع.

إن الذي لا يجد موضوعاً لكلامه إلاّ الطعن في عقائد الناس ومقدساتهم فهو إما جاهل منحط، وإما خائن مستأجر لبث السموم والانشقاق بين أبناء الوطن الواحد، والأمة الواحدة[1].

---

١ ـ ألقيت هذه الكلمة في الخلية الاجتماعية في بيروت مساء يوم ٢٩ / ٢ / ١٩٥٨ م بحضور حشد كبير ضم عدداً من العلماء والزعماء والأساتذة، وكان الغرض توحيد الكلمة والتقريب بين السنة والشيعة، والهدف من هذا الاجتماع أيضاً الوقوف في وجه كميل شمعون رئيس الجمهورية الذي جعل من لبنان وكراً للتآمر على حركة التحرر الوطني العربي وخاصة على الوحدة بين مصر وسوريا، منفذاً بذلك أوامر أسياده الإنكليز والأميركان.
وخطب في الحفل اثنان من العلماء أنا ورئيس المحكمة السنية، واثنان من الزعماء هما صائب سلام وأحمد الأسعد، ومن الأساتذة عبد الله المشنوق وحسن فرحات.

أكفان للأحياء ... !

دعاني بعض تجار بيروت ووجهائها الطيبين إلى سهرة في بيته مع جماعة من الاخوان المؤمنين، لنتواصى بالحق والصبر على تحمل أعبائه وجهاد أعدائه وقد تحدثنا عن مشاكلنا السياسية والاجتماعية، وأطلنا الكلام عن حلف بغداد وخطباء المساجد. ومما قلت:

لابد أن يكون للخطيب ثقافة واسعة، ومعرفة تامة بما يقع من الحوادث في الشرق والغرب، لأن الأرض في عصرنا أصبحت كالبيت الواحد يتأثر جميع سكانه بما يحدث في أي جزء من أجزائه، فإذا لم يتصل عقل الخطيب بالعقول الكبيرة القديمة والحديثة تعذر عليه تمييز الخطأ من الصواب، ووضع الأمور في نصابها، وأي خطيب لا يجد السامع نفسه في كلامه فهو كمن يتكلم عن الطب وتاريخه، ويعجز عن تشخيص الداء.

قال أحد الحاضرين: إن أحد خطباء المساجد صعد المنبر في يوم جمعة ليلقي خطبتها على المصلين؛ فافتتح كلامه بالدعاء للسلطان الخاقان ابن الخاقان عبد الحميد خان، ولما انتهى قيل له: يا هذا إن الله قد أهلك عبد الحميد قبل أن تخلق أنت!! قال:

يجوز أن أكذب نفسي، ولكن أنّى لي أن أكذب الكتاب الذي حفظت منه الخطبة!

وقال آخر: إن هذا الخطيب من فصيلة المؤرخ الذي قال: يوجد في آخر الدنيا جبال تسمىٰ واق واق تنبت أشجاراً تحمل أطفالاً صغاراً ذكوراً واناثاً حتىٰ إذا بلغت النضج سقطت إلىٰ الأرض، وهي تقول، واق واق سبحان الخلاق.

وبمناسبة هذه الاسطورة والخرافة قلت لشيخ فلسطيني كان معنا: أريد أن تخبرني بصراحة عن الصورة في أذهان مشايخ فلسطين عن الشيعة، عن رأيهم فينا نحن الإمامية، وجهت إليه هذا السؤال لأني سمعت كثيراً كما سمع غيري أن الفلسطينيين يعتقدون «العجائب والغرائب» بالشيعة، فقال الشيخ لم تتضح لي الغاية من السؤال، فلو فصلت: قلت إن بعض الكتّاب في هذا العصر يرسلون القول مطلقاً بكفر الشيعة وإلحادهم، وينسبون إليهم غلو الفرق البائدة التي لا وجود لها إلاّ في بطون الكتب، ينسبون هذا إلىٰ الإمامية المنتشرين الآن في كثير من بقاع هذا الكوكب، فهل أنتم ممن يظنون هذا الظن؟

قال: أما أنا فلم أكن أعلم حين كنت في فلسطين أن هناك سنة وشيعة، وكل ما أعرف أن المسلمين أمة واحدة، حتىٰ دخلت العراق، فسمعت بهذا التقسيم الأليم، ورأيت من التعصب ما لم يكن لي بحسبان.

وقال الشيخ: إن السبب لهذه التفرقة هو الاستعمار وعملاء الاستعمار يثيرونها ويغذونها بكل وسيلة، ومن هذه الوسائل أن الانكليز يهدون ألف كفن في شهر المحرم للضاربين أنفسهم بالسيوف والسلاسل، وأرادت أميركا أن لا تفوتها الفرصة فأهدت هؤلاء ألفي كفن.

وقد حز الألم في نفسي لهذه الحقيقة المرة، وأحسست عند سماعها بأن كل عضو من جسمي ينتزع قسراً، ولكني تجلدت، وأخفيت ما أنا فيه، ولم يشعر به أحد، ولله الحمد.

وقلت للشيخ: أحمد الله سبحانه على أنك عرفت السبب كما هو. إن هذا ليس من مذهب التشيع في شيء لا أصلاً ولا فرعاً، وإنما هو من الاستعمار، من أعداء الدين والإسلام. وقلت: إن العقيدة لا تعرف من أقوال أعدائها ومكائدهم، ولا من أفعال أتباعها الجهلة، وإنما تؤخذ من كتب العقائد المعتبرة، تؤخذ من أئمة المذهب والعلماء الذين يتمتعون بثقة الطائفة في كل عصر ومصر، وذكرت موقف المرحوم السيد محسن الأمين من إهمال الشبيه وكتابه «رسالة التنزيه» كما ذكرت طرفاً من تقاليد الجهال من أهل السنة التي لا يقرها إمام من أئمتهم.

وبالتالي فهذي هي المساعدات الاقتصادية التي يخصصها الغرب لتحسين حياتنا المادية والثقافية يشتري بها حنوطاً وأكفاناً للأميين، ومطابع وسيارات، وأراضي وبنايات للكتبة الخونة، وأرباب الصحف الانتهازية وعسى أن يعتبر الضاربون رؤوسهم وجباههم بالسيوف، حتى لا نشتم ولا نتهم، عسى أن يتّعظ هؤلاء ومن ناصرهم بهذا الحديث وغيره، كي يريحوا أنفسهم، ويريحونا معهم من الانتقاد الجارح الفاضح، وأية فائدة للدين والمذهب من هذه العادة التي لم تقرها آية ولا رواية ولم تخطر ببال أحد من الأئمة الأبرار. وعلماء الشيعة بكاملهم دون استثناء ينكرونها أشد الانكار، وإذا سكت عنها من سكت وغض الطرف، فإنما يسكت خوفاً من بعض العوام الذين اتخذوها سبيلاً للاتجار والكسب **﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**[1].

---

١ ـ سورة آل عمران الآية ١٧٥.

الشيعة في لبنان

يقول التاريخ إن الشيعة من أقدم الطوائف الأصلية في لبنان، ويؤكد هذه الحقيقة أصلهم العربي العريق ولغتهم وحضارتهم وثقافتهم المميزة.

ويقول التاريخ إن سكان جبل عامل هم قبيلة عاملة التي هاجرت من اليمن واستوطنت جنوب لبنان وذلك قبل ظهور الإسلام بأمد بعيد.

يحرص الشيعة بشدة على سيادة وطنهم لبنان وعلى صيانته واستقلاله ووحدة أراضيه، وعلى أمنه واستقراره وازدهاره، ويبادلون حبهم الصادق العميق مع كل لبناني مخلص لوطنه مهما كان دينه ومذهبه.

لا فرق أبداً بين الشيعة والسنة فهم أخوة في الدين، ولا عداء ولا تعصب ديني ولا صراع طائفي بين الشيعة من جهة وبين المسيحيين أو الدروز، أو أية طائفة أخرى من الطوائف، وإن شَجُر الشيعي وثار لأنه مغبون مظلوم في وطنه الحبيب لبنان.

ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال على هذه الحقيقة كشاهد ودليل، لأنها ليست محلاً للريب والاجتهاد، ولكني أشير إلى مثال واحد لمجرد التأكيد والتوضيح ..

كنت من جملة الخطباء في حفلة من حفلات المولد النبوي ببيروت، وخطب من بعدي أحد الشيوخ داعياً في خطابه إلى وحدة الصف بين السنة

والشيعة، ولما انتهى الشيخ من كلمته عدت إلى المنصة، وقلت فيما قلت: اللبنانيون كلهم أخوة، أديانهم شتى، وأبوهم واحد هو الوطن العلَم.. ونحن الشيعة على الصعيد الوطني، عرب لبنانيون لا نفرق بين المسلم وغير المسلم، لأن الدين لله والوطن للجميع، وعلى الصعيد الديني نحن المسلمون لا نفرق بين سني وشيعي، وعلى الصعيد المذهبي نحن شيعة محمد وأهل بيته. ونحن بالمرصاد لكل من كان ضد عروبة لبنان أو الدين الإسلامي أو المذهب الشيعي.

أما نفوس الشيعة في لبنان فهم بالتأكيد أكبر طائفة وأكثر تعداداً من أية طائفة أخرى تعيش في هذا الوطن، ولكنهم حتى الآن ينالون حقوقهم في الحقب كطائفة من الدرجة الرابعة. أي بعد الموارنة والسنة والدروز. وهم في الوظائف وغيرها من المرافق مظلومون محرومون، عليهم الضرائب، ولغيرهم الغنيمة والمناصب .. وفوق ذلك غارات إسرائيل على قرى الجنوب ليلاً ونهاراً، وبراً وجواً، تهدم البيوت، وتقتل النفوس، وتهلك الحرث والنسل، والحكومة تتجاهل، والجيش لا يحرك ساكناً، والعلماء يحوقلون، والزعماء يتاجرون، ومجلس الجنوب لامتلاء الجيوب.

وما زال وضع الشيعة في لبنان كما كان، بل أشد وطئاً وأكثر خزياً .. فالعاطلون من أبناء الطائفة وشبابها تضاعف عددهم، والزبالون والحمالون وماسحوا الأحذية من الشيعة ما زالوا في مهنتهم، والأراضي التي كانت تزرع وتنتج من قبل في الجنوب وبعلبك ـ أكثرها أصبح بوراً .. وإذا انتقلنا إلى مجال التعليم والتطبيب سمعنا شكاة فقراء الشيعة وتوجعهم من العجز عن ثمن الدواء لمرضاهم وأقساط المدرسة عن أبنائهم.

ولقد أعطوا العهود والمواثيق ـ ليكفلن للشيعة الحقوق والعزة والسعة، وليردن عنهم عدوان الغاصبين وغارة المعتدين، ثم تبخرت الوعود مع الأيام. وما

كسب الشيعة سوىٰ التخدير والتسكين بالاجتماعات والخطابات والعراضات، والشعارات التي لا تقوم علىٰ أساس في الواقع.

ومن دلائل هذا التخدير وشواهده: أن إسرائيل فتكت في بعض غاراتها بأهل الجنوب وأذاقتهم ألواناً من التنكيل والتقتيل، وما أن أحس «الرسميون» علىٰ اختلاف أنواعهم من زمنية ودينية حتىٰ دعوا إلىٰ الاضراب العام لامتصاص النقمة والغضب والثورة التي تستعر في النفوس. ونظم الأمن العام اللبناني ومعه المكتب الثاني الاضراب المشهور، وتمت المسرحية بلا اختلال وتغلب الأحوال.

أما مجلس الجنوب الذي أقره النواب في نفس اليوم الذي تم الاضراب فيه فقد دُبر بليل لتكمل فصول المسرحية! وماذا فعل مجلس الجنوب؟ هل ردع إسرائيل عن العدوان، وحبذا لو أنفقت ملايينه علىٰ بناء الملاجىء والتحصينات.

وكان من نتيجة هذا الاضراب الدراماتيكي الشكسبيري، أن نام الشيعة علىٰ الوعود وأخلدوا إلىٰ السكينة أسوة بالسلف الصالح الذين صبروا علىٰ الأذىٰ تاركين الأمر إلىٰ الله يدبره بقدرته وحكمته.

وكنت قد نشرت في الجرائد مرات وناشدت الحكومة والنواب أن لا يتجاهلوا مشكلة الشيعة والجنوب ويحلوها بالعدل والحكمة وينصفوا المظلومين قبل أن ينتصفوا منهم فإن للصبر غاية ينتهي إليها المظلومون لا محالة ... ولكن هل يسمع الصم الدعاء؟

العدل أساس الوحدة الوطنية :

قلت في الفقرة السابقة لا عداء ولا صراع طائفي بين الشيعة وغيرهم من الطوائف، وأشير هنا إلىٰ أن كل الأحزاب والطوائف والقوميات تستطيع الحياة في

أي بلد من البلدان متآخية مطمئنة كل الاطمئنان بشرط واحد، هو أن يكون القانون الذي يعيشون في ظله عاملاً يجرد الأفراد والفئات من أي فضل وامتياز، ويضع الجميع على مستوى واحد في جميع الحقوق والواجبات دون استثناء ومحاباة في التشريع والتطبيق .. وليكن الحاكم من كان مذهباً ونسباً .. ومتى اختل ميزان العدالة والمساواة ثارت الأحقاد، ونشبت الحروب حتى بين الأهل والأقارب .. هكذا علمتنا التجارب، وعلى الذين يدعون إلى الألفة والوحدة الوطنية أن يدركوا هذه الحقيقة قبل كل شيء.

وإذن فأدواء لبنان ومشكلاته لا تستند إلى الطائفية والأحزاب العقائدية ـ كما يظن ـ بل إلى الوضع الفاسد، والقانون الجائر الذي يمهد السبيل لأهل الطمع والجشع، ويوصل السفاك الأثيم إلى الحكم ومركز القيادة ليتخذ منه متجراً ومكسباً، ويحكم البلاد والعباد حكماً ارهابياً دامياً، ثم يصف كل حركة وطنية تقاوم جوره وعسفه، وتطالب بالحق والحرية، يصفها هذا السفاك وأذنابه بالهدامة أو الطائفية أو بالخروج على العدل، وبكل ما يحلو له من النعوت التي تبتعد بأهوائه وأطماعه عن أجواء المعركة.

مناقشات مجلس النواب في الحقوق الطائفية :

قرأت في جريدة «الحياة» عدد أمس ٥ أيار سنة ١٩٦٢ م المناقشات الحامية حول حقوق الطائفة الشيعية في المجلس.

سأل بعض نواب الشيعة الحكومة عن السبب لحرمان «طائفتهم» من التعيينات الإدارية الأخيرة، وانبرى للجواب والدفاع عن الحكومة الوزيران الشيعيان «فكان سوس الخشب منه وفيه»، وفي نظرة واحدة إلى جوابهما نجد

التفسير الصحيح لحرمان الشيعة من حقهم الكامل في جميع الوظائف ...

ونحن لا نريد بكلمتنا هذه أن ننظر إلىٰ الدوافع التي حملت بعض النواب علىٰ السؤال، ولا إلىٰ الأهداف التي يرمون إليها، وإنما ننظر إلىٰ السؤال لا إلىٰ السائل، وإلىٰ الجواب لا إلىٰ المجيب ...

لقد جاء السؤال مركزاً ومدعماً بالمنطق، بنص الدستور، وتعهد رئيس البلاد، والبيان الوزاري الذي نالت الحكومة الثقة علىٰ أساسه، ولا شيء وراء هذه الحجة التي يحق بها القول علىٰ كل مخاتل ومراوغ.

والوزيران اللذان يمثلان الطائفة الشيعية، وجاءا باسمها إلىٰ النيابة والوزارة يعترفان بأن «طائفتهم» دون جميع الطوائف في توزيع المنافع، ويعترفان بنص الدستور علىٰ المساواة، ويعترفان أيضاً بأن رئيس البلاد ورئيس الحكومة ووزراءه تعهدوا جميعاً بالقيام بالقسط والعدل، يعترفان بهذا كله ... وعذرهم الوحيد أنهما يختلفان مع واضع الدستور في وجهة النظر ... لأنه أخطأ في إقحام الطائفية.

ونسأل الوزيرين: هل حرمان الشيعة الذي يقرانه ويدافعان عنه يصحح خطأ المشرع؟ وهل يحق للقاضي أن يرفض طلباً نص عليه القانون، لا لشيء إلاّ لأن وجهة نظره تخالف وجهة نظر المشرع؟ ولماذا لا يعلن عن هذا الخطأ إلاّ إذا طالبت الشيعة بالعدل والمساواة؟ وإذا كان الوزيران الشيعيان لا يؤمنان بالطائفية ولا بالدستور الذي نص عليها، فلماذا لم يعملا يداً واحدة علىٰ تعديله؟ وكيف ترشحا للنيابة، وتوليا الوزارة علىٰ أساسه؟

وأجاب الوزير كامل الأسعد بأن «الطائفة الشيعية لا تؤمن بالطائفية، وأن للشيعة دوراً في بناء هذه الدولة فيجب أن ينصرفوا إلىٰ لعب هذا الدور»، ولكن

هذه الدولة يا حضرة الوزير قائمة على الطائفية، فكيف تريد من طائفتك التي توليت النيابة والوزارة باسمها أن تعمل لبناء الدولة، وفي الوقت عليها الدولة؟

وهل قولك هذا إلاّ كقول القائل: ابن الدار واهدمها في آن واحد.

أجل، إن الشيعة لا يؤمنون بالطائفية، كغاية في نفسها، ولكنهم يؤمنون بلبنان ودستوره، فإذا تكلموا عن الطائفية، وطالبوا باسمها فإنما يطالبون بها كوسيلة لتطبيق الدستور الذي نص عليها. فهم يقولون: إما أن يعدل الدستور وإما أن يطبق بالعدل، والجمع بين وجود الدستور وبين اهماله وعدم العمل به إهانة للبنان وحكامه، ونوابه ولجميع اللبنانيين، لا للشيعة فحسب.

من وحي مولد النبي ﷺ على حدود إسرائيل[1]

أستشعر، وأنا هنا في هذا البلد الذي يقع بين أنياب الأفعى، ويجمع التيارات المتناقضة المتضاربة ... أنّ موقفي هذا يحتّم عليّ أن أكون صريحاً وجريئاً في مواجهة الحقائق، لا أُخادع، ولا أُصانع، ولا أترك كلمةً تُرضي الخالق مخافة أن تُسخط المخلوق: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين**﴾[2].

وأعوذ بك اللهم من متابعة الهوى، ومخالفة الهدى، وإيثار الغش على النصيحة، والباطل على الحق، واجعلني اللهم مؤمناً قولاً وعملاً بشعار نبيك ونجيّك الذي خاطبك بقوله: «**إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي**»[3].

وبعد، فإنّ من فضول القول ونافلته أن نعلن بأنّ أحوج ما نحتاج إليه اليوم هو التعاون والتعاضد، والوقوف صفاً واحداً في وجه العدو المشترك: الاستعمار وربيبته إسرائيل، هذه الشوكة الدامية هي وحدها السبب الأول لإثارة الفتن والقلاقل في كل بلد عربي، فما عرف العرب الهدوء والاستقرار منذ أن غرس

---

١ ـ ألقيت هذه الكلمة باحتفال المولد النبوي في بلدة عيترون سنة ١٩٦٦ م.

٢ ـ [سورة البقرة، الآية ١٤٥].

٣ ـ [تفسير القرطبي، للقرطبي: ج ١٦ / ص ٢١١ ؛ وتفسير ابن كثير، لابن كثير: ج ٤ / ص ١٧٦].

الاستعمار هذه الشوكة في قلوبنا .. ومحال أن يرضىٰ الاستعمار لنا الهدوء والاستقرار، ما دام علىٰ أرضنا شيء اسمه إسرائيل.

إنّ الاستعمار ليعلم حق العلم أن بقاء إسرائيل رهن بتشتيتنا وتفتيتنا، فعمل لذلك بكل سبيل .. فهل يجوز بعد هذا أن نتصارع ونتنازع؟

هل يجوز بعد هذا أن يكيل بعضنا لبعضٍ التهم جزافاً، وبغير حساب؟

المؤمن المتديّن رجعي وعميل عند فئة، والناقم علىٰ الأوضاع الفاسدة فوضوي هدّام عند أُخرىٰ، والساكت المتجاهل انعزالي عند الطرفين. ولا يرضىٰ عنك لا هؤلاء، ولا هؤلاء حتىٰ تتّبع ملتهم، وما أنت بتابعها، ولا هم بتابعيك، ولا بعضهم بتابع ملّة بعض ..

ونصيحة لله أن لا تحاول إرضاء الناس، لأن إرضاء الناس كل الناس محال.. وكلنا يعرف قصة الشيخ العجوز، والشاب اليافع، والحمار .. إذن فاجعل شعارك قول الرسول الأعظم ﷺ: «**إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي**». وقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**صانع وجهاً واحداً يكفيك الوجوه كلها**».

أُمهّد بهذه الإشارة، لأعلن بأن الدافع علىٰ هذا الحفل قرآني إلهي بحت يهدف إلىٰ التوجيه والتوعية الدينية الصحيحة الخالصة، لا شائبة فيه للسياسة، ولا لموازرة فئة ضد فئة، ولا لأيّ غرض من الأغراض الشخصية والغايات الحزبية.

وما نحن والسياسة والمسوس .. ما نحن والأحزاب والمتحزّبون .. نحن سفراء الله في أرضه، نستمد النور والهداية من زيتونة مباركة، لا شرقية ولا غربية .. نحن حزب لله وحده، لا للدمقراطيين ولا الاشتراكيين، ولا لغيرهم .. نحن إلهيّون ربانيون نؤيد الحق أينما كان ويكون امتثالاً لأمر الله، وميثاقه الذي أخذه علينا:

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّننه للناس ولا تكتمونه﴾[١] لا نكتمه أبداً ولو كره المشركون والمتحزّبون.

وأهم ما يجب علينا بيانه هنا، ونحن علىٰ قاب قوسين أو أدنىٰ من هذه المسماة باسرائيل: هل هي دولة حقاً، أو أنها أبعد ما تكون عن معنىٰ الدولة في حقيقتها رغم الضجيج والعجيج؟

وقد أجاب الله عن هذا التساؤل قبل وجود إسرائيل بأربعة عشر قرناً علىٰ التقريب، وبيّن سبحانه في كتابه العزيز أن إسرائيل هذه ليست دولة بما لهذه الكلمة من معنىً، وإنما هي شرذمة من الأشرار تجمّعوا من هناك وهنالك، وألّفوا عصابة للسلب والغصب بمساندة فئة من الناس لأن الدولة بمعناها الصحيح هي التي تعتمد في وجودها واستمرارها علىٰ حولها وقوّتها، وثروتها وهيبتها، لا علىٰ قوة الاستعمار وماله وسلاحه .. وكلنا يعلم أن الاستعمار هو الذي أوجد إسرائيل، وأنه ما زال يظاهرها بالمال والسلاح، وأنه لو تخلّىٰ عنها لحظة واحدة لتخطّفها العرب، وتلاشت من الوجود، ومعنىٰ هذا في حقيقته وواقعه أن إسرائيل ليست بدولة، وإنما هي مظهر من مظاهر الاستعمار الغربي، وأثر من آثاره، وبقيّته الباقية في بلاد العرب .. ولكن مستحيل أن يستمر الاستعمار ويدوم، كما رأينا، وكما سنرىٰ .. وإنّ غداً لناظره قريب.

ومن هنا كان القرآن عليماً ودقيقاً في قوله: **﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَ مَا ثُقِفُوا إلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾**[٢].

إنّ الذلة والمسكنة وحبل الناس في هذه الآية الكريمة إخبار بالغيب عمّا

---

١ ـ [سورة آل عمران، الآية ١٨٧].

٢ ـ [سورة آل عمران، الآية ١١٢].

حصل لإسرائيل بعد نزول القرآن بمئات السنين، وإشارة واضحة صريحة إلىٰ استجداء المساعدات التي يتصدّق بها الاستعمار علىٰ إسرائيل، وأيّ ذل ومسكنة أعظم من العيش علىٰ التسوّل والصدقات؟

أما حبل الله في هذه الآية فهو إشارة صريحة أيضاً إلىٰ أنّ الله سبحانه قد تركنا والجهاد مع إسرائيل، ولم يردعها بقدرته القاهرة علىٰ طريقة كُنْ فيكون. لأنّ الله جل وعلا قد دعا الناس إلىٰ العمل بإرادتهم واختيارهم، وأمرهم بالجهاد والتضحية لنصرة الحق علىٰ الباطل .. ومحال أن يكون المراد بحبل الله مساعدة اليهود ومناصرتهم، كيف وقد وصمهم بالذلة والمسكنة، وبغضب منه بما عصوا وكانوا يعتدون.

وأدرك الإستعمار هذه الحقيقة، وأنّ وجود إسرائيل لا يقوم علىٰ أساس من حولها وقوّتها، بل الصدقة والتسوّل، وأنّ بقاءها رهن بتشتيتنا وتفتيتنا لا بعتاد الإستعمار وصدقاته بالغةً ما بلغت، وأنّه متىٰ اتّحدت قلوبنا واجتمعت كلمتنا فلا يبقىٰ له ولا لربيبته عين ولا أثر .. أدرك الاستعمار هذه الحقيقة، وخاف أن يأتي اليوم الذي تجتمع فيه الصفوف، وهو آتٍ لا محالة، وسترون .. خاف الإستعمار من هذا اليوم، يوم الفصل والحساب، فراح يخوّفنا من الشرك والإلحاد، ليصرفنا عنه وعن إسرائيل، وهو المشرك الملحد، الخائف من ثورتنا وقوّتنا وتوحيد كلمتنا .. خائف من السدود تقام علىٰ مياهنا، خائف من المصانع تبنىٰ في أرضنا، خائف من المعاهد تشاد لأبنائنا، خائف أن نطمئن علىٰ عيشنا وغدنا، فنثور علىٰ الظالمين والمستغلّين والمستعمرين .. إنّه يريدنا أن نستمرّ في الجهل والفقر، والتمزيق والتفريق، ليستمرّ هو بدوره في استغلالنا، ونهب مقدّراتنا، واحتكار أسواقنا، وإذلالنا باحتلال فلسطين، واغتصاب أرضها، وتشريد شعبها ..

أيها المسلم المحمدي .. أيها المسيحي الوطني .. أيها الشاب العربي لا

وطن إلاّ بالوحدة الوطنية، ولا عروبة ولا قوة بل لا حياة إلاّ بالتعاون والتكاتف مع جميع القوىٰ والعناصر لدرء هذا الخطر المحدق بالجميع.

إن الخائف حقاً من تجمّعنا وتعاضدنا هو الاستعمار والصهيونية. أما نحن فلنا من عظمة ديننا، وقوّة شريعتنا، ومجد تأريخنا، وإخلاص المخلصين من علمائنا، ووعي الطيبين من شبابنا ما يعصمنا عن الشرك والإلحاد، وعن الفلسفات المادية والقوانين الرجعية.

لقد بلي الإسلام بما بليت به سائر الأديان عبر التاريخ والعصور من الإنتهازيين والمنحرفين الذين تاجروا باسم الدين، وابتعدوا بأهله عن غاياته وأهدافه، ولكن هؤلاء، تماماً كإسرائيل معروفون مفضوحون علىٰ رؤوس الأشهاد لا قوّة لهم، ولا هيبة، ولا وجود إلاّ بحبل من الإستعمار والصهيونية، إنّهم فقاقيع يذهبون مع الريح من أول نسمة تهب لرياح التحرر والوطنية: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾[1].

نحن لا نُخدع بالألفاظ، ولا يغرنا التظاهر باسم الدين والإسلام .. نحن نعلم علم اليقين أنّ الصرخات الهستيرية باسم الدين هي صرخات الذعر والخوف علىٰ المصير، وصيحات القلق والرعب من الثورات والتحركات تدك عروش الأدعياء، وتحطّم تيجان العملاء..

ونعلنها صريحة واضحة باسم محمد الذي نزع التيجان عن رؤوس الملوك والجبابرة، وألقاها تحت أقدام رعاة الإبل .. نعلنها صريحة واضحة إننا مع كل حركة مخلصة تستهدف القضاء علىٰ الإستعمار والخطر الصهيوني، والتسابق إلىٰ التسلح بأسلحة الفناء.

---

١ ـ [سورة الرعد، الآية ١٧].

نحن مع كلّ حركة وطنية تعمل لإقامة حياة يتحرر فيها الإنسان من الجهل والفقر والاستغلال، ويستقل فيها العقل والتفكير، ويشعر كل فرد بأنّه سيّد نفسه، ومالك أمره، وأنّه في حصنٍ حصين من حمىٰ الله وصيانته، يرتبط حقه بحق خالقه، وحرمته بحرمة ربه إلاّ إذا هو انتهك حرمة ذاته بالتعدّي علىٰ حرمة غيره، وعندها يأتي سلطان الحق الذي يعلو علىٰ كل شيء، ولا يعلو عليه شيء.

هذا هو الوجه الصحيح للإسلام، وهذا هو الطريق القويم إلىٰ جنة الخلد.. ثورة علىٰ التأخّر والانحطاط، وكفاح من أجل التطوّر والتقدّم، وحرب علىٰ الجهل والاستبداد، لا عمّة ولحية، ولا دروشة ومسكنة، ولا تبعيّة وعمالة، ولا تحزّب وتعصّب، بل ولا احتفالات جامعة وخطب طنّانة إلاّ أن تكون عواصف وقواصف تنزل علىٰ رؤوس الخائنين والمضلّلين.

هذا هو الوجه الصحيح للإسلام، أما الوجه الآخر الذي نرفضه نحن وأنتم أيها الشباب، والذي يعكس التخلّف والرجعية والخيانة باسم الأحلاف الإسلاميّة واسم التكتّلات الدينية لأهداف شيطانية، أما هذا الوجه فما هو من الإسلام في شيء، ولا الإسلام منه في شيء .. إنه تحايل الأوغاد، ونفاق أهل الفساد.

فإذا كنتم أيها الشباب من ذوي الأدمغة الواعية، والعزيمة الصادقة فتعالوا إلىٰ كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أن نعمل جاهدين علىٰ حلّ مشاكلنا، تعالوا نضرب يداً بيد، ونمشي جنباً إلىٰ جنب للوصول إلىٰ مصلحة الجميع، تعالوا لا خلاف بيننا وبينكم إذا كانت الأهداف شريفة نبيلة، وإنما الخلاف بين المستغلّين والمنتفعين بعضهم مع بعض، لا بين دعاة الصلاح والإصلاح، وأصحاب الفكرة النيّرة، والرسالة الخيّرة.

أنا لا أُصدّق أبداً أنّ الشباب الواعي هو ضدّ الدين، والإحتفالات الدينية، كيف ودين محمد هو دين الحياة والإنسانية، ولولاه لما بزغت شمس العدالة

والحرية على هذا الوجود، وما حاربه أحد من عهده الأول إلى هذا اليوم إلاّ جاهل، أو لص يعيش على حساب الكادحين والمستضعفين.

نحن وأنتم أيها الشباب ضدّ المنحرفين عن الدين وأهدافه الذين يتاجرون باسمه وشعاره المقدّس .. ولكن عليكم قبل أن تتّهموا أحداً بالإنحراف أن تجرّبوا وتميّزوا بين من يصلّي على الميت نهاراً، ويسرق كفنه ليلاً، وبين من يستهين بالموت في سبيل الحق والعدالة .. عليكم أن تستروحوا، وتستوحوا من سيرة محمد صلى الله عليه وآله أنّ المخلص لدينه ووطنه هو الأمين العفيف عن المحرمات والموبقات، والمكافح المعاند لأهل الضلال والفساد، والحليم الذي يتّسع صدره وقلبه للجميع، حتى لخصومه وأعدائه، فلقد جيّشت قريش الجيوش لحرب الرسول الأعظم، حين دخل مكة والمبدأ فوق الشخصيات والحزازات على العكس من المنحرفين والإنتهازيين فإنهم إذا ظفروا نكلوا وغدروا كما فعلت أمية، وكما يفعل كلّ خسيس لئيم لا دين له ولا مبدأ ولا شيء سوى حقده وأنانيته.

وبعد، فلا أدري كيف يكون المرء داعية صلاح وإصلاح، ولسانه لا يفتر عن التهم والإفتراء، وقلبه يتفجر بالحقد والبغضاء، وفرجه يتلوّث بالدعارة والفجور، وبطنه تمتلىء بالحرام والخمور ... اللهم إلاّ أن يكون يزيد بن معاوية داعية إصلاح، وقسطاس عدل ..

هل الفدائيون مخربون ؟

وردت هذه الكلمة في «تفسير الكاشف» في شهر آذار ١٩٦٨ م بعد نكبة حزيران بـ ٧ أشهر «الناشر»

في هذا الظرف الذي تتألب فيه قوىٰ الشر، وتتآمر علىٰ العرب والمسلمين، ويطرد فيه الشعب الفلسطيني من دياره، ويلقىٰ به في العراء نساء وشيوخاً وأطفالاً، في هذا الوقت الذي يقض فيه الفدائيون مضجع إسرائيل، ويقلقون راحتها، ويعبّرون عن إرادة كل حر، ورغبة كل مخلص في تحرير الأرض المحتلة، في هذا الأوان بالذات يقف معمَّم علىٰ حدود إسرائيل، وفي قرية من قرىٰ الجنوب، يقف هذا المعمم، وينادي في الجموع من مكبر الصوت: الفدائيون مخربون .. تماماً كما يقول دايان وأشكول وايبان.

الفدائيون مخربون يا محترم؟ وأنت وإسرائيل مصلحون؟ ولماذا الفدائيون مخربون؟ ألأنهم متمسكون بحقهم، وفي سبيله يقتلون ويُقتلون، أو لأنهم غيروا وبدلوا اسم اللاجئين باسم الفدائيين؟ وهل أنت في قولك هذا مطيع لله ورسوله، ومجاهد مناضل تؤدي واجباً دينياً ووطنياً؟

وأي دين من الأديان يحرم التضحيات من أجل دفاع الإنسان عن وطنه وإرادة الحياة فيه حراً كريماً، وإن عظم الثمن؟

أنا أعرف منطقك أيها المعمم، إنك تقول: إن إسرائيل تجيب عن عمل

الفدائيين بالانتقام من الأبرياء، ونحن نقول فليكن، إذا كان هذا ثمناً لخراب إسرائيل وطريق انتصارنا عليها .. ونحن نسألك بدورنا: أين كان الفدائيون في ٢٩ آب سنة ١٨٩٧ م حين عقد الصهاينة مؤتمراً عاماً بسويسرا وقرروا فيه طرد العرب من فلسطين وإحلال اليهود محلهم؟ هل كان هذا القرار والتصميم نتيجة لضربات الفدائيين آنذاك؟ ثم ما قولك في مجزرة دير ياسين، والمذابح التي قام بها اليهود للسكان الآمنين قبل أن تدخل الجيوش فلسطين؟

يجب أن تعرف أيها المعمم أنت وكل عربي أن فلسطين لا تشبع أطماع إسرائيل ومعها الأردن ولبنان وسوريا والعراق، إنها تهدف لإذلال العرب جميعاً، وإخضاعهم للصهيونية والاستعمار سياسياً واقتصادياً، إنها تطمع في نفط الكويت وقطر وأبي ظبي والسعودية، وفي السوق العربية الاستهلاكية، وفي أيدي العرب العاملة الرخيصة.

وقد وضعت لأطماعها هذه التصاميم ورسمت لها المخططات بالتآمر مع دول الاستعمار .. والعمل الفدائي هو الذي أفسد على إسرائيل هذه المخططات، وتلك التصاميم، وحملها على الاعتقاد بأن دون أحلامها وجود إسرائيل بالذات.

فخير ألف مرة أن نتحمل الألم الذي يفرضه عمل الفدائيين من أن تحقق إسرائيل أطماعها التي لا يحدها شيء، حتى النيل والفرات .. هذا، إلى أن المرحلة التي نحن فيها تحتّم علينا أن نواجه العدو بمقاومة الفدائيين كخطوة أولى، وأن نتحمل كل عبء بسببها دفعاً لما هو أشد وأعظم.

وبعد، فما قولك أيها المعمم في السرايا والبعوث التي كان يرسلها محمد ﷺ لتقطع الطريق على أعدائه المشركين، وتنهب أموالهم وتقتل وتأسر رجالهم، وتسلبهم الراحة والأمن في ديارهم، وكان يقود بعضها بنفسه، كما فعل حين غزا يهود بني قريظة بعد أن نكثوا عهده، وانضموا لحربه مع أبي سفيان عدو

الله ورسوله في حرب الأحزاب، فلقد أمر النبيﷺ جيشه الذي كان يقوده بنفسه أن يحرق زرع اليهود ويقطع أشجارهم، ويهدم مساكنهم، فهل كان النبي في عمله مصلحاً أو مخرباً؟

وقد تواتر قوله: من مات دون عقال من ماله مات شهيداً .. فكيف بمن مات في مقاومة إسرائيل عدوة الله والوطن والإنسانية جمعاء؟

قال تعالى: ﴿**إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفىٰ بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾[1].

ولا عامل اليوم بهذه الآية في الأمة العربية إلاّ الفدائيين، وفداؤهم هو حجر الأساس لثورة الشعب العربي بأسره.

لا حياة إلّا للفدائي المستميت:

الخائن يطلب أكثر من حقه، ولا يؤدي ما عليه، أو بعض ما عليه بدافع من نفسه، لأنه ميت الضمير، ولا وسيلة لانتزاع الحق منه إلاّ القيام عليه، كما قال جلت حكمته، ومعنىٰ القيام علىٰ الخائن المغتصب أن تثور عليه، وتجاهده وتناضله بكل ما لديك من قوة لأن الحرية والاستقلال يؤخذ، ولا يعطىٰ.

والثورة علىٰ الخائن المبطل فرض وحتم، وإلاّ عمّ الفساد في الأرض .. إن جريمة المظلوم القادر علىٰ دفع الظلم عن نفسه، تماماً كجريمة الظالم من حيث

---

١ ـ [سورة التوبة الآية ١١١].

إن كلاً منهما يمهد لإشاعة الظلم والفساد .. ولو علم الظالم أن بين جوانح المظلوم عاطفة تدفعه إلى الاستماتة دون حقه لتحاماه .. وقد دلتنا التجارب أنه لا حق في الأمم المتحدة، ولا في مجلس الأمن إلاّ للقوة، وأنه لا حياة للإنسان في القرن العشرين، بخاصة الشرقي، وبوجه أخص العربي إلاّ للفدائي المستميت.

النعرات الطائفية والاتجاهات السياسية

بعد حرب حزيران رأينا وسمعنا أشياء مذهلة مدهشة ... كان المفروض أن نرى عكسها تماماً، وأن تنتهي الأمور إلى غير ما انتهت إليه، أن يتغير كل شيء في العالم العربي إلى الأتم الأكمل بعد تلك الرجة التي هزته من الأعماق، أن يتغير كل شيء لو سارت الأمور في مجراها الطبيعي، ولم تنحرف عنه إلى التخطيط الذي صممه العدو لتدعيم وجوده في الأراضي المغتصبة.

كنا نعتقد أن اللبنانيين جميعاً وبلا استثناء ستتحد كلمتهم، ويكرسون طاقاتهم، ويرتفعون عن المصالح الشخصية ليعملوا يداً واحدة من أجل معركة المصير.

والذي يؤسف له أن العكس هو الذي حدث .. فالبعض يحركون النعرات الطائفية، وآخرون الاتجاهات السياسية ... ولماذا في هذا الوقت بالذات؟ هل للمصادفة؟ أو هناك سر؟ وإذا كان العقل يرفض المصادفة وجب أن نبحث عن السر.

ومهما يكن فإن أية حركة في هذا الظرف تمس الوحدة الوطنية بين اللبنانيين، وتفرقهم شيعاً فلا مصدر لها إلا إسرائيل وأسيادها ومطامعها في الأراضي اللبنانية. فإن أخشى ما تخشاه هو اجتماع كلمتنا، وتوحيد صفوفنا، وقد

أعلنت ذلك بلسان قادتها وزعمائها .. فأي لبناني يبدر منه أدنى شيء يضر بالوئام وجمع الشمل فإنه يلتقي مع إسرائيل، ويخدم مصالحها، بل هي التي دفعت به إلى ذلك ... وليس من الضروري أن تتصل به أو يتصل بها مباشرة، فإن أساليب الدعاية الصهيونية لا يبلغها الاحصاء، وهي تخاطب كل إنسان بلغته، وتأتيه من إحساسه وشعوره، تبث خطابها هذا في أميركا وأوروبا، ثم ينتقل إلينا بألف وسيلة ووسيلة.

سمعت ـ وأنا على يقين من صدق الراوي ـ أن بعض الشيوخ لا هم لهم في هذه الأيام إلاّ أن يبثوا روح التعصب في نفوس من يستمع إليهم من أبناء طائفتهم، وأن حديث البغض والكراهية «لطائفة معينة» هو شغلهم الشاغل، لا ينصرفون عنه، ولا ينصرف عنهم، وهنا يأتي التساؤل: لماذا التعصب الآن؟ هل هو مصادفة؟ وهل من الدين تفريق صفوف العرب والمسلمين، وبالخصوص في هذا الظرف؟ وهل هذا جهاد ونضال من أجل فلسطين؟

لقد وصل الإنسان إلى مشارف القمر، وغداً أو بعد غد ينزل عليه، وينتقل منه إلى الكواكب الأخرى، ونحن مشغولون بمسلم ومسيحي، وسني وشيعي، ومن هو الرابح من هذه النعرات نحن أو العدو؟ وإلى متى هذا التيه في الأفق الكريه المظلم؟

وبعد فنحن نعرف من أين يصدر أولئك الذين يحاولون إيقاظ الفتنة، وإلى أي شيء يهدف من يدفعهم إليها، وأيضاً نعرف أنهم لن يصلوا إلى ما يريدون ويريده عدو الله والوطن، ولكن نشفق عليهم أن يساقوا كالقطيع بعصا الفساد والضلال.

جريدة الجريدة ١٧ / ٦ / ١٩٦٩ م

عيد بأية حال ؟ ...

في جنوب لبنان :

عاش الجنوب طويلاً في التخلف والحرمان، وفي الإهمال والنسيان من الحكام والمسؤولين، وناشدنا نحن الجنوبيين أصحاب الفخامة والشأن، وطالبنا بالمساواة مع الأخوة في الجبل، بلد الرئيس الأول من قبل، وفي طرابلس وبيروت بلد الرئيس الثالث من قبل ومن بعد، ولكن بلا جدوى.

واستمر الجنوب في الحرمان والاهمال إلى أن جاءت الكارثة الكبرى في حزيران المشؤوم ١٩٦٧ م، فاستقبل أهل الجنوب لوناً جديداً من المآسي والآلام يختلف عن ماضيه اختلافاً يفوق التصور. ولست أعني بهذا اللون الجديد التقتيل والأسر والتدمير الذي تقوم به إسرائيل في الجنوب، فإن هذا وأكثر من هذا يهون عند المقارنة مع موقف الحكام والمسؤولين من اعتداءات إسرائيل. فلقد خلق هذا الموقف عقدة في نفس كل واحد من أبناء الجنوب حتى أخذ يتساءل: هل هو لبناني حقاً؟ وهل له دولة وحكومة؟ وهل الجنوب جزء من لبنان في نظر السادة الحكام؟ وإذا كانت منطقة الجنوب تتكامل مع المناطق الأخرى فبأي شيء نفسر هذا الفراغ الخطير في الدفاع عن الجنوب وإخلاء الجو لإسرائيل، تقتل وتأسر وتدمر بل تسيطر بالفعل على جزء من الأراضي داخل الجنوب بحيث أن لديها حرية التصرف في رقعة من الأرض، عرضها كيلومترات عدة، وهذا يعني أن إسرائيل تتمتع باحتلال فعلي لجزء من جنوب لبنان دون أن تتحمل أية مسؤولية

تجاه هذه الرقعة من الأرض اللبنانية محلياً أو دولياً فإلى أي مغزى يشير هذا التعامي والاستسلام؟

ورب قائل: هل يريد أهل الجنوب، لكي يشعروا أنهم لبنانيون حقاً، أن يعلن لبنان الحرب على إسرائيل، وإذن يصيبه ما أصاب مصر والأردن وسوريا عام ١٩٦٧ م ؟

وقد طرح هذا السؤال أكثر من مرة على ابن الجنوب. وأجاب عنه بكل بساطة: إنه لا يريد الآن شيئاً ولا يهتم إلاّ بشيء واحد، هو أن يؤدي واجبه تجاه أرضه ووطنه، أي إنه يريد أن يموت والسلاح في يده يدافع من يعتدي على أرضه وكرامته. إن ابن الجنوب يتجرع المرارة ويمضغ الألم ويلتهب من داخله. لا على تدمير بيته بألغام إسرائيل، أو قتل ولده برصاصها، ولا على حقله وبقرته، بل على ذلته ومهانته وإهدار كرامته، ووقوفه حائراً لا يستطيع الحياة كريماً ولا الموت شهيداً.

إن كل جنوبي من أصغر صغير إلى أكبر كبير يتمنى أن يكون هو وزوجته وأولاده قذائف تتفجر على رأس وقلب كل من يطأ أرضه رغماً عن أنفه. وهو يتهم الحكام والمسؤولين بأنهم يحولون بينه وبين هذه الأمنية. لا يقاتلون من أجله، ولا يوفرون له أسباب الأمن، ولا يمهدون له سبيل الإستشهاد على أرضه ومن أجل كرامته، بل يفرضون عليه بطريق أو بآخر أن يتقبل الهوان ويستسلم للإذلال.

جريدة النهار ٢٢ / ١ / ١٩٧٢ م

تحية إلى المطران كبوجي[1]

نهنيك يا سيادة المطران على هذه الشهادة الغالية، وهذا الوسام الرفيع..

ضاق القراصنة بصراحتك وإخلاصك، ونفد صبرهم على جهادك وثباتك... فساوموك على دينك وضميرك فأبيت في أنفة وشموخ، وآثرت العزة والكرامة مع تحمل الأذى والشدائد على النفاق والعمالة... ولما خذلتهم الرشى والحيل اعتقلوك وسجنوك، وأنت نقي الثوب والراحة.

وكنت على يقين من بطش الطغمة الحاكمة وغدرها حين قلت في عيد الأم، وأعلنت في جرأة وبسالة: «إن الأم حقاً وواقعاً هي الأرض، بل هي أغلى وأهم» ... أجل، أيها الطيب المجاهد، إن الأمهات والآباء، والأخوة والأبناء كلهم فداء لأرض الوطن بحكم التوراة والإنجيل والقرآن والناس أجمعين.

نهنيك أيها الحبر الجليل البار بأمه الحنون التي عرفت قدرها، وأديت حقها، وأحسنت إلى أهلها، وأغضبت أعداءها، ووقفت لهم بالمرصاد غير مكترث ولا هياب، تسخر منهم ومن أسلحتهم وغطرستهم، لأن من لا يهاب إلاّ الله وحده فهو أقوى من كل سلاح يملكه المبطلون والمضللون.

وكأني بك تبتسم فرحاً، وتشكر الله على هذه النعمة الكبرى التي أسبغها

---

١ ـ كتب الشيخ مغنية هذا المقال لجريدة النهار ٢٢ / ٨ / ١٩٧٤ م بمناسبة وجود المطران المناضل في سجون إسرائيل. «الناشر»

عليك سبحانه، نعمة الجهاد، نعمة الجهاد ضد أعدائه، والصبر على الشدائد في سبيل عباده وعياله ... وهل في الكون من مصلح واحد سلم من أذى الأشرار؟ ... أبداً كل الذين صنعوا التاريخ لاقوا مثل الذي لاقيت وأعظم ... وهكذا رجل الدين المخلص يجمع مع صلاته وصيامه غضباً لله، وجهاداً على دين الله لوجهه تعالى، لا يريد هتافاً من مرتزق، وتصفيقاً من منافق ... وهذي هي الرهبانية الحقة ... جهاد وبذل من أجل الحرية والعدالة، أما الذين يحلمون بالجنة وهم نيام فنصيبهم منها هذا الحلم وكفى.

وأيضاً رفعت أيها الروحاني الكبير صوت الله والإسلام والمسيحية في بيت المقدس بالذات، حين قلت قول المتصلب الواثق: «أبداً لن تكون القدس غير عربية» ... وهذا في عينه السلاح الفاتك القاتل الذي فجرته في قلب إسرائيل، ولا سلاح سواه على الإطلاق ... أما الأسلحة المزعومة فهي زور وبهتان، ومن أكاذيب إسرائيل التي تعتدي وتشكو من العدوان، وتقتل وتدعي الخوف من القتل، وتغتصب وهي تقول: إنها في خطر عظيم من شر العرب الغاصبين!

أبعد هذا وأكثر منه يصدق عاقل أباطيل إسرائيل وافتراءها على الأبرياء؟... وقديماً قيل: حسب الكاذب أنه لا يصدق حتى لو جاء بالصدق.

وتحية طيبة زاكية إلى سيادة كبوجي الذي وفى بالعهد، واستقام على القصد وهو سبحانه المسؤول أن يكثر من أمثاله في حماة الدين ورجاله.

كربلاء وفلسطين وجنوب لبنان

بقلم
الشيخ محمد جواد مغنيه

لا شيء يثلج صدري ويهدىء من روعي مثل الرحمة وسلطان العدل . أما الظلم والقسوة فانهما يلهبان عواطفي ومشاعري ، ولعل هذا هو السر في اني اتعصب وانحاز ، من حيث لا أحس واشعر ، الى كل حاكم يأمنه البريء والضعيف ، ويخافه المجرم والظالم ، احب العادل وأشغف به ايا كان وعلى أي دين يكون ، وأغضب والعن كل متكبر جبار حتى لو قام الليل وصام النهار .

وتشاء الصدف ان تنقض الصواعق الاسرائيلية المحرقة على جنوب لبنان صاعقة اثر صاعقة ، وانا منسجم بكياني كله مع عالمكربلاء ومأساتها لاني الان اضع كتابي في « الحسين والقرآن » فازداد جوي لجبا واعصابي لهبا ... وبهذه الاعصاب اكتب ما يأتي :

كل التاريخ البشري ، بلا استثناء، فيه شمر ويزيد من يوم آدم والى اخر يوم . الم يقتل قابيل ، الابن الاول للانسان ، اخاه هابيل ؟... فأين صلة الدم ؟... وتوارث الابناء هذا الظلم الى يوم يبعثون . والفارق انما هو في الاسم والصورة ، تفرقت الاسماء والظلم واحد، اذا ساغ تغيير الامثال .

ومذبحة كربلاء اليمة وعظيمة ، تمثلت فيها نكبة الانسانية الشاملة. لقد اراد الامويون التخلص من عترة الرسول (ص) بكل ثمن ، ليدوم لهم الملك بلا صعوبات وعقبات . فكان في الطف ما كان ، والمسلمون ساعتئذ في صمت شامل وغريب ، كما وصفهم الشاعر :

راس ابن بنت محمد ووصيه
للناظرين على قناة يرفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع
لا منكر منهم ولا متفجع

وملحمة الشعب الفلسطيني ايضا اليمة وعظيمة، لان الصهاينة يريدون تصفية هذا الشعب وابادته بكل الوسائل ، وسد باب الامل في العودة نهائيا ، لتعيش اسرائيل وحدها في فلسطين قريرة العين . وليست الصهيونية ادنى قسوة وضغنا من أمية ، ومن هنا جاءت المقارنة والمشابهة في هذا الفصل بين كربلاء وفلسطين . وايضا وجه آخر للشبه، وهو موقف العالم الاسلامي والعربي اليوم من قضية فلسطين ولبنان ، انه تماما كموقف المسلمين آنذاك من وقعة الطف .

أين العمل المشترك والموقف الواحد ضد مخطط الابادة ؟ واين صيحة النجف والازهر والمؤتمرات الاسلامية ضد الولايات المتحدة بصراحة ومن يسير في ركابها ؟ (...)

أجل قطعوا النفط او بعضا منه اياما معدودات ، فذهل الغرب واهتز كيانه هذا الزلزال الماحق . ولكن سرعان ما عاد من عاد الى الطاعة ، وتقشعت الغيوم عن فك الارتباط ، ودفع ثمنهغاليا لبنان والفلسطينيون!

ابتدأت ملحمة فلسطين عام ١٩٤٨ وتتابعت عليها النكبات الواحدة تلو الاخرى . والان ـ وانا اكتب هذا الفصل في حزيران ٧٤ ـ انقضت الطائرات الاسرائيلية العديد من المرات على جنوب لبنان بعد فك الارتباط ، وقصفت القرى ومخيمات الفلسطينيين ، ونشرت الصحف اللبنانية ـ في ٢١ و ٢٢ من الشهر

المذكور - اخبار هذه الغارات مع صور لبعض الضحايا والاشلاء ، ومنها صور اطفال مشوهين ، وفوقها بالخط العريض « اين الضمير الانساني ... بل اين الضمير العربي ؟ » وتحتها « لا نخوة ... لا شهامة ... لا تأثر ... فالكل فك الارتباط » .

أليست هذه الكلمات القارعة اللاذعة تفسيرا كاملا لبيت الشاعر الحسيني :

« والمسلمون بمنظر وبمسمع
لا منكر منهم ولا متفجع » .

ومن هنا قيل : كان الشعر في القديم كالجرائد في العصر الحديث. والى القارىء بعض ما نشرته في وصف هذه الكارثة الصهيونية الاميركية :

اتخذت الغارات الاسرائيلية على قرى جنوب لبنان ومخيمات اللاجئين طابع الابادة ، وكانت نتيجتها عشرات الشهداء والجرحى من عجز ونساء واطفال . كانت القاذفات تضرب الاطفال وهم يلعبون في الشوارع ، وتهدم البيوت على رؤوس من فيها ، وتحرق الخيام بأهلها ، وتذهب حتى اذا اجتمع الناس لانتشال الجثث ونقل الجرحى الى المستشفيات اعادت القاذفات الاسرائيلية الكرة وقصفت المسعفين والمصابين معا . ولما هدأ القصف اتت الجرافات لرفع الانقاض واذا بوجوه مشوهة لا يعرف اصحابها ، ورؤوس محطمة ، وأيد وأرجل ، واصابع كبيرة وصغيرة ، الى شتات من القتلى حرقا بقنابل النابالم ، او خنقا تحت الركام ، وفيهم اطفال ومسنون وحاملات ومرضعات .

هذا تلخيص كامل لما قالته الصحف البيروتية عن هذه المأساة . والشيء الذي سكتت عنه لوضوحه ، ونسجله نحن للتاريخ لا لمجرد التوجع ، هو ان مخيمات الفلسطينيين في لبنان تعني الفقر والعوز ، والبرد والمرض، والهوان والتشريد ، والحزن والكبت، والحيرة والقلق ... وفوق ذلك البغي الصهيوني يزهق الارواح ويحرق الاجسام ، والدعم الاميركي في كل ميدان وبلا حدود ، او مع وصف الارهاب والتخريب !

أرأيت الى هذه الفاجعة تحدث في القرن العشرين ، عصر النور والفضاء ؟ وهل قرأت لها مثيلا عبر التاريخ ؟ اجل ، لقد حدث مثلها في كربلاء ، ولكن في القرن السابع حيث لا فتوحات للعلم في اكتشاف قوة البخار والكهرباء والذرة . حدث ذلك لمشردين في العراء من ارض كربلاء ، فقد منعوا اولا من شرب الماء ، ثم ضربوا بالسيوف ، وطعنوا بالرماح ، وقذفوا بالحجارة . وكان الفصل الاخير قطع الايدي والرؤوس، ورض الاظهر والصدور ، وذبح الاطفال ، وسبي النساء ، وتصفيد الاسرى ، وحرق الخيام ، ورفع الرؤوس فوق الرماح . وايضا القيت الاجساد من عل ، وجرت بالحبال في الشوارع والاسواق . حدث كل هذا لا لشيء الا لقول الحق وطلب العدل، وبهما ينادي اللبنانيون والفلسطينيون ، وهذا ذنبهم وعيبهم !

وان دلت هذه المجازر هنا وهناك على شيء فانها تدل على ان تقدم العلوم الطبيعية لا يعني ابدا تقدم الانسانية ، بل قد يكون اداة لهدمها وتدميرها كما قال سبحانه : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى - ٦ العلق » . ان المدينة الفاضلة لا تتحقق على الارض ولم تتحقق بالمخترعات والارتقاء الى القمر والمريخ ... كلا ولا بكثرة السلع الاستهلاكية وحدها ، بل بسيادة الحق والعدل ، واشاعة الامن والسكينة ، وبالاخاء والتعاون على ما يريد الجميع لا على ما يريده فرد دون فرد ، او فئة دون فئة .

وقال الامام الحسين لقادة البغي والضلال : « ويحكم اتطلبوني بقتيل منكم قتلته، او بمال لكم استهلكته، او بقصاص من جراحة ؟ » . وبلسان الفلسطينيين واللبنانيين نقول للصهاينة والمتصهينين ، ولاميركا والمتأمركين : هل قتلنا منكم احدا ، او شردنا امرأة وطفلا ، او انتم لنا لكم ارضا ، او هدمنا لكم بيتا او

استذللنا منكم عزيزا او انتهكنا عرضا؟ الم يقل الفلسطينيون لليهود مرارا وتكرارا تعالوا نعش اخوانا في ارض واحدة ، وفي ظل حكم واحد لا مستأثر ولا متجبر ؟

فأبوا الا الطرد واخراج اهل الدار من الدار ، او القتل والذبح بسلاح الولايات المتحدة ، اقوى دول الارض واعتاها تماما ، كما اجمل الامام الحسين قصته مع سليل العهر والفجور بقوله : « الا وان الدعي من الدعي قد ركز بين اثنتين : بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة ! »٠

وايضا قال الحسين لقادة العسف والعنف : « انتم طواغيت الامة ، ونفثة الشيطان ، وعصبة الآثام ، وشذاذ الاحزاب ، ونبذة الكتاب » ٠ الا يصدق هذا الوصف على من اهمل وتجاهل موضوع لبنان والشعب الفلسطيني وهما طرف اساسي في معادثات السلام ؟ وهل صحيح ما شاع وذاع ان جنوب لبنان هو الثمن والبديل عن القنيطرة والقناة ؟

وايضا يصدق قول الامام الحسين على المتزعمين والمترفين الذين يلهون وينهلون من موائد الحرام والترف والتبذير ما شاء لهم الهوى والخنا غير مبالين بشاك ولا باك ، ولا بدين ووجدان٠ والعرقوب والجنوب بين طابقين من نار المدافع والطائرات !

وبعد ، فان العالم الان بأسره شريك في كل ما حدث ويحدث للبنان والفلسطينيين ، ومسؤول عن كل ما حل بهم من نكبات ٠٠٠ وبالخصوص الولايات المتحدة التي اعطت الضوء الاخضر لاسرائيل بضرب لبنان في البيان المشترك الاميركي - الاسرائيلي ٠٠٠ وبوجه خاص العالم العربي الذي يملك قوة البترول وقوة المليارات المودعة في مصارف الصهاينة وحلفائهم ٠ لقد تحمل لبنان من اجل فلسطين والفلسطينيين اكثر بكثير من كل الدول العربية بل الاسلامية وغيرها مجتمعة ، وهو يعجز عن بعض هذا الحمل والثقل ، وما رأى من الاشقاء والاصدقاء الا « نستنكر ، نؤيد ، نحن معكم » ٠ بخ بخ للعرب والعروبة، وللمؤتمرات الاسلامية التي تعقد بالعشرات هنا وهناك ٠٠٠ ثم لا شيء ضد الغارات الا قرارات مكرورات ٠

هذا وأمثاله دفع بالمقاومة الفلسطينية الى التصرف اليائس ، وعمليات الانتحار والتفجير الغاضب بالمسلوب والسالب ، كما حدث في ميونيخ ومعلوت وكريات شمونة ونهاريا ٠ وقديما قيل : « لولا المسبب لم ينجح السبب » ٠

وأعود الى حديث بلدي لبنان ، وأكرر السؤال : ما ذنبه حتى اصبح بعد فك الارتباط شغل اسرائيل الشاغل ؟٠٠٠ ابدا ليل نهار تقتيل ، تدمير ، تشريد وحرق وأسر ؟ ولماذا كل هذه الشراسة والضراوة ٠

اجل ، ان للبنان ذنبا لا يغتفر ، هو ان الشعب الفلسطيني كان بعد العام ٤٨ نسيا منسيا لمؤامرة محكمة من الصهاينة والاميركان ، وبعد سنوات طوال من هذا النسيان والاهمال استطاعت المقاومة الفلسطينية ان تثبت وجودها بطريق او بآخر ، وان تلفت الانتباه الى الفلسطينيين كشعب لا يمكن تجاهله ٠ والفضل في ذلك لله وللبنان ، فمنه انطلقت المقاومة ، ولولاه لم يكن لها عين ولا اثر ، وكفى بذلك جرما واثما عند اعداء الحق والانسانية ٠

جريدة النهار ١٩٧٤/٤/٤ .

الشيعة والعميد إدّه[١]

تحدث العميد ريمون إدّه رئيس الكتلة الوطنية وعضو الحلف الثلاثي، إلى جريدة المحرر، حديثاً مسهباً ومطوّلاً، نشرته يوم ٢١ ـ ٧ ـ ١٩٧٥ م، وقرأته على مهل وروية، ولمست فيه العديد من الحقائق، وأيضاً فيه ما يبعث على الدهشة وطلب التفسير مثل قول العميد:

«قد اكتشف المسيحيون بعد الحوادث شيئاً كانوا يجهلونه عن هذا الواقع، فهم كانوا يعتقدون أن الشيعة لبنانيون أكثر من السنة ... وفجأة اكتشف بعض المسيحيين في الحوادث الأخيرة أن الذين هاجموا حارة حريك والدكوانة وسنّ الفيل كانوا خاصة من الشيعة، كما اكتشفوا أنّ الشيعة كما قيل قد ساندوا بعض أفراد المقاومة، وخاصة جبهة الرفض بالهجوم على المناطق المسيحية في الشيّاح وعين الرمانة الخ».

ولم يذكر العميد لا صراحة ولا كناية الذين عكروا الصفاء وأشاعوا الفتنة، أو يعط أيّ تفسير واضح لمسبب الأسباب والأصل الأصيل للأحداث الأخيرة، فهل يتفضل العميد بالإجابة الواضحة عن التساؤلات التالية ونحن له من الشاكرين؟

أولاً: من هو السبب والحجر الأساس للفجائع التي ألقت بلبنان إلى الهاوية.

---

١ ـ لم يشترك إده مع الجبهة اللبنانية الإنعزالية في حربها ضد الوطن واتضحت مواقفه الوطنية فيما بعد تاريخ هذه الكلمة. «الناشر»

ولصالح مَن جاء التخريب والتقتيل، والوقيعة بين المسلمين والمسيحيين في هذا الظرف بالذات الذي تخطط فيه أميركا والصهيونية لخراب لبنان والقضاء عليه سياسياً واقتصادياً، وتبيّتان له كل سوء وشرّ؟

هل هم الشيعة، أو الذين يتظاهرون بالغيرة على لبنان واستقلاله وكرامته؟

وأيّ دولة عربية أو إسلامية تطمع في لبنان والسيادة عليه؟

وهل للبنان والعروبة والإسلام والمسيحية من عدوّ غير إسرائيل وهل شهر السلاح أول من شهر، وبدأ بإطلاق النار في الحوادث الأخيرة، الشيعة أو الذين يتغنون بحبّ لبنان وأرضه؟

وهل من شيعي واحد بدأ وتعرّض بالإساءة لمسيحي أو غير مسيحي؟ والثلاثة الذين ذبحوا من الشيعة مع من ذبح في البوسطة الحمراء بعين الرمانة يوم ١٣ نيسان، من الذي ذبحهم ومثّل بهم وفظع، الشيعة أو الإسرائيليون؟

ثانياً: لماذا ذكر العميد الهجوم على بيوت الكتائب في عين الرمانة وغيرها، وسكت عن الصواريخ والقذائف ورصاص القناصة التي كانت تنهمر كالسيل على شارع أسعد الأسعد وشارع عبد الكريم الخليل وغيرهما في الشياح، وقتلت العديد من الأطفال والنساء والرجال، ودمّرت عشرات البيوت والمحلات التجارية! وأيضاً سكت العميد عن حرق الرجال أحياء من الشيعة، والتمثيل بسمل العيون، وفري اللحم عن العظم! وهو قليل من كثير مما فعلته الكتائب والأحرار بالشيعة.

ثالثاً: ألم يقف السنة والشيعة صفاً واحداً يضربون الأمثلة في الوحدة والتماسك والإخاء يفتدون لبنان من العاملين على خرابه بالروح والأهل والمال؟ فلماذا خصّ العميد الشيعة بالذكر؟

وبعد، فإنّ الشيعة حملوا السلاح ردعاً للمعتدي ودفاعاً عن النفس، وهم يدركون بالتزام ومسؤولية أنّ أقوىٰ أسلحة الحقّ والنصر هو الصدق والإخلاص لدينهم ووطنهم بالاخوة اللبنانية والوحدة الوطنية، وستظل هذه الوحدة ـ برغم ما حدث ويحدث ـ مثلاً أعلىٰ وهدفاً نبيلاً للطائفة الشيعية في لبنان.

وقد لاقت هذه الطائفة المحرومة ما لاقت من الظلم والحيف والإجحاف من ساسة وحكام ومن غزوات إسرائيل المتابعة وغاراتها المدمرة المهلكة، وما راعت الدولة للجنوب إلّا ولا ذمة، ولا رأىٰ الجنوب أحداً في كل ما حلّ به من ويلات ونكبات إلاّ انتهازياً يراوغ أو مشعوذاً يخادع! وما كفىٰ كل هذا حتىٰ فاجأهم حزب الكتائب بذبح ثلاثة منهم في وقعة البوسطة الحمراء، ثم اتهمهم العميد وأحد الأثافي بالحلف الثلاثي بالهجوم والإعتداء علىٰ المسيحيين، وأجارنا الله من الحزب الثالث، وأخشىٰ ما أخشاه أن يكون الشيعة هم الهدف من الجولة الآتية وقبل الفلسطينيين.

وهو سبحانه المسؤول أن يصون لبنان من كيد الأشرار، وحبائل الصهاينة والاستعمار إنه سميع مجيب.

جريدة السفير ٢٧ / ٧ / ١٩٧٥ م

لا حياة بلا أمان:

في ٢٨ ـ ٧ ـ ١٩٧٥ م نشرت الجرائد اللبنانية أن الحكومة تناقش خطّة إسكانية تبلغ تكاليفها ١٩٥ مليون ليرة لبنانية. قرأت هذا الخبر فتذكرت حكاية رواها بعض السلف للخلف، وخلاصتها أنّ معدماً بلغ الجوع أشدَّه من أحشائه، فلم ير وسيلة إلىٰ طعام يسد الخلّة إلاّ أن ينزل ضيفاً علىٰ مغنٍّ يعرفه من قبل،

ويعرف أنه في سعة ولين، فطرق الباب ودخل الدار وانتظر وقت الغداء بفارغ الصبر، ولما آن الأوان قال صاحب البيت لضيفه الجائع: أيّ صوت من الغناء تحب أن تسمع؟ قال: صوت المقلاة.

فالغناء لا يجدي عن الجوع شيئاً، وكذلك الإسكان بلا أمان، وأيّة جدوى من الدور والقصور والمعامل والحقول، وهي في قبضة العدوّ وطائراته ورحمته!

تتصرّف إسرائيل في أرض لبنان وسمائه بزهو وخيلاء دون رادع ولا زاجر، تقتل وتهدم وتشرّد أهل الجنوب على منظر من الحكومة ومسمع، فجاءت النتيجة لا هيبة لها ولا وجود، شأنها في ذلك شأن أيّ مسؤول لا يقوم بواجبه، ويتنكر لمهمته واختصاصه.

ورب قائل: إنّ لبنان ضعيف عسكرياً، وإسرائيل أقوى جيشاً وسلاحاً!

وهذا القول مغلوط ومضلل، ومن الذي طلب أو يطلب من لبنان أن يهاجم إسرائيل أو يعلن الحرب عليها؟ وإنما المطلوب من حكومة لبنان أن تدافع عن نفسها وكفى، وليس من شك أنها قادرة أن تغرس في أرض الجنوب عشرات الصواريخ الرادعة المانعة، ولكنها لم تفعل لا لشيء إلاّ لأنّ أهل الجنوب ما كفاهم الإيمان بمحمد حتى تشيّعوا لأهل بيته؟ ولو كانوا على غير هذه الملّة أو أنهم من الموارنة لوجدوا الكثير من الأنصار .. ولما تخلى عنهم الغرب المسيحي ..

وليغامر ويقامر من يريد للجنوب الإبادة، ولشيعة لبنان أن تستضعف وتهان، فسيعلم أن العاقبة للحق وأهله، وقد ظهرت دلائل الطوفان وتباشيره. وكل آت قريب. وأيّ واعٍ يصعب عليه أن يتجاهل هذه الحقيقة.

الغزو من الداخل

التحديات:

تواجه اليوم الهيئات الدينية ألواناً من التحديات في كل مكان ولكن علماء الشيعة بلبنان يعانون هذه التحديات بكل أنواعها وأصنافها، ويزيدون على سائر العلماء بنوع جديد يهدف إلى تدميرهم والقضاء عليهم كعلماء لهم ما للعلماء من شأن .. فبعد الفتنة الطائفية والشمعونية الكتائبية، بين المسلمين والمسيحيين بلبنان ـ انتشرت بين أبناء الشيعة بالخصوص العمامة الكبرى المكورة المدورة انتشاراً سريعاً ومذهلاً!

وكانت هذه العمامة إلى عهد قريب حجراً محجوراً إلاّ على من قضى في دراسة العلوم الدينية سنوات بالنجف الأشرف. واليوم أصبحت العمامة المكورة مشاعاً لكل متطفّل ودخيل .. ولكن الصورة الأولى لهذه العمامة ما زالت هي المسيطرة على ذهنية السواد الأعظم، وأن كل من «لفّها وأدارها» على رأسه فهو من علماء النجف أو درس في النجف ـ على الأقل ـ.

الأصيل والدخيل:

شاء الله سبحانه أن أعاصر جيلين من شيوخ العمائم .. ولقد رأيت في الجيل الأول من تشبه بأهل العلم وليس منهم، ولكنه نادر وقليل .. ولا غرابة .. فما

من صنف إلاّ وفيه أصيل ودخيل .. حتىٰ النقود المتداولة فيها الزائف والسليم، وإنما الغرابة أن يكون الزائف هو الأغلب والأكثر، كما هو الشأن في الجيل الحالي الثاني من شيوخ العمائم الذين أدركوني، ورأيت فيهم التدفق والتضخم، وكيف تحول بهم الشعار الديني إلىٰ مهزلة.

أدركت البقية الباقية من الشيوخ الأولين، وكان فيهم أكثر من واحد «فقيهاً» بلا اجتهاد، أو «مجتهداً» بلا فقه، كما أشرت، ولكن كان بينهم جميعاً عنصر مشترك، هو الشعور بالمسؤولية أمام الله والناس عما يحملون من شعار مقدس، وأن هذا الشعور يفرض علىٰ حامله حدوداً أو قيوداً يجب عليه مراعاتها والالتزام بها .. وهذا العنصر المشترك بالذات هو الذي حفظ للسلف كيانه واحترامه، وأبقىٰ علىٰ هيبته وكرامته.

أما الكثير من شيوخ الخلف فقد حملوا هذا الشعار المقدس دون أن يشعروا بأعبائه، ويلتزموا بواجبه، همه وجهده الكسب من أي طريق. أما المتقون فقليل ما هم .. وكذلك أهل الاجتهاد والنظر .. ولقد لمست في بعض الطلاب الذين هجروا النجف والدرس مبكرين، طاقة واستعداداً للاجتهاد المطلق، ولكنهم ملّوا الطريق فقطعو السير، وخلدوا إلىٰ الكسل وراحة التقصير، فحرموا أنفسهم من الفوز العظيم .. ولله في خلقه شؤون.

الأسباب والأهداف:

فيما يلي نشير إلىٰ بعض الأسباب الموجبة، والأهداف المبتغاة لهذا «التضخم» العددي الكبير من شيوخ الجيل الجديد:

أولاً: البطالة، والفشل في الحياة، يبحث بعض شباب الشيعة اللبنانيين عن

مصدر العيش فلا يجدونه، وإذا ضاقت بهم الحيل شدوا الرحال إلىٰ النجف، وكوروا العمامة، وأطلقوا اللحية علىٰ بابك يا كريم.

ثانياً: الرغبة في وظيفة قد ينالوها بواسطة زيّهم الديني، في سلك القضاء، الافتاء أو التدريس علىٰ الأقل.

ثالثاً: ولعل الأهم والأخطر من السببين الأولين، ضرب القطاع الديني من داخله ثم توجيهه حسب خطة مدروسة، الهدف منها تشويه مبادىء الإسلام ومساعدة الامبريالية والصهيونية في ضرب حركات التحرر الوطني.

والأسلوب المتبع لذلك جديد قديم ويتم بضخ أكثر عدد ممكن من المعممين إلىٰ سوق النخاسة والعمالة ليعملوا باسم الدين وإنما في خدمة الأعداء والرجعيين.

هذا هو الغزو من الداخل، وهو أحدث وأخبث أساليب الهدم والتخريب، ويحقق للغزاة أهدافهم بلا حرب حسام أو كلام .. ويتم بالأقنعة والملابس التنكرية، فيختلط الحابل بالنابل، والأصيل بالدخيل، والوطني بالعميل ... وتضيع القضية.

لقد غُرر ببعض البسطاء المؤمنين أن يلقوا ملابسهم التقليدية اللائقة بهم وبأمثالهم، وأن يكوروا العمامة الكبرىٰ فوق رؤوسهم، ويظهروا بمظهر العلماء والفقهاء، فاستسلموا للاغراء وحب الظهور، وغفلوا عن أنفسهم وعن قصد من غرر بهم .. ونعوذ بالله من عثرة الغفلة وسوء القصد.

وعاتبت بعض هؤلاء علىٰ عمامته المزورة فخجل واعتذر بأنه قد حُمِل عليها، وقلت له لقد حملوك علىٰ الصعب، وعرضوك وكل معمم لسخرية العابثين

وضحك الهازئين، وفي نهج البلاغة «**هلك من ادعىٰ وخاب من افترىٰ**»[1] وعن الرسول الأعظم: «**من غشّ المسلمين فليس منهم**»[2].

كنت حاضراً أحد المجالس، وجرىٰ حديث هذه العمائم واللحى بين الحاضرين، فقال أحدهم: «أرادوا من هذه العمائم أن يرفعوا بها شأن الطائفة ويباهوا بها الأمم» وقال آخر: «بل أرادوا بهذه العمائم أن يسترجعوا فلسطين، ويستردوا حقوق الشيعة المغتصبة، ويحصنوا قرىٰ الجنوب من غارات إسرائيل ويرووا الأرض بماء الليطاني»، وقال أخبث الحاضرين: «بل أرادوا أن يحيوا رجل الدين وهو رميم».

---

١ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١ / ص ٢٧٣ من خطبة للإمام عليّ عليه السلام لما بويع بالمدينة برقم ١٦].

٢ ـ [كنز العمال، للمتقي الهندي: ج ٤ / ص ٦٠].

المارونية السياسية .. هي السبب

لا تقوم دولة قوية ذات كيان في أي وطن من الأوطان إلاّ على أساس العدل وتنفيذ القانون. يقول الإمام علي عليه السلام لا عدل بلا قوة. والأساس الأهم الذي تُبنى عليه الدولة، هو أن يكون القانون الذي يعيش الشعب في رعايته، عاملاً يجرّد الأفراد والفئات والطوائف من أي غنم وامتياز، ويجعل الشعب بأكمله دون استثناء أو محاباة في صف واحد تجاه الحقوق والواجبات. والسؤال المطروح الآن: ماذا فعلت المارونية السياسية بدولة لبنان؟

يعلم القاصي والداني بالقطع واليقين، أن المارونية السياسية سيطرت على الحكم في لبنان منذ عهد الاستقلال، بدليل أن الجيش اللبناني وقوى الأمن ومرافق الدولة ومراكز القوة والنفوذ كانت ولا زالت في قبضة الطائفة المارونية.

ولكن المارونية السياسية المسؤولة أخلت بميزان العدالة والمساواة، فأثارت الكراهية والبغضاء بين طبقات وطوائف الشعب اللبناني، ونشب القتال أكثر من مرة بين أبناء الوطن الواحد.

إذن فمشكلة لبنان تستند إلى الوضع الفاسد، والقانون الجائر الذي حكم به المسؤولون أهل الطمع والجشع، وأوصل العميل السفّاك إلى الرئاسة ليتخذ من الوطن متجراً ومكسباً وبقرة حلوباً ويحكم البلاد والعباد بالحديد والنار.

الخوف :

وأعجب العجب هو منطق المارونية السياسية في تبرير هيمنتها على لبنان، إنها تتذرع «بالخوف» من أن تُضطهد الأقلية المارونية التي تدعي بقوميتها الخاصة وبراءتها من العروبة ـ من قبل الأكثرية العربية المسلمة .. ولهذا تقول لنا المارونية السياسية بطريقة أو بأخرى .. يجب أن يحكم الموارنة لبنان حسب ما يشتهون ويرتؤون .. وعلى «الأكثرية» من اللبنانيين العرب مسلمين ودروزاً ومسيحيين أن يذعنوا ويقبلوا بحكم «الأقلية» المارونية.. لأنه هذا هو الضمان الوحيد لتبديد «خوف» الموارنة وتهدئة روعهم .. وإذا لم يذعن العرب، والمسلمون في لبنان لرغبات الطائفة المارونية في التسلط والطغيان، فإن الموارنة سينقلبون إلى أعداء للمسلمين والأمة العربية، وسيجعلون من لبنان إسرائيل ثانية .. وفعلاً أثبتت وقائع الحرب اللبنانية تعاون كميل شمعون وبيار الجميل مع إسرائيل علناً وبدون حياء.

ولكن لتعلم المارونية السياسية أن الشعب اللبناني يرفض التهديد بإسرائيل ويرفض قيام دولة مارونية على نسق إسرائيل، وأن الابتزاز والوعيد لن يجديا نفعاً. ولتتعظ المارونية السياسية من إسرائيل نفسها، لأنه بالرغم من انتصاراتها ظلّت دولة مضطربة، لا تنعم بالسلم الحقيقي، وهي تسعى جاهدة للتصالح مع العرب، حتى تستقر ويطمئن لها بال. فهل يريد الموارنة أن يتشبهوا باليهود حتى يمضوا عمرهم في الحروب والاقتتال مع اخوانهم العرب والمسلمين؟

ثبت باليقين أن لبنان لن تقوم له قائمة، ولن يستقر على حال، إلاّ إذا كانت السيادة للعدل والمساواة وأن يكون كلّ الشعب اللبناني على مستوى واحد تجاه القانون في الحقوق والواجبات، بلا تحيز ولا امتياز لطائفة على أخرى وبهذا تكون الدولة لكل الشعب والشعب كله للدولة، وعند ذلك ينعم الجميع مسيحيين

ومسلمين بلبنان عربياً عادلاً حراً مستقلاً.

الغبن :

يتساءل المرء عن الإسلامية السياسية إذا شئنا أن نستعمل هذا التعبير يتساءل ماذا فعلت بلبنان؟

والجواب أن المارونية السياسية تحالفت في حكمها مع الاقطاع السياسي المسلم الذي رضي بهيمنة الموارنة وسلبهم لحقوق المسلمين، ورضي أن يكون شريكاً ضعيفاً في الحكم علىٰ أن يتمتع بنفوذ خاص ويحتفظ بموقعه الاقطاعي السياسي.

الحقيقة أن المسلمين أخطأوا كثيراً في لبنان لأنهم قبلوا بتسلط المارونية السياسية ولأنهم لم يثوروا علىٰ «الغبن» الذي لحق بهم وما زال، ولأنهم لم يقوّموا اعوجاج السلطة المارونية لينالوا حقوقهم المشروعة.

ماذا كانت النتيجة بعد حوالي أربعين عاماً من حكم المارونية السياسية؟ من يريد الجواب علىٰ ذلك، فلينظر في وضع لبنان الآن (١٩٧٩ م). فهو منهار ممزق الأشلاء، شعب مسحوق مشرّد في أرضه، لا حول له ولا قوة، ولقد أقامت المارونية السياسية وطناً من زجاج تحطّم عند أول رشقة حجر. وكم تشدّقت هذه المارونية السياسية بحكمتها الغريبة العجيبة «أن لبنان قوته في ضعفه». والحقيقة أن كارثة لبنان من ضعفه .. ولو أن المارونية وحلفاءهم الاقطاعيين المسلمين بنوا لبنان العدل والقوة بدل لبنان الامتيازات والضعف والفوضىٰ والفساد، لو أنهم فعلوا ذلك، لما انهار لبنان وانكسر وتناثر حتىٰ صح فيه مَثَلٌ يقال في جبل عامل «عندما تقع البقرة يكثر سالخوها» ولبنان وقع، فصار يذبحه الجزارون وتنهشه الكلاب.

الصراع في لبنان

بين الصهيونية والوطنية لا بين الإسلام والمسيحية

بالأمس كانت بلدتنا آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وكان أهلها يتنقلون من سوق إلىٰ سوق ومن شارع لآخر وادعين هادئين. فما بالهم اليوم؟ لا يأمن واحدهم علىٰ حياته، وهو في بيته وفراشه، وكيف شجر الخلاف بين اللبنانيين، واشتد بأس بعضهم علىٰ بعض حتىٰ أحالوا نعيم لبنان إلىٰ جحيم، وخيره إلىٰ شرّ، وسلمه إلىٰ حرب، وأصبح العديد من أسواق بيروت وأحيائها المتألقة كومة من ركام وحطام؟

ولو أن باحثاً عمد إلىٰ معرفة الدوافع لهذه القارعة أو الفتنة المستعصية، وجد أسباباً عديدة ومتنوعة، فمن النظام الفاسد وتناقضاته والسوق الحرة للسياسة والتجارة، وكل ما يتصل بهما من فنون التعامل العلني والسري، المشروع وغير المشروع، إلىٰ الصراع بين المحرومين والمستأثرين وتعدد المليشيات وانتشار السلاح الخفيف والثقيل، وترك الحدود والأجواء اللبنانية لجنود إسرائيل بلا حراسة وحماية حتىٰ فقد الأمن والأمان من الداخل والخارج .. إلىٰ ما يطول سرده وشرحه.

كل هذه الأسباب وغيرها تجمعت وتعاضدت علىٰ تدمير لبنان وخرابه، ولعل أهمها جميعاً وأخطرها «أن الصهيونية العالمية تحاول اليوم صهينة المسيحية .. ومحو التقارب المسيحي والشرق العربي الإسلامي.. فمن وثيقة تبرئة

اليهود من دم المسيح إلىٰ وثيقة عدد من الكهنة الفرنسيين تتضح منها الخطة الصهيونية». أنظر كلمة الأب واكيم مبارك في مجلة الأسبوع العربي، العدد ٧٥٠ تاريخ ٢٢ ـ ١٠ ـ ١٩٧٣ م.

ومذكرة الكهنة التي أشار إليها الأب مبارك خرجت من بعض رجال الكنيسة في فرنسا بوحي من الصهيونية بشهادة مبارك، وهي تؤكد حق إسرائيل في الأرض العربية المستغصبة بصلابة الصهيونية ووقاحتها، وفي ضوء هذه المذكرة يستطيع أي باحث أن يفسر مذكرة الرهبانيات والرابطة المارونية وأهدافها التي نشرتها الجرائد اللبنانية بتاريخ ١٥ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ م والتي جاء فيها أن مصدر الأحداث في لبنان هو «التعصب الديني والإقتتال الطائفي» تماماً كما تقول الصهيونية مع الهجوم الصارخ علىٰ الثورة الفلسطينية.

أجل، إن علة الأحداث الدامية في لبنان هي الطائفية، ولكنها طائفية إسرائيلية صهيونية من جانب يمثلها الذين في قلوبهم مرض، وهي أيضاً وطنية إنسانية من جانب آخر يمثلها الطيبون المخلصون من مسيحيين ومسلمين .. لقد تعايشت الطوائف والمذاهب في لبنان أجيالاً وأجيالاً، ولم يحدث شيء مما يجري الآن علىٰ أرض لبنان حيث لا إسرائيل وصهيونية، ولا رابطة مارونية، ولا رهبانية ومؤامرات أميركية.

تصفية القضية الفلسطينية :

إن كل واع وعاقل يعلم علىٰ الجزم واليقين أن ما حدث ويحدث اليوم في لبنان إن هو إلاّ تنفيذ بأيدي أعداء لبنان لمخطط صهيوني أمريكي يستهدف تصفية القضية الفلسطينية وإبادتها من الوجود لا لشيء إلاّ أنها ترفض السلم الخانع الخائن وإلاّ لتحقق إسرائيل هذا السلم مع العرب بشرطها وشروطها، ولكن

القضية الفلسطينية ليست حركة عربية وكفى، بل رمزاً إنسانياً نبيلاً يحميها ويدافع عنها كل طيب وشريف عربياً كان أو غير عربي مسلماً أو يهودياً، لأنها تجسد معاني التضحية الشريفة في سبيل أسمى ما يدافع عنه الإنسان، وأي شيء في الكون كله أعظم وأفضل من الجهاد والإستشهاد من أجل الوطن والعدل والحرية؟

وبعد، فأي مسيحي أو غيره بالهوية والوراثة يعمل لصالح إسرائيل فهو من الصهيونية في الصميم من حيث يريد أو لا يريد، وما هو من السيد المسيح عليه السلام ودينه وإنجيله في شيء. قال سبحانه: **﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾**[1].

وفي عدد الأسبوع العربي الذي سبقت إليه الإشارة قال الأب واكيم مبارك ما نصه بالحرف الواحد: «أما البابا بولس والمقربون منه فهم من أقرب الناس إلى المسلمين بنوع الإجمال، وإلى العرب بنوع خاص، وإلى الفلسطينيين بنوع أخص. هذا ما تمكنت من أن أتحققه شخصياً». وعليه فعداء الرابطة المارونية والرهبانيات للفلسطينيين والقضية الفلسطينية هو عداء لدينهم بالذات، وتنكر لكنيستهم وإنجيلهم. وهذا يؤكد ما قلناه: «لا صراع في لبنان بين الإسلام والمسيحية، بل بين الصهيونية والوطنية».

جريدة السفير ٢٣ / ١٠ / ١٩٧٥ م

---

١ ـ سورة المائدة الآية ٥١.

الجنوب واتفاق القاهرة :

كتب الشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله هذه التعليقات في دفتر مذكراته بتاريخ ٢٣ / ١ / ١٩٧٩ م قبل خمسة أيام من وفاته.

الناشر

أهم حدث شاهدته وأثر في نفسي بل وحياتي ما أصاب الجنوب من خراب وتدمير وتقتيل أهله وتشريد حوالي ثلاثمائة ألف منهم حين احتلته إسرائيل في آذار سنة ١٩٧٨ م . والواقع أنّ الدولة اللبنانية هي السبب في ما حصل للبنان عامة والجنوب خاصة، حيث اتفق سنة ١٩٦٩ م رئيس الجمهورية الحلو مع الجميل وشمعون بإيعاز من أميركا وإسرائيل على توقيع «اتفاق القاهرة»، علماً بأن ما من دولة حرّة ذات عدالة وسيادة على وجه الأرض ترضى أن يكون فيها قوّة عسكرية غير قواتها النظامية سواء أكانت هذه القوة من المواطنين أم الأجانب.

أما الدافع الأساسي لاتفاق القاهرة أن يتسلّح الكتائب والأحرار حزبا التعصب الماروني ضد الفلسطينيين والمسلمين، وحيث لا مبرر لذلك إلاّ أن يتسلح الفلسطينيون والمسلمون وهكذا كان، وكان التذابح والإقتتال.

الهدف الرئيسي لاتفاق القاهرة أن يكون هذا الجنوب قاعدة للمسلحين الفلسطينيين حتى تضرب إسرائيل المقاومة والجنوب ساعة تشاء وهذا ما يحصل باستمرار حيث تقتل إسرائيل الجنوبيين والفلسطينيين منذ سنوات طوال ولم تتضرر هي بشيء يذكر، أما العرب فيحتجون ويزعقون وكفى ... والغرب والشرق يتفرج على هذه المهزلة المأساة، لقد رضي زعماء الموارنة كالجميّل وشمعون ومن لفّ لفهم بتدمير الجنوب لأنه ليس مارونياً مسيحياً ولو كان كذلك لما

يحصل الذي يحصل، أما وإن الفلسطينيين والجنوبيين من المسلمين فلا أحد يدعمهم ويقف بجانبهم من أبناء جلدتهم وملّتهم، وليذهب أبناء فلسطين وشيعة الجنوب إلى جهنم وبئس المصير .. وإن أيّد السياسيون السنة هذا الإتفاق فللحفاظ على مراكز القوة والنفوذ التي يشغلونها. أما زعماء الشيعة أشباه الرجال فمنهم من باع الجنوب منذ زمان ومنهم من لا يستحق الذكر والحسبان.

لقد ورطوا عبد الناصر في اتفاق القاهرة المشؤوم وهو لا يعلم ما يخطط للقضية الفلسطينية وجنوب لبنان من فناء ودمار، ورضي بهذا الاتفاق الوطنيون اللبنانيون الشرفاء وهم لا يشعرون ما يحيط بوطنهم من أخطار مبيتة.

أسجل للتاريخ موقفي هذا من اتفاقية القاهرة وعسى أن تسنح الفرصة والظروف لتظهر الحقيقة وتنجلي الأمور ...

أعجب العجب :

أعجب العجب أن دولاً عربية تعلن الحرب على إسرائيل ولبنان يعلن السلم والهدنة ومع ذلك تمنع هذه الدول «المقاتلة» أن يحارب أي فلسطيني إسرائيل من أرضها وتلح على أن يقاتل إسرائيل من أرض لبنان المسالم.

الجنوب بين الروس والأميركان :

لقد ضغطت روسيا لانتزاع قرار مجلس الأمن بانسحاب إسرائيل من الجنوب سنة ١٩٧٨ م لأنّ هذا الاحتلال لا يتفق مع مصلحة الروس ولأن قوّة إسرائيل المطلقة بالنسبة لمصلحة الإتحاد السوفياتي يساوي تماماً عدم وجودها،

من حيث بُعد العرب كلية عن روسيا لأن هذه الأخيرة تعلم علم اليقين أن العرب لن يلجؤوا إليها إلاّ خوفاً من طغيان إسرائيل عليهم.

وبكلمة موجزة إن وجود إسرائيل مصلحة لأمريكا حرصاً على مصالحها الاستراتيجية والنفطية وغيرها. ومصلحة الروس في بقاء إسرائيل كيلا يلقي العرب بكلهم وثقلهم مع الولايات المتحدة، وكذلك يفعل العرب في تبعيتهم للروس لو أن الإتحاد السوفيتي الأقوى على كل الجبهات والمهمات في منطقة الشرق الأوسط، كما هو الحال اليوم مع أميركا.

احتلال الجنوب:

كان الارتباط في سينا سنة ١٩٧٥ م أحد أسباب اندلاع الحرب اللبنانية ولا زال كمب دافيد أحد أسباب احتلال إسرائيل للجنوب سنة ١٩٧٨ م واستمرار هذا الاحتلال «الشريط الحدودي» بواسطة عميلها الحداد. ولقد تخلّت الدولة اللبنانية أو شبه الدولة اللبنانية عن الجنوب لتحتل إسرائيل «بحدّادها» ويحكم ما تبقى منه المنظمات الفلسطينية والأحزاب اللبنانية، أما كتائب الجميّل وأحرار شمعون فقد أعلنوا علناً بدون أي خجل أنهم مع إسرائيل قولاً وعملاً.

الدفاع عن الجنوب:

يدعي المسلحون في الجنوب من فلسطينيين ولبنانيين وغيرهم، أنهم يحاربون إسرائيل ويدافعون عن الجنوب بدليل أنهم يطلقون الرصاص والقذائف .. ونحن نقول لهم إنه لا جدوى من إطلاق رصاصهم وقذائفهم بدليل

أن إسرائيل «بحدّادها» تحتل الجنوب وتتحكم بأهله، وأنّ بضعة أفراد منها يدخلون إلىٰ الجنوب ساعة يشاؤون، فيهدمون أي بيت أرادوا ويقتلون أي إنسان شاءوا ويعودون إلىٰ أرضهم سالمين .. فأين الدفاع عن الجنوب يا حضرات المسلحين .. هل هو في استعراض عضلاتكم؟ أم في مهرجاناتكم وعراضاتكم .. أم في أيذائكم للجنوبيين والتعدي عليهم.

الجنوب مزبلة :

الجنوب مزبلة تلقىٰ عليها فضلات الناس والأقذار، ولا من يتحرك إلاّ كلمات في الصالونات أو علىٰ صفحات الجرائد لمجرد الاستهلاك، أو نفثة مصدور تذهب أدراج الرياح بلا أية جدوىٰ.

الجنوب كرجل مشلول لا يستطيع القيام بفعل كل شيء وهو سطيح، فإذا مر به أخوه الإنسان سلح عليه.

نكبة فلسطين ونكبة الجنوب اللبناني :

قرأت في مجلة المستقبل العدد ١٤٥ صفحة ٣٤ أن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية قال بصراحة للملوك والرؤساء العرب في قمة تونس ١٩٧٩/١١/٢٥م: «إذا انسحبت من الجنوب فلن تدخلوني هذه القاعة إذ ما معنىٰ وجودي هنا وليس معي شيء».

وفي صفحة ٢٨ من المجلة ذاتها «إن الدول العربية النفطية أعطت جنوب لبنان للفلسطينيين كيلا يطلبوا منها ويضغطوا عليها لتمنع النفط عن إحراج القمة

في موضوع النفط مقابل الحصول على أرض الجنوب اللبناني».

لا يهم إن قال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية هذا الكلام أو لم يقله، ولا فرق إن أعطت دول العرب فعلاً الجنوب للفلسطينيين أم لم تعطه، لكن الواقع والتاريخ يثبت أن الدول العربية قاطبة وخاصة تلك المتاخمة لإسرائيل منعت السلاح الفلسطيني من العمل في أراضيها، ودفعت بالمقاومة الفلسطينية برُمّتها إلى التواجد في جنوب لبنان بهدف محاصرتها من قبل إسرائيل وترويضها من قبل الأنظمة العربية. والمؤسف أن المقاومة الفلسطينية رضخت لهذا المخطط الرهيب بدليل أنها لا تحرك ساكناً في بقية الدول العربية ولا من الضفة الغربية، مؤثرة بذلك السكينة على التضحية، والسلامة على بذل الدماء ولبس الأكفان. ولما تخلت دول العرب عن قتال إسرائيل عجز الفلسطينيون تماماً عن التصدي لها، فأصبح وجود المقاومة الفلسطينية في لبنان يسبب الخراب والدمار للجنوب والجنوبيين بل للبنان بأسره دون الحصول على أدنى نتيجة مقابل هذه الكوارث التي تحل بالجنوب والمأساة التي يعيشها الوطن.

لا طائل ولا جدوى من استمرار العمل الفلسطيني المسلح بشكله الحالي في جنوب لبنان إلاّ إذا كان المقصود بهذا التواجد الفلسطيني المسلح إعطاء إسرائيل ذريعة لاحتلال الجنوب وضياعه كما ضاعت من قبل فلسطين والقدس وسيناء والجولان. أم أن المقصود أن يكون الجنوب وأهله ورقة بيد المقاومة تلعب بها على طاولة المساومات والترتيبات؟؟ حتى لو أدى ذلك إلى ذهاب الجنوب وهلاك الجنوبيين ...

نتجرع الداء بقصد أنه الشفاء :

خلقتا الصهيونية والولايات المتحدة مشكلة لبنان وجنوبه بالذات لعبة لصالح إسرائيل، ودفعت بعملائها الكتائب والأحرار إلىٰ الميدان، ونزلت المقاومة الفلسطينية والوطنيين اللبنانيين إلىٰ حلبة الصراع. دخلوا جميعاً إلىٰ معمعة الحرب والدمار، مع الفارق أنّ الجميّل وشمعون يعرفان المؤامرة منذ البداية وينفذانها بأمانة وإخلاص، أما المقاومة والوطنيون فهم يعتقدون أنهم اشتركوا في الصراع للقضاء علىٰ اللعبة علماً بأنّ اشتراكهم هو عين اللعبة بالذات، فضحكت الصهيونية والولايات المتحدة علىٰ هذه العقول المسكينة التي تتجرع الداء بقصد أنه هو الشفاء.

الإجهاز علىٰ الجنوب :

إن جنوب لبنان قد ضحىٰ من أجل فلسطين والفلسطينيين بنفسه وماله وأهله المساكين الآمنين الذي لا عم لهم ولا خال ولا دولة و «رجال» ولما نزح أهله إلىٰ ضواحي بيروت فعل بهم حزبي الأحرار والكتائب ما فعل الصهاينة بدير ياسين وزيادة، والآن تتجمع في قلب الجنوب كل القوىٰ المتناحرة من إسرائيل وعصابة حداد إلىٰ الفلسطينيين وجميع الأحزاب والمنظمات والمجرمين والقتلة وقطّاع الطرقات، وكل يصب الزيت في النار حتىٰ أصبح الجنوب كومة من رماد أو كاد!

ومهما شككت فإني علىٰ يقين بأن كل من حارب في الجنوب بوضعه الحاضر، فقد شارك في الإجهاز عليه، أراد ذلك أم لم يرد.

مقبرة اللبنانيين والفلسطينيين:

يصرح قادة الفلسطينيين علناً بأنهم لن يتركوا الجنوب اللبناني بحال من الأحوال. أي أنهم يستفزون إسرائيل كي تدمّر الجنوب وتحتله أو ترد عليهم أرضهم. علماً بأن هذا الطلب يتفق مع أهداف إسرائيل العدوانية التوسعية، ويظهر للعالم أجمع بطلان هذا المنطق الفلسطيني العجيب، كمن يقول لأهل بيت آمنين مسالمين ـ أريد أن أهدم بيتكم على رؤوسكم لا لشيء إلاّ لأثبت وجودي في عالم الوجود!

نحن لا نشك أن الجنوب وماءه هو المطمع الأول لإسرائيل منذ القديم وتريد ضمه إليها بكل وسيلة، ولكن لبنان لا يستطيع أن يعلن الحرب على إسرائيل لأسباب لا مجال الآن لذكرها لأن بذلك يعطيها المبرر لاحتلاله كما احتلت من قبله القدس وسيناء والجولان .. لكن إسرائيل ترى أن انطلاق العمل الفلسطيني المسلح من الجنوب خير مبرر لاعتدائها على جبل عامل وتفريغه من أهله. وفي نهاية المطاف تستولي إسرائيل على الجنوب وتتخذه ملكاً لها وتجعله مقبرة للفلسطينيين وما تبقى من اللبنانيين الجنوبيين.

بعض العلماء:

سكت بعض علماء الشيعة عن كلِّ ما حلَّ بالجنوب لأنّهم يتحركون بالأطماع ويتبعون المال أين ما كان. فبعضهم مع الإمام الفلاني وبعضهم مع السيد العلاني، وبعضهم مع هذا الحزب وآخرين مع ذاك التنظيم. وكل هؤلاء يقبضون من هذه الجهات بالقطع واليقين وربما من غيرها أيضاً. ولو كان فينا نحن المنتمين

إلى الذين والمتّسمين بسمته ـ ذرة من شعور للبسنا الأكفان لما حصل بالجنوب وللمناظر التي شهدناها عياناً! وكنت أنا بالذات أرى في يومي العديد من النسوة يلبسن السواد على أزواجهن ومعهنّ الأطفال يلبسون السواد على الآباء. ولن أنسى كيف أنّ أحد العلماء الشرفاء بكى من جور الطغاة كل دمعة كالجوزة.

ما أشبه اليوم بالأمس[١]

جمعية الشباب العاملي:

يجب أن يكون للشباب العامليين جمعية تجمع صفوفهم وتوحد كلمتهم مبدؤها التعبير عن آلام العامليين وآمالهم، وغايتها السير بهم إلىٰ الأمام لا ترتبط بجهة ما تستغلها لمنافعها الذاتية.

لقد تشتت شبابنا فرقاً وشيعاً، فريق في هذا الحزب وفريق في تلك المنظمة، وفريق هنا وفريق هناك، إن هذه الأحزاب والمنظمات تعمل لغايات القائمين بها المشرفين علىٰ سيرها وحركاتها، فخيرها لبلاد غير بلادنا، ونفعها لقوم غير قومنا، وعن طريقها يتوصلون إلىٰ المناصب، وبها يعملون أعمالاً نجهلها كل الجهل لا نعرف منها كثيراً ولا قليلاً، وإنما اتخذونا آلة لتحققها ووسيلة إلىٰ الوصول إليها، إن شبابنا الذين دخلوا في هذه الأحزاب التي لا تمت إلىٰ جبل عامل بصلة سوىٰ صلة منفعتها الخاصة، صلة الفوضىٰ والخراب للجنوب، إن شبابنا هؤلاء قد محوا أنفسهم في سفر الوجود ورضوا أن يكونوا آلة صماء لأولي المآرب والأهواء، فخير لهم ولأمتهم أن ينضووا جميعاً تحت لواء واحد ويتعاونوا علىٰ خير جبل عامل وتقدمه.

---

١ ـ مقطع من كتاب «الوضع الحاضر في جبل عامل» ألّفه محمد جواد مغنية سنة ١٩٤٥ م، وقد نقلت الفقرة أعلاها عن صفحة ٥٣ من الكتاب المذكور مع وضع عنوان جديد يتناسب ومشكلة الجنوب.

الناشر

الفصل الثاني عشر :

والدي كما عرفته



عاشق الحق

مدرسة أهل البيت :

أصدق ما يقال في تقييم محمد جواد مغنية، هو تأثره الشديد بمدرسة أهل البيت عليهم السلام، والتزامه المطلق بمبادئهم والتشبه بسيرتهم وأخلاقهم، وخصوصاً بشخصية الإمام علي عليه السلام. لقد أمضى عمره في نشر عقيدة أهل البيت والدفاع عنها، وآخر كلمة في آخر يوم من حياته كتبها كانت عن مآثرهم. ولما كان محمد جواد مغنية متيّماً بحب الرسول وأهل بيته عليهم السلام فإني أعرف أنه ذهب إليهم، وأن أهل البيت قبلوه معهم .. نعم قبلوه معهم.. لأنني على يقين من دين محمد جواد مغنية ومن عدالة ورحمة الله سبحانه وتعالى عزوجل.

الحق هو مصدر العدل ومُلهمه. ولا شيء في هذا العالم أهم وأعظم من العدالة. وحتى لا ندخل في معمعان التفاسير المتعددة لمعنى العدالة، نكتفي بالمعنى الواحد الحقيقي المتعارف عليه، والذي يحوي في طياته مفاهيم العدالة الإنسانية، ألا وهي حرية وكرامة ورفاهية وتقدم الإنسان.

ولو شئنا أن نعرّف المعنى المضاد لكلمة «عدل» لقلنا تلقائياً «ظلم» وهكذا .. فعكس الحرية هي العبودية، وعكس الكرامة تكون المذلة والهوان، وضدّ الرفاهية يكون الفقر والمرض، ونقيض التقدم يكون الجهل والتخلف.

إن العدالة هي أثمن كنز تملكه البشرية، وعلينا جميعاً أن نناضل بلا كلل

وملل حتىٰ تتلاشىٰ الأضاليل من هذا الكون وتتبدد المظالم في هذه الحياة. إن العدل هو أساس السلطة عند الأمم الراقية، والدولة الراقية المتقدمة هي التي تسعىٰ إلىٰ مصلحة وخير الإنسان.

لا أريد أن أطيل الحديث وإن كان لابد لي من تلك المقدمة ليعرف القارىء عما أتكلم، ولكي أصل إلىٰ القول بأن الشيخ محمد جواد مغنية أيقن أن القداسة الدينية تُلْزِم رجل الدين بالتزام الحق والدفاع عنه، وأنه لا فائدة من قدسية العالِم وعلمه إذا لم يكن مكرساً نفسه لخدمة الحق والعدل لأن الإسلام أصلاً هو دين الحق والعدل.

لهذا قد بنىٰ الشيخ مغنية آراءه الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية علىٰ أساس إيمانه الراسخ بالإسلام، ومن خلال مؤلفاته عبّر عن أفكاره هذه بصراحة وجرأةٍ بالغتين، أما حياته العملية فكانت مثال الاستقامة، ومواقفه الإسلامية والوطنية أشهر من أن تعرّف. ومن فاتته معرفة هذه المواقف فليرجع إلىٰ سيرة محمد جواد مغنية فيجد البرهان والدليل.

المسألة الأهم في فكر محمد جواد مغنية، أنه كرجل دين مسلم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، لم يرشُ الإنسان بالسعادة الأبدية في الحياة الآخرة لقاء قبول هذا الإنسان بالظلم وإذعانه للظالمين، بل حثّه علىٰ الثورة والجهاد من أجل حقه في الحياة، لأن الجهاد هو الإسلام وهو طريق المسلم إلىٰ السعادة في الأرض والسماء، وبهذا يكون الإنسان قد كسب الدنيا والآخرة.

عشق الشيخ محمد جواد مغنية الحق لدرجة العبادة، والتزم بالحق لوجه الحق، وبعد أن كدَّ واجتهد في إظهاره بالحجة والبرهان، نادىٰ به واستمات في الدفاع عنه وكان في حياته الشخصية يضعف أمام الحق وينحني له ولكنه يقوىٰ ويزأر كالليث أمام الباطل، وكان يعتقد جازماً أن الحق يجب أن يُعرف ويُعلن

بدون مواربة أو تمويه، لأن «الحقيقة» تحتّم علينا فعل ذلك وإلاّ نكون قد أتينا عليها، ولأن التاريخ بحاجة إلىٰ قولة حق ووقفة حق ولأنه لابد من إطلاق صوت واحد علىٰ الأقل يقول «لا» للطغاة الظالمين مهما كانت الظروف وساءت العواقب وعظمت التضحيات. لهذا كان محمد جواد مغنية يحرص بالدرجة الأولىٰ علىٰ أن يقول كلمة الحق ويسجّل موقفه من قضايا الساعة، ثم يعمل علىٰ إحقاقه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، دون أن ينظر إلىٰ موازين الربح أو الخسارة.

عانىٰ محمد جواد مغنية شتىٰ المتاعب والمصاعب من جراء قوله للحق والعمل به، وكان في نظر منتقديه أنه مثالي، حادّ، ومرير. والحق يقال إنه مثالي فعلاً، بمعنىٰ التزامه المطلق للمبادىء الإسلامية وهذه مثالية لا يؤخذ عليها إنسان مسلم، إنه مثالي لأنه ابتغىٰ الحق المجرد والفضيلة العليا. أما أنه حادّ، فهو حادّ طبعاً كحدّية الحق وهو مرير أيضاً كمرارته، قال علي عليه السلام: **«إنّ الحق ثقيل مريء وإنّ الباطل خفيف وبيء»**[1] وقوله أيضاً: **«ما ترك الحق لي صاحباً»**.

لم يكن محمد جواد مغنية سياسياً ولا دبلوماسياً بالمعنىٰ المتداول والمتفق عليه عند أكثر الناس في هذا العصر، أي إنه لم يكن سياسياً انتهازياً يستبيح عمل أي شيء ويبرره في سبيل مصلحته الخاصة، أي «الميكيافيلية» حسب المصطلح السياسي المعروف، هذه السياسة لا يرتضيها الشيخ مغنية لنفسه ولا لغيره وخصوصاً لرجل الدين الذي يتوجب عليه أن يرتفع عن السياسة الدنيئة أما السياسة والدبلوماسية التي تهدف إلىٰ إعلاء الحق وتطبيق العدالة دون أن تكون علىٰ حساب المبدأ والدين، فقد رحب بها ودعا إلىٰ انتهاجها، وضرب علىٰ ذلك أمثالاً عديدة من التاريخ الإسلامي وخصوصاً من تاريخ النبي محمد صلى الله عليه وآله.

---

١ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٩ / ص ٣١٣ الحكم والمواعظ برقم ٣٨٢، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].

شعاره:

شعار الشيخ محمد جواد مغنية هو شعار عليّ «**لا أداهن في ديني**» ولهذا لم يكن يحبه المنافقون والراقصون على الحبال. أما حملات الأعداء عليه، أعداء الإسلام والوطن فهذا أمر بديهي لا داعي لذكره والخير في إهماله.

كان محمد جواد مغنية يثني على قائد ما لنضاله ووطنيته، أو يؤيّد زعيماً دينياً على عمل عظيم أتى به، ثم لا يلبث أن ينتقد هذا الرئيس أو ذلك الزعيم على أعمالهما السلبية أو يهاجمهما لارتكابهما أخطاء فادحة. وصادف مرّة أنه أيّد بإخلاص زعيماً دينياً كبيراً ولكنه في الوقت نفسه لم يوافق على رأي واحد من آرائه الفقهية، ويهرع إلى الشيخ مغنية تباع الزعيم الديني ومحازبوه يعاتبون ويحتجون على مخالفة رأي هذا الزعيم متذرعين بأن هذا الأمر يسيء إلى وحدة الصف والكلمة ويعطي الأعداء فرصة للمتاجرة والاستغلال، إلى جانب أن هذا الوقت ليس وقت تصحيح واختلاف في الآراء.

وكان الشيخ مغنية رحمه الله يرفض مثل هذا المنطق اللاإسلامي واللاديمقراطي ورأيه معروف في هذه المسألة بالذات وقد كتب أكثر من مرة يشرح موقفه من هذا الموضوع، أما بخصوص أتباع الزعيم الديني فمن حسن حظي أنني كنت موجوداً في أثناء جلستهم مع الوالد وسمعته يقول لهم الكثير ومن جملة ما خاطبهم به قوله:

إن في احتجاجكم هذا تكمن روح الديكتاتورية وكتم أصوات الشرفاء وعدم السماح للإنسان بإبداء الآراء، مع أنكم تدعون إلى الديمقراطية، ومع أنكم أنتم أنفسكم عانيتم ما عانيتم من تسلط الديكتاتورية والإرهاب. ثم لماذا هذا

الخلط بين وحدة الصف والكلمة وعدم إعطاء الفرصة للعدو لاستغلال الأخطاء والانتقاد الشريف المخلص البنّاء، إن هذا الخلط هو ضرب من ضروب التخويف والإبتزاز، لأن وحدة الصف بين الشرفاء ضد العدو المشترك ستبقىٰ دائماً وأبداً وهي أقوىٰ من أن تنهار بسبب نقدٍ بنّاء.

أما العدو فهو يستغل ويتاجر بالأخطاء منذ لحظة حدوثها، والأحرىٰ أن تتوقف الزعامات الدينية والمدنية عن ارتكاب هذه الأخطاء حتىٰ لا تعطي للعدو الفائدة من استغلالها.

وأما القول بأن الوقت ليس وقت تصحيح وانتقاد، فهل يجوز أن نسكت عن التصحيح والانتقاد حتىٰ يستفحل هذا الخطأ مع الزمن ويتحول إلىٰ سرطان يقضي علىٰ الوطن بأكمله وعند ذلك يكون الوقت المناسب للنقد والتصحيح ولكن بعد فوات الأوان. ألم نهلّل ونكبّر ونطبل ونزمر للزعيم فلان والرئيس علاّن، وسكتنا عن أخطائه بل رفضنا أن نسمع الانتقادات من الناس الشرفاء متهمين لهم باليمين واليسار وبالخيانة والعمالة، هذه الاتهامات التي لا يجوز أن يُنعت بها كل المعارضين علىٰ حد سواء .. وماذا كانت نتيجة قبولنا بالديكتاتورية، ضياع فلسطين ثم هزيمة حزيران ثم خراب لبنان، والآن كارثة كامب دايفيد والآتي الأعظم ... وبعد هذا الشرح الطويل يشكره الشباب أتباع الزعيم الديني ويخرجون داعين له بطول البقاء، ومنهم من اقتنع ومنهم من لم يقتنع، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

الواقع أني أطلت واسترسلت في مسألة التزام الشيخ محمد جواد مغنية بالحق، ولكن فليسامحني القارىء الكريم لأني أتحدث عن والدي الحبيب. وربما كان الأفضل أن أختصر وأوجز لأن الشيخ محمد جواد مغنية قال كلمته في هذا الموضوع «إذا اعتقدت بإنسان الخير والإخلاص فإني أيّدته لوجه الله والحق،

وإذا بان لي العكس أحاربه لوجه الله والحق، وهدفي في الحالتين واحد».

رجل المواقف:

مواقف الإنسان هي الإنسان. والشيخ محمد جواد مغنية رجل المواقف، كان يتفاعل مع أي قضية دينية أو وطنية، يدرسها ويحللها ويناقشها أولاً، ثم يتخذ موقفاً صريحاً وصلباً حيالها. ومواقف محمد جواد مغنية تتميز بالجرأة والصلابة.

عندما عاد من النجف الأشرف إلىٰ وطنه لبنان واستقر في أرضه وبين أهله في جبل عامل، اختط لنفسه سبيل الدين والتزام مطالب المواطنين والنضال من أجلها. لم يستطع أي زعيم إقطاعي سياسي أن يحتويه، وأقصىٰ ما تمناه هـؤلاء الإقطاعيون الطغاة أن يسكت محمد جواد مغنية عنهم، ولكنه هيهات أن يفعل .. ففي الأربعينات عندما كان الإقطاع يتسلط علىٰ الأجنّة في الأرحام كما عبّر أحد الأدباء العامليين، كان محمد جواد مغنية بدوره يتصدىٰ بضراوة للاقطاعيين العتاة رموز السلطة الجائرة في ذلك الزمان. تصدىٰ لهم بصوته وقلمه وحث الشعب علىٰ الثورة ولعله كان أول شيخ صاحب عمّه يفعل ذلك في عصره.

وقد ألّف محمد جواد مغنية سنة ١٩٤٥ م كتاب «الوضع الحاضر في جبل عامل» ونشره سنة ١٩٤٧ م ـ يطالع القارىء بضع صفحات منه في الفصل الثاني في هذا الكتاب ـ نقرأ في صفحة ١٨ من كتاب «الوضع الحاضر في جبل عامل» «وقد شاء الفرنسيون وأذنابهم أن يُسمىٰ جبل عامل «بالجنوب» تمويهاً بأنه جزء من لبنان .. ولكن لبنان أصبح دولة وجبل عامل من مستعمراته .. لغيره الغنم وعليه الغرم..» ولنتوقف قليلاً عند كلمة «جبل عامل مستعمرة» قالها الشيخ محمد جواد مغنية سنة ١٩٤٥ م أي بعد سنتين من بدء الاستقلال الوطني .. وقيلت «الجنوب

مستعمرة» بعد ذلك في نهاية الستينات ومطلع السبعينات عندما تفشت في لبنان الأفكار التحررية «والتنظيمات الوطنية» .. ولكن أطلقها محمد جواد مغنية في الأربعينات أول صرخة في حياته، ويشاء القدر أن تكون آخر صرخة في آخر يوم من حياته أيضاً. ففي يوم ٨ كانون أول ١٩٧٩ م ١٩ محرم ١٤٠٠ هـ صرّح بحديث عن الوضع في الجنوب بما يشبه ما قاله سنة ١٩٤٥ م .

ونعود الآن إلى كتابه «الوضع الحاضر من جبل عامل» لنقرأ في صفحة ٢٦ «لا نريد منهم أن يجعلوا من جبل عامر أميركا الثانية، إنما نريد أن يكون جبل عامل جزءاً حقيقياً من لبنان له ما له وعليه ما عليه .. حتى إذا جاء التاريخ قاس أجزاء الجمهورية اللبنانية بمقياس واحد بدون تفاضل وتمايز بين جزء وجزء، لا أن يكون جبل لبنان فرنسا والجنوب جبل عامل .. إن الجسم كله لا يكون سليماً تاماً إذا كان في بعض أعضائه خلل وفساد، إن فساد الجسم بفساد بعض أعضائه وسلامته بسلامة الكل».

وفي صفحة ٩ يقول: «أما النواب فعليهم تقع معظم التبعات والآثام ... وزجّ الشيطان أخاً له بين نواب الجنوب ... فنجم عن ذلك خراب البلاد العاملية كما عاد على النواب بالفوائد الجمة».

وكتب في صفحة ٧٥: «إن الفلاح ما زال في ضيق من العيش لا يذوق طيب الطعام وسائغ الشراب، وقد يمر عليه حين لا يجد البلغة فيه، وربما استدان واضطره الوفاء إلى بيع ما يملك من أرض أو عمار .. أما الحكومة فلا يعنيها أن تعلم شيئاً من هذا فإذا علمت لا يعنيها أن تعمل أو تفكر بالعمل .. يموت الفلاح ومواشيه وكل ما يمت إليه بصلة فإذا شكا إلى الحكومة وبكى أجابت ننظر وندرس .. ثم ترسل إلى قرى الفلاحين الدرك الجشع الجاهل يجمع البيض والدجاج والعدس والشعير، وإلاّ نظّم المخالفات» .

هذا غيض من فيض ما جاء في كتاب «الوضع الحاضر في جبل عامل» وقصص محمد جواد مغنية مع السلطات والزعامات لا تُعد ولا تحصىٰ ولو شئنا لسوّدنا صفحات كثيرة في ذكر هذه الأخبار التي لا مجال لنشرها في هذا المكان.

في القضاء:

عندما دخل الشيخ مغنية القضاء كان سهو القدر بالنسبة للسلطة الرسمية، أو ربما شاءت السلطة أن تحتويه وتنهيه، وهذا غباء منها وسوء تقدير لو كانت مشيئتها كذلك، لأنه ما أن استلم مهام القضاء الجعفري في لبنان حتىٰ استلّ سيف العدالة في وجه الزعماء والنافذين يقطع عليهم مداخلاتهم واعتراضاتهم لسير العدالة.

وأطرف ما كان يحدث في المحكمة الشرعية أنه كان يُلقي ببطاقات وكتب التوصية من الرؤساء والزعماء في سلّة المهملات دون أن يفتحها ويقرأ ما فيها، يفعل ذلك علىٰ مرأىٰ من حامل التوصية وأمام جمهور المتقاضين والمشاهدين، فيجن جنون النافذين وتذهب مع الريح محاولاتهم في الترغيب والترهيب.

لابد لي من ذكر حادثتين لهما دلالة ومغزىٰ وقعتا مع الشيخ مغنية وهو في سلك القضاء:

كان ينظر رحمه الله في دعوىٰ مرفوعة أمامه ويراجع فحواها .. وإذا برسول من رئيس الوزراء يدخل عليه وبعد السلام والتحية يقول له: إن دولة رئيس الوزراء يسلّم عليه ويطلب منه أن لا يصدر حكماً في الدعوىٰ التي صادف أنه ينظر فيها .. فما كان منه إلاّ أن استبقىٰ الرجل في المحكمة، وتابع النظر في الدعوىٰ وأصدر حكمه العادل فيها ثم حمّل الرسول نسخة من قرار الحكم وبعثه إلىٰ رئيس

الوزراء الذي طار صوابه عند قراءته للحكم الذي جاء لغير مصلحته، ولكن الحق يقال إن رئيس الوزراء هذا كان رجلاً عاقلاً لأنه قبل بالحكم دون أن يقاومه على عكس رئيس مجلس النواب وأحد الوزراء الذين مرّا بتجربة مماثلة مع عدالة الشيخ محمد جواد مغنية ولكنهما لم يقبلا حكم القانون وأعلنا الحرب الشعواء عليه.

والقصة الثانية أن امرأة فقيرة عجوزاً ترتدي اسمال بالية وتتكيء على عصا، جاءت من أعماق الجنوب عند ظهر يوم لاهب من أيام الصيف، وطلبت مني مقابلة الوالد فجاءها الشيخ وسألها عن حاجتها، فما كان منها إلاّ أن أخرجت من ثنايا أسمالها صرّة قماش وفتحتها وإذا بقليل من ورق العريش وضمّة زعتر أخضر وأخرى من البقلة أو «الفرفحين» كما يسميها أهل جبل عامل .. وقالت العجوز ـ لقد قطفت لك بيدي هذه الهدية فهل تقبلها مني يا شيخ؟ أجابها ـ ولماذا تهديني إياها؟ قالت ـ لأنك أصلحت بين ابنتي الحامل وزوجها الذي أراد أن يطلّقها ولكنك أقنعته بأن لا يفعل ذلك وامتثل.

ضحك والدي ملأ قلبه وبعد صمت له وقع خاص قال: حسناً سأقبل الهدية.

لم تدر تلك العجوز سر ضحكة الشيخ العالية، ربما ظنتها استهزاء بالهدية المتواضعة، ربما ظنت أنه قبلها لكي لا يكسر خاطرها، لم تكن تدري سر ضحكته .. وسر المغريات والأموال .. التي تعرض عليه عبثاً ثمن تنازله عن الحق.

أعلى منصب شيعي ديني:

ارتقى محمد جواد مغنية سنة ١٩٥١م إلى رتبة رئيس للمحاكم الشرعية

الجعفرية في لبنان، ويومها كان يُعتبر هذا المركز أعلىٰ منصب رسمي ديني شيعي في لبنان، وذلك لغياب المؤسسات الشيعية الرسمية في ذلك الوقت.

استجاب الشيخ مغنية لنوعية وحساسية هذا المنصب الديني في ذلك الظرف الخاص، استجاب علىٰ طريقته الخاصة، فاعتبر نفسه في حينها الممثل الديني للطائفة الشيعية أمام السلطة، وإذن بالضرورة هو مُلزم بالدفاع عن حقوق الطائفة، وخاصة أن أحداً من رجال الدين الشيعة لم يفعل ذلك في ذاك العهد، وليس المهم أن محمد جواد مغنية اعتبر نفسه ناطقاً دينياً باسم الطائفة الشيعية ولكن المهم أنه فعل ذلك، والأهم أن الجماهير الشيعية اعتبرته بحق ممثلاً لها والتفت من حوله مؤيدة مناصرة. ومن يشك في هذه الحقيقة عليه أن يعود إلىٰ سجلات التاريخ اللبناني في الخمسينات، أيضاً ليتمعن قليلاً في صفحات هذا الكتاب وخاصة في فصلي «نضال العرب» و «الصراع في لبنان» يأتيه الجواب الأكيد.

اعتبر محمد جواد مغنية نفسه مسؤولاً أمام الدين والطائفة وليس مسؤولاً أمام السلطة ومن هنا كان التناقض والتطاحن بينه وبينها. ومع أنه كان قبلاً ينادي بحقوق الطائفة الشيعية إلاّ أنه ازداد الآن مطالبة بهذه الحقوق المهضومة، وكان يفعل ذلك علناً علىٰ صفحات الجرائد وفي الخطابات والمظاهرات والاجتماعات. كان يسأل الدولة باستمرار عن مياه الليطاني المهدورة في الجنوب، وعن الوظائف والمراكز التي يستحقها أبناء الشيعة والتي لا تُعطىٰ لهم، ويهاجم السلطة عن إهمالها لجبل عامل وغيرها من المناطق الشيعية المغبونة والتي هي بأمس الحاجة إلىٰ الماء والكهرباء والمدارس والمستشفيات والمشاريع الحيوية التي تضمن للمواطن حياة حرة كريمة.

أما عن مواقفه الوطنية والقومية فحدث عنها ولا حرج لقد أظهر تأييده

الشديد لحركة التحرر الوطني العربي، وعداءه الأشد لأميركا وإسرائيل ومن لف لفهما.

كانت مواقف الشيخ محمد جواد مغنية الشيعية واللبنانية والعربية تسبب إحراجاً شديداً للدولة ومتاعب جمة للشيخ، لقد رفضت السلطة تثبيته في مركز الرئاسة لمدة ست سنوات متتالية، وأخيراً حزمت الدولة أمرها وقررت التخلص من محمد جواد مغنية. وفعلاً صدر مرسوم تنحيته عن رئاسة المحكمة سنة ١٩٥٦ م ، وتفاصيل ذلك في فصل «ثمن الحق» من هذا الكتاب.

بعد خروجه من رئاسة المحكمة الشرعية، انطلق محمد جواد مغنية في عالم التأليف انطلاق الشُهب وسطع اسمه في عالم الكتاب سطوع الأنجُم، بقي على خطه السياسي والاجتماعي إلاّ أن المعطيات والظروف في لبنان والوطن العربي قد تغيرت تغيراً شديداً في الستينات وما بعد، وأعني تغيراً نحو الأسوأ، ولا مجال الآن للخوض في تفاصيل تلك الأحداث والمتغيرات، ولكن يكفي أن أذكر أن وسائل الإعلام في لبنان وخاصة الصحف قد أقفلت بابها أمام كلمة محمد جواد مغنية وكانت مرغمة على فعل ذلك، ولم ينفك هذا الحصار عن رأي محمد جواد مغنية إلاّ فيما ندر وتبعاً لظروف معينة. على كل حال قد يأتي زمن أتكلم فيه بصراحة لكي أضع النقاط على الحروف.

الكرامة :

أودّ أن أسرد للقارىء حادثتين آخرتين لم يُؤت على ذكرهما في كتاب التجارب .. ولهما علاقة مباشرة بماهية شخصية محمد جواد مغنية وسيرته الذاتية.

كان رئيس الجمهورية اللبنانية يقيم حفلة إفطار تقليدية في رمضان

المبارك، يدعو إليها كبار المسلمين من مسؤولين ودبلوماسيين وغيرهم. وذهب محمد جواد مغنية إلىٰ حفلة الإفطار هذه لأنه كان مدعواً. ولشدة ما كانت دهشته عندما وجد مقعده عند أسفل الطاولة المأدبة وهو رجل الدين الشيعي الوحيد المدعو للحفلة، بينما المفتي السني كان يجلس سعيداً عند رأس الطاولة إلىٰ جانب رئيس الجمهورية بشارة الخوري. فكّر الشيخ مغنية أن ينسحب من المكان كتعبير عن استنكاره طبعاً ليس علىٰ وجود الشيخ السني في صدر المكان فهذا هو الموضع الطبيعي للطائفة السنية الكريمة، بل أراد الانسحاب استنكاراً علىٰ هذه الاهانة التي لحقت بالطائفة الشيعية والتي يجب أن تكون في موضعها الطبيعي أي في صدر المكان. ولكنه لم ينسحب وقرر أن يلقن الدولة درساً لا تنساه حتىٰ لا تعيد التصرف مرة أخرىٰ علىٰ هذا الشكل المعيب، فنقل كرسيه إلىٰ جانب المفتي السني في المكان المناسب بالقرب من رئيس الجمهورية وهرع خلفه موظفي البروتوكول ومدير رئاسة الجمهورية لتدارك هذا الجرم الرهيب، فانفجر الشيخ محمد جواد مغنية في وجههم موبخاً إياهم بقساوة، معترضاً بشدة علىٰ هذه الإهانة بحق الطائفة الشيعية، وإلاّ ما معنىٰ أن يكون هو رجل الدين الشيعي الوحيد المدعو إلىٰ حفلة الإفطار والممثل المذهبي للطائفة الشيعية ويكون مكانه عند كعب المأدبة؟ بينما غيره من رجال الدين المذهبيين يجلسون في أعلىٰ المأدبة؟

أليست هذه إهانة وقحة للطائفة الشيعية .. ثم التفت إلىٰ رئيس الجمهورية وقال له بحدة إنه كمحمد جواد مغنية لا يهتم إطلاقاً لمظاهر الفخفخة والابهة، ولكن المسألة هنا تختلف تماماً لأنها لم تعد تتعلق بكرامته الشخصية بل بكرامة الطائفة الشيعية التي يمثلها.

بُهت المسؤولون وأسقط في يدهم واعتذروا «عن هذا الخطأ الذي حدث سهواً ..» وبقي الشيخ محمد جواد مغنية في مكانه الطبيعي إلىٰ جانب أخيه المفتي

السني بالقرب من رئيس الجمهورية ولكنه ظل صامتاً لا يتناول الطعام، ولم ينفع معه ابتسامات بشارة الخوري وملاطفته له طوال الوقت.

الإنعتاق :

في أول شهر تموز من سنة ١٩٦٨ م في صباح ذلك اليوم المشرق الجميل شاهدت والدي قد شذّب لحيته وارتدىٰ جبة جديدة وانتعل حذاءً جديداً ووضع علىٰ كتفيه عباءة جديدة أيضاً، وامتلأ وجهه بالسعادة والحبور. ولما سألته عن سر هذا الفرح والارتياح والقيافة الرائعة، أجابني ـ هذا يوم تقاعدي من الوظيفة، وتعجبت فعلاً من الجواب وقلت له ـ لكنك انقطعت عملياً عن الوظيفة منذ ١٩٥٦ م وإن كنت تتقاضىٰ الراتب، أجابني ـ ليست هذه المسألة، إنما بيت القصيد أن هذا اليوم هو رمز لانعتاقي من الوظيفة وما تمثل لي من متاعب وتبعية وقسرية، إنّه يوم انعتاقي من سلك القضاء في لبنان، وإني أشكر الله تعالىٰ لأنه لا علاقة لي به بعد اليوم وإن كانت هذه العلاقة شكلية، وأكثر شيء يسعدني في هذا اليوم أيضاً أن اسمي لم يعد في عداد أسماء قضاة هذا الزمن ... ولهذا تراني أحتفل ..

أخلاقه :

إذا تحدثت عن أخلاق الشيخ محمد جواد مغنية أكون قد أسهبت وأفضيت وهذا لا داعي له ولا ضرورة، لأن أخلاق محمد جواد مغنية معروفة أصلاً وغير خافية علىٰ أحد، علىٰ أية حال إن سيرته موجودة في كتاب التجارب هذا، وحديث المترجم عن نفسه وخاصة تحت عنوان «تمهيد» يعطيان للقارىء فكرة واضحة عن أخلاقه.

ولكن الذي أريد أن أوضحه هنا يدخل في صلب حقيقة أخلاقه دون أن يكون قد تعرض هو لذلك:

أولاً: يشتكي بعض الناس من هم طبعاً على غير فهم ومعرفة بأخلاق وطبائع الشيخ محمد جواد مغنية، يشتكون من ضيق صدره وحدة طبعه وأنه لا صبر له على أحد. وأنا لن أنفي هذه الحقيقة أبداً ولكني أريد أن أوضح أن الذين يشتكون من الشيخ محمد جواد مغنية هم فعلاً وبدون تجني من النوع الذي يضيّق صدر المرء ويثير حدة طبعه ولا صبر لإنسان على تحملهم، اللهم إلاّ الذين هم على شاكلتهم.

الواقع أن محمد جواد مغنية فتح بيته وصدره وقلبه إلى أي إنسان أراد أن يسأل مسألة إسلامية علمية شرعية، فلسفية، سياسية، وعند الشيخ مغنية من الصبر والأناة ما يفوق صبر أيوب نفسه على الشرح والتعليم، ولقد فتح مكتبته «صومعته» إلى طلاب العلم ليلقنهم ويدرسهم وهم جميعاً الآن على قيد الحياة ومنهم رجال دين محترمون.

لم يكن محمد جواد مغنية ليتوانى عن إقلاق راحته ونومه والقيام عن طعامه ليرحب بصدق وطيبة خاطر بكل طالب علم يباحث عن حقيقة.

لا مكان عند الشيخ مغنية للسوقة والعوام ولا وقت لديه للسخفاء والبطالين.

محمد جواد مغنية علّامة ومفكر كبير هذا ما تقوله الناس فيه ولست أنا القائل ذلك .. إذن من أين لرجل مثله أن يمضي وقته مع الجهلة والتافهين، ويستقبلهم على الرحب والسعة كيف له أن يفعل ذلك وهو يعمل من ١٦ إلى ١٨ ساعة يومياً في البحث والتأليف.

إن محمد جواد مغنية لم يضع حياته في علك الكلام والقيل والقال، ومن

يدخل إلىٰ مكتبته غرفة عمله يرىٰ مخطوطتين معلقتين علىٰ حائط مكتبته الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**والذين هم عن اللغو معرضون**﴾[١]. واللوحة الثانية تقول: «الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما».

ثانياً: رأي كثير من الناس أن مظهر محمد جواد مغنية بالغ البساطة وتصرفاته تفوق التواضع وهذا لا يناسب مقام عالم كالشيخ مغنية ولا يليق أيضاً بمقام الطائفة التي ينتمي إليها، وأنا لست بوارد محاكمة هذا الرأي ولكني أذكر للقارىء حادثة تتعلق بهذا الخصوص:

لقد رآه مرة جماعة من الغيورين علىٰ طائفتهم يقف في وسط سوق الخضار وسط الهرج والمرج وقد رفع جبّته إلىٰ وسطه تفادياً للأوساخ والأقذار منكباً علىٰ منصة الخضار يختار منها بعض البطاطا والبندورة (الطماطم)، فما كان من هؤلاء الغيورين المحبين إلاّ أن أسرعوا نحوه منفعلين صائحين ـ لايصح .. لا يجوز .. نحن لا نقبل بذلك، ولم يأبه الشيخ لاحتجاجاتهم وتابع انتقاءه لما يطيب له من الفاكهة والخضار.

كان يخرج صباح كل يوم لمدة ساعة أو أقل، يشتري الصحف، ويبتاع القوت اليومي، فيقف علىٰ الجزار وبائع الخضار، ويشتري الخبز ويعود إلىٰ البيت.

كان يمشي في الطرقات وإذا تعب جلس إلىٰ جانب الطريق علىٰ حجرة أو تحت شجرة، يتنقل كبقية الشعب يركب معهم سيارة الأجرة والأوتوبيس، لأنه لم يملك سيارة قط ولا عنده مرافق أو سكرتير .. وكل تصرفاته كانت لا توحي بأنه من أصحاب السماحة أو الفضيلة أو حجة الإسلام أو آية من آيات الله أو ... الخ الخ.

---

١ ـ [سورة المؤمنون، الآية ٣].

ولكن أحب أن أقول إن الذين لم يحبذوا هذه المسلكية الشديدة التواضع من محمد جواد مغنية ليسوا ضد البساطة والتواضع بحد ذاتهما وإنما كانوا يتمنون عليه أن لا يفعل ذلك أو يخفف كثيراً منها، وذلك لاعتبارات معروفة ... وأنا شخصياً أعتقد أن عندهم وجهة نظر وجيهة في طلبهم هذا، لأن الشيخ كثيراً ما كان يتعرض لمضايقات في الشارع من أناس لا يعرفونه، فهذا يعتقده قارىء بخت ويسأله عن طالعه، وذلك يطلب منه حجاب محبة وإلىٰ آخره من مثل تلك الأمور، وإن كان رحمه الله يسخر من ذلك ويضحك إلاّ أن هذا لا يعني أنه لم يكن منزعجاً ومتضايقاً.

كره محمد جواد مغنية الدعايات والأضواء كان يسافر متخفياً دون إعلام أحد حتىٰ لا يجري له أي استقبال، وإذا عرفته السلطات في البلد الذي يزوره، وأرادت أن تفتح له صالون الشرف في المطار، أو أن تستضيفه في ديارها، كان يرفض ذلك بشدة ويفضل الرجوع إلىٰ وطنه.

ومرة في أحد المطارات العربية أصرّ أحد المسؤولين الكبار أن يقدم له هدية وهي عبارة عن عباءة فاخرة وعندما رأىٰ الشيخ أنه لا خلاص له من هذا الموقف المحرج، خلع عباءته التي يرتديها وأعطاها بالمقابل لهذا المسؤول، وبعد دقائق، خرج محمد جواد مغنية إلىٰ الشارع وأعطىٰ العباءة الهدية إلىٰ أول صديق التقاه.

لعل خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولو أردناأن نعرّف محمد جواد مغنية في بضع كلمات فلنستمع إليه حين يحدثنا عن نفسه حين قال وأوجز في صفحة التمهيد لهذا الكتاب: «إني أزهد خلق الله بالهتاف والتظاهر والمظاهر، ولثم اليد والمفاخر، والسر علمي ويقيني بأن الرفعة والضعة بعد العرض علىٰ الله لا علىٰ الناس».

علمه :

أحمد الله تعالى أنه لا لبس ولا إشكال في حقيقة علمه واجتهاده لأن آثار الشيخ محمد جواد مغنية تدل عليه، ومن أراد أن يستزيد في الوقوف على علم محمد جواد مغنية واجتهاده فهذه مؤلفاته تملأ الأسواق، وفي هذا الكتاب فصل خاص يحدثنا المؤلف عن حياته «مع القلم والكتاب».

ويبقى السؤال هل يُعتبر محمد جواد مغنية مرجعاً أعلى؟ وتجيب الحقيقة نفسها وشهادة العدول من أهل الخبرة، أن الشيخ محمد جواد مغنية راسخ في العلم وصلب في دينه ومقدرته على مجابهة المغريات وكبح الشهوات، وأن فيه من الشروط الحق ما يجعله مرجع أعلى .. الواقع أن محمد جواد مغنية لم يرد المرجعية لنفسه ولا أي منصب آخر، ولم يسع إلى ذلك إطلاقاً، خاصة عندما نعلم أن نفقات المرجعية والدخل لمنصبها من أموال التبرعات والأخماس والزكاة والأوقاف .. والشيخ مغنية له موقف ثابت من قبض الأموال فهو لم يتعاط في هذه المسائل بتاتاً. إلى جانب أنه لم يكن يريد بطانة وأتباعاً.

أما بالنسبة لعلمه، يعرف الكثيرون أن محمد جواد مغنية فنّد وناقش رسائل وأطروحات كبار المراجع والعلماء، ويعلم العشرات أن إحدى آيات الله قدّس سره قد راجع وأتمّ رسالته عند الشيخ محمد جواد مغنية، وأنا لا أذكر ذلك للزهو والافتخار معاذ الله وإنما جاء الحديث عن ذلك من خلال السياق.

مكتبته :

مكتبته أي غرفة عمله هي كل حياته، فيها يعمل ويأكل وينام ويستقبل الخُلَّص من الأصدقاء والإخوان.

كُتُبُه تُعدُّ بالآلاف مرصوفة على الرفوف في الجدران، وعلى أرض الغرفة تتكدس أمامه الكتب بالعشرات، ومن يدخل هذه الغرفة تستوقفه للوهلة الأولى الفوضى والارتباك التي تظهر بها المكتبة. ولكن سرعان ما يعرف أن لهذه المكتبة نظام خاص لا يعرف سره إلاّ صاحبها، وأنه يجد الكتب أو المؤلّف أو المرجع الذي يريد بدون أية مشقة أو عناء.

كان محمد جواد مغنية يجلس على الأرض في إحدى زوايا هذه الغرفة يفترش سجادة صغيرة، يتوكأ على مسند، أمام تلك الأسفار الثمينة ينقب فيها عن كنزه المطلوب، وإذا وجد ضالته المفقودة أشعل سيجارة وأخذ منها نفساً طويلاً وتناول سبحته السوداء الصغيرة ليفركها بين أصابعه في غبطة وانشراح. أما إذا أراد أن يكتب فكان يحني ظهره إلى الأمام ويدون بقلمه السوانح والأفكار، هذا القلم السلسل المغزار الذي خطّ آلاف آلاف من الصفحات والكلمات، هذا القلم السلاح الذي كان يذبّ به عن الإسلام ومذهب التشيع ضد التجني والافتراءات، والذي يهاجم ويقاتل به الظالمين الطغاة.

زارته في غرفة عمله كبيرة مذيعات التلفزيون في لبنان لتقدم عنه برنامجاً تلفزيونياً، وما أن شاهدته جالساً على سجادته متكئاً على مسنده مرتدياً مباذله المنزلية البيضاء، حتى هتفت عفوياً ـ إنك تشبه غاندي كثيراً، فنظر الشيخ إليها مبتسماً وقال ـ ولكن غاندي كان عنده عنزة جميلة ومن أين لي هذه العنزة؟

كما قلت كانت مكتبته كل حياته ورفيقة عمره لا يطيق البعاد عنها ولو للحظة، وكم كان يتمنىٰ لو أنه يستطيع أن يحملها معه أينما ذهب. كانت كتبه وأوراقه عزيزة علىٰ قلبه مثل أولاده. وأغلب ظني أن والدي في لحظاته الأخيرة من حياته كان يلهج في مكتبته وأوراقه.

والدي الحبيب، لترضىٰ نفسك ويطمئن قلبك، نحن حريصون علىٰ مكتبتك ومؤلفاتك وأوراقك مثل حرص الإنسان علىٰ مهجته، وسنعمل ما بوسعنا للمحافظة عليها ولتحسين أوضاعها بكافة الطرق والأساليب، ستبقىٰ المكتبة مكتبتك، هي الآن وقفاً علىٰ اسمك. وجرياً علىٰ عادتك نحن نرحب بكل طالب أو باحث يريد أن ينهل العلم من هذه المكتبة المعين، شرط أن لا يخرج منها أي كتاب.

أما دار النشر التي أسسناها معاً «دار الجواد» فهي في تقدم مستمر بإذن الله وستنتقل الدار إلىٰ مقرها الجديد الكبير عما قريب. وأنا أمين علىٰ متابعة الرسالة التي ناديت وعملت بها، وإني أعتبر أن أعظم ما أورثتني إياه كان القلم والكتاب، وإنني أعاهدك بالسير علىٰ خطاك.

والدي الحبيب إن غبت عنّا بجسدك إلاّ أنك ما زلت حياً بيننا تملأ حياتنا بفكرك النيّر وحنوك الدفّاق، وإن التعنا في افتقادنا لرؤيتك إلاّ أننا نأمل من الله تعالىٰ أن يحشرنا معك في نعيم مثواك.



الفصل الثالث عشر :

الشيخ
محمد جواد مغنية
في يومه الأخير



إعلام الكتائب دسّ وتدجيل

وأنا أعد هذا الكتاب، ترددت كثيراً في كتابة هذا الفصل وأخذتني الحيرة، هل أتناسى ما فعلته أبواق العمالة والخيانة وألسنة السوء في يوم وفاة والدي، أم أردّ على أكاذيب وفجور هؤلاء القوم الظالمين. ثم جاءت الظروف والوقائع تثبت لي الدليل تلو الدليل أنه من الخطأ الفادح أن أسكت عن قول الحقيقة وأن لا أدحض الافتراءات والأكاذيب للأسباب التالية:

أولاً: كتاب «تجارب محمد جواد مغنية بقلمه» وثيقة تاريخية عن شخصية وحياة عالم كبير من علماء الإسلام، لهذا توخيت الموضوعية فيما يتعلق بترجمة الأيام الأخيرة من حياته لأنني أكتب للتاريخ وللحقيقة من أجل الحقيقة، وبخاصة أن أجهزة إعلام حزب الكتائب الطائفي الفاشي بالتعاون مع الأجهزة المشبوهة والأبواق العميلة الأخرى شنّت حملة مركزة من الأكاذيب والشائعات والدس حول وفاة والدي، الهدف منها تزوير التاريخ وطمس الحقيقة ومآرب كثيرة أخرى، والواقع أنه من الطبيعي جداً وبخاصة في وطن كلبنان أن يُعتدى على حياة مطلق إنسان ولأي سبب كان، ولكن الحق يقال أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث للشيخ محمد جواد مغنية علماً بأنه لم يكن يخاف الاعتداء على حياته ويتمنى شرف الشهادة ويتمنى الموت في سبيل الحق.

ثانياً: فعلت دعاية الكتائب فعلتها الشنيعة ووصلت أضاليلها إلى العالم العربي والإسلامي واشتبه الأمر على كثير من المسلمين خارج لبنان فكانت

التساؤلات تأتيني من المغرب وإيران وباكستان، ولهذا قررت أن أجيب في هذا الفصل علىٰ كل التباس واضعاً النقاط علىٰ الحروف.

ومما عزز قراري هذا أنه بتاريخ ١٨ أيلول ١٩٧٩ م وأنا في مكتبي أحقق في هذا الفصل بالذات من الكتاب دخل عليّ مستشرق ألماني شاب يدعىٰ كارل غوبل يتكلم العربية، قال إنّه سيقدم أطروحته لشهادة الدكتوراه عن الفكر السياسي عند المسلمين الشيعة، وأنه يريد أن يكتب في هذه الأطروحة ترجمة «بيبلوياغرافي» عن حياة وفكر الشيخ محمد جواد مغنية، وأنه يريد الحقائق والمصادر.

رحبت به ولكن خفت أن يتأثر بالأكاذيب المصممة، فيكتب الخطأ ويخرج عن الصواب، ولهذا قررت أن أمضي قدماً في توضيح الأمور وكتابة هذا الفصل.

ثالثاً: ليس عندي صحيفة ولا إذاعة حتىٰ أردّ في حينه علىٰ هجمة الكتائب المسعورة، وبالرغم من توضيح بعض الصحف البيروتية لحقيقة ما حدث لوالدي رحمه الله، إلاّ أن هذا لم يكف للرد علىٰ الخطة الكتائبية الإعلامية الموجهة .. وشعرت بالضعف والعجز أمام ما يجري ضدنا من لؤم وافتراء.

واليوم أصبحت ناشراً بعونه تعالىٰ، سأرجع السهم الذي رمتنا به إذاعة بشير الجميّل إلىٰ صدرها، وأرد كيد الكتائب إلىٰ نحرها. وأنا أعلم جيداً بأن هذا لن يغيّر من ذاتية الكتائب الفاشية، وأعلم أن سياسة هذا الحزب قائمة علىٰ التعصب الفئوي وإعلامه هو إعلام الكذب والنفاق، وأنه يصح فيه قوله تعالىٰ: ﴿**فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**﴾[1].

وبعد ... إن «دار الجواد» سترد علىٰ كل من ظلم واعتدىٰ، وخطنا في النشر

---

١ ـ سورة الأعراف الآية ١٧٦.

رسمه مؤسس هذا الدار الشيخ محمد جواد مغنية حين قال في صفحة ٤٥٣ من هذا الكتاب: «نحن الشيعة على الصعيد الوطني، عرب لبنانيون لا نفرّق بين المسلم وغير المسلم، لأن الدين لله والوطن للجميع، وعلى الصعيد الديني نحن المسلمون لا نفرّق بين سني وشيعي، وعلى الصعيد المذهبي نحن شيعة محمد وأهل بيته، ونحن بالمرصاد لكل من كان ضد عروبة لبنان أو الدين الإسلامي أو المذهب الشيعي».

رحلة الألم:

في شهر تشرين الثاني ١٩٦٥ م دخل الشيخ محمد جواد مغنية إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت لمعالجة نوبة قلبية حادة انتابته صباح ذلك اليوم وكادت أن تودي بحياته، ومنذ ذلك التاريخ ابتدأ محمد جواد مغنية رحلة المرض والآلام مع قلبه العليل، وعلى عادة هذا النوع من الداء لم يشف قلبه ودخل إلى المستشفى أكثر من مرة للمعالجة والمداواة.

المجالس الحسينية:

هيهات أن يستكين محمد جواد مغنية والمجالس الحسينية تقام في العاشوراء، وهو الذي كان من أشهر خطباء هذه المجالس، لهذا حمل قلبه الضعيف وجرّ جسده الهزيل وذهب إلى حسينية النبطية ليحضر مجلس العزاء. لقد أحب أن يبكي الحسين عليه السلام في بلدة النبطية قلب الجنوب الذبيح كقلبه، أحب أن يبكي الحسين عند أهل جبل عامل شيعة الحسين المظلومين المشردين في وطنهم وعقر ديارهم. وكان يجهش في البكاء في مجلس التعزية أكثر من أي

عاشوراء مرّت، كان يبكي علىٰ وطنه وأهله لما حلّ به وبهم من مصاب ويباب. وهو في النبطية يستمع لذكرىٰ كربلاء داهمه المرض وتلاشت قواه، وعاد إلىٰ منزله في بيروت ليرتاح، ولكنه لم يكن ليرتاح وذكرىٰ الحسين عليه السلام تناديه وتشعل أحشاءه بطولة وتضحية أبناء الرسول عليه الصلاة والسلام.

في الليلة الرابعة من عاشوراء ذهب إلىٰ حسينية مدينة صيدا، وطلب منه بعض وجوه صيدا الكرام أن يلقي ولو كلمة صغيرة في الاجتماع، اعتذر بسبب مرضه ولكن في مثل هذه المناسبات لا يجدي الاعتذار، ومن علىٰ المنبر الحسيني تكلم محمد جواد مغنية عن المبادىء والأخلاق ومعاملة الإنسان لأخيه الإنسان، وقطع خطابه فجأة وتوجه إلىٰ كرسيه حيث تهاوىٰ غائباً عن الوعي، وصادف لحسن الحظ، أن أربعة من الأطباء[١] كانوا يحضرون الاجتماع، هبوا فوراً لإسعافه، ووجد أحدهم أن قلب محمد جواد مغنية قد توقف عن الخفقان، فضرب علىٰ صدره مستعملاً أسلوب الصدمات والتدليك في محاولة يائسة لإنقاذه وحمل القلب علىٰ العودة إلىٰ الحياة، والطبيب الآخر ينفخ في فمه علىٰ طريقة التنفس الاصطناعي، واستجاب قلب محمد جواد مغنية لمحاولة الأطباء الأكفاء وعاد إلىٰ الخفقان وهذا نادراً ما يحدث في مثل هذه الحالات.

عندما استفاق محمد جواد مغنية من غيبوبته وجد نفسه في غرفة العناية الفائقة بمستشفىٰ الجنوب «الدكتور شعيب»، وكم تحسّر وتمنىٰ لو أنه مات في الحسينية في حضرة الحسين عليه السلام وفي أيام عاشوراء، وكم عاتب الأطباء الذين أنقذوه لأنهم فوتوا عليه الفرصة لأن يتوفاه الله وهو يتكلم من المنبر الحسيني في ذكرىٰ كربلاء .. وبعد أن بقي أربعة أيام في غرفة العناية الفائقة بالمستشفىٰ، عاد إلىٰ منزله رغم تعليمات الأطباء له بالبقاء وكان اليوم السابع من عاشوراء. وفي

---

١ ـ السادة الأطباء: عسيران، شعيب، وهبي، كنعان.

اليوم التالي ذهب إلى ضاحية الأوزاعي ليتابع حضوره لمجلس الحسين وفي اليوم العاشر كان في حسينية الغبيري، ولم يكن يتخلى عن المشاركة بالمجلس الحسيني حتى ولو كان على آخر رمق من الحياة، وبالفعل ما انتهت العاشوراء التي كادت أن تذهب به حتى بقي له رمق أخير أبقاه على قيد الحياة لأيام معدودات.

التلفون المشؤوم:

في صباح ٨ كانون أول ١٩٧٩ م / ١٩ محرم ١٤٠٠ هـ نشرت جريدة النهار البيروتية برقية من الشيخ محمد جواد مغنية يعترض فيها على إرسال ١٠٠٠ متطوع إيراني إلى جنوب لبنان موضحاً أن هذا الأمر سيأتي على ما تبقى من شيعة جبل عامل، ثم يتساءل عما إذا كانت هذه هي أهداف الدولة الإسلامية؟ .. وفي الساعة الواحدة والنصف من ظهر ذات اليوم وبينما الشيخ محمد جواد مغنية يستقبل اثنين من زائريه سيّد من آل الحكيم وشيخ من آل ملك جاءا للإطمئنان على صحته، رن جرس التلفون وإذا «بالوكالة اللبنانية للأنباء» تريد أن تصطاد في الماء العكر، أي أنها تريد أن تستوضح عن ما نشرته جريدة النهار وتسأل عن رأيه في مسائل أخرى تتعلق بأحداث الساعة.

«الوكالة اللبنانية للأنباء» الكتائبية:

لم يكن يعرف محمد جواد مغنية أن «الوكالة اللبنانية للأنباء» هي الوكالة الكتائبية للأنباء، لم يكن يعلم أن هذه الوكالة تعني إذاعة الكتائب وصحيفة الكتائب، أما ذاك المجهول الذي كان يسأل على التلفون لم يشاء أن يفصح عن هويته الإنعزالية الكتائبية، وقدّم نفسه للشيخ محمد جواد مغنية كمندوب الوكالة

اللبنانية للأنباء، ويريد أن يأخذ حديث للوكالة التي يراسلها.

كثير من الناس لا يعرفون ولا يسمعون باسم «الوكالة اللبنانية للأنباء» وحتى الذين يسمعون بهذا الاسم من أين لهم أن يعرفوا أن هذه الوكالة كتائبية، وأقسم أني شخصياً لم أكن قبل وفاة والدي أسمع باسم هذه الوكالة. والذي أريد أن أقوله لو أن الشيخ محمد جواد مغنية عرف أن إذاعة الكتائب هي التي تسأله تلفونياً لأسمعهم رأيه فيهم وحدثهم بما يستحقون.

ولنقرأ معاً في هذا الكتاب ماذا يقول محمد جواد مغنية في الكتائب والأحرار صفحة ٤٨٩ فصل الصراع في لبنان وهذا المقال نشر قبلاً في جريدة السفير ٢٧ / ٧ / ١٩٧٥ م :

«... في الشياح قتلت العديد من الأطفال والنساء والرجال، ودمّرت عشرات البيوت والمحلات، وحُرق الرجال أحياء من الشيعة والتمثيل بسمل العيون، وفري اللحم عن العظم، وهذا قليل من كثير مما فعلته الكتائب والأحرار بالشيعة».

وفي صفحة ٥٠٠ في هذا الكتاب ونشر مقال في جريدة السفير ٢٤ / ١٠ / ١٩٧٥ م يقول محمد جواد مغنية عن الكتائب ـ ومن لف لفهم:

«إن الصراع في لبنان بين الصهيونية والوطنية لا بين الإسلام والمسيحية..

أجل إن علّة الأحداث الدامية في لبنان هي الطائفية، ولكنها طائفية إسرائيلية صهيونية في جانب يمثلها الذين في قلوبهم مرض، وهي أيضاً وطنية إنسانية من جانب آخر يمثلها الطيبون

المخلصون من مسيحيين ومسلمين..

وبعد فأي مسيحي يعمل لصالح إسرائيل فهو من الصهيونية في الصميم من حيث يريد أو لا يريد».

وأيضاً ليقرأ الكتائب والأحرار مقالة محمد جواد مغنية عن المارونية السياسية في هذا الكتاب «فصل الصراع في لبنان».

وفي صفحة ٥٠٢ يقول:

«أما الدافع الأساسي لاتفاق القاهرة أن يتسلح الكتائب والأحرار حزبا التعصب الماروني ضد الفلسطينيين والمسلمين..».

وفي صفحة ٥٠٧ يقول:

«إن جنوب لبنان قد ضحّىٰ من أجل فلسطين والفلسطينيين بنفسه وماله وأهله المساكين .. ولما نزح أهل الجنوب إلىٰ ضواحي بيروت فعل بهم حزبا الأحرار والكتائب ما فعل الصهاينة بدير ياسين وزيادة»

نفس الصفحة أيضاً:

«خلقتا الصهيونية والولايات المتحدة مشكلة لبنان وجنوبه بالذات لعبة لصالح إسرائيل، ودفعت بعملائها الكتائب والأحرار إلىٰ الميدان».

هذا هو رأي الشيخ محمد جواد مغنية في الكتائب والأحرار «حزبا التعصب

الماروني» و «الصهيونية والولايات المتحدة ... دفعت بعملائها الكتائب والأحرار إلى الميدان» «فعل حزبا الكتائب والأحرار بالجنوبيين ما فعل الصهاينة بدير ياسين وزيادة».. هذا غيض من فيض مما قاله محمد جواد مغنية في الكتائب والأحرار، وعلى أية حال فإن حزبي الكتائب والأحرار ليسا بحاجة إلى تعريف، لأن القاصي والداني يعرفان أنهما حزبا الطائفية المارونية وأنهما أعداء العروبة والإسلام، وأن حزب الكتائب فاشستي يستبيح لنفسه ارتكاب أفظع المذابح والمجازر في سبيل تسلطه وهيمنته على شعب لبنان، وتاريخه حافل بالشواهد والإثباتات على إرهابه وغدره.

وأعود إلى ذاك المراسل الذي استعمل أسلوب التمويه والاختباء وراء ستار «الوكالة اللبنانية للأنباء» دون أن يجرأ على القول أنه كتائبي وأن وكالة الأنباء هذه هي وكالة حزب الكتائب ولكن أخذ هذا «المراسل» يسأل هاتفياً عن مشكلة الجنوب وعن الوجود المسلح الفلسطيني وعن أحداث وشخصيات الساعة، والشيخ محمد جواد مغنية يجيب، لأنه ما أن يسئل إلاّ ويجيب، وكان يسمع الحديث التلفوني زائرا الشيخ الموجودان بالقرب منه، ولأن الحديث عن شؤون وشجون الجنوب فكان لابد لقلب محمد جواد مغنية من الخفقان ولكن أي خفقان ... ومن شدة النوبة القلبية التي انتابته لم يعد يقوى على متابعة الحديث وأقفل سمّاعة التلفون وأسرع الزائران لنجدته وحمله إلى الفراش ولم يتركاه إلاّ بعد أن هدأ قلبه واطمأنا على أن الخطر زال عنه.

إن الحديث الذي أدلى به «للوكالة اللبنانية للأنباء» لا يختلف عما كتبه في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب في فصل «الصراع في لبنان».

ونحن عائلة محمد جواد مغنية فخورين جداً بكل كلمة قالها الشيخ محمد جواد مغنية لأنه يقول لمن أساء أسأت ولمن أحسن أحسنت ولا يخاف في قول

الحق لومة لائم. ولم يتخل محمد جواد مغنية عن دينه وعروبته ولبنانيته وفلسطينيته، وكتب الشيخ مغنية ما يشبه الرؤيا في تفسير الكاشف سنة ١٩٦٨م ونفس الكلمة منشورة في صفحة ٤٦٥ من هذا الكتاب، قال:

«... إن إسرائيل تجيب عن عمل الفدائيين بالانتقام من الأبرياء، ونحن نقول فليكن ... إذا كان هذا ثمناً لخراب إسرائيل وطريق انتصارنا عليها».

وأيضاً:

«... لا حياة إلاّ للفدائي المستميت ... وقد دلتنا التجارب أنه لا حق في الأمم المتحدة، ولا في مجلس الأمن إلاّ للقوة، وأنه لا حياة للإنسان في القرن العشرين، بخاصة الشرقي، وبوجه أخص العربي، إلاّ للفدائي المستميت ...» ...

نعم فليخرب لبنان وشعبه إذا كان هذا ثمناً لخراب إسرائيل وانتصارنا عليها، أما أن يذهب لبنان إلى الجحيم دون أن تعود لنا فلسطين، فهذا أمر لا يقرّه عقل سليم ولا يقبل به حيّ الضمير ... لا حياة إلاّ للفدائي المستميت.. أي أن يستميت الفدائي في قتال إسرائيل ونحن معه حتى آخر قطرة دم في عروقنا.

وأعود إلى متابعة الذي حصل في آخر يوم من حياة محمد جواد مغنية..

وبعد أن خرج الزائران، وارتاح الشيخ مؤقتاً من آلام النوبة العنيفة، ألحّ عليه أهل بيته أن يذهب إلى المستشفى ويعمل بنصيحة طبيبه المعالج، ولكنه على حسب عادته المتّبعة أصر على البقاء في غرفته ويا ليته عرف أن هذه النوبة هي بمثابة الإنذار الأخير. وبقي الشيخ في مكتبته بعد ظهر ذلك اليوم مرتاحاً لا يعكر

صفو باله شيء، واستعاد نشاطه الطبيعي حتىٰ أنه تابع الكتابة في مؤلفه عن مآثر أهل البيت عليهم السلام، وفي أول هذا الكتاب صورة آخر صفحة كتبها الشيخ قبل ساعتين أو ثلاث من وفاته، وحوالي التاسعة آوىٰ إلىٰ فراشه لا يشكو شيئاً ولكنه بعد نصف ساعة استفاق علىٰ نوبة لم يسبق لقلبه أن عانىٰ مثلها من قبل، فحمله أهله وجيرانه إلىٰ مستشفىٰ الجامعة الأميركية، ولكن قلبه المتعب لم يعد يقوىٰ علىٰ الصمود فقضىٰ الشيخ محمد جواد مغنية عند الساعة العاشرة من ليل السبت في ٨ كانون أول ١٩٧٩ م الموافق في ١٩ محرم ١٤٠٠ هـ عن عمر يناهز السادسة والسبعين.

إن وفاة محمد جواد مغنية كانت نتيجة طبيعية لما يعانيه من مرض قلبي عضال، ولكن عندما أجرت معه «الوكالة اللبنانية للأنباء» الكتائبية تلك المحادثة التلفونية المشؤومة نُكِيء الجرح الجنوبي في قلبه المريض وزاد نزفاً من الحزن والألم.

وجدت إذاعة عائلة الجميّل الكتائبية أن وفاة الشيخ محمد جواد مغنية فرصة ممتازة لتنتهزها ومصادفة عظيمة لتستغلها وكيف لا، فعند ظهر يوم ١٩٧٩/١٢/٨ م صرّح الشيخ مستاءً من الوجود المسلح في الجنوب، وعند مساء نفس اليوم توفي، مع العلم أن التصريح المشار إليه «للوكالة اللبنانية للأنباء» الكتائبية لم يكن قد أذيع بعد ولم يسمعه أحد قطّ. ولكن حزب الكتائب الذي يستبيح لنفسه كل حرام ضرب حرمة الموت عرض الحائط وأساء إلىٰ مقام وكرامة محمد جواد مغنية لما صارت إذاعة حزب الكتائب وصحيفته تعوي بالأكاذيب كالكلاب المسعورة، ساعة تُشيع بأنه أُعتدي عليه، وساعة بأنهم هاجموه في عقر داره، وأخذت إذاعة الكتائب تذيع هستيريا الاشاعات هذه لمدة خمسة أيام متتالية وفي طليعة جميع نشراتها الإخبارية اليومية، وليس عندي شك

بأن الأجهزة المشبوهة ... قد لعبت دوراً كبيراً في ترويج هذه الأخبار المفبركة. أما الخائن سعد حداد الذي تنتعله إسرائيل ساعة تشاء فقد أدلىٰ بدلوه القذر أيضاً. أما ألسنة السوء والنفاق فحدث عنها ولا حرج. وتجلّىٰ العهر السياسي والنفاق حين أخذت تماسيح الإنعزالية من شمعون وصوت الكتائب ومن لف لفهما تذرف الدموع تأثراً علىٰ فقدان الشيخ مغنية ذاك العلاّمة الوطني الكبير.

ولما نشرت الصحف البيروتية حقيقة وفاة محمد جواد مغنية أسقط في يد «الكتائب» وانفضحت أكاذيب إذاعة عائلة الجميّل، وتراجعت عن أقوالها المختلقة فأذاعت الحديث التلفوني الذي كانت تحتفظ به لوقت الحشرة، ولم تعد تجد مخرجاً يحفظ لها ماء الوجه سوىٰ أن تقول آخر الأمر «إن الشيخ محمد جواد مغنية مات بالسكتة الجنوبية»، وأيضاً جاء تراجعها العلني عن الأضاليل التي بثتها بشأن الاعتداء علىٰ حياة الشيخ مغنية، جاء ذلك في تعليق لصوت الكتائب عند الثانية والنصف ظهر يوم ٦ / ٨ / ١٩٨٠ م وفي معرض نفاقها السياسي وتباكيها الزائف علىٰ شيعة الجنوب وعلىٰ علماء الشيعة ... أذاعت «والشيخ محمد جواد مغنية اسكات بالسكتة القلبية» .

وهكذا احتارت إذاعة الجميّل كيف تلفق الأخبار فتلاعبت بخبث بالكلمات علىٰ النحو الذي سمعناه، وهي تعلم علم اليقين أن أحداً لم يُسكت قلب محمد جواد مغنية سوىٰ ربّه عزّوجلّ.

المآرب الخسيسة :

يهدف حزب الكتائب من إذاعة أخبار ملفقة حول وفاة الشيخ محمد جواد مغنية والاتجار الإعلامي بموته، يهدف من وراء ذلك إلىٰ المآرب السياسية

الخسيسة التالية:

أولاً: إثارة الفتنة بين الشيعة والفلسطينيين وهذا ما تحلم وتخطط له إسرائيل، وفشلت إذاعة الجميّل في تحقيق هذا الهدف. وإن نجحت في بلبلة أفكار الناس ولكن إلىٰ حين قصير.

ثانياً: الإساءة إلىٰ تراث محمد جواد مغنية النضالي وإلىٰ شخصه أيضاً، وتصويره كأنه خرج عن خطه والتحق بحزب الكتائب وقد أثار هذا الهزؤ والسخرية لأن محمد جواد مغنية صاحب مدرسة وطنية مستقلة وهو إن انتقد ليُصلح ويبني، أما الكتائب وأمثالهم فتنتقد لتهدم لأنهم حزب التسلط الماروني والتعصب الطائفي، ولأنهم أعداء لبنان والعرب والمسلمين، وإن أطلقت الكتائب تصاريح وشعارات ظاهرها الرحمة فإن باطنها العذاب، وإن نطقت الكتائب بكلمات حق إلاّ أنها تريد الباطل، ولن ينطلي تدجيل الكتائب علىٰ أحد وبخاصة علىٰ شيعة لبنان.

ثالثاً: نجحت إذاعة بشير الجميّل في الكيد لعائلة محمد جواد مغنية أتم نجاح، في أحلك أيام حياتنا سواداً وأشدها فاجعةً اقتحمت إذاعة الكتائب وصحيفتها منزلنا لتزيد علينا آلامنا بدسائسها المسمومة، ولم تتركنا لحالنا نحزن علىٰ فقيدنا بصمت وسلام، وإنما أعلنت علينا حرب الاشاعات لتَهدّ كياننا وتحرق أعصابنا، وحققت إذاعة الكتائب ومعها الأجهزة المشبوهة أهدافها المبتغاة، لأننا كنا كسمكة في مقلاة.

لا أدري ماذا ينفعني نعت إذاعة عائلة الجميّل بقلة الذوق لأسلوبها في التعامل مع حرمة الموت وحرمة عائلة الشيخ محمد جواد مغنية وأنا أعلم تماماً أن الذوق هو آخر ما يفكر فيه أسياد الكتائب الفاشيست الذين لا يتورعوا عن العمالة لإسرائيل وعن حرق لبنان شرط أن يجلسوا علىٰ العرش ولو كان من جماجم

اللبنانيين.

وبعد .. لم يكن يعلم محمد جواد مغنية أن حديثه سيذاع في صوت الكتائب وهذا لا يعني أنه يتوانىٰ عن الإجابة بصراحة وجرأة علىٰ مطلق سؤال يوجه إليه من أي إنسان كان، إلاّ أنه من حسن حظه أنه توفي قبل أن يسمع صوته من إذاعة كتائب بشير الجميّل ـ الكتائب ألد أعداء الفكر والقضايا التي نادىٰ بها الشيخ محمد جواد مغنية وناضل من أجلها.

التشييع

في يوم ١١ / ١٢ / ١٩٧٩ م الموافق ٢٢ / محرم / ١٤٠٠ هـ رافق نعش المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية إلىٰ مقره الأخير في النجف الأشرف كبار علماء الطائفة الشيعية في لبنان، واستقبله في مطار بغداد الهيئة العلمية اللبنانية، وسار الموكب الحزين في رتل كبير من السيارات إلىٰ مدينة النجف، وتوقفت المسيرة عند الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام حيث طاف النعش وزار المقام، ثم تابع الموكب سيره إلىٰ كربلاء، ومكث النعش الطاهر عند الحسين عليه السلام سيد الشهداء الوقت الكافي لإقامة الصلوات عن روح المرحوم وإجراء كافة مراسيم الزيارة. سبحانك يا الله كان الشيخ محمد جواد مغنية حيّ منذ أسبوع يتمنىٰ أن يزور الحسين في عاشوراء كعادته لعشرة سنين خلت ولم يتمكن من الزيارة هذه السنة، وها هو اليوم يحقق أمنيته وهو في نعش.

في اليوم التالي ١٢ / ١٢ / ١٩٧٩ م الموافق ٢٣ / محرم / ١٤٠٠ هـ وبمناسبة تشييع جثمان المغفور له الشيخ محمد جواد مغنية أقفلت جامعة النجف أبوابها وأعلنت ذلك اليوم يوم عطلة وتوقفت الدروس في الحوزة العلمية ونادراً ما يحدث ذلك في النجف الأشرف.

حضر إلىٰ الجامع حيث سُجي النعش جميع المراجع العليا في النجف الأشرف وعلىٰ رأسهم المرجع الأعلىٰ للطائفة الشيعية آية الله العظمىٰ الإمام السيد الخوئي ولفيف عظيم من الطلبة والعلماء، وعند الساعة العاشرة صباحاً انطلقت

مسيرة التشييع المهيبة من المسجد إلىٰ مقام الإمام علي عليه السلام، ومشىٰ خلف النعش جميع المراجع الدينية دون استثناء وكل العلماء في النجف وجميع أفراد الحوزة العلمية وحشد غفير من الشعب، وأقفلت المحلات التجارية في السوق الرئيسي التي مشت فيها الجنازة وأطفئت أنوار الكهرباء.

صلّىٰ المرجع الأعلىٰ الإمام السيد الخوئي علىٰ جثمان الفقيد في ساحة حضرة الإمام «الصحن» حيث ضاقت بالمعزين، ثم دفن جثمان الشيخ محمد جواد مغنية في أحد غرف مقام الإمام علي عليه السلام جرياً علىٰ عادة دفن كبار المراجع والعلماء.

في الليلة الأولىٰ بعد الدفن أقام المرجع الأعلىٰ آية الله العظمىٰ السيد الخوئي مجلس الفاتحة علىٰ روح الشيخ محمد جواد مغنية وكان رعاه الله هو وأبناؤه يتقبلون التعازي من جموع المعزين وألقيت كلمات التأبين في مجلس العزاء.

وفي الليلة الثانية أقام مجلس الفاتحة أهل الفقيد، وفي الليلة الثالثة أقام مجلس الفاتحة الهيئة العلمية اللبنانية في النجف الأشرف، ثم أقيمت بقية مجالس الفاتحة في منزل الفقيد في بيروت.

سامحني يا والدي واغفر لي لقد وجدت أنه من المستحيل أن أنفّذ وصيتك الشفهية لي، وهي أن تدفن في أقرب مكان إلىٰ منزلك وأن لا يجري تشييع ولا تكريم ولا أي شيء من هذا القبيل، لقد وجدت أن هذا مستحيل التنفيذ لأن تكريم الأموات من حق الأحياء.

أنت تعشق الرسول وأهل بيته، وآخر كلمة كتبتها في حياتك كانت «علي عليه السلام» فالأحرىٰ أن يُدفن جثمانك بالقرب منهم وفي مقام عليّ عليه السلام.

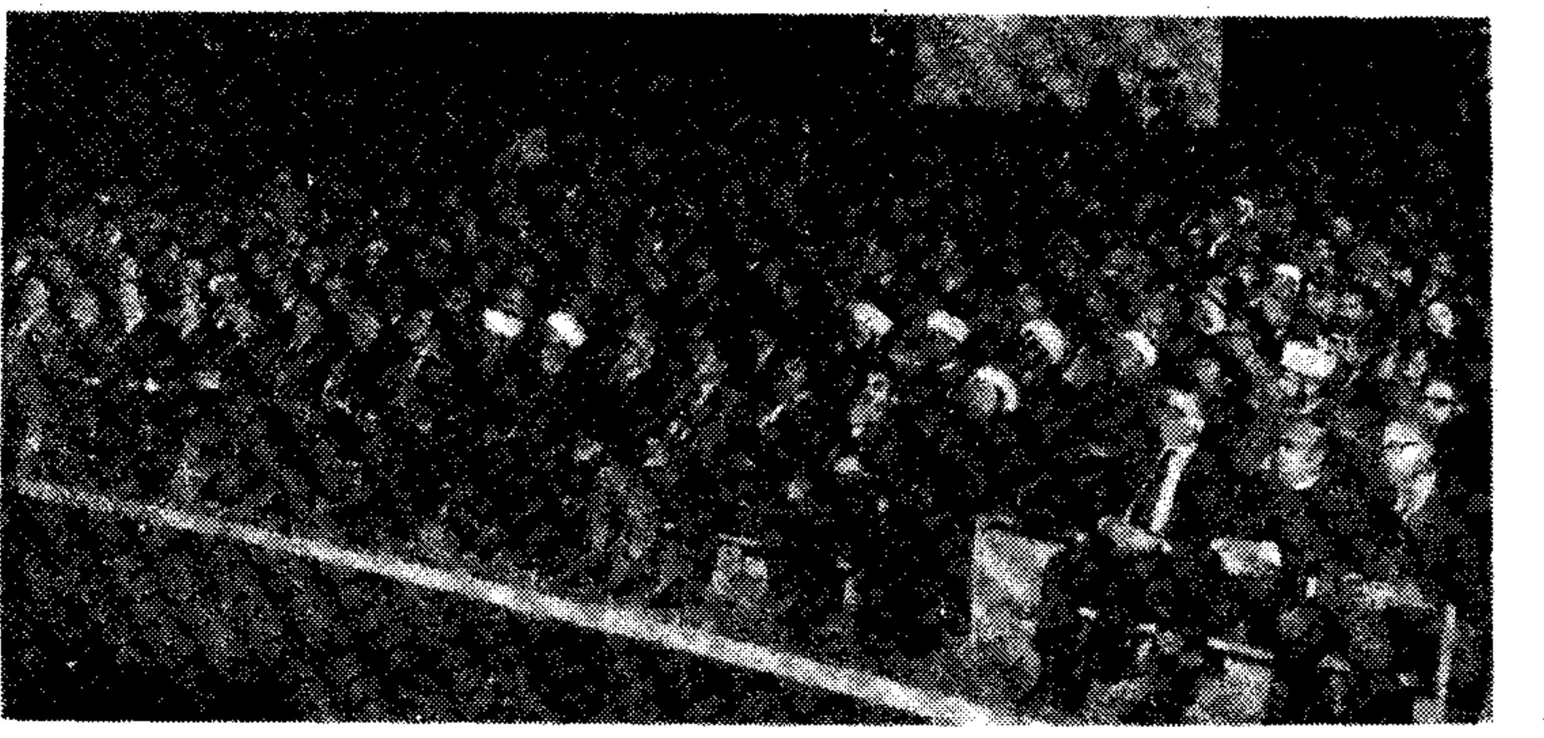
الفصل الرابع عشر :

الشيخ
محمد جواد مغنية

بأقلام الآخرين







مشهدين من مهرجان التأبين في قاعة قصر الاونيسكو



ذكرى الأربعين

في ٢١ / ١ / ١٩٨٠ م أقام المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى مهرجاناً تأبينياً كبيراً في قاعة قصر الاونيسكو بوزارة التربية للفقيد الشيخ محمد جواد مغنية بمناسبة ذكرى أربعين يوماً على وفاته.

حضر المهرجان وزير المالية الدكتور علي الخليل ممثلاً رئيس الجمهورية اللبنانية ووزير العمل والشؤون الاجتماعية ناظم القادري ممثلاً رئيس الحكومة اللبنانية، وحضر عدد من الوزراء والنواب وأعضاء السلك الدبلوماسي وكبار الشخصيات الرسمية ورؤساء وزراء سابقين، وفي طليعة المشاركين حشد من علماء الإسلام ورجال الدين، إضافة إلى عدد كبير من المفكرين والأدباء والصحافيين وجمع غفير من المواطنين.

نقل التليفزيون اللبناني مشاهد من المهرجان، ونقلت الإذاعة اللبنانية وقائع التأبين في برنامج خاص أعدته عن الشيخ محمد جواد مغنية، أما الصحف البيروتية فغطّت مهرجان التأبين بتوسع وإلمام.

وفي الفصل التالي نصوص الكلمات التي ألقيت في مهرجان التأبين.

يحارب التعصب
ويدعو لوحدة المسلمين

سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية

الشيخ حسن خالد

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد أيها السادة، لقد شاع في الناس قولهم: قل لي من تعاشر أقول لك من أنت، وقولهم: عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه، فكل قرين بالمقارن يقصد، وإني وإن كنت عايشت فقيدنا الكبير الشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله فترة من الزمن يوم كان مستشار المحكمة الجعفرية العليا. أراه وأسمع إليه وأجالسه، ولكني لم يتيسر لي الاقتراب منه ولا من قرنائه، فظلّ الكثير من مزاياه الرفيعة خافياً عني، كم كان أسفي غامراً لأنه لم يتيسر لي المزيد من التردد عليه ومواصلته، والاستفادة بما كان يتمتع به من علم غزير وفضل كبير. فعجباً للإنسان لا يحفل بالنور وهو يغشاه فيضل متعامياً عنه حتى يلفه الغسق، ولا يعير الصحة وهي موفورة لديه حتى يصيبه الداء، وكذلك كثير من الناس يضلون في غفلة وإعراض عن العلم والقيم والأدب الذي يحملها العلماء الصالحون، حتى إذا غيّبهم الموت تذكروا وندموا على ما فاتهم منهم، وتمنوا لو يرجع الزمن ليستفيدوا من علمهم النافع وفضلهم العميم.

لقد كان الشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله بالإضافة إلى مكانته الاجتماعية عالماً فاضلاً واسع العلم غزير المعرفة فيما أنتجه وينتجه كبار العلماء وجهابذة الفكر والأدب والفن متابعاً لهم سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين، يراقب عطاءهم ويكسب منه الكثير مع شدة محاكمته له.

ولقد كان كاتباً طيع القلم سهل العبارة، غزير المادة عميق الغور دقيق النظرة، وكان من العلماء القلائل الذين برزوا في هذه الحقبة من الدهر. وأعطوا الفكر الإسلامي فيضهم الفكري والروحي، وأثروا مكتبته بل ودرسوا واقع أمعهم وما أصابها من تخلف وظلم وعدوان، وناقشوا أسباب ذلك ورسموا له بالتالي بفكرهم الرشيد ونظرهم البعيد معالم الطريق، طريق المستقبل الذي ينبغي اقتحامه والتزامه، وهو مع حصنه أولاً وقبل كل شيء على ترسيخ العقيدة في النفوس يجزم بأنه لا مندوحة عن وحدة الكلمة واجتماع الصف. لذلك يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: «.. ما أحوجنا نحن المسلمين اليوم إلى جمع الصفوف ووحدة الكلمة، ولنذكر أن جميع الفئات والعناصر الوطنية في كثير من الشعوب المستضعفة، قد تحالفوا وتكاتفوا على ما بينهم من تناقضات ضد العدو المشترك، وجاهدوا واستشهدوا جنباً إلى جنب دفاعاً عن الوطن، وهكذا يجب أن يكون المسلمون سنّة وشيعة، فينسوا الماضي بكل ما فيه ويعملوا مخلصين يداً واحدة لخير الإسلام ومصلحة الإسلام، ويستحيل أن يقوم للإسلام عامود أو يخضرّ له عود ما دام المسلمون أشتاتاً متفرقين».

يقول فقيدنا الكبير «إنه لابد لنا من التخطيط ولا يجوز اعتماد العفوية والارتجال والعامل الحاسم لنجاح الإسلام هو التخطيط المحكم الدقيق بالإضافة إلى قيمه الحيّة الغنية، التخطيط لعلاقة العبد بربه، والفرد بمجتمعه ولجهاد العدو وردعه، وللحكم العادل، وللتربية والثقافة، وللقضاء وفصل الخصومات والتأديب

والعقوبات والأسرة والتجارة».

ويقول العلامة مغنية رحمه الله «التفاخر بالماضي لا يجدينا كثيراً ولا قليلاً ما دمنا في الدرك الأسفل من الانهيار. ولابد في التخطيط من الصبر على الأذى في سبيل العقيدة لترسيخها وإثبات الشخصية الإسلامية، والمقاومة الروحية كما فعل الأولون، وكما فعل الكثيرون من مصلحي العالم في القديم والحديث، حتى تتكون القوة الرادعة للشر والعدوان. وينبلج بعد ذلك فجر الانبعاث والسلام، لأنه لا حياة للدين والحق والعدل بلا قوة ترهب الطغاة والبغاة. فالحق يصرع الباطل بالبرهان والحجة في سجلات التاريخ ويوم تقوم الساعة، أما في الدنيا فلا يفلّ الحديد إلاّ الحديد».

هذا هو الخط الذي اعتمده علّامتنا الفقيد رحمه الله.

إن شعبنا في الشرق العربي والإسلامي كله شعب مؤمن بالله واثق بصحة دينه معتز به، ولكن الأطماع والأهواء التي وفدت علينا من الخارج، ثم انبعثت لديه من الداخل تلاعبت به فتقاسمته وضللته ومزقت وبعثرت كيانه ووجوده، وشلت طاقاته.

تطلع العدو الخارجي إلى هذه المنطقة منذ بداية القرن التاسع عشر ميلادي، فجعل منها سوقاً رائجة لبضاعته، ووطناً غنياً لاستغلاله، رغم أنه نقل كنوزها الظاهرة والباطنة، وهو لا يزال يتطلع إلى ما بقي فيها، فجعل له فيها مراكز نفوذ وقواعد انطلاق ليحمي مصالحه ويصون مؤسساته. وفي الوقت الذي نهب فيها خيراتنا وكنوز أرضنا، فإنه ما زال ينقل إلينا العديد من عاداته وأخلاقه، وعلومه وفنونه وثقافته وفكره، ومناهجه في الحياة، وأساليبه في التعامل والسلوك، وفيها الخير الكثير والشر الكثير، وبهذا الشر أشعل نار الفتنة والعداوة والنزاع بيننا، فمزقنا على بعضنا إلى شعوب ودويلات، لا تتملك لنفسها نفعاً بعد أن نصّب

نفسه وصياً على دساتيرها وتشريعها، وأنظمة اقتصادها وجيوشها وصناعاتها ومناهجها التربوية، وحال بينها وبين أسباب القوة والمنعة والعزة والكرامة لأنه حال بينها وبين الاتحاد والاعتصام بحبل الله.

وفي لبنان دخل متخفياً بحضارته اللؤلؤية فأغرى بآثارها البعض، وقربهم منه وضرب بهم المعارضين، وقسم الشعب إلى طوائف ذات كيانات ونفوذ، فضّل بعضها، وأغدق عليها من النفوذ والمال والمؤسسات ما مكّن لها، وحرم الآخر ليظل عاجزاً ضعيفاً مفتقراً إليه، وأوجد الزعماء والقادة الكثر والعائلات، وأفاض عليهم المنح والمعطيات، وأضفى عليهم الكثير من المال والنفوذ والسلطة، ومكّن لهم في رقاب إخوانهم فانخدعوا وظنوا أن الأمر يدوم، وأغرق الشعب بالحاجات ومتطلبات الحياة، فنسي مصالحه العامة وعطف به إلى قادته، وأثار فيه حساسيات أبناء العشائر والقبائل، فثارت فيه العصبيات التي بعثت العداوات والأحقاد، وصنعت سياسة البلد وأنظمته وأعرافه.

أيها السادة أمّة هذا شأنها، موزعة الوجود ومبعثرة القوى، تتنازعها الأهواء والمصالح ويحطّم بعضها البعض، أمة ممزقة الأشلاء لابد لها من مثل صرخة علامتنا الفقيد رحمه الله، ورأيه الحصيف، ليعيد لحمتها ويبني وحدتها وقوتها.

أيها السادة، إن العلماء الصالحين هم ورثة علم الأنبياء، وهم مصابيح الهدى والبقية الفاضلة على الأرض، وحملة الحكمة التي يحيي الله بضيائها القلوب، كما يحيي الأرض الميتة، بوابل السماء. وهم الذين قال الله تعالى فيهم: **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**[1]. وقال: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**[2]. وقال: **﴿إنما يخشى الله من عباده**

---

١ ـ [سورة المجادلة، الآية ١١].

٢ ـ [سورة الزمر، الآية ٩].

العلماء﴾[١].

أيها السادة، إن الأسىٰ ليعتصر قلبنا ونحن نذكر فقيدنا العظيم، بعد أن كان يغشىٰ مجالسنا فيفيض علينا من علمه الغزير وأدبه الجم، ولكننا مع ذلك نجد العزاء فيما خلّفه لنا من تراث عظيم في مختلف العلوم والفنون: في التفسير والفقه والفلسفة والأدب والاجتماع، والفكر الإنساني والإسلامي المعاصر. ولئن كان الطريق الذي رسمه لنا محفوفاً بالأشواك فقد نبهنا إلىٰ الصبر الجميل مع الإرادة الخيّرة، والعلم الصالح والحكمة المخلصة، والاناة والمروءة وسعة الصدر. كل أولئك تزيل صعابه وتحطّم عقباته، وتقلب صعبها يسيراً وشاقها سهلاً. ولنذكر إن الله مع الصابرين، والفرج مع الصبر، وإن مع العسر يسراً.

رحم الله الفقيد الجليل، وجزاه وأثابه عنا أفضل الجزاء، وأطيب المثوبة، وجمّل آله الأكرمين وإخوانه بكريم العزاء، إنه نعم المولىٰ ونعم النصير وإنا لله وإنا إليه راجعون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

١ ـ [سورة فاطر، الآية ٢٨].

ذكرك حي
ما دام في الدنيا خلود

سعادة الدكتور بطرس ديب
رئيس الجامعة اللبنانية
سفير لبنان في فرنسا

«العبارة الغامضة والأسلوب المعقد وعدم الترتيب والتبويب، والتطويل والاطناب والتبسط في نقل الأقوال هي أبعد شيء عن تفكير الإمام الصادق وأسلوب ثقافته وهي مما لم يألف ويعتد».

هذه المقدمة من «فقه الإمام جعفر الصادق» تصحّ أيضاً في مؤلفات كاتبها الشيخ محمد جواد مغنية، لقد اتخذ الإمام الصادق مثالاً يحتذى، فحق له أن يشغف بما ألّف هو حتى إذا ترأت له الجنة ذات يوم وهو يحلّق في آفاق «تفسيره الكاشف» قال: «إن أغلى أمنية على قلبي بل أسمى الرغائب لديّ أن أدخل الجنة لأقرأ فيها وأكتب، خالي البال متحرراً من الأشغال وهموم العيال».

أيها الراحل العزيز أمشيراً إلى أقوالك هذه مؤيداً ومثنياً، أم إلى غيرها من خالد مأثورك.

استقبلك الإمام الصادق في جنة الخلود، ومن أولى منك بمثل هذا الاستقبال وكأني بك تعودته قارعاً باب الإمام جعفر لتعايشه بالروح وأنت ما زلت

في دنيا مررت بها فأعرضت عنها إلىٰ ما هو أسمىٰ منها.

أيها الحفل الكريم، لأول مرة قرأت فيها تلك الكلمات لصاحب الذكرىٰ، عادت بي الذاكرة إلىٰ أول مرة حظيت بلقائه وكنت قاصداً غزير معينه مسترشداً إلىٰ المعرفة الفقهية عن سواء سبيله. قادني يومذاك إلىٰ غرفة هي الصومعة .. زينتها الكتب، وأريجها فكر وقلب وروح. ضيافتها تزهو بوقار البساطة، عيناه غائصتان في عميق التفكير تسيران كنه الأمور، فيتراءىٰ في طلعة عبوس، لا تلبث أن تخلفها ابتسامة مؤنسة ولكنها طريفة تشق طريقها باتزان عبر الحديث الجدّي الجذّاب.

حديث هادىء هدوء التأمل العلمي، صاخب صخب الثورة للحقيقة والحق، واضح المعالم والأهداف لا لفّ ولا دوران. وبمقدار ما أسعدني يوم تعرفت فيه ذلك المعين فاستشففت عذب ورده في جملة المزدحمين، يؤلمني يوم أقف فيه كما الآن، فيمتزج ذكر كل جرعة من ذلك السلسل بغصة الأسىٰ، ويذكي الأسىٰ شعور بالجميل وبالغ محبة وتقدير لعالم فاضل وأستاذ جليل.

تدرّجت علىٰ يديه رحمه الله في مجالات الفقه الجعفري فلقيت فيه خير موجه في محاولة استكشاف جذور تلك المجالات وعمقها، وسرعان ما أثار إعجابي بدقة ملاحظته وتسلسل عرضه يحلل المسائل تحليلاً علمياً مرهفاً، يكشف مكنوناتها ومكوّناتها، يستنبط المبادىء التي ترعاها يبرز وجوهها العملية، يربطها ويعللها في إطار قواعد كلية ضلّت وقفاً علىٰ أمثاله من كبار العلماء إذا عزّ من استطاع ضبطها.

كان يجمع جمعاً موفقاً بين انفتاح علىٰ العصر وأمانة للتقليد، فمن تبحر محيط بالعلوم الدينية وما يرتبط بها من متنوع العلوم إلىٰ تحسس بمواضيع الساعة ومقتضيات العصر وكأنه ولد معها، مبرهناً بذلك أن العلم واحد وأن الثقافة

الحقيقية هي واحدة أصلاً، بل هي متصلة اتصالاً وثيقاً بإنسانية الإنسان وطبيعي أن تتجلىٰ واسعة كبيرة عند إنسان كبير كالشيخ محمد جواد مغنية.

مؤلفاته تدور أساساً في تلك الروحانيات وعلوم الدين، لكنها تحيط بالمواضيع من جهات وجهات، بفضل ما للمؤلف من شمول ومن تملك من جوهر المادة وسيطرة عليها، وبفضل هذه السيطرة تمكن من التميز ببراعة الجهابذة بين ما لكل عنصر من عناصر الموضوع من دور ومن أهمية. وأن يلوح الكل بوضوح هو من أبرز ميزات كتاباته، إذ طبّق بالفعل ما نادىٰ به يوم كتب «وهل الكتاب أي كتاب إلاّ قطعة من جماد حياته أن يتحرك وينتقل من يد إلىٰ يد ويدور ما فيه علىٰ الألسن، فتعيه القلوب والآذان، ولا وسيلة اليوم لشيء من ذلك إلاّ التيسير والتوضيح».

ويزيد أبحاثه وأحاديثه حيوية وجاذبية جرأة اشتهر بها، وحسبنا هنا منها وجه علمي يتجلىٰ مجاهرة بالرأي واستقامة بالفكر، لا مساومة ولا محاباة. وهل يعقل العكس في إطار علىٰ ذلك السمو في المستوىٰ؟ وفي مواضيع علىٰ ذلك الجانب من القدسية؟ فكيف وأستاذنا رحمه الله حتىٰ في المواضيع العادية، لا يحذو سوىٰ ذلك الحذو لأن الجرأة منه كالطبع تتعدىٰ كونها أسلوباً لتكون جزءاً من جوهر، لتصبح في موضع الصعاب حافزاً علىٰ التصدي والتحدي، وفي مجالات الحقيقة دافعاً إلىٰ التحري وإلىٰ الخلق المستمر.

فلنستمع إليه يعرض طريقته في شرح فقه الإمام جعفر الصادق: «أعرضت عن ذكر الأسانيد المسلسلة المعنعنة، لأني قست ثبوت النص باعتماد الفقهاء عليه وعملهم به، لا بالرواة والرجال الثقاة، ذلك أن اسم فقه الإمام الصادق أو فقه أهل البيت، إنما يصدق حقيقة علىٰ هذه المبادىء التي اهتموا بها ولا يصدق لا حقيقة ولا مجازاً علىٰ نصوص ميتة، وإن دونت في بطون الكتب ورواها الصلحاء، إن

النصوص ليست سوىٰ حروف جامدة لا حياة لها إلاّ بالتطبيق والعمل، أجل لو افترض أن جيلاً جديداً من الفقهاء عمل بالشاذ النادر الذي أهمله المشهور لصحت التسمية».

وفي تقديمه للتفسير الكاشف يعود فيؤكد علىٰ هذه النظرة بقوله: «إن أي مفسّر لا يأتي بجديد لم يُسبق إليه ولو بفكرة واحدة، لا يملك عقلاً واعياً وإنما يملك عقلاً قارئاً، وإذا وقف المفسّر السابق عند حدّ من الحدود، ثم جاء اللاحق مترسماً خطاه لا يتجاوزها ولو بخطوة واحدة، كان تماماً كالأعمىٰ يتوكأ علىٰ عكاز فإذا فقدها جمد في مكانه».

وللجرأة العلمية دور آخر هو حث صاحبها علىٰ إشراع النوافذ والأبواب إلىٰ ما عند الغير، فيقارن بين حصائل البشر ويزيد آفاقه إتساعاً وإنسانية، غير خائف علىٰ شخصيته أن تذوب في شخصية الآخرين.

أجل، إذا كان التبادل والتفاعل الحضاريان من شروط التطور العام، فإن من شروطهما أيضاً أن تظل عناصرهما قائمة، أي أن يحتفظ الأقوام بشخصيتهم فلا إفراط ولا إحجام.

وهكذا كان فقيدنا الجليل، ثقة بالنفس وأنفة علىٰ تواضع في النفس عميق، تحسس صميم بوجوب التفهم المخلص بين الناس، نابع من إيمان راسخ بالإخاء الإنساني وضرورة تحقيقه في كل حقل وميدان. من هنا انفتاحه الرائع ومقارناته المجردة، وتشجيعه تبادل المعرفة. فإذا المزية العصرية عنده فضيلة أخلاقية في آن، وإذا نور العلم قَبس بيده في دروب التقارب والتحاب، يحول بين الإنسان وظلمات الجهل لينأىٰ به عن عادات ما جهل، وكثيراً مما تتجلىٰ الجرأة صراحة بيّنة تنطق بالأمانة العلمية، بوضوح العلم وموضوعيته، وقد تترجم الصراحة قساوة.

هذا الحد كان أستاذنا رحمه الله يؤثر تجنبه. ولكنه إذا خاف على الحقيقة والحق أن يموّها فعندها لا مراعاة فهو لا يخشى في قول الحق لومة لائم، كما لا يخشى على الحق ضربة غاشم، وهو القائل بأن من صارع الحق صرعه.

زرته رحمه الله في بيته لأشهر سبقت وفاته، فتوجهنا كالعادة إلى مكتبته. كان تأثري بالغاً وأنا أعاود ذلك المعين وقد ازداد تعلق أستاذنا به إذ غدا جزءاً من ذاته. يضم مؤلفاته الاثنين والخمسين في التفسير والشروح والفقه، والتاريخ والفلسفة، وعلم الاجتماع، وكلها منه كفلذة كبده، منهل طاب ورده لا يسعك إلاّ أن تغرف منه، ولا سيما وصاحبه معطاء لا يعرف الأثرة، فما بحوزته ملك لغيره بعد رده، ويطيب الأخذ حيث يسير العطاء طبيعياً جزلاً لا تصنّع ولا حساب، كأن المعطي يؤدي الزكاة زكاة العلم وصدقة الفضيلة، رائده ما ندب إليه نهج البلاغة، على هديه يسير، «سوسوا إيمانكم بالصدقة»[1].

وإن أنسى من عطائه لا أنسى هبة اعتز بها، وكثيراً إليها ما أرجع هي الصحيفة السجادية، ذلك الكنز الروحاني والرفيق الأنيس، وكيف أنسى ساعة أعطيناه قوله النابغة من قلبه الكبير: «هذا خير تعبير أستطيعه عن محبتي لك».

أيها الراحل العزيز، من حِكَم نهج البلاغة الخالدات **«لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث، في نكبته وغيبته ووفاته»**[2].

أما النكبات فلست أدري هل أصابتك؟ ومتى؟ وكيف؟ لأنك لم تشعر بها يوماً محبيك وأنت الصامت الصبور والمنجّد الغيور، وأما الغيبة والوفاة لم تصيبا منك سوى جسد عابر. أما الروح والفكر فذكرٌ حيٌ بيننا ما حيينا باق في أذهاننا

١ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٨ / ص ٣٤٥ باب الحكم والمواعظ برقم ١٤٢].
٢ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٨ / ص ٣٣٠ باب الحكم والمواعظ برقم ١٣٠].

وقلوبنا ما كتب لنا بقاء لا ينال منه موت ما دام في الدنيا خلود، وخلودك الحقيقي هو ما أحسنت اختياره والاعداد له منذ هذه الدار في الدار الآخرة التي أنت فيها الآن والتي لا تموت.

الوطني الشجاع

الشهيد الأستاذ رياض طه

نقيب الصحافة اللبنانية

كرّم الله وجه من قال: «إذا رأيت العلماء على أبواب الملوك، فقل بئس الملوك وبئس العلماء، وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء، فقل نِعْمَ الملوك ونِعْمَ العلماء».

هاهم .. ها هي رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة، وأصحاب السماحة والدولة والمعالي يأتون اليوم لتكريم ذكرى عالم كبير عزيز علينا جميعاً، فمرحى للمحتفى بذكراه ومرحى للسادة المحتفين بها.

سادتي، العالم من عمل بعلمه وليس من اطّلع واختزن المعرفة، إنما العالم من يمارس علمه في حياته في مواقفه، العالم هو من يذود عن قدر العلم، من يدافع عن كرامة العلماء من يدافع عن كرامة الإنسان.

لقد كان فقيدنا العلامة الشيخ محمد جواد مغنية رائداً في الوطنية، مقاتلاً من أجل الحرية، ملتزماً بالإنسان، جريئاً في قول الحق، وكما قال عنه الدكتور بطرس ديب: «لم يكن يخشى في الحق لومة لائم».

وإذا شئنا أن نكرّم العلامة محمد جواد مغنية في ذكراه تكريماً حقيقياً، فينبغي أن لا نكتفي بتعداد مآثره وتآليفه فحسب، وإنما ينبغي أن نقتدي به ونحذو

حذو شجاعته، وبما أننا نحتفل بذكرى العلامة مغنية، فأنا أفضل الارتجال والعفوية على الكتابة التي تلزم، لأن في العفوية ما يشجع على قول كلمة الحق.

نحن في لبنان أيها السادة نستطيع أن نزعم صادقين بأننا أولى العرب بالعروبة، ولقد انطلق انبعاث العربية وانبعاث فكرة القومية العربية في لبنان، فلا يزايدن علينا مزايد في هذا.

ونحن في لبنان يا سادتي قد أعطينا القضية الفلسطينية، ما لم يعطها أي عربي على الإطلاق فلا يزايدن علينا مزايد بذلك أيضاً. طبعاً بوسع ابن الجنوب أن يقول إنه أعطاها أكثر من ابن الشمال، بوسع ابن المنطقة الحدودية أن يقول: إنه عُذّب في سبيلها أكثر مما عذّب ابن الهرمل وبعلبك، على هذا فينبغي أن نكون صرحاء، مع ذاتنا ومع اخواننا في النضال، أن لا نكلمهم من موقع الضعف، ومن مركز عقدة النقص أو عقدة الضعة، بل نكلمهم كلام الند للند والأخ للأخ والشريك في القضية والشريك في النضال.

إذا كنا شعوباً تشكل أمة واحدة، وإذا كانت القومية نقيض الإنعزالية والإقليمية، فينبغي أن يكون لنا المقام الأول مع الفلسطينيين. وإذا التعامل مع إسرائيل خيانة وهو كذلك، فإن مثل الخيانة هو أن نكفّر الناس بقوميتهم، وأن نسيء إلى كرامتهم، حتى يجدوا أن التعامل مع إسرائيل ليس بمثل تلك الخيانة.

قبل ثلاث سنوات، بدأت الشكايات تتعالى وتتصاعد في الجنوب في انتقاد التجاوزات والتعديات على المواطنين. وإذا كنا أبناء قضية واحدة، أبناء أمة واحدة، أبناء مصير واحد، ونحن كذلك، فينبغي أن نصارح ونناقش اخواننا بهذه الممارسات الشاذة التي يرتكبوها.

قال قائلهم مرة إننا لسنا مستعدين أن نضحي بمكاسب القضية الفلسطينية

في سبيل لبنان. هذا كلام انعزالي اقليمي، وما هي الانعزالية والإقليمية إن لم تكن كهذا القول؟ إذا كنا أبناء أمة واحدة فينبغي أن لا يضحّي أحدنا بأخيه من أجل نفسه، ينبغي أن نعتبر أرض جنوب لبنان عزيزة مثل أرض فلسطين، وأن نعتبر النبطية وصيدا وصور مثل القدس تماماً.

أقول هذا في محراب الكلمة ـ كلمة الشيخ محمد جواد مغنية، وفي هذا الحفل، حفل الشيخ محمد جواد مغنية الذي ضحىٰ كثيراً من أجل القضية العربية ومن أجل قضية فلسطين.

ينبغي أن لا يشعر المواطن العربي اللبناني بأنه صاحب أرض محتلة من الفلسطينيين، وإنما هو فدائي ضحىٰ بأرضه وبيته من أجل قضية مقدسة هي قضيته أيضاً. لهذا ينبغي أن نتدارك هذا الأمر، وندعو اخواننا الفلسطينيين بشجاعة وقوة إلىٰ تدارك الأمر ومعالجته.

علىٰ كل لولا لبنان لما كان هناك ثورة فلسطينية، إن الثورة الفلسطينية قد وجدت أرض قيادتها بلبنان، ووجدت أرض مسلحيها بلبنان، ووجدت أرض إعلامها في لبنان. ولو لم يفتح لبنان صدره للثورة الفلسطينية لما أتيح لها أن تعيش وتصل إلىٰ درجة الثورة، فهل يستحق لبنان هذا الجزاء...؟

لقد طالبنا في الماضي بأن تفتح الدول العربية حدودها كلها للثورة الفلسطينية، علىٰ غرار ما فعل لبنان، ولكن تلك الأقطار الشقيقة لم تفتح حدودها بعد للثورة الفلسطينية.

حريّ بنا نحن في لبنان أن نتفاهم مع الثورة الفلسطينية أما إذا بقي التنافر يتسع ويتفاقم. فقد يأتي يوم يختنق لبنان بالثورة الفلسطينية وتختنق الثورة الفلسطينية في لبنان. ونحن لا نريد ذلك لا للثورة الفلسطينية ولا للبنان أيضاً.

أيها الحفل الكريم، في ذكرى علامتنا الكبير الشيخ محمد جواد مغنية كان لابد لي من قولة جريئة كأقواله فهذا خير تكريمٍ له ولذكراه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

العلامة المجتهد والشيخ المجاهد

الدكتور حسن عواضة

عن أصدقاء الفقيد

أيها السادة:

عندما يريد المرء أن يتكلم عن صديق عزيز فجع به، لا يمكنه أن يتجرد من ذكريات خاصة تملأ نفسه بالعواطف الجياشة، وتترك مسحة ذاتية على ما يريد قوله من كلام موضوعي مجرد. ولكن في آثار الفقيد العلامة المجتهد والشيخ الإنسان محمد جواد مغنية، وفي مؤلفاته الكثيرة، بحراً زاخراً من الفكر والتجديد والخصب وسعة الأفق، يغطي بدفقه وعمقه كل ما عدا ذلك، ويستوعبه بين طيات أمواجه المتدفقة علماً وخيراً ومعرفة وإنسانية.

هناك إجماع على أن الشيخ مغنية كان رجل دين من نوع جديد، حرر الفقه والمفاهيم الدينية من أسر الجمود والتقليد الأعمى اللذين طغيا عليها خلال فترة طويلة من الزمن، وأعادها إلى عصورها الذهبية من تراثنا القومي والديني. وقد برز، منذ كتاباته الأولى، منسجماً مع التطور والظروف المتغيرة، مستوعباً مفاهيم الحياة العصرية في المرحلة الحاضرة من تاريخنا القومي والإنساني، منفتحاً على كل جديد بعقلية متنورة مقنعة بأسلوب بسيط محبب، مستخرجاً كل نفيس وغال من البحار المظلمة للكتب القديمة الصفراء، المستحيلة على القارىء الحديث...

مما قرب روح الدين وجوهره الصالح إلىٰ النفوس والأذهان.

يقول الشيخ مغنية في هذا المجال:

«إن الدين شُرِّعَ لصالح المجتمع، وإنه خاضع لمقاييس العقل، وإنه يعبر عن آلام الناس وآمالهم، وبهذا الأسلوب وحده يكون الدين قريباً من العقول، محبباً إلىٰ القلوب ...».

ولم يصل العلامة المجتهد إلىٰ هذا العطاء الغني الغزير ونتاجه المتدفق ـ وقد تجاوزت مؤلفاته القيمة الخمسين ـ إلاّ بعد أن كرّس حياته ووقته وجهده وعقله، حتىٰ آخر أيامه، لاغتراف العلم من منابعه، ومرافقة التطور العلمي والفقهي في كل مراحله ومصادره، وقراءة الألوف من الكتب القديمة والحديثة. وكان زواره الأقربون، الذين كان يستقبلهم في غرفة عمله، يشاهدون هذه الكتب محيطة به من كل جانب، وهو غائص في وسطها جسماً وفكراً ... يقول الشيخ مغنية في هذا الصدد:

«لقد كتبت كثيراً وقرأت أكثر مما كتبت، قرأت بالألف وكتبت بالعشرات... ولست أعرف كلمة أصدق من قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «**إذا أعطيت العلم كلك أعطاك بعضه**»...

لقد كانت الأصول الفقهية الخاصة بالأحوال الشخصية صعبة المنال علىٰ القضاة والمحامين المدنيين، وكان الفقه الجعفري مجهولاً لدىٰ هؤلاء .. فألف الشيخ مغنية كتابه القيم: «الأحوال الشخصية علىٰ المذاهب الخمسة» مقارناً بين هذه المذاهب بروح الباحث المجتهد، الواسع الأفق، وبعقل العالم المنسجم مع المفاهيم القانونية الحديثة والحياة العصرية المتطورة» .. وما زال هذا الكتاب المرجع الدائم للحقوقيين في مجال الفقه الإسلامي. وكانت الغاية المهيمنة علىٰ

بحثه التوحيد والتقريب بين المذاهب، واختيار الأفضل من كل مذهب، كما يذكر صراحة في أحد كتبه:

«لقد فهمت وأدركت الغرض من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، بل ألفت كتاباً في فقه المذاهب الخمسة .. وفي العام الماضي (أي عام ١٩٦٧ م) تشكلت لجنة برئاسة شيخ الأزهر لتضع موسوعة في الفقه على المذاهب الثمانية. لقد فهمت الغرض من الجمع بين فقه المذاهب الإسلامية، وأنه يحمل شارة التقريب بينها، والتوحيد بين أصولها ومصادرها، وأنه السبيل للنهوض بهذا الفقه، ونشره في الآفاق، والتعريف بكنوزه ومنافعه»...

وهو يتبنّى، باقتناع كلي قول القانوني الكبير عبد الرزاق السنهوري في كتابه «نظرية الالتزام» (ص ٤٩):

«يجب أن يراعى عدم التقيد بمذهب معين من مذاهب الفقه الإسلامي، فكل مذاهب الفقه يجب الرجوع إليها والأخذ منها».

وفي هذا السياق، يعلمنا أستاذنا الشيخ العلامة، في مكان آخر من كنوز مؤلفاته، أن الإسلام يقوم على «حرية العقل والرأي، وأنه لا يحق لأحد كائناً من كان أن يطلب من غيره التسليم والإذعان لأقواله تسليماً أعمى ومن غير ذلك، حتى خالق الكون جلّت كلمته لا يفرض على عباده الإيمان به فرضاً من غير دليل ...

أما الهدف من الدين الإسلامي، والأديان السماوية بعامة، فهو في رأي الشيخ الإنساني الجليل ليس الايمان بوجود الله وكفى، «بل لابد من هذا الاعتقاد أن تؤمن بالإنسان وحقوق الإنسان، لأن حب الله وحب الناس متكاملان يملأ بعضهما بعضاً، والاعتداء على حرمة الإنسان اعتداء على حرمة الله بالذات...».

إن الإيمان الكلي بالإنسان وتحرره يبرز في كل ما كتبه المجتهد الكبير الشيخ مغنية، وهو يعتبر بحق أن الدعوة الإسلامية هي دعوة إنسانية في الدرجة الأولىٰ، تبتغي الخير والسلام للناس أجمعين، وتهدف إلىٰ تحقيق الأمن والرخاء في جميع العصور «لكل الشعوب والطوائف والأجناس بلا استثناء» ... وإن مبادىء الإسلام، في نظره، تهدف إلىٰ تنظيم علاقة الفرد بربه وتنظيم علاقة الفرد بالجماعة، والنهوض بحياة الجميع إلىٰ حيث يريدون من الحرية والكرامة، «ومن فصل الإيمان بالله وإصلاح الإنسان، فقد أخرج الإسلام عن طبيعته من حيث يريد أو لا يريد ...» «وإن الهدف الأول للأديان هو سعادة الإنسان، ومراعاة الصالح العام ـ والقضاء علىٰ الحروب الكبيرة والصغيرة بشتىٰ أشكالها وألوانها...».

يقول: «إن الدين لا يفاضل أبداً بين الأفراد، وإنما يفاضل بين المبادىء، فيفضل العمل علىٰ الكسل، والسلم علىٰ الحرب، والرخاء علىٰ الغلاء، والعلم علىٰ الجهل، والجماعة علىٰ الفرد، والفقه علىٰ الفجور، والاستقامة علىٰ الخيانة ...».

وقد عانىٰ العلامة الكبير في صباه من اليتم والجوع والفقر الشيء الكثير، وخبر أسباب الفقر خلال السنوات الطويلة التي عاشها في النجف وفي قرىٰ الجنوب، واستنتج أن «الفقر وليد النظام الجائر..» يقول:

«ليس الفقر من صنع الله، ولا من صنع الطبيعة، وإنما من صنع الإنسان، من هذه الأوضاع والأنظمة الجائرة».

«... دعا الرسول الأعظم لمحاربة الفقر والظلم، لقلب الأوضاع رأساً علىٰ عقب، وبناء مجتمع يتعاون جميع أفراده تعاوناً أخوياً بنكران الذات علىٰ العمل لصالح الجميع، ومحال أن يتحقق هذا التعاون في ظل نظام يقسم المجتمع إلىٰ سيد ومسود، وآكل ومأكول. إن أساس التعاون وأسبابه هي المساواة التامة التي

تضمن لكل فرد حقه في العيش والتعليم والتطبيب والراحة والعمل ...».

وقد حزّت أحداث لبنان المؤلمة في صميم نفسه الكبيرة، واستنكر أن يكون الدين والطائفية ستاراً للإجرام والموبقات ... وهو الذي يرى أن المؤمن المتدين «ليس معناه أن يكون جامداً متزمتاً، ومتعصباً حاقداً يثير الفتن والتناحرات الطائفية والحزبية .. إن المتدين حقاً هو الوادع المتواضع المحب للخير، البعيد عن الغيّ والأضغان، السالك طريق المحبة والتعاون الذي رسمه وسار عليه ودعا إليه محمد والمسيح ... وهو القائل: «وأنا أول المؤمنين بالوئام بين الناس بعامة، وبين المسلمين والمسيحيين بخاصة، وبالوحدة الوطنية في لبنان بوجه أخص..».

وفي رده على أحد المسيحيين المتعصبين يقول:

«أجل إن الإسلام خطر كبير ولكن لا على الأديان، بل على الظلم والاستعمار والمستعمرين أعداء الحرية والعدالة، فلقد عاش الإسلام والمسيحية أخوين متحابين قروناً طويلة، وسيظلان كذلك ما بقي الدهر رغم المستأجرين والمضللين»...

..«إن روح الإسلام تأبى أن يقع على وجه الأرض ذرة من ظلم، وشائبة من استعمار ورائحة لاقطاع، إنه يريد أن يحقق العدالة والحرية للناس أجمعين: للمسلمين وغير المسلمين» ...

وكأن العالم الكبير، بما لديه من نظر ثاقب وفكر نير، تنبأ، منذ عام ١٩٦٨ م، عما ستؤول إليه الحال بين إسرائيل والعرب، فقال منبهاً:

«إن إسرائيل ليست سوى قاعدة عسكرية مزودة بكافة الأسلحة الحديثة، أقامتها الولايات المتحدة لحماية مصالحها في بلاد العرب ... ولا وسيلة لغسل هذا

العار إلاّ بمبدأ الحسين عليه السلام «مرحباً بالموت». أما إنصاف الحلول فخضوع الذليل واستسلام الحقير».

هذه بعض مقتطفات من كنوز العلامة الأكبر الشيخ مغنية، تبدو في جدتها وأصالتها وعمقها، وروح العدالة والإنسانية التي تتحلىٰ بها، منسجمة كل الإنسجام مع الظروف والأوضاع الحاضرة، وتشكل نبراساً لكل من يريد معرفة رسالة الدين علىٰ حقيقتها الناصعة. ومن هنا الإقبال علىٰ مؤلفاته العديدة القيمة في جميع أرجاء العالم العربي والإسلامي .. ومن هنا معرفة المتصلين به وبأفكاره بالمفاهيم الدينية المتطورة مع الحياة، وتعلقهم بجوهر الدين دون القشور ... ومن هنا تقدير ومحبة عارفيه وأصدقائه وقارئيه وخسارة الفكر والدين بفقده.

وبعد .. لقد عمل العالم الكبير الشيخ محمد جواد مغنية بالمبادىء التي دعا إليها ومواقفه النضالية والوطنية أشهر من أن تعرّف، حمل علىٰ الاستعمار والمظالم بشتىٰ أنواعها وتحمّل في سبيل ذلك شدائد العواقب وعظيم التضحيات.

إن ذكرىٰ الصديق العزيز الراحل، ورجل الدين المؤمن، المتطور المتجدد، المنسجم مع نفسه ومع مبادىء الإسلام الإنسانية الخيرة ... إن ذكرىٰ العلامة الكبير، الذي كان يتحلىٰ ببساطة العظماء ووداعة الحكماء، ستبقىٰ خالدة، وستبقىٰ أفكاره النيرة، ومؤلفاته الملأىٰ بالكنوز النفيسة، منارة هادية لنا وللأجيال المقبلة ...

والسلام عليكم

المسلم القرآني

الاستاذ أحمد أبو سعد
رئيس اتحاد الكتاب اللبنانيين

ما ذكرته إلاّ ملأت نفسي ذكراه بعظيم التقدير له والترحم عليه.

تحرر من القيود والتقاليد التي لا يفرضها عقل ولا دين وواءم بين نصوص الشريعة ومقتضيات الزمن. لم يسلم نفسه للغيب ولا وضعها داخل أسوار الطقوس، آمن بالإسلام وعمل على نشر تعاليمه فغلبت عليه في نشر هذه التعاليم الدعوة إلى العدالة والحرية والنقمة على المظالم في شتى أنواعها والرجعية بجميع أشكالها.

كان من ذوي المبادىء الإسلامية يشعر بمسؤوليتها فلا يقر له قرار إلاّ إذا انتصر لها ومضى تحت شعورها.

أحس بمسؤوليته رجل دين تقضي عليه تبعته أن يبصّر الناس بحقوقهم وواجباتهم ويبث فيهم روح الشجاعة والاقدام على تحطيم القيود وتكسير الأغلال فحمل الشعلة وانتشر في مدى ضيائها شن حرباً على الذين يدّعون الإيمان ولا يعملون بوحيه وحارب الرأسمالية وناهض الاقطاع وانتصر للعدالة ونادى بالتنبه الاجتماعي، وكان في كل ذلك مسلماً قرآنياً.

كانت الحرية له هدفاً مقدساً وطالما كرر أن الحرية من مبادىء الإسلام

وكان يعتقد أن الأضر بالإسلام من أعدائه هم بعض من ينتمون إليه ممن يحاربون الفكر والحرية ويوالون أعداء الله والوطن.

ومن أقواله: الحاكم الحق من يعبّر عن إرادة المحكومين ولا يحول بين أحد وحريته والمصلح ليس كل من كتب وخطب ودعا إلى الصالحات ونهى عن المنكر بل هو من دعا إلى تبديل الأوضاع الفاسدة والتقاليد الجائرة وتعديلها.

ولشيخنا الكبير مواقف يتجلى فيها فهمه للدين على أنه اتجاه إلى العمل من أجل الحياة بشتى جوانبها وأبعادها وهو بهذا الفهم الذي يجعل الدين يرتبط بحياة الإنسان ارتباطاً كاملاً يفهم الشرع على حقيقته ويستخرج منه الجوهر الذي نزل من أجله.

الدين شُرّع لصالح المجتمع يقول الشيخ وهو خاضع لمقاييس العقل هدفه تحقيق مصالح البشر وضمان سعادتهم حيث تكون مصلحة البشر فثمة شرع الله وشريعته، وفي موضع آخر يقرر أن لا موضوع للعلوم الدينية غير الشؤون الدنيوية وكل تكتل لغاية إنسانية هو عقيدة قرآنية واجتماعية.

إن القيم الإسلامية ليست قيماً غيبية ولا معانٍ مجردة وإنما هي ذات آثار إيجابية تقاس بما ينتفع به الفرد والجماعة، هكذا تكلم الشيخ محمد جواد مغنية.

وللشيخ رأي في الإيمان حيث يرى أن لا يكتمل إلاّ بالمعرفة، والمعرفة تكتمل بالعمل وتقع عنده في كتابه «الإسلام مع الحياة» على آراء جديرة بأن نقف عندها وقفة المتأمل فهو ممن يعتقدون بأن ليس كل ما قاله السلف حقاً وصواباً ولا هو بصالح لكل مجتمع وعصر ولذا علينا أن نراجع أقوال السلفيين ونتأمل فيها بصرف النظر عن قائليها ولا ننطلق منها على أنها حقائق علمية ومبادىء دينية، فالسلف والخلف أمام الدين سواء، ونحن علينا أن نقبل من آراء السلفيين ما نراه

خيراً لنا ونرفض ما نراه شراً علينا.

رحم الله الشيخ فقلائل جداً هم نظراؤه الذين وردوا إلى هذه الدنيا ومنحوا الإنسان قيمته الحقيقية، وجعلوا كل شيء يُشرّع لخدمته وضمان سعادته. وألف ألف تحية لذكراه.

الفقيه المجدّد والعالم المصلح

الدكتور عمر فروخ

عن دار العلم للملايين

يعرف بعض الناس بعضاً من طريقين أساسيين: من طريق الخبر كما يعرف أحدنا اليوم عنترة والمتنبي وأرسطو وابن خلدون، ثم من طريق الصلة الشخصية، وإذا نحن عرفنا أحداً من الطريقين كانت معرفتنا هذه أصح وأنفع. ولقد اتفق لي أن عرفت محمد جواد مغنية من طريق كتبه ومن طريق صلتي الشخصية به معاً.

كثيرون منا يظنون أنهم يعرفون المتنبي، مثلاً، لأنهم قد درسوا شعره ثم حفظوا بعض شعره غيباً أو لأنهم قد قرأوا بعض ما كتب عن المتنبي، ولكن معرفة هؤلاء بالمتنبي تظل ناقصة لأنهم لم يعرفوا رأي المتنبي في معرفتهم بشعر المتنبي، فلابد إذن، في المعرفة الصحيحة من الاحتكاك بالناس.

كان محمد جواد مغنية فقيهاً عالماً واسع الأفق. كنت إذا حادثته لم يستقر في خيالك أنه فقيه فحسب، بل أدركت أنه فقيه ثم هو مشارك في عدد من وجوه المعرفة الإنسانية أيضاً. تلك خاصة نحتاج إليها اليوم في كثيرين من علمائنا المسلمين.

كان محمد جواد مغنية يُدخل في بحوثه الفقهية مقادير ضرورية من الفلسفة والمنطق ومن علم النفس ومن واقع المجتمع الإنساني. وبما أن المبادىء

النظرية لا تستقرّ في الأذهان بسهولة، فإني سأضرب على ما تقدم مثلاً قائماً على صلتي الشخصية به.

أنا من الذين يعتقدون بأن المذاهب في الإسلام أبواب اجتهاد. وكان هو أيضاً يعتقد مثل ذلك. وكنا نتفاوض مثل هذا الأمر. ففي عام ١٩٥١ م أصدرت كتابي «الأسرة في الشرع الإسلامي» وجعلت له مقدمة عالجت فيها المذاهب الإسلامية ـ عند السنة وعند غير السنة ـ معالجة واحدة، ثم تخيّرت آراء من هذه المذاهب كلها سلكتها في نظام واحد. هذا التلفيق في المذاهب مقبول في الفقه الإسلامي.

وفي عام ١٩٦٠ م أصدر محمد جواد مغنية الطبعة الأولى من كتابه «الفقه على المذاهب الخمسة»: المذهب الجعفري الشيعي والمذاهب الأربعة السنية أو ـ إذا شئت ـ المذاهب الأربعة السنية والمذهب الجعفري الشيعي.

كان لهذه الخطوة الجريئة من محمد جواد مغنية أربع نتائج حاسمة:

النتيجة الأولى: أن عمله هذا قد أبطل رأي نفر في الطائفتين كانوا يظنون أن السنة والشيعة فرقتان، مما كنا نرى من أعمال نفر من الناس.

النتيجة الثانية: أن محمد جواد مغنية كان فقيهاً، فعمله ذلك كان حجة في المذهب، تلك الحجة التي عمل بها مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة فجعل المذاهب الخمسة على مستوى واحد في الفقه الإسلامي من الناحية العلمية الرسمية على الأقل.

النتيجة الثالثة: أن هذا العمل من محمد جواد مغنية يعد تجديداً في الفقه الإسلامي عند النظر إلى المجتمع وحاجاته، ذلك لأن المذاهب إذا تقاربت برز منها ما كان عليه إجماع أو شبه إجماع ثم غاب منها ما كان نادر الوقوع.

النتيجة الرابعة: أن عمل محمد جواد مغنية يساعد على إخراج المسلمين، في لبنان على الأقل، من نطاق الاستغلال السياسي.

في لبنان جماعات يصرخون ـ مخلصين أو غير مخلصين ـ بإلغاء الطائفية في لبنان على مستوى اللبنانيين جميعاً. فمن العقل ومن الأمانة في الدعوة أيضاً أن تُلغى الطائفية في الجماعات المتناظرة قبل أن تلغى على مستوى الشعب كله.

ذلك كان مثلاً من أُصول الفقه خطا فيه محمد جواد مغنية خطوة جريئة، ولابد من مثل مأخوذ من فروع الفقه على هذا الأساس نفسه.

لعل نفراً من الناس كانوا يظنون ـ إذا هم وقفوا يفاوضون محمد جواد مغنية في أمر من الأمور ـ أن الرجل كان صاحب تفكير حر، أو تفكير يساري، جرياً على التهمة والدعوى الزائفتين والشائعتين بالأمس واليوم. إن الرجل كان مفكراً عاقلاً، أي محيطاً بأطراف الحديث الذي كان يتناوله. أورد في كتابه «الإسلام بنظرة عصرية» هذه الفقرة (ص ٩١):

«قال (علي بن أبي طالب) في نهج البلاغة عن النبي(ص): صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»[1] ثم إنه علق على ذلك قائلاً: «نفهم من هذه الأقوال ونظائرها أن كل ما يحقق مصلحة الجماعة أو مصلحة الفرد، في حدود حلال الله وحرامه، فهو خير».

لاشك في أن هذا القول لا يعني أن إصلاح ذات البين، أي التوفيق بين المختلفين من رجال الأمة، يقوم مقام الصلاة والصيام. ولكن هذا القول يعني أن قيام فرد قادر على إصلاح ذات البين بهذا العمل الجليل في الجماعات من الأمة

---

١ ـ [شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ج ١٧ / ص ٥ من وصية الإمام علي عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم ـ لعنه الله ـ، برقم ٤٧، تم تصحيح النص وفقاً للمصدر].

أفضل من صلاة ذلك الفرد وصيامه إذا كان هو مستطيعاً أن يصلح ذات البين في أمته ثم لم يفعل.

وبعد أن نظر محمد جواد مغنية إلى فروع الفقه أيضاً من خلال العقل عاد فنظر إليها من خلال المجتمع الإنساني ثم دافع في أثناء ذلك عن الإسلام دفاعاً منطقياً عاقلاً لا دفاعاً منطقياً شكلياً أو عُرفياً.

لقد وجد أن الأوروبيين ما زالوا يتحاملون على الإسلام ـ منذ ظهور الإسلام ـ لأن الإسلام أباح تعدد الزوجات في نطاق قيود معينة معروفة في الشرع، لقد كان ردُّه على أولئك المتحاملين مستنداً إلى العقل ثم إلى واقع المجتمع ومصلحة المجتمع.

يستغرب محمد جواد مغنية أن يشتد قوم في الهجوم على الإسلام لأن الإسلام أباح تعدد الزوجات لضرورة وفي نطاق الشرع والقانون، بينما هم يجيزون تعدد الزوجات وتعدد الأزواج أيضاً بلا قيد ولا شرط، حتى بلغت نسبة الأولاد غير الشرعيين في بناما مثلاً خمسة وسبعين في المائة من مجموع أولادها (ص ٥٣، ٥٥)، «الإسلام بنظرة عصرية». ولا أرى حاجة بي هنا إلى إيراد الإحصاء الذي أورده محمد جواد مغنية لنوادي تزاوج الذكور في أوروبا وأميركا وقد فازت مدينة لندن وحدها بنحو ثمانية عشر ألفاً من تلك النوادي.

كان محمد جواد مغنية فقيهاً مجدداً وعالماً مصلحاً، ولقد كان من حسن حظه أن رأى، في أثناء حياته طرفاً من الإصلاح الذي دعا إليه يتحقق حينما أقرّ مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة أن يجعل المذاهب الخمسة على مستوى واحد في الفقه. إن هذا القرار لا يزال إلى اليوم في نطاق العلم. ولكن المقتنعين بهذا القرار العلمي يكثُرون يوماً بعد يوم، وسنرى ـ في المستقبل القريب، إن شاء الله ـ أثر هذا القرار ظاهراً في المجتمع الإسلامي كله.

عالم من كبار علماء الإسلام

سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين
نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلىٰ في لبنان

في ذكرىٰ عالم جليل من كبار علماء الإسلام في العصر الحديث، نتذكر جهود علماء الإسلام منذ الصحابة الأكرمين في عهد رسول الله ﷺ إلىٰ يومنا هذا في تمثيلهم لروح الإسلام، وفي جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله التي تضمنها وحيه، كلمة الله التي تهب كرامة الإنسان وحريته، وتكامله روحاً وجسداً، مادة ومعنىً، دنيا وآخرة.

من يقرأ تاريخ علماء الإسلام، الفقهاء الصالحين، يجد أنهم كانوا دائماً في طليعة حركات التحرر السياسي علىٰ الصُعُد الوطنية الخاصة أو علىٰ الصعيد الإسلامي العام.

في المسألة الاجتماعية، في مسألة التميز الإقتصادي والطبقي، كان علماء الإسلام ليس بكتابتهم فقط وإنما بكفاحهم اليومي والتزامهم الدائب والثابت، كانوا رواداً في التصدي لظلم الأشخاص والجماعات والأنظمة.

في مسألة التقدم لم يكن دور علماء الإسلام معدوماً، كانوا يرون إلىٰ التقدم كما رسم الله سبحانه وفقاً لمنهاجه وسبيله، ومن هنا شُوِّه موقفهم في هذه المسألة لأنهم واجهوا الروح العلمانية التي تريد أن تفرض علىٰ الناس تقدماً مادياً خالياً

من الأخلاق والإيمان، خالياً من الروحانيات، يعني خالياً من التكامل والتعادل.

إن فقيدنا الجليل والعلامة المجتهد، والمفكر الكبير الشيخ محمد جواد مغنية من أبرز علماء لبنان. كما أنه من أبرز علماء الإسلام الذين سطع نجمهم في هذا العصر وأبدعوا في شتى الميادين الإسلامية والإجتماعية والوطنية .. في حياته الشخصية وعمله اليومي .. وفي كتاباته المتنوعة الكثيرة التي كادت تستوعب جميع جوانب الفكر الإسلامي، فقهاً وسنة وتاريخاً وتفسيراً وما إلى ذلك. كان إنتاجه كثيراً لأنه في سنيّ حياته الأخيرة تفرّغ كلياً للعمل الفكري المحض، وكان إنتاجه مميزاً، تميز بأمور جعلته أكثر نفعاً وأكثر عائدة على الناس.

لقد توجه بقلمه إلى كل الناس، إلى الإنسان العادي، لأنه شعر أن هذا الإنسان العادي يجب أن ينال حظه الأدبي من تعاليم وميادين الإسلام. هذا إلى جانب كتبه المتخصصة في العلم والفقه وقد آتى الله فقيدنا موهبة التبسيط، فكان يقدم أصعب المسائل الفكرية المعقدة بلغة سهلة ميسورة فيفهمها المثقفين والقراء العاديين، ومن هنا فقد كان فضله الكبير رحمه الله عميماً وشاملاً على جمهور كبير من البشر، ولعله من أكثر علمائنا قراء.

توجه بإنتاجه وأفكاره بصورة خاصة إلى جيل الشبان في المدارس والجامعات والحياة العامة، فكان يطرح في كتبه المشاكل والمسائل التي تؤرقهم وتثير قلقهم كمسائل العلم والإيمان، ومسائل الحضارة والدين، ومشاكل الحياة المادية والعصرية، كان يتوجه إلى هؤلاء الشباب الذين سيرثون الأرض وما عليها ليعدّ منهم جيلاً مؤمناً واعياً منفتحاً وفعالاً.

يُفهم في كثير من الأوساط فقيدنا الجليل على أنه فقيه مجدد، أو على أنه إنسان عصري جعل الإسلام عصرياً أو جدد الإسلام أو ما يشبه هذا. الحقيقة أن فقيدنا الجليل كان فقيهاً بارعاً ومتعمقاً، ولكن ليس بالمعنى الذي يفهمه ويريده

البعض، أي أن الشيخ مغنية يحوّل الإسلام إلىٰ مجرد مرحلة، أو أن يجعل الإسلام يتكيّف مع أي عقيدة أو نظرية غير إسلامية.

كلا لم يكن الشيخ محمد جواد مغنية مجدداً حسب هذا المعنىٰ وهذا المفهوم، لأن الشيخ محمد جواد مغنية كان مسلماً مخلصاً لإسلامه. تجديد الشيخ محمد جواد مغنية هو أنه فهم أن الحياة تتغير وأن المتغيرات التي هي سمة الحياة في هذا العصر منها ما يقبله الإسلام ومنها ما يرفضه الإسلام، فكان فقيدنا الجليل يقبل أيضاً من التغير ما يقبله الإسلام ويرفض بشدة ما يرفضه الإسلام. وكتبه حافلة بالنصوص الصريحة التي يرفض فيها من هذه الحياة التي تنتشر بيننا كل ما يتناقض أو يتضاد أو يخالف شرع الله سبحانه وتعالىٰ وسنة نبيه ﷺ وفقه أهل بيته عليهم السلام.

تجددية الشيخ محمد جواد مغنية في أنه كيّف الفكر الإسلامي بمقتضىٰ النظريات العصرية ... بمنطق الإسلام هذا مرفوض، وكان من أشد المعارضين وأصلب الرافضين له الشيخ محمد جواد مغنية نفسه.

كتبه التي تتطرق تقريباً إلىٰ جميع الحقول، هي بمثابة غذاء للجمهرة الكبرىٰ من القراء وخاصة الشبان منهم في العالم العربي والإسلامي، تُرجم كثير من مؤلفاته إلىٰ لغات أخرىٰ غير العربية، فكانت مثار إعجاب قرّائها غير العرب، لأنه عبّر عن الإسلام بجميع وجوهه ببساطة وأصالة وصدق، كما كانت حياته بسيطة وأصيلة وصادقة.

نجتمع اليوم لنؤبن عالماً كبيراً من علماء الإسلام في هذا العصر، فنتذكر أنه توفي وفي قلبه غصة الجنوب، الجنوب الذي من أعماقه نبت الشيخ محمد جواد مغنية، من بيت آل مغنية أعرق بيوت العلم الإسلامي في لبنان، ولقد حفل تاريخ جبل عامل بأسماء مشعّة وجليلة من علماء هذا البيت.

كان هاجس الشيخ محمد جواد مغنية في سني الفتنة هذه التي تجرر فينا ونجرر فيها، كان هاجسه الوحدة الوطنية، والوحدة الإسلامية، والجنوب. في الوحدة الوطنية لم يكن إنساناً تعصبياً أبداً، كان يعرف ويعتنق ويعمل بالإسلام المنفتح، ويجد في التنوعات بين البشر ما هو خير لهم إذا اتبعوا هدىٰ الله ورضوانه.

أما فيما يتعلق بالوحدة الإسلامية فإن جميع مؤلفاته تدور حول هذه الوحدة وهو من أشد الداعين إليها، ولقد اقترنت دعواه بالمشاركة الفعالة في مشروع موسوعة الفقه الإسلامي التي كانت تصدر من القاهرة ـ والتي توقف العمل فيها مع الأسف ـ في هذه الموسوعة كانت نظرته إلىٰ الإسلام علىٰ أنه دين واحد فيه تنوعات المذاهب، وأنه يجب علىٰ هذه المذاهب أن تنفتح بعضها علىٰ بعض بالدليل والبرهان المنطقي والشرعي، فتلتقي علىٰ الحق، وتلتقي علىٰ الصدق، وعلىٰ كلمة وشرع الله قدر الإمكان.

الجنوب كان يؤرق الشيخ مغنية، ولا يزال يؤرقنا جميعاً، والخطر عليه من إسرائيل ومن أعوانها في الداخل والخارج خطر حقيقي، نأمل ونطالب باستمرار أن يعيه جميع إخواننا الفلسطينيون وإخواننا في الحركة الوطنية. أن يعوا أن مسألة الجنوب ليست مسألة مجرد جماعة من الناس، إنها مسألة لبنان كله ومسألة العالم العربي بأسره، إن أيّ تدهور في وضع الجنوب الذي وصل أمره وأمر الناس فيه إلىٰ النهايات ضياع الجنوب بل فيه ضياع الوطن بأجمعه، وبعد أن تحدث الكارثة لا قدّر الله، سيوجد بالتأكيد حينئذ شعراء يرثون وكتاب يأسفون. ولكن ستكون قد حصلت في يد إسرائيل رهينة جديدة إلىٰ جانب القدس والجولان، وتكون قد حصلت للأمة العربية نكبة جديدة، ونكون قد دخلنا في متاهات لا يعلم إلاّ الله متىٰ تنقضي.

لابد أن تدخل الدولة إلى الجنوب، ولابد أن تُزال المعوقات من أمام الدولة في دخولها إلى الجنوب جيش وإدارة. وعلى الدولة أيضاً التي يثير أعمق شبهاتنا الآن وأعمق شكوكنا توجهها الجدّي بالنسبة إلى هذه المسألة، على الدولة أن تبرهن أنها جادّة في دخولها إلى أرض الجنوب وإلاّ سيضيع الجنوب وبالتالي لبنان بأكمله.

نجتمع اليوم لنتذكر علمائنا الأبرار في جميع العصور وفي جميع الأوطان، ولنتذكر عالمنا الكبير وفقيدنا الغالي الشيخ محمد جواد مغنية، وإني أتوجه بالشكر والامتنان العميق إلى جميع الأخوة الذين شاركوا وساهموا في هذا الاحتفال المهيب. وإني أسأل الله تعالى أن يتغمد فقيدنا الجليل برحمته ورضوانه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المحتويات

الفصل الثاني

النجف الأشرف

الفصل الثالث

ثمن الحق

الفصل الرابع

مع الكتاب والقلم

الفصل الخامس

من وحي الإسلام

الفصل السادس

دفاعاً عن الشيعة

الفصل السابع

دعاة الدين

الفصل الثامن

خواطر وأفكار

الفصل التاسع

رحلات

الفصل العاشر

محنة العرب والمسلمين

الفصل الحادي عشر

الصراع في لبنان

الفصل الثاني عشر

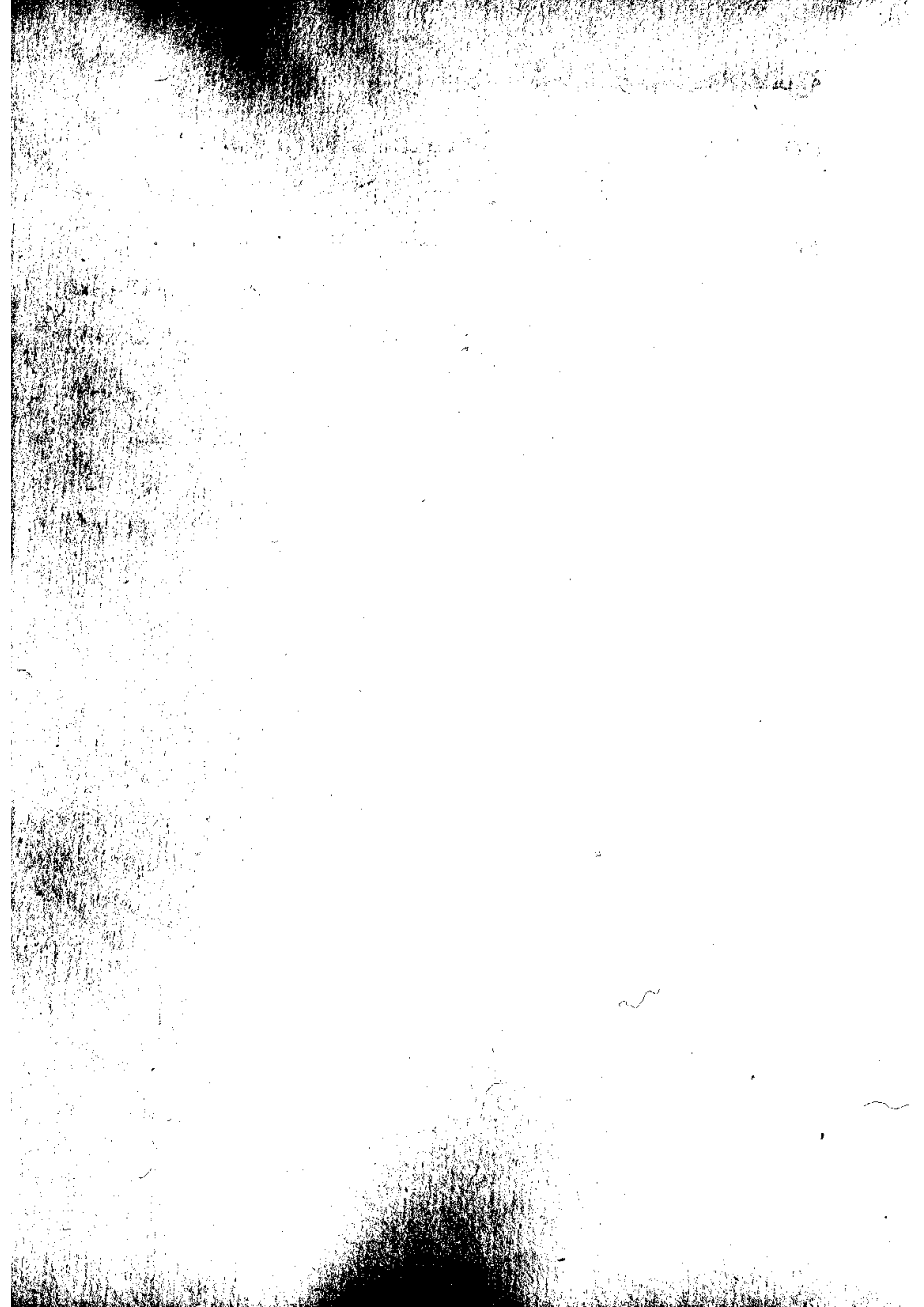
والدي كما عرفته

الفصل الثالث عشر

الشيخ محمد جواد مغنية في يومه الأخير

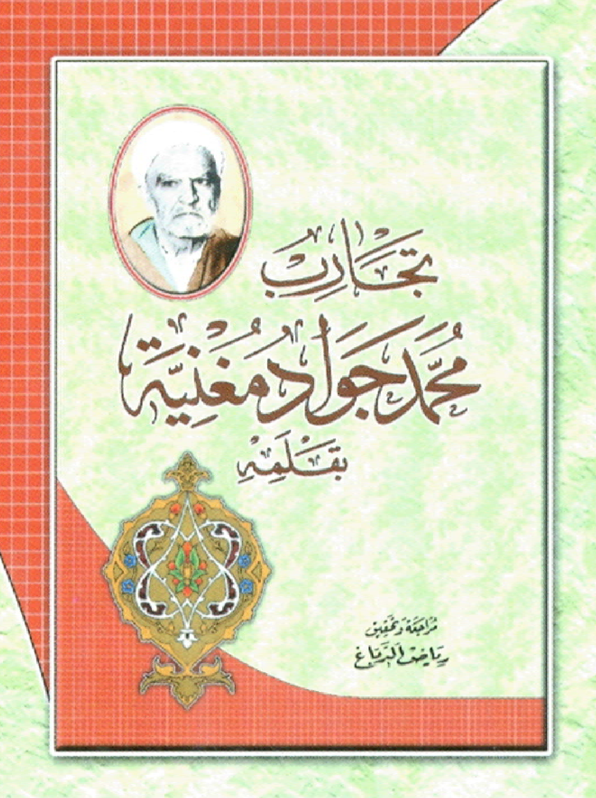
الفصل الرابع عشر

الشيخ محمد جواد مغنية بأقلام الآخرين



تصوير الكتاب

حسين الخزاعي



وأغلىٰ أمنية علىٰ قلبي أن يفاجئني الأجل، وأنا أكتب داعياً إلىٰ الله والحق والعدل .. بل أسمىٰ الرغائب لدي أن أدخل الجنة لأقرأ فيها وأكتب خالي البال، متحرراً من الأشغال، وهموم العيال .. وكم مرّ بخيالي هذا السؤال ـ جاء السجع من غير قصد ـ : إذا أنعم الله عليّ بالجنة فهل أكون فيها بطّالاً؟ وهل يتسنىٰ لي أن أقرأ فيها وأكتب؟ وأجيب نفسي: أجل، إن فيها ما تلذ الأعين، وتشتهيه الأنفس، حتىٰ ولو اشتهت القراءة والكتابة .. ويعود السؤال، ولكن بصيغة ثانية: ولمن أكتب؟ وأهل الجنة كلهم علىٰ غاية الكمال ..





ISBN : 964 - 6223 - 98 - 2

